

من كتابات

الغول الأحم
الأحمير

الطبعة

2

اكتب

محمد الدواخلي

• جروب «ربيع الكتب»

fb.com/groups/exchange.book

شُكر وإهداء

إلى أساتذتي في الحياة: والدي ووالدتي وشيخني السعداوي.
إلى أستاذي في الأدب، راعي الكتاب الشباب، الناقد الكبير
د/سيد البحرأوي
إلى قرآني الأوائل، الذين يصبرون على خربشاتني في صورتها
الأولى، أخوتي: خالد ومنى وإيمان ووجدان وأميمة
إلى الأعماء، أول من وجهوا نقدا مفيدا لهذا العمل: محمد عبد
القهار، أحمد رشاد، وأصحاب الأسماء المستعارة الناقل المحبطني
وشكولاتة
إلى رفاق الدرب: محمد عيد، وعبد العزيز أبو الميراث، وأحمد
خشبة
وطبقا لوعد قديم، ففصل حكاية الأميرة سارة مهدى إهداء
خاصا لشقيقتي منى.

• جروب «ربيع الكتب»

fb.com/groups/exchange.book

"لا، الوادي كان على الجانب الآخر من الطريق، فقد زرناه قبل يومين."

وأضاف الدليل،

"وأيا كان مكاننا فالبوصلة ستعمل."

ولأول مرة تكلم السائق الأسمر قائلا:

"حسنا، على الأرجح نحن في وادي الموت، فالموجود على الجانب الآخر من الطريق جزء صغير مهزول منه، يستخدم لزيارات السياح، أما باقي الوادي فمساحته هائلة، وهو خطير لأن من المستحيل أن يعرف الأدلاء دروبه، لأنها تتغير دوها بسبب حركة الكثبان الرملية."

قال الدليل:

"أعرف هذا؛ ولكن البوصلة... أعني إننا نمشي على هداها. سنمشي شرقا، وسنصل حتما لطريق العاصمة الرئيسي."

هذا قلت:

"لكني سمعت إن تربة هذا الوادي غنية بأكسيد الحديد المغناطيسي، مما يؤثر على البوصلات."

ساد الصمت الثقيل لفترة، ثم نظر الدليل إلى السماء، وأخذ يتأملها ردحا من الزمن، فسألته (لهياء) في تحفز:

"ماذا تفعل بتأمل جمال النجوم الآن؟"

قال:

"أبحث عن النجم القطبي... أهه... هل هو ذلك؟ أه لا... نعم ها هي المفرفة و... حسنا يا رفاق هذا هو الشمال، فعلا البوصلة معطلة أو متأثرة بهذا الحديد المغناطيسي الذي تكلم عنه الأخ."

نظرت لهياء له نظرة نارية، ثم رفعت رأسها إلى السماء، وهتفت بأعلى صوتها:

"اللهم انجدنا من أدلاء آخر زمن!"

شعرت أن الموقف سينفجر مرة أخرى، فحاولت تلطيف الجو قائلا:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

" على أي حال، لقد عرفنا الآن خطانا، ونستطيع الانطلاق من الفد إلى الطريق الصحيح، وغدا سيكون كل هذا ذكرى مضحكة."

أضاف الدليل:

"كل ما علينا هو أن نجعل النجم القطبي على يميننا، وسنصل إلى طريق العاصمة الرئيسي خلال يوم على الأكثر."

لم تحتمل لمياء أكثر من هذا، فانفجرت فيه:

"على يسارنا أيها الأحمق! لكي تتجه شرقا، نجعل الشمال على يسارنا! أم إنك تريد أن تقودنا لقلب الصحراء، لنهلك جوعا وعطشا."

واخذت ترغي وتزبد في شراسة الأم التي تخاف على أطفالها، واكتفيت أنا بمراقبة التهامها للدليل قليل الخبرة، الذي لم يعرف المنطقة أكثر منا إلا بشهر واحد، إلى أن لمشفق عليه أحدنا، واستغل لحظة توقفت فيها لمياء لالتقاط الأنفاس، وقال: "يجب أن نطلق الآن ونحن نرى النجم القطبي. لتتحرك ليلا، ونرتاح نهارا."

فذهبت لمياء لإيقاظ أطفالها، الذين لم يدخروا جهدا في الاحتجاج، وتذمروا بإخلاص شديد، إلى أن أقنعتهم أمهم بالطريقة التقليدية.

وبينما كانوا يمسحون دموع الاقتناع، أراد الدليل إهالهم عن الألم الذي أوقعهم - وأوقعنا - فيه، فقال للصفار:

"أدرون يا أطفال ما اسم هذا المكان؟"

رد الشقي الأكبر بجفاء:

"اسم يبعث على الاطمئنان! وادي الموت، أو وادي القائد الأسود كما سمعت من شجاركم؟"

بدا الخوف على وجه الأصفرين، الذين لم يمتلكا شقاوة أخيهما الأكبر، فأكمل الدليل:

"نعم، لكن هل تعرفون أن وراء هذا الاسم قصة؟"

لم يجد منهم ردا فأكمل:

"يا مكالي إن أحكيها لكم؛ لكن لا أدري أأنتم شجعان بما يكفي، أم لا؟"

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

الحيلة القديمة! تريد أن تجعل الطفل يفعل أي شيء، فما عليك إلا أن تسأله إن كان شجاعاً أو كبيراً بما يكفي؟

وبالطبع رد الشقي الأكبر:

"نحن أشجع منك، لسنا صفاراً لتخيفنا قصة."

تردد في ذهني صوت يدعوني لإخراص الدليل، لم أكن أذكر الأسطورة تماماً، ولكنها كانت تتحدث عن موت قائد كبير، وأشباج، وأشياء من هذا القبيل. لكنني افترضت بحسن نية- أنه سيحدثهم عن القصة التاريخية، التي قرأتها في الكتب، فالتزمت الصمت.

وهنا - للمرة المائة - أثبت حماقته! مهما كانت شجاعة الطفل، فإن الأمر لا يصل إلى إمكان أن تخبره بوجود شبح في الصحراء، يبحث عن التلهين فيها، بزعم إنقاذهم، قبل أن يقتلهم!

قصة غير مناسبة بتاتا لأطفال تائهين في الصحراء! دعك من أنهم افترضوا، تلقائياً، أن هذا الدليل الأحق، الذي كلما حاول إنقاذنا، زاد الموقف سوءاً، هو القائد الأسود. واعدتهم في ذلك، فادلتهم قوية لا تناقش. فالشبح موجود، لأن الكبار يسمون الوادي على اسمه، ونحن كنا بأمان في السيارة، حتى قرر هذا الدليل (إنقاذنا) بالمدى في الصحراء نحو طريق العاصمة الرئيسي.

على أي حال، كان يجب أن تدخل. قبل أن يضيع الدليل المسكين جريرة حماقته، ولأنقاذ لمياء من السجن المؤبد بتهمة القتل، فأسرعت أقول للأطفال:

"هذه مجرد قصة يخيفون بها الأطفال هنا، حتى لا يلعبوا في تلك الصحراء الخطيرة، ولكن الاسم سببه - كما هو مذكور في الكتب - إنه قد جرت هنا معركة هائلة، بين قائد محلي من أقصى شرق البلاد، عرف باسم القائد الأسود لأنه كان ينتمي لقبائل بني الأسود في الشرق، وليس لأنه كان ساحراً شريراً يمارس السحر الأسود، كما يزعم هذا الدليل الطيب."

قال الدليل،

"أنا لم....."

فأطعته مكملًا،

جروب "ربيع الكتب" .

fb.com/groups/exchange.book

"حارب هذا القائد غزاة كانوا اتين من الغرب، وقاتلهم قتالا مريرا دفاعا عن البلاد، لكنه هزم بعد أن قتل من الطرفين أعدادا مهولة، فسمي هذا الوادي باسم وادي الموت تخليدا للقتلى الكثر. قبل هذا، كان يسمى لخطورته وادي الضياع. أما القائد الأسود، فلم يحتمل الهزيمة، فبقى حيننا متحصنا مع بعض رجاله في الوادي، حتى هلكوا جميعا، لكنه ظل يحكم الوادي لفترة، فسمي باسمه وادي القائد الأسود."

قالت الصغيرة:

"يا له من بطل دافع عن بلاده حتى النهاية."

وجدتها فرصة للحديث عن الشجاعة والانتصار للوطن، فبدأت أخاطب الأطفال بالبطولات، التي يبذلها المجاهدين في سبيل حرية بلادهم.

وهنا سأل الشقي الكبير:

"وماذا فعل الغزاة بعد انتصارهم؟"

لم أكن أعلم الجواب، فقلت مخمنا:

"طبعا حكموا البلاد إلى أن أتى الثوار وأخرجوهم."

هنا تكلم أخيرا السائق الأسمر، وهو الوحيد بيننا الذي ينتمي لأهل المنطقة، فقال:

"حسنا، أنا أذكر القصة التي حكاها لي جدي عن جده عن جده عن جدنا الأكبر، ويحكىها الجدود في بلدنا لأحفادهم عن الغول الأحمر، والقائد الأسود....."

قاطعته لمياء:

"مالنا ومال الغيلان والأشباح. نحن نتحدث عن البطولة والفداء يا أسطى."

أكمل السائق:

"وأنا أتحدث عن أسمى معاني البطولة والفداء. لكن القائد الأسود لم يكن بطلا، بل كان أسود الفعل والاسم. لكن -كعادة التاريخ- هو من بقى أثره في الكتب، أما البطل الحقيقي، الذي قام برحلة تفوق الخيال من أجل بلاده، مكافحا ضد أسوأ عدو يتلى به الإنسان.. ضد اليأس، وضد كلمة لا فالدة،

جروب "ربيع الكتب" .

وكلمة لا تحاول غيرك كان أخطر.. كلمات قاتلة كان يواجهها بها كل من يقابله ويفترض فيه المعاونة، لكنه أصر على بذل كل ما يمكنه في سبيل ما يراه واجبا عليه.

سأله الصغير:

"من هو هذا الرجل وما حكايته؟"

قال السائق:

"اسمه (عبد الشهيد). وهو ابن (سهمان) الصياد، وله قصة عجيبة سأحكيها لكم، كما سمعتها عن جدي، وكما سمعها جدي الأكبر من (عبد الشهيد) نفسه.

(2)

حكاية عبد الشهيد بن سمعان وشيوخ بلدنه غراب

قال الراوي:

" كنت احرث الأرض استعداداً لبذر القمح، أهم محصول طوال العام، فهو الذي نقات منه أيام الحصار: ولكني كنت متأخراً عن البقية، لأنني لا أجد من يعاونني في القرية. بينما خبرتي القليلة لا تسعفني في زراعة تلك الرقعة التي ورثتها عن والدي (سمعان الصياد). ولذا، بقيت وحدي وسط الخلاء، لا يحوطني بشر، إلا من عابر سبيل، يظهر مبتعداً على مرمى البصر.

ولذا كانت دهشتي كبيرة، حينما رأيت (محمد بن)، جاري، والشخص الوحيد الذي يبادلني كلمات مقتضبة في البلدة، لأنه يرى ثم مقاطعة الجار أشد من عيب محادثتي.

وازدادت دهشتي، حينما أدركت أنه يقصدني، فيتجه نحوي مسرعاً، إذ لم يحدث أبداً أن بادرنى بالحديث. وقد أبقيت له تلك العادة، إذ غلبني فضولي، فهتفت:

"كيف حالك يا أبا عبد الرحمن؟ ما الأمر؟"

قال:

"شيخ البلد يريدك."

قلت متعجباً:

وماذا يريد مني الشيخ غلاب؟

هز كتفيه وقال:

علمي كعلمك!

مضيت معه مندهشنا. فخلال ثلاث سنوات قضيتها هنا. لم يدعني أبدا الشيخ غلاب لبيته. الذي لم أدخله سوى مرة واحدة. حينما جئت للقريّة مطالباً بميراثي من أبي. حتى حينما يدعو شيخ البلد كل الشباب للقتال ضد اللصوص والهجامة وجماعات المماليك المارقة. لا أعرف بالأمر إلا صدفة. ولهذا فاتتني أكثر من معركة كنت في أشد الحاجة للمشاركة فيها. لإثبات شجاعتي ومروءتي وولائي لأهل قريتي.

ويبدو أن فضول أبي عبد الرحمن كان أشد. فسألني:

أتعرف شخصا يدعى (نوري)؟ ربما كان من الأعيان

قلت:

لا. والاسم لا يبدو مالوفا. ولعله ليس من بلادنا.

قال:

أتى شخصي يرتدي ملابس غالية. ويركب حصانا لم أر له مثيلا. فحدث شيخ البلد كما لو كان يعرفه. وهمس له قليلا. ثم اندفع للشرق مسرعا وبعد قليل. أرسل الشيخ رسولا إلى نائب القاضي. في زمام الشيخ عصفور. وأخ عليه في الإسراع. ثم بعد قليل أرسلني لك.

أردت اجتذابه لثروة تذيب بعضا من جليد القلوب. فسألته:

نائب القاضي؟ أليس هذا لقب زعيم خدام الضريح؟

قال:

نعم. هو بعينه. أظنه الآن شابا اسمه (الحسيني). وهو ابن شقيق سلفه

(سعيد)؟

قلت:

جروب " ربيع الكتب "

fb.com/groups/exchange.book

"لم يسمي نفسه بنائب القاضي؟ ليس في قرى الزمام أو خارجها قضاة. إنني لم أر قاضيا إلا في حضرة البلاد. بعيدا عن هنا مسيرة أسابيع."

قال:

"لأنه يقضي بين أهل الزمام وما حوله من القرى. إلى جانب قيادته لخدم الضريح."

قلت:

"إذن فلم لم يسم نفسه بالقاضي؟"

قال مبتسما:

"لم تترب بيننا لتعرف! لقد حُجِل سلفه أن يسمي نفسه قاضيا في حضرة ضريح الشيخ عصفور. وكره أن يسمي نفسه أميرا، أو قائدا للجند. حتى لا يشبه أولئك الأجلاف."

قلت:

"أظن أن ضريح الشيخ عصفور بعيد عن هنا. جهة الجنوب؟"

قال:

"ألم تذهب لتبرك بالمقام من قبل؟ إنه سيرا يستغرق يومين للجنوب."

قلت: "لعلك تذهب معي لنقرأ له الفاتحة قريبا؟"

لم أترك له عفرا. هكنا أورطه في صداقتي رويدا، رويدا.. فمن ذا الذي يرفض أن يدل شخصا على مقام الولي الصالح، الشيخ عصفور، أو يفكر في صده عن قراءة الفاتحة له؟

كنت قد سمعت الكثير عن هذا الشيخ، الذي كان آخر قاض عاش في الإقليم الغربي من المملكة، وكان حازما حاسما، غزير العلم، محبا للعدل، مجاهدا للظلم. وقد ساعد الكثيرين في أيام الفتن السوداء، دون أن يرهب أميرا جالرا، أو غنيا فاجرا، أو مملوكا باطشا. واليوم، بعد مرور العقود على وفاته، مازال ضريحه ملجأ للمظلومين، ومقرا لجماعة الجند التي أسسها لإقرار العدل، تتوارث مهمتها المقدسة داخل الزمام. لتجعل منه واحة شاذة من الأمان، وسط صحراء الخوف. أمان يجعلني أغفر كل ما أرفضه من مظاهر التقديس.

جروب "ربيع الكتب"

واختراع الكرامات، وأعمال الجهالة، التي تفرض للمخلوق معجزات لا تجوز لغير الخالق. كل هذا تربيت على نبذه في كتاب شيخي بالزرقاء، حيث نشأت؛ لكن تشبث الناس هنا بقشة كرامات الشيخ، لتحميمهم من طوفان الفتن حولهم، لأمر جدير بالاحترام، بل الاستغلال.

عاد فضوله يلح:

"أما تدري لماذا يريدك الشيخ غلاب؟"

قلت،

"هذه أول مرة يطلبني فيها منذ عودتي إلى هنا. لكن حدثني عن هذا النوري كيف كان؟"

قال:

"كان يرتدي زيا مزركشا نفيسا، ذا لون أبيض مخلوط بصفار ذهبي، وغطاء رأس عجيب. لا هو ذو زر فأقول طربوش، ولا ملفوف فأقول عمامة، وحتما ليس بطاقيّة."

سألته:

"قل لي أكان يرتدي حذاء؟"

قال،

"كان قبقابا بسيطا على ما أذكر، فقد كان (يطرّقع) على بلاط مسطبة الشيخ غلاب."

ابتسمت في فهم، وقلت:

"أكان يمسك سوطا، أو كان معه سلاح أو رفاق؟"

هز رأسه لفيًا:

"لا هذا ولا ذلك!."

"كيف كان جواده؟"

رد:

"والعا فتانا. لم أر في حياتي له مثيلا في رشاقته وخفته."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

قلت "حسنا، هذا على الأرجح احد الخدم في قصور الأثرياء، علم بأمر خطير،
فاختلس حصان سيده، ليسرع لأقرب قرية، ثم عاد مسرعا."

بدا القلق على وجه (محمد بن)، إذ أن النبا الخطير القادم من الأغنياء لن يكون
خيرا أبدا، فقال في شراسة:

"وما أدراك أنت؟"

قلت:

"هذا الحصان الثمين لم يملكه إلا ثري، والثري لن يمضي وحيدا، ولن يترك
حصانه لخدم. وهذا (النوري) يرتدي ملابس كملايس الخدم والمماليك الذين
يعملون داخل قصور الأثرياء. عادة ما يلبسونهم أبهى الأزياء أمام ضيوفهم،
ولا يهتمون لأحذيتهم. على أن المملوك لن يمضي دون سلاح أو كرباج."

أخذت أفكر، على الأرجح سمع (نوري) هذا أمرا خطيرا من سادته أثناء
استقباله لضيف هام، وربما كان يعرف شيخ البلد، أو لعنا كنا أقرب قرية،
فأراد إبلاغنا لنبلغ نائب القاضي بالأمر الجلل، الذي جعله يختلس حصان سيده.

اترعتني (محمد بن) من أفكاري بقوله:

"هل يرتدي الخدم في القصور مثل هذا؟"

قلت مبتسما لتعجبه:

"رايت في الزرقاء والحاضرة أشد من ذلك؟"

قال:

"تخيفني بحديثك، وتحدث عما لا تعلم. أتدرك ماذا يعني أن يضم الأثرياء لنا
الشر مرة أخرى؟"

كان هذا ما أفكر فيه، فرددت:

"يعني العودة لأيام اليمّة، ولعل شيخنا استعد لهذا اليوم، وأعد العدة بتجنيد
نوري هذا داخل قصورهم."

هنا لاح لنا منزل شيخ البلد الفسح. المجاور للمسجد حتى يسهل عليه صعود
المئذنة، ومراقبة ما حول القرية وقت الشدة. وكان بالفعل فوقها، ينظر نحونا

جروب "ربيع الكتب"

كالمتربص. فلما وصلنا لبابه، نزل وصرف أبا عبد الرحمن لحال سبيله، وأدخلني إلى حجرة مغلقة من المنزل، لأجد الطعام ينتظرنني.

جلست لأكل لقيمات قليلة وأنا متربص، فلم أكن جائعا، وإنما طامع في رباط المودة، الذي تفرضه المشاركة في الطعام على رؤوس الكرام.

كان وجه الشيخ متجهما، ولم أكن لأفهم سر طلبه لي. الاحتمال الوحيد إنه يريد سؤالي إن كنت ساكرا فعلة أبي. أو إنه يرغب في شراء أرضي، قبل أن أرحل، وإلا فلم يمسك بكيس نقوده في يده؟

ابتدرني بالحديث:

"لعلك تتساءل لم أريدك؟"

قلت:

"أنا في خدمتك دوما يا شيخ (غلاب)."

قال:

"أنت رجل شجاع، وهنذ جئت هنا وأنت تقاتل إلى جوارنا بكل شجاعة دفاعا عن القرية، لذا فعندي لك أمر مستحق للشجاعة."

لم أرد في البداية، التظرت منه التوضيح، ثم عدلت عن رأيي فقلت:

"أخبرني أبا عبد الرحمن عن هجاء رجل لك، كانت صفاته كما يوصف خدم الأثرياء؟"

قال: "هذا صحيح."

قلت: "لعله جاء ليخبرك بنبا سيء عاجل؟"

قال: "صحيح!"

لم يزد، فأكملت:

"إذا فالأغنياء سيحاولون مرة أخرى إحضار المرتزقة للاستيلاء على الأراضي والمزارع حولهم، وتحويل الفلاحين فيها إلى عبيد أرض. ولعلك تظن أنني سأفعل مثل أبي وأرحل؛ بينما القرية بحاجة لكل يد مقاتلة؟"

قال:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

"أنت مثل والدك! لا أعني فراره: بينما كنا نحتاجه. وزواجه من بلد بعيد: بينما أراملنا وأيتامنا لا يجدون من يتكفل بهم. لكنه كان ذكيا. يجيد معرفة الكثير. ويظن أنه يعرف الأكثر من أقل القليل."

قلت: "إذا فالأمر صحيح."

قال: "وماذا ستفعل؟"

قلت بحزم: "لن أرحل عن البلد مهما كان."

قال:

"ليت والدك كان مثلك! أنا أثق فيك، وأدرك أنك لن تهرب مثله قبل أن يعود لنا ولدك، الذي لم نره من قبل، ليطلب بعيرائه من الأرض، التي حميناها بدمائنا. وحافظنا عليها بعرقنا، فيأخذها جاهزة سائفة، دون دم أو عرق."

قلت مصرا متجاهلا نكاه للجراح القديمة:

"ساقاتل دفاعا عن أرضي وقريتي."

قال لي:

"سأتجاوز عن هذا الحديث. رغم أنني لا أنكر على من يقول إنك ولدت وتربيت بعيدا عنا. فيصعب أن نسميها قريتك. سادع الأفعال تثبت قولك.. ما كنت أقوله أن والدك كان يظن أنه يعرف الأكثر. مصدقا كل ظنونه؛ لكن بعضها لم يكن مصيبا."

قلت بتوجس: "لا أفهم يا سيدي؟"

قال:

"أنا لا أعرف حتى الآن ما الذي يدبره الأغنياء. كل ما في الأمر أن (نوري)، وهو خادم في قصر ابن العبدلي، الذي هو رجل واسع الثراء، لم نر منه من قبل خيرا أو شرا، ويعتزل عادة معارك الأمراء، فلا نعرف عنه الكثير، خاصة إنه يعيش منعزلا في قصره. الأشبه بالحصن على ربوة عالية منعزلة قرب الجبل. هذا الرجل - فجأة - أرسل رسله في طول البلاد وعرضها، يستدعي كل أمير، وقائد جند، وزعيم قبيلة. وحتى كبار العماليك والأثرياء. وأرسل بعض الخدم - ومنهم (نوري) - ليجمعوا كل زعيم ذي بطش، يدعوهم لضيفهم في

جروب "ربيع الكتب".

قصره. واخبرني (نوري) إنه لم يكتف بزعماء الغرب، بل احضر ضيوفا آخرين من الإقليم الشرقي.

تعجبت قائلا: " ولم كل هذا؟ "

قال:

" لا أعلم، هو يرسل رسائل مختومة، لا يعرف رسله ما تحمله. أما الخدم المائلون مثل (نوري)، فلم يقل لهم سوى إن يبحثوا عن كل صاحب جند يحسب حسابه " فاخبروه أنني ادعوه لقصري، لأضيفه، ومن يأتي معه، بسخاء في وليمة ليس لها مثيل، عقب صلاة الجمعة القادمة. "

قلت: " اي بعد غد؟ "

" نعم. لم يرسل هؤلاء إلا بالكاد على الموعد. أما كبار القادة، فأغلبهم بالفعل في قصره أو اقتربوا منه. "

قلت: " لكن لماذا؟ "

قال الشيخ غلاب:

" لم يعرف (نوري) شيئا. الرجل يحمل لي معروفا قديما، لم اطلب مقابله إلا ان يأتي باي اخبار مريية في قصور الأثرياء واحاديثهم. لذا الحرف عن طريقه واتاني. "

قلت بقلق:

" لكن هذا امر خطير جدا. لو اتحد اصحاب الجند جميعا مع الأثرياء، فلن يستطيع الفلاحون في أي قرية أو مدينة ان يقووا في وجههم. "

أكمل ما أفكر فيه بقوله:

" ولو بدأنا من الآن بالاستعداد، وعمل الأحلاف، وتحصين البيوت فسيضيع موسم الزراعة، لنمر بقحط شديد، وجوع أشد. "

- "وماذا نفعل إذا؟ "

- " لردت مشورة نائب القاضي، لكن حينها يأتي رسوله سيكون الوقت قد تأخر. لذا فكرت في إرسال شخص لهذا الجمع يتلصص عليه. "

اجبت بسرعة:

"لكني لا أصلح لهذا الأمر، فانا لا أعرف أهل البلد، ولا حتى الطرق والقرى."

قال:

"حسنًا الأمر خطير. لو اكتشفوا أمرك، فانت مقتول، لذا ستتكبر في شكل أمير، أتى لحضور الضيافة، فلن يعرفك أحد وسط الزحام."

سأله بشك، "ولماذا أنا بالذات؟"

قال:

"لكي نصل لمعلومة كبيرة، فلن نألها إلا من الكبار. والكبار لن يتحدثوا إلا لمن هو مثلهم، وعندني زي مزود بالدروع، استعرتة من صديق لي، يليق بأمر، لكنه لا يناسب إلا رجلا فارع الطول."

قلت مجادلا:

"يوجد في القرية سبعة آخرون من فارعي الطول. مثلا (عطية) وهو الأبرع في ركوب الخيل والمبارزة، و(حسن السماك) وهو حلو الحديث، واسع الدهاء، حاد السمع، يستطيع إخراج الأنباء من الأفواه المغلقة."

قال:

"(حسن) له زوجة وأولاد، و(عطية) يسعى على والدين عجوزين."

أكملت بحنق:

"و(إبراهيم) له أخوة يحزنون عليه، أما (عبد الشهيد ابن سمعان) فخسارته ليست جسيمة، ولا أهل له أو ولد، ولا حتى جيران يطيقونه!"

أدرك الرجل زلة لسانه، فصمت، ولم يرد، فقلت:

"أريد رمحا!"

نظر لي بدهشة وسأل: "ماذا؟"

قلت بالحاج:

أريد رمحا. أنا لست بارعا في المبارزة بالسيف، ولم أرث عن والدي مهارته في الرمي بالسهم، ولا أجيد إلا القتال بالرمح. وإذا كنت ذاهبا لألقي نفسي بين ذئاب لا ترحم، فليكن معي سلاح أجيد، وأنا أجيد الرمح."

تنهد في ارتياح، وقال:

"ليست مشكلة. ليس رمحا فحسب، بل أفضل رمح في البلدة كلها! هذا الذي اشتراه ابني من زمام الشيخ عصفور، وهو رمح ممتاز جدا، وقوي، ويصلح لرجل طويل مثلك."

قلت مكفلا:

"ولريد من يرعى أرضي في غيابي، وسادفع له الأجر. وإذا لم يكرمني الله بالعودة سالما، فإن وصيتي أن تذهب الأرض لوريثي الشرعي الوحيد، ابن عمتي (سعد الكلاف)، بدون جدال أو نزاع."

قال مندهشا:

"الست تكرهه كوالدك؟"

قلت:

"بلى. لكني لا أريد مقابلة ربي وحقه الشرعي معلق في رقبتني."

قال:

"دعك من هذا التشاؤم، وخذ الزي والدروع، وهذا الكيس من الذهب لنفقاتك، وليس عليك أن تخشى من صرف بعضه أو كله. لو أتت الأنباء الطيبة، فلن يهتم أحد بأين ذهبت بعض الدنانير."

قلت:

"لا أفعل هذا لأجل بضعة دنانير. إنما لأجل ما هو أعلى."

هز رأسه في تفهم يشوبه السأم..

"حين تعود ستكون من أبناء القرية، وسنعترف لك جميعنا بهذا."

هزرت رأسي نفيا، وقلت:

"لا أفعل هذا لأكون من أبناء القرية، وإنما لأنني من أبناء القرية."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

تجاهلني كعادته. وهكذا وجدت نفسي بدأت اليوم مرتديا أسعالا قذرة. وأحمل فأسا يأخذ من طين الأرض ليثتر على جسدي، وأنهيته مفتسلا وأنا أرتدي زيا رائعا ثمينا، مزودا بدروع حمراء منقوشة، يملأ قلب مرتديه بالرفعة والقوة، وأحمل رمحا ممتازا باهظ الثمن، وشيخ البلد بنفسه ينثر علي من عطره الخاص، ويقودني لحظيرته، لأنظر مبهورا لهذا الجواد البديع الذي يخفيه عنا. جواد أصيل نبيل يليق حقا بأمير مثلي!

لكن شيخ البلد تجاوزه، وهو يقودوني نحو جمل ضخم، ويقول:

" هذا الجواد، الذي يعجبك، لا يصلح لسفر طويل، ولا نريد أن يعرف الناس أنك أتيت من مسيرة أقل من يوم. أنت تجيد ركوب الجمال، أليس كذلك؟"

بالطبع كنت أجيدها.. لو لم أركب الجمال مع والدي، أثناء فرارنا في صحراء الشرق المهلكة، هربا من الزرقاء بعد سقوطها، لما بقيت على قيد الحياة. لكن ركوب الجمل مرهق. دعك عن كونه مرعبا لمن لا يجيده، مثل أكثر الفلاحين. الأهم هو أن الجمل بطيء، بالنسبة للخيل، ولو اضطررت للهرب، فسأختار الجواد السريع، وليس الجمل القوي الذي يقطع مسافة أطول لن أعيش لكي أكملها!

لكن إقناع الشيخ (غلاب) ليس أمرا سهلا أبدا! كما لم أقنعه بأن يرسل معي شخصا آخر، لتكون فرصة عودة أحدنا بالأخبار أكبر وقال:

" إذا اكتشفوك، فلن ينفعك سوى دابة البراق ذاتها! عندهم من الخيالة البارعة، والخيول السريعة ما يفوق قدرتك. لا فرق بين جوادي الثمين وجملي البطيء والرجلان يكشفان بعضهما أكثر من الرجل الواحد! ستكون وحدك ذائبا وسط الحشد، لا تتكلم، ولا يسمع صوتك فلا يتبهنون لك."

وهكذا سلمت أمري لخالقي، وتوكلت عليه، وحملت متاعي وزادي القليل، الذي وضعه الشيخ (غلاب) في أكياس كبيرة تسع أضعافه، وحملت كل ذلك على راحلتي، وأنختها لأركبها، فإذا بالشيخ يخرج مترددا من حزامه صرتين أخرتين محشوتين بالذهب، بهما ما يفوق ثمن أرضي الصغيرة، التي أنكرها علي وجادلني فيها طويلا. ولا أستطيع أن أنكر عليه هذا الأمر، فقيمة الأرض ليست في ثمنها، وإنما أنت تخلق من ترابها وتتمو بثمارها، وتسكن على سطحها. ثم تدفن في جوفها. فكل حياتك، أنت ومن حولك، رهينة بالأرض، كما كان والدي يقول لي وهو يحثني على العودة لأرضه بعد موته.

جروب " ربيع الكتب "

وانطلقت، وقد أطبق عليّ الليل، مهتدياً بالنجوم، التي أجدت قراءتها على يد دليل ممتاز، قادنني في رحلتي الطويلة من الحاضرة إلى هذه القرية، عبر دروب صحراء الغرب المخادعة، بعيداً عن أيدي جامعي الضرائب والجبّة من أتباع أمراء المدن. وتعلمت حينها أن أسافر ليلاً دوها. فرغم كثرة السباع في الليل، إلا إنه أكثر الأوقات أمناً للمسافر الوحيد، لأنه يستره من أصحاب البطش.

وعند الفجر، متبها أوامر الشيخ (غلاب)، درت حول الجبل، متخذاً الطريق الطويل، حتى لا يعرف أحد من أي طريق جلت. وقد أعطت الحيلة أثرها، فبدأ عليّ من غبار الطريق، وإرهاق سفر الليل دون نوم، أني أت من مسيرة عام.

كان مشهداً عجيباً، لم أر مثله في حياتي. قد يكون -كما وصفه فيما بعد (ابن البصري)- أشبه بمعسكر جيش زاحف. عشرات الخيام الضخمة ذات ألوان بهيجة، وبينها أقوام كثير، أغلبهم يلبس زي القتال، ومدججون بالسلاح والدروع، مثلي، ويتجول بينهم غلمان، يحملون الطعام والشراب.

أتني أحدهم ليضم جملي لحظيرة مهولة، بعد أن أعلمني كيف أجده فيها، وكيف أسترجه منها، فنفتحته ديناراً كاملاً. ولما رأيت الحبور في وجهه، تشجعت، وسألته:

"أخبرني فيم يريدنا سيد القصر؟"

قال لي:

" لا أدرى يا سيدي، لقد أرسل لسدي، يستاجر منه كل خدمه وعبيده، بهال كثير، ويدعوه لهذه الوليمة."

قلت ملوحاً بدينار ثان من ذهب الشيخ (غلاب):

"أم يعرف سيدك سبب الدعوة؟"

قال بلهفة:

" لا، لكني سمعت من خدم آخرين أبناء عظيمه."

دسست الدينار الثاني في يده، وسألته عنها، فاجاب:

جروب " ربيع الكتب " .

" يقولون إنهم سيناقشون أمرا، يحدد مصير البلاد كلها، والبعض يزعم أنهم لا يعنون الإقليم الغربي فحسب، بل كل البلاد. وواحد من زملائي يظن أنهم سيتفقون على تقسيم الإقليم بينهم، لينهوا حروبهم إلى الأبد."

أقلقني حديثه، لأن تقسيم البلد، وإنهاء الخلافات بين القادة والأثرياء يعني حلفا ضخما من كل ذي نفوذ ضد كل مسكين. ومن ناحية أخرى لا أظن أنهم اجتمعوا لينصبوا حاكما يوحد البلاد، فهذا أبعد ما يكون عن أطماعهم. ولو حدث، لكان هذا الجمع في الحاضرة، وليس في قرى الغرب وواحاته المتناثرة.

واختلطت بالجموع، أسمع سمرهم، دون أن أحاول العثور على مكان للنوم، رغم ما أصابني من تعب، خشية أن يستصغروني الناس إذا وجدوني ألام وحيدا، بلا خدم أو حشم، فحتى الآن، أعطتني ملابس مفعولها القوي، ونظر لي الجميع بهيبة واحترام.

ولم أستطع النوم إلا بعد صلاة العشاء، حينما أصبح المسجد خاويا تماما، (وللأسف كان شبه خاو أثناءها!)؛ لكن خلال هذا الوقت علمت بالكثير.

علمت بوجود ضيوف من الشرق على قدر كبير من الأهمية، كما إنني سمعت أحد الأمراء الكبار يقول لند له إن رسالته كانت تحمل وعدا طيبا، لم يفصح عنه، وآخر تحدث عن أمر ما حدث في العاصمة، بدا أن الجميع يعرفونه، وأنه شديد الخطر.

وأخذت أحاول جمع القطع مع بعضها، فلم أجد ما يريحني.. الوعد الطيب قد يكون أرضا تنزع من أصحابها، وما حدث في العاصمة قد يكون حربا جديدة، ثارت على حاكمها الطاغية، القائد الأسود. فحاضرة البلاد تحولت، منذ زمن بعيد، لأسوأ مكان على ظهر الأرض، بسبب القتال المتكرر فيها وعليها، وربما كان أمرنا ينوون الانضمام لهذا الجانب أو ذاك، ليجروا الغرب المسالم لتلك الحروب المهلكة مرة أخرى.

كان والدي يحكي لي إنه منذ انتهت الفتنة العظيمة، التي أطاحت بالملك، لم يدخل حكام الغرب في صراعات خارجة، فتمتع بسلام وأمان أكثر من غيره، يرجع أغلبه لغلبة الصحراء، التي تفصل بين قرانا وواحاتنا، إلى أن قرر الأثرياء الاستيلاء على كل أرض تزرع، واقتسامها بينهم، ليدور صراع على الحياة نفسها، وليس على مجرد كراسي الحكم، كما في الحاضرة وغيرها.

ولكن حتى في تلك الأيام السوداء، لم يخرج المحاربون نحو الشرق، أو يأتوا بجيوش الشرق لنا.

وجلست متربصا في المسجد، أنتظر انصراف الناس للنوم، فلاحظت رجلا بهي الطلعة، ثابت الجنان، صموت، يرقبني بعض الوقت، قبل أن ينصرف لحاله، فسألت عنه، لأعلم أنه ابن العبدلي. صاحب الدعوة العجيبة، التي استطاع بها حشد كل هؤلاء الفرقاء، وأقنعهم بالمجيء، لا أدري كيف!

كان نومي بالمسجد من حسن الطالع؛ رغم أنني أذكر أن شيخ الكتاب كان ينهانا عن مثل هذا الأمر، ويقول مكروها. لكن هذا النوم منحني سبقا في الصباح الباكر، إذ جلست عقب الفجر في الصفوف الأولى، لا يستطيع جسدي المنهك مفادرتها، فأصبحت في مكان ممتاز، حيث احتشد الكبار، يعقبهم الحراس، الذين أبعدها البقية قسرا، لكنهم وجدوني (أنا الذي لا يزيد عن قاع الحثالة بين الحاضرين!) سبقتهم للمكان، جالسا جوار المنبر، ولعل ردائي أرهبهم، فلم يقترب مني أحدا!

كنت محميا بستار قوي من جهلمهم بشخصي، وهو ستار اجلسني وسط ثلاثين من أقوى رجال البلاد وأشدهم علوا. يستطيع الواحد منهم - بكلمة واحدة - أن يدمر كل من كنت أخشاهم من جامعي الضراب، وقطاع الطرق، وقادة الجند، وشيوخ البلد! كل من يمثلون لي كابوسا، سيرتجفون رعبا لمرأى واحد فقط من تلك الزمرة، التي أجالسها كتفا بكتف!

وسرعان ما صعد الإمام على المنبر. كان مرتجفا، مرتبكا، وخطب خطبة قصيرة للغاية، ليس لها معنى. ولو أنني كنت مكانه، أخطب في عصبية من الفجار ذوي البطش، الذين لا يرجى منهم رحمة، فماذا أفعل؟ أأنهاهم عن منكر يفعلونه بلا خشية، أم امرسم بمعروف يفضونه بلا حياء، أم لعلي أحدثهم عن أحكام الصلاة، التي لا يؤديونها غير هذه المرة!.. ربما ذكرت بعض أحداث الصحابة، وقصص الجهاد، فيتهمونني بالتحريض على محاربة الفرنجة والأهبال، الذين أصبحوا حلفائهم. لا أستطيع في مثل هذه الخطبة أن أقول اتقوا الله، لأتقي أذاهم!

ونزل الإمام، كما صعد، مرتجفا، ليصطف خلفه حكام البلاد، والقابضين على شلون العباد. لم أر في حياتي صلاة جمعة أقصر وأثقل من هذه!

بعد الصلاة، خرجنا نبغي الوليمة. فوجدت الموائد المفروشة مكان الخيام، وعليها اصطفت كل ألوان الطعام والشراب بلا استثناء. أراهن إنك لو سألتني عن أي صنف من الطعام، حلاله وحرامه، لذيذه وسقيمه، رخيصه وغاليه، لوجدته على تلك الموائد!.. ورغم ذلك، لم تكن لنا، بل كانت للجنود والخدم ممن صاحبوا الزعماء، أما أصحاب المقامات الرفيعة (مثلي!). فكانت موائدهم داخل القصر، حيث نصبت في الفناء أفرشة أخرى. أفخم حالا، تطفى روالحها البعيدة عن تلك الموائد القرية، المقامة بالخارج.

دخل الفناء كل من أسمى نفسه زعيما، وهو أمر مذهل أن تجد لإقليم واحد، من أقاليم البلاد الثمانية، كل هذا العدد من الزعماء! أتى لي أن احصيهم!.. لربما كانوا خمسمائة، توزعوا على الموائد المختلفة، لكني لم أتبعهم. إذ لاحظت

حفنة دخلت إلى داخل القصر، فأدركت أنه يوجد هناك مائدة ثلاثة للمصطفين الأشرار. وعزمت على أن انضم إليها، لأنه لو كان هناك نبا هام، فسيكون بالداخل.

لكن مضيف القصر أوقف نواياي، إذ وقف على رأس هذا الحشد، وقال بصوت جهوري:

"أرحب بكم جميعا في قصري، وأرجو أن يعجبكم طعامي، لكن الآن قبل الطعام، أريد منكم أن تتعرفوا على صاحب الدعوة الحقيقي، وهو صديق قديم لي، طلب جمع كل وجهاء الفرب، لكي نجتمع على قلب رجل واحد في أمر جليل."

وأفسح المجال لشيخ وقور، ربما كان في الثمانين من عمره، يستند على عصا من خشب أسود لامع، لم أر له مثيلا من قبل، إلا مع بعض التجار الأتین من أقصى الجنوب، كالوا قد وقعوا في أسر القراصنة، وبيعت تجارتهم في الزرقاء، قبل سقوطها بقليل، بأثمان باهظة.

تكلم هذا الشيخ الوقور بصوت منخفض منك؛ بينما إلى جواره شاب صغير - يبدو كما لو كان ابنا أو حفيدا له - يردد كلماته بصوت يهز المكان.

"بعضكم يعرفني؛ لكني جلت من أقصى الشرق، لذا فلن لا يعلم، أنا شيخ بني الأسود."

وملائي الرعب! القائد الأسود بنفسه! لا بد أني هالك لا محالة، بل لابد أن كل القرى هالكة لا محالة.

ثم أيقظتني كلماته..

"كلكم سمعتم عن ابني، الذي يلقب نفسه بالقائد الأسود، هذا العاق، الذي طردته من القبيلة، ليزداد خطره، حتى إنه منذ أيام أعلن نفسه في العاصمة ملكا. لقد قطعت كل تلك الرحلة الطويلة بحثا عن حلفاء يمينوني عليه، لأكف أذاه عن الشعب."

هنا تدخل مضيفنا قائلا:

"أتينا جميعا، ليتفق الإقليم الغربي على كلمة رجل واحد. إما أن نمضي مع الأسود الكبير جميعا، لاتقاء شر القائد الأسود، وإما أن نجتمع على رفض الحرب، وتحالف مع القائد، ونقبل به ملكا ينهي عقودا من الحروب في بلادنا بصفوف موحدة، لنربح منه أكثر. وتتقي من عدوه الخسارة الأكبر، التي سيتحمل أغلبها السكان المساكين."

لكن الآن، بعد تحية شيخ شيوخ بني الأسود، لتناول الطعام، ولتفضل معي كبار الوجهاء لهالدي الخاصة بالداخل."

وتقدم بعض الرجال يعلنون عن أنفسهم، منهم من هو من زعماء الغرب المشاهير، ومنهم من هم من حلفاء بني الأسود في الشرق، وبين الأخيرين اتبعت لرجل شديد البياض، يرتدي حريرا مزركشا، إذ سمعته يعلن عن نفسه:

"الأمير الأبيض حاكم الزرقاء!"

الأمير العظيم، حاكم الميناء الأكبر في بلادنا، أتى بنفسه، عبر كل البلاد من طرفها على الساحل الشرقي إلى هنا لا بد أن قلوب الناس ارتجفت هيبته للأمر، لا يدركون أنه مجرد العوبة لا قيمة لها، فالقراصنة الذين استولوا على المدينة، واتخذوا ميناءها قاعدة لهم، أهرؤا عليهم أميرين من الفرنجة، الذين سقطوا أسرى في أيديهم، ويقال إنهما شقيقين من أبناء الملوك، فقط ليكونوا واجهة جميلة، تحفظ حقوق المدينة لدى باقي الأمراء من جيرانها.

ولكم تدفقت الكراهية في قلبي تجاه هذا الأمير الأبيض. رغم أنني أكثر من يعرف أنه بلا حول ولا قوة. لكن الرعب الذي شاهده حين سقوط المدينة. ترك في نفسي ندوبا لا تدمل.

كان المزيد من الأمراء يتقدمون معلنين عن أنفسهم، فكان المضيف يشير إلى بوابة القصر اليمنى. حيث دخل الأسود الكبير حيننا. وإلى بوابة يسرى أحيانا. هي - على الأرجح- لمن يظنهم مدعين.

وأصبحت في حيرة من أمري. فلو توجهت للباب الأيسر. فلن أبتعد فقط عن الأتباء الحقّة. وإنما أهدد بكشف أمري. حينما أجلس وسط جمع صغير من الأمراء الحائقين. الذين يظنون أنه قد تم احتقارهم. بينما البوابة اليمنى مغلقة للكبار جدا فقط.

لكن حدث ما طمان قلبي. إذ تقدم نائب القاضي معلنا عن نفسه (كان رجلا في الأربعين. اسمه شريف بن الأشرف، وليس الحسيني كما زعم لي محمدينا) هذا الرجل يقود وقت السلم خمسمائة رجل. يزيدون وقت الحرب لخمسة آلاف. وله حلفاء كثير يمكن أن يمدوه بالمزيد.

لكنه إذ أعلن عن نفسه باللقب الذي يعرفه الجميع، زعيم خدام الضريح. وجهه المضيف للقاعة اليسرى. بينما أتى في عقبه زعيم أسود الجبل. فأرسله الساذج لليمنى. وأسود الجبل ما هم إلا جماعة من قطاع الطرق. الذين لم يجدوا ما يكفي من تجارة لسرقتها. فتحولوا لمرترقة يؤجرون سيوفهم لمن يحتاجها من أصحاب القرى.

وإذ رأيت هذه النكتة. تقدمت واثقا لألحق بهم. بينما كان المضيف قد هم بالانصراف. فدلقت الباب الأيمن خلفهم. وارتبكت إذ وجدت المضيف يرفع لفه كوبا من الماء يرطب لسانه. الذي أحرقه الحديث الطويل.

شيخ الأساودة جالس. وحوله زمرة من رجاله. ينتظرون أمرا ما. وخلف ظهري احتشد عدد لا بأس به من الصفراء. الذين ظنوني متسللا. وأحبوا أن يتبعوني. لكن ما أربكني حقا. كان الحرس. الذين امتدت أيديهم إلى السلاح. يرمقونني ويتأملون رمحي في تحفز. ليس أمامي إلا منفذ واحد؛ أن أقلد من سبقني. وأعلن عن نفسي. فلان زعيم قبيلة كذا. لكن يجب أن أتقي اسما مخيفا فحما له رهبة. لأقنع هذا المضيف الساذج.

لأقول مثلا إتني الأحمر، زعيم قبيلة الفيلان. اسم مخيف، ولاق بدروعي
الحمراء، ونقش الفيلان عليها. الأحمر زعيم قبيلة الفيلان.

وفي ارتباك دقت الأرض برمحي. كما يفعل جامع الضراب وسط سوق
القرية بعصاه، حينما يعلن عن الزيادة الجديدة.

وابتلعت ريفي بصعوبة. ماذا يخيفك؟ الأمر سهل! فقط لتقل الأحمر، زعيم
قبيلة الفيلان.. الأحمر زعيم قبيلة الفيلان! ليست جملة صعبة لهذا الحد.

وخرجت السيوف مشمرة نحوي، فاندفعت أقول بصوت صارم "القبيل زعيم
الفيلان الأحمر!" تبا أي اسم سخيف هذا؟

لكن ما حدث عقبها أثبت أنه ليس بالاسم السخيف.. بل الخطير.. ربما أخطر
مما حلمت بكثير!"

(3)

القبيل زعيم الفيضان الحمر

دوى الصمت في اذني! صمت اشد علي وطاة من نعيق الف غراب! وامتلأ قلبي بالرعب، حين رايت الناس انقسمت لفريقين: فريق مذهول لما سمعه مني، وعلى رأسه المضيف، الذي ترك كوبه يسقط على الأرض متهمشما، والأسود الكبير الذي انتصب جسده المحني فجأة في فزع. وفريق ثاني جله من الصفار خلفي، والحرس أمامي مندهش لاندعاش الكبراء، ومتربص، ليرى ما يكون من أمرهم.

ولا ثالث لتلك الفرقتين، إلا رجلا أحمقا مسكينا، لم يترك الرعب في قلبه غير مكان ضئيل في عقله، لا يستطيع التفكير إلا في أي مصيبة تلك التي أوقعت فيها نفسك يا (عبد الشهيد)؟!

استمر الأمر مجهدا على هذا الحال بضع لحظات، لكنني حين أدركت أن الجند لن يقتلونني، أو على الأقل لن يفعلوها الآن، اطمأن قلبي بعض الشيء. لكنني بقيت في مكاني، أنتظرهم. إلى أن كان شهاب الشركسي - حاكم مدينة وقلعة ساوة - هو أول من أخرج نفسه من الدهشة، فقال بصوت متحشرج: "ظننتكم ذهبتم؟"

ذهبتم؟ ترى ماذا يعني؟ يعني أن تلك الفيضان الحمر هلكت. أم رحلت. أم اختفت؟ لذا قررت الالتزام بردود قصيرة غامضة، فلم أقل سوى:

"عدنا!"

فلتعا بما بدا لهم ثباتا وجرأة؛ لكنه كان في الحقيقة تجمدا من الخوف، يفلفه خداع يالس، يكافح لأجل الحياة.

سأل رجل لا أعرفه: "كم عددكم؟"

رددت: "سبعة!"

وسكت. لم أقل سبعة آلاف، أم سبعة أشخاص، فقط قفز الرقم لذهلي، ربما لأن عدد الفيلان المنقوشة على كل درع من دروعي سبعة.

وهنا نطق الأسود الكبير بما أراحتني:

"هم دائما سبعة!"

لم أفهم، لكني ارتحت قليلا، وتشبثت بثباتي الظاهري أكثر.

سألني الأسود الكبير:

"تعرف أين كنتم وقت الفتنة الكبيرة، فيا ترى في أي جانب ستكونون هذه المرة؟"

قلت: "في الجانب الصحيح!"

لم يعجبهم ردي؛ لكنهم لم يناقشوه، ومضوا جميعا نحو مالدتهم. وأكد أقسم إنهم كانوا ينظرون لي نظرة خوف!.. هم الجبابرة يخافون مني!.. تبا!.. ترى من هؤلاء الفيلان الأحمر؟

وبينما ندلف لحجرة الطعام، قال الشريكسي:

"ربما كان كاذبا؟"

لم أفهم أنه يقصدني، إلا حينما رد عليه الأسود الكبير:

"أي أحقق سيزعم إنه من الفيلان الأحمر، إلا إن كان من الفيلان الأحمر!"

بدا لي رد الأسود مبتهجا بعض الشيء، كأن ظهور تلك الفيلان قد غير حساباته للأفضل. أما مضيف القصر، فلم يخرج بهد من صدمته، ومازال وجهه كمن رأى الموت يطلبه، وعيناه مثبتتين نحوي، وأزعم إنه يطيل النظر لذلك النقش على دروعي.

الوحيد الذي بدأ متشككا في أمري، الأمير الأبيض الإفرنجي اللعين. كان ينظر لي بمكر، ويتسهم. بينما الباقون - بما فيهم الشركسي الجلف فظ اللسان - بدوا يهابونني، ويسلمون بأمرى.

لكن أمري هذا سرعان ما توارى حينما بدأ النقاش. ففجأة، اندفع ابن عامر - أقوى رجل في الغرب، وسيد الثغر الكبير - بقوله:

"لماذا أتيت بكل أولئك الرعاغ في الخارج يا ابن العبدلي؟"

رد ابن العبدلي:

"يا أبا وكيع، هم لا قيمة لهم إن اتفقنا على رأينا، سيطيعوننا بلا مناقشة، ولكن تحت كل يد منهم بضع مئات من الجنود، وبعض الحلفاء الصغار. فلو أرضيناهم، وحشدنا كل من معهم معا، لمنحونا جيش كبير، نحن في أشد الحاجة له."

قال ابن عامر بلهجة صارمة:

"فقط لو حاربنا؟"

رد ابن العبدلي:

"وحتى لو انضمنا للقائد الأسود، فكلما كان موقفنا أقوى، استطعنا أن نفرض عليه ما نحب من مكاسب."

بدأ الضيق على وجه الأسود الكبير، لكنه لم يعلق. وفي الحقيقة فقد دهشت لموقف هذا الرجل، نعم سمعت أنه نبذ ابنه منذ سنوات بعيدة، وطرده من القبيلة، لكن هذا الابن بين قوسين، أو أدنى، من أن يصبح ملك البلاد كلها، وحتما حاول من قبل استمالة قلب والده، الرجل القوي، الذي تنتفض بأمره قبائل بني الأسود كلها، وما أدراك ما قبائل بني الأسود!

ما أن أنهينا الطعام، الذي لم أذق - ولم أتصور أن أذق - ما هو الذ منه (حتما يليق بأن يكون آخر زادي!)، حتى استأنفت المناقشة من حيث انتهت.

إذ انبرى ذلك الرجل المهيب - الذي لا أعرف اسمه - وقال:

"ولهذا نحارب الأسود؟ هل نخاف من جبروته؟ أليس أفضل من الفوضى التي تفرق كل البلاد؟ لا أحد يأمن على نفسه، حتى لو كان محاطا بالحراس

جروب "ربيع الكتب" .

المدججين بالسلاح، لأن هؤلاء الحراس ربما ينقلبون عليه، فلا يوجد من يردعهم أو يعاقبهم على فعلتهم. البلاد بحاجة ماسة لملك، وملك قوي. ولا يوجد بيننا من يصلح، أو يملك تلك القوة التي ينازع بها الأسود في مبتغاه."

قال شاب جلد، أقسم - مطمئنا - أن ضربة يده قادرة على فلق الحجر:

"كلكم يعلم أنني رجل الأسود في الغرب، لأنني أملك من الشجاعة ما يجعلني أعلنها، بينما الكثير منكم يرأسه سرا، في الظلام، ويتنظر جيشه، لينضم له، منقلبا على إخوانه. لا أمل ولا نفع من قتاله، ولا هدف من معاندته، سينتصر حتما، وسيصبح ملك البلاد شتم أم أيتم، ولا جدوى من هذا الاجتماع!"

قال ثالث بفضب:

"لن أسلم نفسي للقائد الأسود أبدا. سيقتلني كما فعل بأهلي في العاصفة. لقد فررت هنا، لأن الغرب هو المكان الوحيد، الذي لم يعد له نفوذه. وأقول لكم: لا تأمنوا له. سيمزقكم عند أول فرصة سانحة، لا فارق عنده بين من حاربه ومن حالفه، ولكم في (ميت الدم) عبرة!.. ألم يهدمها على رؤوس أهلها بعد أن أعطاهم الأمان؟ وسيوزع أرضكم وأموالكم على حلفائه الأقوياء من الفرنجة والأهبال، يلحق بكم جوار الذل والمهانة والخيبة، ويزر الخيانة، وتسليم البلاد لأعداء الدين."

مرة أخرى تدخل ابن العبدلي، ليعيد ما قاله من قبل:

"لن نحارب، أو نعاهد الأسود إلا على قلب رجل واحد. لو فعلنا هذا، فسنحصل على الأمان والمكاسب الكبيرة، سواء حالفناه أو حاربناه. فقط لتفقوا على قرار واحد."

قال لازوردي، وهو واحد من كبار أمراء المماليك، وسبحان من ملكه ثمانية آلاف مملوكا، بعد أن كان هو نفسه مملوكا، يباع ويشترى!

"لا أمل، ولا فائدة من قتاله، سينتصر حتما، ولنسنا ندا لجيوشه، أو جيوش حلفائه الأهبال. لماذا نقف في وجه العاصفة العاتية، بينما يمكن أن ننحني لها حتى تمر، وكل منا متربص في قلعته؟"

لا أدري لماذا أحسست أن عيونهم تعلقت بي، بعد أن قال كلمته.. لعلمهم ينتظرون رأيي، وربما خشية أن يفضحني الصمت، الذي استتر به، أو لأن

جروب "ربيع الكتب"

الفضول كان يقتلني بهذا السؤال، أو لخشيتي أن أفتي في هذا الشأن الخطير،
لنحطلي كلمتي وزر مصائر الألوف، فقلت نازعا كل سلاح من كلماتي، ومفيرا
مجرى الحديث:

"لا أفهم لماذا يعادي الأسود الكبير ابنه؟"

وهنا، كالني فتحت بابا للجنة، تسابقوا عليه! واحد يصرخ:

"نعم نعم! هو ابنه فما أدرا أنا أنه سيفدر بنا؟"

وأخر يهتف:

"هل سيرسل لنا جنودا تساعدنا؟"

وتجرا ثالث:

"ماذا بعد موته؟ هل سيقى الأساودة على حلفهم معنا؟"

ورابع، وخامس يتدافعون، لا يكادون يتركون فرصة للرد. بل لعلمهم لا يريدون
ترك فرصة للرد.

ظل الرجل صامتا، حتى فرغ المحتجون من ضجيجهم، ثم تكلم بهدوء أخرس
الباقيين فورا:

"أنا لا أطلب منكم محاربة ابني لأجلي، وإنما أناشدكم الوقوف في وجه طاغية،
لأجل أنفسكم وأهلكم. كلما قتل ولدي بريلا، أحسست بدمه معلقا في عنقي،
وحينما ينصب نفسه ملكا، فسيرجتاح البلاد، ويهدر دم العباد، ويدخل في
أراضينا الأغراب، وكل هذا الذنب معلق في عنقي، لأنني من تركته يبطش،
ويفلت دون عقاب، واكتفيت بطرده من القبيلة، وأشفقت عليه من القتل شفقة
الأبوة اللعينة. لكن من دفع الثمن كان شعبا مقبولا، مغلوبا على أمره. وها أنا
أقص عليكم جرائم شبابه، وهو تابع لا متبوع. لتحسبوا ما سيكون عليه جوره،
حين يملك رقاب العباد في أنحاء البلاد."

(4)

حكاية القائد الأسود

قال الأسود الكبير:

رييت اولادي على خير ما يفعله بنو الاسود. نحن الاساودة نربي ابناءنا على الفروسية. والمبارزة. والكرامة. والانتفاء للقبيلة. والفخر بها على كل ما عاهاها. كنت في جاهلية الشباب. ولم تخبرني السنون بعد. ان ما ورثته عن ابائي ظلم. لان الميراث. الأعظم اتي من ظهر واحد. ثم توزع على الأمم. لكني علمت بهذا بطريق مؤلم.

انشأت ابنائي على ان بني الاسود خير مما عاهاهم. فنما في نفوس بعضهم انه خير ممن سواه. وان بني الاسود لا يستوون مع البشر في عصمة الدم.

كنت عالدا من حاضرة البلاد. حيث كنت. ورجالي. نقاتل دفاعا عن حقوقنا في حكم البلاد. وعدت بعد ان ادركت ان الفتنة ستستمر - حتما - عقودا طويلة. وان لا اهل من محاولة السيطرة على تلك المدينة العجونه. وباقي البلاد بالقوة. لان حلفاءك سينقلبون عليك. بمجرد ان تقضي على اعدائهم. وقيل ان تحمز على باقي اعدائك.

لكنني رغم المعارك التي حاربتها. وانجيوش التي هزمتها. والخياتات التي نجوت منها. كنت دوما متأكدا ان الشرق لي. هو خالص لي. مستكين. يسلمني امره. انا القابض على امور الاساودة. الممسكين بارواح الخلائق في كل الشرق. لذا كانت صدمتي مهولة. حين نظرت امامي. اتامل تخوم الإقليم.

جروب " ربيع الكتب " .

فالتقط بصري - الذي كان يوما حادا - مشهد حشود مجتمعة فوق الجبل،
كانما كانت تنتظرني!

إذا، فالشرق قد جن جنونه، ويريد أن يتملص من قبضتي! أتى يكون هذا!
وحتى إن أصابهم الجنون والحمق، أليس أهلي وعشيرتي هنا، ليردوا لهم
عقولهم؟! أتراهم خانوني، كما خانني غيرهم؟!.. كيف وابني، الأسد الجسور
فخر قبائل الأسود، على رأسهم من خلفي؟

تقدمت نحو طلائعي، يتبعني الخدم والرفاق، وهتف بي واحد ممن أثق فيهم:
"لا تفضب نفسك يا مولاي! مرنا نسحقهم ونهدم الجبل على رؤوسهم.
فربما طالت غيبتك، فراودتهم أنفسهم مراودة لن يعرف لمثل الندم عليها
ندما!"

قلت بفضب:

"إنه شرقي يا حسام، شرقي! ملكي، لا ينازعني فيه أحد؛ فكيف يجروون؟"
قال:

"إذا، فلا تخاطر بنفسك، ومرنا نيدهم."

قلت:

"الأمر ليس كذلك. يجب أن أعرف من، وكيف."

الدفع الرجال خلفي يثرثرون بأنهم سيجيئونني، وينترعون الكلمات من بقايا
جثثهم، لأعرف ما أشاء، لكني كنت مصرا، فتجاهلتهم، إلى أن وصلت للطلاع
الذين توقفوا ينتظرونني، وأحسست أن أمرا عظيما قد وقع عليهم، فدب في
قلبي هاجس مربع، فبادرتهم بالسؤال المخيف:

"أهم الأهبال؟"

نفوا سريعا، دون أن يفصحوا، فلم أطق صبرا، واستللت سيفي، وصرخت
بقالدهم:

"من هم وإلا قتلتك؟"

ظل صامتا متأرجحا، كأنما ينوء تحت حمل ثقيل، فتدخل أحد أتباعه بقوله:

"هم خارجون."

قلت: "هم ماذا؟"

قال: "متمردون هاربون من سيدي الأسود الصغير."

قلت: "هل تعقل ما تقول يا رجل؟ نحن في الشرق، موطن قبائل بني الأسود، ومستقر ملكها، ولا يوجد شيء اسمه خروج علينا أو تمرد."

قال:

"مرنا نفتك بهم يا سيدي."

لكنني لست كذلك. لست من يأخذ الأمور على علاتها، فأتدفع لها لا يمكن الرجوع عنه أو تداركه. كان عمي يقول لي دوما إنني أجيد النظر لها وراء الظواهر، وأخبر البواطن، ولذا فضلتني على أبنائه، وأخوتي الأكبر، لأخلفه في المشيخة الكبرى لقبائل الأسود. لو لم أكن كذلك، لما عدت ذاك اليوم لموطني، ولظلت أحارب ثلاثة عقود، بحثا عن سراب النصر، القريب دوما، والهابط دوما. أي رجل غيري كان سيظل في حرب أبدية، مفترا بانتصارات متوالية، ومدفوعا بحنق خيانات متتالية، حتى يقنى جيشه رجلا بعد رجل.

وحينما نزعت نفسي من سراب النصر، عدت لأجد كابوس التمرد!

أفي أرضي أنا تخرج الناس؟ أتشوق عصا طاعتي؟ الفتك بهم وتمزيقهم اليوم لا ينفع. عصا الطاعة إن شقت يوما، لا تتلثم أبدا.

لم يكن هناك منفذ يجده عقلي، إلا أن أنهى اليوم دون قتال. وأعيد الفهم الشارد لحظيرتي. بعد أن اتأها راعيها الكبير، يصلح ما أفسده الصفار، ويحاسب هذا الذي تركته خلفي، فخاب. حتى لو كان حسابا وهميا أمام الناس فحسب، لمجرد أن أوهمهم أنهم لم يثوروا عليّ أنا، شيخ الشيوخ، وإنما على ابن غر ساذج لم يكتسب بعد حكمة الكبار أمثالي. كظمت غيظي وأنا لرمق الحشد، واستعددت لأقلب الأمر لصالحه، فقلت لهذا التابع:

"لم ثاروا؟ ومن قائدهم؟"

صمت الرجل مبهورا. كأنما سألته أن يأتي بالشمس من المغرب، فنظرت لقالده، الذي أحنى رأسه وصمت، كأنما يظله العار. وأخيرا تكلم التابع متلعثما:

* هم رعاى. خرجوا ظنا أن مولاي ذهب وابتعد عنهم.*

قلت بحسم * إن كنت لا تدري من قالدهم، وماذا يريدون، فليس لك مكان بين
طلائعي.*

ارتجف الرجل، كأنها حكمت عليه بالموت، فتجاهلته، ونظرت لقائد الطلائع:

* أرسل رجلا للعشيرة ينبئوني عن هؤلاء، ورسولا لذلك المعسكر، ليرسلوا لي
فألدهم.*

وكانما أزحت حجرا يثقل لسانه، تكلم أخيرا قائد طلائعي:

* هو رسول من العشيرة يا مولاي.* وأشار للذي ظننته تابعا!

وتنبهت، حينها فقط، أن هذا المتحمس للدماء لا تظهر عليه وعتاء السفر
وإنهاك القتال، فنظرت له غاضبا، وقلت:

* إن كنت كذلك، فكيف لا تعرف عن أمر هؤلاء شيئا، ولم لم تأتي بدلا من
اللكؤ هنا؟*

قال:

* إنما كنت أحذرهم من تكلم العصابة الخائفة، وأنبلهم أن يستعدوا لقتالهم.*

قلت بصوت مزلزل:

* أأمر جنودي وأنا بينهم أيها العبد!*

قال بصوت متحشرج:

* حاشا لله يا مولاي! أنا عبد ضعيف، وإن هي إلا رغبة خليفتك، وساعدك، وابنك
المبجل.*

ظهر لي الأمر جليا، الطلائع لم تنتظرنني، بل كانوا يجادلون رسول ابني.
ورفاقي لم يتبعوني خوفا علي، وإنما ليمنعونني من رؤية ما يحدث.

يا للسماء! كم بلغ ابني من الحنكة حتى يصل لأقرب المقرين لي، فيحجب
عني ما يشاء؟ وكم بلغ من غرور، فيظن أنه يعلم كيف أفكر، وأنه سيدفعني
لذبح خطاياهم فوق الجبل، وكم بلغ من حمق وخيبة حتى يستطيع إثارة الشرق
الغافي دوما فوق وسادتي؟

نظرت ببرود للتابع وسالته:

"من معك جاء من العشيرة؟"

فأشار مرتجفا لرجل بين أذيال القوم، قريب من أذان ندمائي. منكمش يرجو أن تخطئه عيني، فتيقنت من صحة ما ذهب له عقلي، وازداد عزمي على معرفة ما وراء ذلك التمرد.

قلت لهما:

"أخبراني أيها المتعوسان، لم لم يقم ابني، المبجل كما ترعمان، بسحق هؤلاء، بدلا من انتظاري؟"

لم يجيبا، وكنت أخشى ذلك. إذا، فالفتى الفرير يخشى إن خرج بمن معه لهؤلاء أن يثور غيرهم! أي كارثة تلك التي فعلتها يا ولدي لتحدث كل ذلك؟

نظرت لمن حولي محتقرا صفتهم، فهم يتأمرون مع ولدي ليخفوا عني النكبات، التي لطخ بها عرش أجداده. بل إن بعضهم يخشاه. لا بأس عندي أن يخشوا ولدي، ولكن أيجرؤون على خشيته أكثر مني؟

قلت لهم: "ساذهب لأرى من شان هؤلاء."

قال التابع الأخرق:

"لا يا مولاي، لا يجوز. نذهب نحن، ونأتي لك بالرسل."

تركته يتلوى في ألمه، ناظرا بذهول ليده الملقاة أرضا، وأعدت السيف لفمدي وأنا أقول:

"هل هناك من يجرؤ على منعي من أمر أريده؟ أنا الأسود الكبير، فمن يريد منعي من شيء، فليخبرني من هو؟"

ومضيت لا ألوي عن أمري، يتبعني الرجال متأقلين حتى وصلت للسفح، فرأيت ما أذهلني وجمد عقلي بصقيع الحيرة. أمازال بصري حادا، وما أراه هو ملابس أطفال منشورة لتجف، ونساء مكلات بالأسود يطبخن! وعجائز يبكين؟ أهذا جيش يطلب قتالي كما يزعمون؟ ما هم إلا مساكين يطلبون الملاذ.

ووجدت، على رأس الطريق الصاعد للجبل، ثلثة من جنود مدججين بالسلاح، يرتدون الزي الأسود الذي فتن به ولدي. فأدركت أنهم جماعة من صفاليكه.

جروب "ربيع الكتب"

الذين جمعهم ودرّبهم ورغب في ضمهم لجيش القبائل، لولا إنني نبذتهم
رغما عن أنف، لأن أمثالهم لا يوثق فيهم.

ورفع أولئك الصعاليك سلاحهم في وجهي، وهتف أحدهم:

"ارجع أيها الشيخ العجوز، فلن يصعد أحد حتى يأتي الأسود نفسه بالجيش..
لم نقل لكم سابقا ارجعوا، وأخبروا سيدكم إن هناك خوارج راغبة في قتله؟
إلا تفهمون شيئا يا حمقى."

فهمت الآن لم كان قائد الطلائع يشعر بالعار، فقد أحس بجرم سفك دماء
النساء والأطفال، رغم فزعه من ولدي.

قلت لهم محاولا ترويض غضبي:

"من أمرك بهذا؟"

قال،

"القائد الأسود بنفسه."

لم أكن قد سمعت هذا اللقب، الذي اختاره ولدي لنفسه من قبل، لكنني أدركت
من يقصد. الفتى الفرير يريد أن يبرز شأني حتى في الاسم. شيخ الأساودة
مقابل القائد الأسود!

قلت متذرعاً بالصبر:

"ولم يريد هذا؟"

رد:

"وما شأنك أنت أيها العجوز؟ أتجرؤ على تحديّ؟"

قلت:

"أوتدري من أنا؟ ماذا سيفعل بكم الأسود الكبير إن علم بذلك؟"

هز كتفيه مستهزئاً، وقال بنبرة تهديد:

"أتريد اللحاق بأبي جلدة؟ يا عجوز لا تتعجل، فشيتك ستطفي شوقك له!"

لم أدر بنفسي، إلا وسيفي يمزق خمسة منهم، تبا لك يا ولدي! قلت لك من
قبل إنك، مهما فعلت فيهم، فسيظلون صعاليكا حمقى!

رغم كبر سني، وان سيفي كان في غمده، فقد مزقت منهم خمسة، قبل ان يفيقوا من فزعهم. وحينما استلوا سيوفهم، اخيرا، كان الاوان قد فات. وبينما كنت احصد اثنين آخرين، اتت الهتافات لمن خلفي:

"ليك يا اسود."

فزغ الصعاليك إذ أدركوا شخصي، وأدركوا ان ثرثرتهم طالت ما يكرهه سيدهم الصغير، ففروا هارين، لم يعرف لهم طريق.

وإذ وصلت تلبية أصحابي لمسامع الجبل، فكانما بعثت فيه الحياة بعد موت، مهللا وهاتفا، فنزل المستجيرين منه باكين، قائلين:

"الفوٲ يا اسود، الفوٲ يا اسود"

وعلمت كل شيء يومها.

لراد ولدي الاحمق جمع جيش يدين له هو بالولاء دون سواه، فجمع ملات الصعاليك، والحقهم بجنده، وابتز بهم اتباعي ليطيعوه، وخوفهم في اهلهم، فأصبحوا يرجعون له بالامر قبلي. ولما غادرت لحربي الفاشلة، توسع في مد نفوذه، والبطش بالمخلصين لي، حتى ان ابي جلدة ابن الجلاد، الذي زعموا لي انه مات غريقا، إنما قتل على يده، لأنه رفض ان يمدد بالمال، لكي يدفع نفقات اتباعه، الذين أكثرهم الطمع.

كنت - كعادة من سبقوني - اترك المال في يد غير اليد التي اخلفها على القوم، ولم اجد خير من رفيق الصبا ابن الجلاد ذي العشيرة والشوكة.

لكن بطش ولدي إذ كسر شوكة ابن الجلاد، لم يكسر هيتي عندهم، فلم يخلوا بينه وبين المال، فقام الفتى الفر بجلد الفلاحين، ونهب القرى، حتى ازداد وزر صعاليكه، ففر البسطاء هارين للقرى البعيدة، وأثار هذا غضبه، فتبعهم بجند ارتدوا السواد على الأجسام والقلوب، كسيل عارم، حرق تلك القرى، وأشبع أهلها والمستجيرين تقتيلا.

ولما ضاقت على الناس الأرض بما رحبت، واحسوا أنهم إن بقوا في قراهم نهبوا، وإن غادروها قتلوا، لجلوا للتلال، إلى أن أتاهم نأ عودتي، فخرجوا عن بكرة أبيهم للجبل، متحصنين به حتى أتى وانصفهم.

وأدرك ولدي أنه لن يستطيع الاستيلاء على الجبل قبل عودتي. إلا بجمع كل رجال القبيلة، وحيلها قد تنقض عليه عشيرة ابن الجلاد، طلبا للتأثر. فلجا لحيلة خالبة، ليلوث يدي أنا بدم الفقراء.

هنا جلست أفكر وحدي، مقلبا الأمر على كل وجه. وكلما حاولت أن أجد عذرا للفتى، وجدت حماقته تذهبه.

أقول مخلص لي وللقبيلة، يرغب في زيادة جندها وهيبته بقبضته الصارمة؟ فماذا عن قتل أعواني، وإخفاء الحقائق عني؟

أفترض أنه شاب طموح، يريد أن يبني لنفسه ملكا راسخا لا يستطيع أحد منازعته فيه بعد موتي، خاصة مع تربص أولاد عمومتي الساعين لعودة المشيخة في نسلهم؟

فماذا عن فشله في الحكم، وعدم قدرته على تدير أمواله، رغم كل ما نهبه؟ لم يستطع أن ينجح في العدل، أو يريح من الظلم!.. بل خرب الأرض، وأهلك الماشية، وهدد الشرق بالمجاعة. ولن نستطيع أخذ ما اعتدناه من ضرائب من حطام الفقراء، إلا بعد سنوات عدة.

أحسبه متآمرا، يرغب في قتلي والانفراد بالحكم؟ يا له من متامر بالنس، لم يجد حتى تدريب أعوانه، فلم تصمد ثلثة منهم أمام رجل عجوز لخمس دقالب.

من كل وجه هو مذنب. مذنب في إخلاصه بتأمره، وفي تأمره بفشله!

وأصبح العقاب حتما مقضيا. فأعددت المحاكمة.

رفض الفتى أن يمثل أمام قضائي قائلا:

"اتحاكمني أمام هؤلاء يا والدي؟ ولأجل من؟ أنا القائد الأسود، ابن الأسود الكبير، فخر الأساودة، أحاكم لأجل حفنة من الفلاحين وسكان القرى القذرين؟"

قلت له:

"سفكت الدماء، ونهبت الأموال بغير ذنب."

قال:

"ولأي غرض؟ لأبني جيشا وملكا. ما هؤلاء إلا الحطب الذي أوقد به نار مجدي!"

رددت بفضب:

"وإذا ما نفذ الحطب يا أحق؟ تنطفى نارك ولا يبقى سوى السخام!"

هز كتفيه قائلاً:

"بل أترع الحطب من أيدي من حولي!"

هنا أدركت إلا أمل في إصلاحه. أفهم أن يرى الأساودة فوق غيرهم. واتجاوز عن كبره تجاه أقرانه الأدنى من عشيرته. فأقول لنفسي إن الأيام ستهذب. أغفر له كل ما فعل. فأقول أخطات في كذا وكذا. وكان يجب أن تفعل بدلا منه كذا. وارشده لما كان أحنك وأمكر؟ لكني. لما سمعت جهالته. نظرت للمستقبل. فلم أر ابني إلا جرادة كبيرة. تدمر ولا تعرف البناء.

وصنع المجد. إن كان يحتاج لتدمير ملك غيرك. فلن يكتمل إلا ببناء ملكك. وولدي عاجز عن البناء. ولو تركته اليوم. فسيشق وحدة بني الأسود لشراذم متحاربة. والفلاحون. الذين هربوا اليوم. سيقاتلونهم غدا.

فكرت أن أبقيه. وأتقل الخلافة لغيره. لكن الفتى شديد الذكاء: رغم افتقاده للحكمة. وسيكون لعنة بلا شفاء على كل من يتربع في المشيخة. مازال الملك لي: لكنه نجح في احتراق أضييق صفوفي. وفتنة الملك سلطاتها عليه لن يخبو. ولإنقاذ بني الأسود. والشرق كله. من حرب بين الإخوة. حكمت عليه بالطرده والنبد من القبيلة.

هو لا يحتاج للقتل. بل يحتاج لعقل أحكم. وربما إذ تروضه السنون يعود لي عاقلا. فاعفو عنه وأبونه مقعدي.

لكنه نظر لي غير مصدق للحكم. وقال:

"أشهد أنك ستندم على هذا."

وقد صدق. فليتي ضربت عنقه. فلو فعلت. ما ثار ما أثاره في الحاضرة. ولا جلسنا اليوم تتشاور في شأنه. نخاف على أنفسنا مصير الجبلي والمرصفي.

(5)

حكاية الجبلي والمرصفي

خرج ولدي على رأس بضع مئات، ممن بقوا من صعايكة، وأثبت أخيرا شيئا من الفطنة، ففتك بكل عشيرة بني الجلاب قبل الرحيل، حتى لا يطلبوا ثاره، ونزع منهم بعض ما يقبضون عليه من مال. ثم أثبت المزيد من الفطنة، باختياره للعاصمة مستقرا له - فرغم خروجي منها، لكن تمزقها بين الأمراء، يعطي لحفنته من الرجال قيمة أكبر من حقيقتها - فانطوى تحت ظل أمير، يقال له الجبلي. وأخذت أتبع أنبائه، لعلي أرسل له بالعفو فيما بعد، لكنه زاد في الطيش لدرجة أفزعتني.

كانت بدايته طيبة. حيث استضافه الأمير الجبلي. وكان مملوكا شاميا تسلطن على بعض الرجال، وشارك في حروب بعض من استأجروه، إلى أن تعب الجميع من الحرب، وانفرد كل منهم بها تحت يده، فاستأثر هو بالجزر الجميلة، التي ترصع صفحة النهر في شمال العاصمة.

ولكن كما هو الحال مع كل حي من أحيائها، نازعه في هذا المكان القائد المرصفي. كان المرصفي ابن واحد من قادة الجند في جيش الملك، وورث الزعامة عن أبيه، وحاول أن يزيد عدد رجاله، ليبنى جيشا مهيبا، لكنه لم يؤ إلا بحرب دامية بينه وبين الجبلي، يتنافسان على جمع الحلفاء والأتباع والمال والمرزقة.

وحين أتى القائد الأسود بمئات الرجال، أكرمه الجبلي أيما إكرام، وبسط له الحماية والماوى، وأقرضه المال ليناصره ضد المرصفي.

وكما ينتظر من فخر بني الأسود. أثبت الشجاعة والبراعة. حتى أذاق جنود المرصفي الرعب. وازداد بأس صغاليكه. ذوي اللباس الأسود. الذي عرفه بهم القاصي والداتي من وقتها.

كان للمرصفي بنتا جميلة، ورثت عن أمها - التي يزعمون أنها كانت من الأشراف - بهاءً وحسناً. جلب لباب أبيها أفواجا من الخطاب. فضعن بها عليهم. ينتظر أن يجد حليفاً يستحقها.

فأتاه القائد الأسود سرا. وقال له إنه رآها عفواً. فطار له وسلبت روحه.

وقال للمرصفي:

"أيها الأمير أنا عبدك. لو وافقت على أن تزوجني ابتك. فسأخلص من الجبلي."

واتهمز المرصفي الفرصة. فوافق. فطلب منه القائد الأسود أن يوافيه. في ميعاد معين. بأموال ورجال. وسط الصحراء. خارج المدينة.

وخرج له المرصفي برجاله سرا. فوجد كميناً من جنود الأسود والجبلي. قتلوه ومن معه. ونهبوا المال.

واجترّ الأسود رأس المرصفي. ووضعها في سلة. وأمر رجال الجبلي بالبقاء في الصحراء منتظرين. لأن المزيد من جنود المرصفي آتين.

ورحل عنهم بجنده. صانعا موكبا عظيما صاخبا. فخرج له الجبلي فرحا. ليشاهد رأس غريمه المقطوعة. ولما حملها عاليا في يديه يريها لأبنائه. استل القائد الأسود سيفه. وقطع رأسه هو الآخر. لتدحرج الرأسين الفريمين معا عند قدميه.

وهرب بمن معه مختبئا في الجنوب. بينما خرج أبناء المرصفي جميعا. يقودون الجند للثأر من الجبلي لا يعرفون بأمر مقتله. واستمرت الحرب بين الفريقين أياما دامية. أنهكتهما معا. وضاعت ربح أبناء الجبلي. إذ تفرق عنهم العماليك. لأن المال كان هو جامعهم. وقد انفرد به كبيرهم في قلعة حصينة.

وزحف أبناء المرصفي. يحاصرون القلعة طمعا في المال. وقد أشاع الأسود بينهم أنه يختبئ فيها. فزاد من إصرارهم برغبة الثأر.

وإذ الشغل الكل بحصار القلعة، اجتذب الأسود بعضا من رجال الجبلي، الهارين بها نهبه من مال المرصفي، فجمعهم، وهجم هجمة محسوبة على قصر المرصفي، فأحرقه، وقتل أغلب أبناله وهم نيام. ثم اتفق مع كبير معاليك الجبلي أن يكسر الحصار، مقابل نصف الثروة، ليمزق بمن معه جنود المرصفي، ويهرب آخر أبناله جنوبا خارج العاصمة. وأصبح عاجزا خانعا، وهو اليوم من أتباع الأسود!

لما آخته الحسناء، فلم يعرف لها أثر، وقيل إن أحد الجنود اختطفها، وباعها إلى حكام الأهبال.

وهكذا قضى الأسود على الفريمين معا، واستولى على أغلب كنوزهما، والكثير من رجالهما، وسرعان ما حول حلفاءه لأتباع. كان مازال في حسن الفطنة، وتعلم من خطي، فلم يقبل أن يجعل في جيشه أميرا غيره، لا ياتمر الجند بغير أمره، ومن يريد مخالفته، فليعلم أن عليه طاعته مطلقا. ورغم ذلك فقد زاد عدد جيشه للألوف في وقت قصير.

على أن انفراده بكل شمال العاصمة، بما تحويه من قلاع وجزر، أثار حفيظة باقي الأمراء، خاصة الحلفاء السابقين للجبلي والمرصفي، وأعداء الأساودة. فتحالفوا معا على طرده، وجمعوا جيشا كبيرا لسحقه.

لكنهم كانوا يواجهون من لا قبل لهم به!

جنوده - على قلتهم - منظمون مدربون، بينما جنودهم أخلاط من غث وسمين. وزاد من حرجهم أن نجح بجواسيسه في إيقاع الفتنة بينهم، وتجنيد عدد من أتباعهم وخدمهم، فانقض عليهم قبل أن ينقضوا عليه، واشبع جنودهم ذبحا وتقتيلا، لم يعرف مثله منذ غزو الأهبال، واغتال أكثر من نصف أمراء العاصمة في ضربة واحدة، فتشتتوا مهزومين، يتلمسون الطرق لقصورهم وقلاعهم.

لكنه تتبع أعداءه بالجواسيس والقتلة الماجورين، يقتلهم في قعور بيوتهم واحدا تلو الآخر، حتى رفعوا راية الاستسلام، وسلموا له أكثر من نصف العاصمة خالصة بلا مرء.

لما بلغ هذا الشأن، فكرت أن أرسل له عفوي وفخري بولدي، الذي أثبت براعة في الحرب، وحنكة في القيادة، ومهارة في السياسة. لكنه كرر خطاه الأكبر

جروب " ربيع الكتب " .

مرة أخرى، أثقل على أهل العاصمة بالضرائب والمكوس، حتى فسدت التجارة، وزاد الفقر والفاقة، وهرب الناس من أرضه إلى أرض غيره.

لم يفهم ولدي أبدا كيف يحافظ على البقرة الحلوب، فينتفع منها دون ذبحها، أو إهلاك عجولها. ظل يستنزفها حتى جف الضرع، وضمير اللحم.

ولما تناقصت الأموال معه، وتزايدت الأحقاد عند خصومه، أقدم على جريمة لم يسبقه لها أحد. وما كان للعفو مكان بعدها. أعطى الأمان لبعض التجار والأمراء بعهد مكتوب، ثم غدر بهم، فقتلهم، واستخلص أموالهم. وكرر الفعلة مع عدد من حلفائه الأغنياء، ولعل ذكرى (ميت الدم) والعهول الذي فعله فيها، تخبركم عن الأهوال التي يذيقها للحلفاء قبل الأعداء.

لكن هذا البطش أثار الرعب في القلوب مع ما أذاعه عن نفسه من أكاذيب. كانه ماخ للجن، وأن له باعا في السحر، يعرف به ما يدور في النفوس. فامتد سلطانه على العاصمة كلها، وما حولها، ليوحدها لأول مرة منذ سقوط الملك.

ثم تحالف مع الأهبال، وتعاهد مع الفرنجة، لتزيد أمواله برشاهم، وقويت شوكته، وسحق كل من تسول له نفسه أن يتحداه.

واليوم، بعد أن امتد سلطانه على إقليم الوسط بأكمله، توج نفسه في قصر الملك القديم، وأعلن نفسه حاكما على كل البلاد.

إني احذركم من اتباعه، سيفسد في الأرض، ويعيش الناس في عهده رعبا دالما، كما إنه سيمنع الأهبال والفرنجة من الأراضي ما عجزوا عن انتزاعه بسيوفهم منا.

نحن في الشرق محاصرون بينه بين الفرنجة والأهبال، ولا أمل في الشمال الذي هجر، ولا الإقليمين الجنوبيين الذين امتلكهما قطاع الطرق. ومن بقى فيه من أمراء وقبائل يتذلل للأسود.

لكنكم في الغرب أملنا الوحيد، للوقوف ضد هذا الليل الفاشم، فلم تمزقكم الحروب قدر ما مزقتنا، وحلفاء الأسود هنا قليلون لا يخلص لهم ولا يخلصون له، وليس له الكثير من الجواسيس هنا. فلو حالفتم بني الأسود بسيوفهم الجبارة، فسنستأصل هذه القرحة الخبيثة، وتخلص البلاد.....

هنا قاطع استرساله الرجل المهيب صارخا:

خالصة!.... لمن؟ لأشتات من أمراء؟ ستعود البلاد لسيرتها الأولى من تفكك وتمزق. هذا لو لم يهزمتنا الأسود جميعا. سواء في أول مرة. أو حينما يعود نهيرات الألوف من الفرنجة والأهبال. لتضيع أراضينا وأموالنا. ويزيد الثمن الذي سيقبضه الفرنجة والأهبال من أرضنا. لو عاهدنا الأسود وحالفناه. فسنحقن الدم المهدور عبثا.

(6)

عن الوريث الأخير

عم الصمت المكان بعد تلك الكلمات. أراهن إنكم مثلي لم تتأثروا كثيرا بحديث العجوز الفارغ، ونفاقه المفضوح. لكن من معي كان يمعن النظر في جبروت الأسود، ويوازن بالخوف من غدره. بينما كنت أفكر في كيف يزالفنا هذا العجوز بالحديث عن العدل والبناء؛ بينما مأخذه الوحيد على ابنه ليس الدماء البريئة، وإنما فشله في الطفيان على الوجه الصحيح!

ولذا كنت أول من تكلم، كنت الوحيد المنشغل بأحوال البسطاء لأنني منهم، ببساطة لو لم يكن هناك بديلا للأسود، فأنا أرحب به ملكا! أي ملك ينظم حياته، أفضل من لا شيء. لكن إن وجد من هو أفضل من الطاغية حليف الأهبال، فلم لا؟

وهكذا كسرت الصمت بقولي:

"لو اتفقتم على حرب الأسود، فمن يقود البلاد؟ يجب أن تتفق على ملك بديل له، يحارب الأهبال من بعده وغلا، فحتى لو انتصرتم، سيعود على رأس جيش منهم، لا يبقى ولا يزر. يجب أن تختاروا ملكا بديلا."

صرخ الشركسي:

"لعلك تريد تسليم البلاد للغيلان الحمر!"

قاطعه ابن عامر:

جروب "ربيع الكتب".

fb.com/groups/exchange.book

"ليقصد ما يقصده، المهم إن السؤال صحيح. إما أن نتفق - والآن - على شخص لا ينازعه أحد في الملك، ولا يقول له أحد: أنا أحق منك، وإما أن نسلم امرنا للأسود."

تكلم لأول مرة أمير شاب مترف:

"لو اجتمعنا كلنا على مبايعة ابن عامر، أو حتى على الشيخ الأسود، فلن يجتمع لهما الناس في باقي الأقاليم، وستجدون من يخرج قائلا "إن كان هو يطلب بالملك لكذا فأنا مثله وأحق بالملك منه."

الدفء آخر:

"إما أن يأتي شيخنا باسم بيدل الأسود، لا يختلف عليه اثنان، أو يريحنا من إلحاحه وأحلافه المدمرة."

نظر الجميع بتحدٍ لشيخ الأسود، لكنه قابلنا بابتسامة غريبة، كأنما أتينا لها يرغب. وظل هادئًا، منتظرًا فراغنا من الحديث، ففكرت أنه إما أتى ليرسخ في أذهان الأمراء الاستسلام للقائد الأسود، وطاعته بدلًا من محاربتة.

لكنه تكلم بغير ذلك تمامًا. أتى بما لا يفهمه عقل، أو يطيقه صدر. تكلم عن سليل الخلفاء، وريث الملوك، حامل عهد الخليفة. هذا الوقح كان يتحدث عن الوريث الأخير لملك البلاد!

تبا له، لو كان الأمر بيدي لفتكت به، وشاركني في الثورة عليه الجميع، وأعني بالجميع كل من في القاعة، حتى أتباعه الذين كانوا يقفون خلفه، فقد نظروا لسيدهم كأنما به مس بالجنون، لا "كأنما" وإنما هو به مس من الجنون فعلا!

هذا الدعي الكاذب المارق أوجد طريقًا لأذن السود الكبير؟ أوبلغ به الخرف والجنون أن ينسى كم من الآف أضعار أرواحهم هذا الدعي الكاذب؟ هدر دم أبي عبثًا، ومات كمدا بسبب هذا المنافق. انعود لهذه المأساة مرة أخرى؟ ندور بالدعاة بين المساكين والبسطاء وال دراويش إن آخر أحفاد الملك، سليل الخلفاء، صاحب الحق الشرعي في الملك، كما سلم له الخليفة به في الخطاب المشهور؟ أما يذكر كيف هجر الآلاف بيوتهم يتبعون (صاحب الحق الوريث الأخير) على أمل أن يرد لهم ما انتزع منهم ظلما في الفتن، التي تتابعت عليهم كقطع الليل المظلم، وعدد من المفلولين، الذين طمعوا في استعادة المجد باتباعه، ثم انتبه له القائد الأسود - ولم يكن قد وصل لها وصل له اليوم من

قوة - فهاجمه ومزقه هو وجنوده شر ممزق. ثم افتضح كذبه وإنه ليس سوى داعية من دعاة الخوارج. خدع الخليفة ليسلب منه البلاد، فانفض عنه الناس، بعد أن أرسل الخليفة تبرؤ منه، واحتفى في أحراش الشمال لم يعرف له مصير.

هتفت محتما بأصوات البقية:

"لم يكن هذا الوريث سوى داع كاذب، وثبت برهان هذا للناس كافة."

أخيرا استطاع الرجل أن يرد علينا، ويا لهيبة زعيم الأسود، فما أن نطق بكلمته الأولى، حتى خرست الألسنة منصتة.

"هذا كان دعي كاذب فاسق، وسنه كان أكبر من سن الوريث الأخير الحقيقي، لكنه استخدم أنباء حقيقية، ونسبها لنفسه زورا.

كنت بنفسني شاهدا على نجاة ذلك الأمير من القتل، وهو مازال جنينا في بطن أمه، فربما تذكرون أن آخر أبناء الملك لجلوا لأنسابهم، في واحات ساوة هنا في الغرب."

كنت سمعت بمثل هذا الأمر، فلاحى ساوة يتفاخرون دوما على من حولهم بأنهم أنسباء الملك؛ لكنها بدت لي دوما قصة سخيفة، لا يصدقها عقل.

أكمل شيخ شيوخ بني الأسود:

"اعتصم آخر أبناء الملك في ساوة من الذبح، الذي أعمله الثوار في آل الملك، إلى أن اقتحم أعداءهم الواحة، وأبادوهم.. أظنهم كانوا من جنود حاكم قلعة ساوة، التي في الجنوب يا شركسي؟"

رد الشركسي متبرما:

"لا لم يكونوا من جنود سلفي، بل أتوا من الحاضرة والطريق الأقصر عبر مدينتي."

نظرت مستهزئا لهذا المفرور، فمدينة ساوة ليست سوى مجموعة من القلاع، تقع وسط الطريق بين الواحات والحاضرة، لكنه يصر على تسميتها مدينة!

تنحنج الأسود، قبل أن يبدأ في قصي الأمر:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

لجا منهم امير واحد، او ابن احد الأمراء، وتزوج من بنت رجل ثري تسمى سارة. البت لي مستفيضة- بعد ان قتل زوجها- حبلى بابنه. ترغّب في الرحيل شرقا إلى مدينة طرابلس. لرجل يسمى الشيخ (سلطان القنبوري) -كما أخبرتني- وأنا متيقن ان ابها مازال في طرابلس، لم يغادرها، ولم يأت لتلك البلاد لكنه قابل أحد دعاة الخوارج، فقص عليه قصته، لينتحل هذا الدعي شخصيته.

مالت هذه أنباء غريبة عن اسماع القوم. صحيح إنه كان هناك دوما همس بوجود امير ناج، وبعض الرجال تمادوا فزعموا أنهم دعوه لحكم البلاد، ولبهموه بصقر قريش الذي اتقذ الأندلس من فتنة مريرة، لكن هؤلاء سرعان ما الكسروا على يد أمراء المماليك الطامعين في العرش، ولم يعد الناس تردد هذه الخرافة، خاصة بعد ان جاء الوريث الكاذب. ثم انهزم.

واليوم يأتي رجل توزن كلمته بالوف السيوف، ليزعم أنها حقيقة!

نكلم أحد الأمراء بكلمات مثاقلة:

"لفرض بصحة هذا الأمر. ما خطر الوريث على القائد الأسود؟ انى له بجمع الرجال والسلاح الكافي لمحاربتة؟"

رد بهدوله المستفز:

"القائد الأسود يدعو لنفسه بالملك. لأن أحدا لا ينازعه عليه. لكنه يدرك ان ليس له في ملك البلاد حق شرعي. أما حق الوريث فلا يختلف عليه اثنان، ولا ينازعه فيه أحد. هو شخص كما طلبتم لا يوجد في كل البلاد من يستطيع ان يقول عندي مثل ما عنده، وأنا أحق بالملك منه."

كالما هو نفسه لم يطلب الملك! وكانما المماليك يهتمون بالحق الشرعي! على إن الفكرة نفسها تستحق الاحترام، شرعية لا يستطيع أحد التشكيك فيها أو مذارعتها؛ رغم ضعفها، مقابل قوة غاشمة. ومضة يقين وسط طوفان الشك! ربما كان هذا الوريث آخر أمل للبلاد، حتى لو كان أملا كاذبا واهنا، لكنه يظل الأمل الأخير، لذا يستحق ان نحاول اتباعه.

وادرک الأسود الكبير انه لم يقنع أحدا بما قال، لذا حاول تعزيز حجته بقوله:

"تذكروا إن الناس التفتت حول الكاذب من قبل، والتفافهم حول الوريث الحقيقي سيكون أشد. وخطاب الخليفة مازال قائما لم يلفه، حينما أعلن تبرؤه من الكاذب. قال إنه نصب آخر أبناء الملك خلفا له، وهذا الكاذب ليس هو

المقصود.. لو وضعنا الخطاب في اليد الصحيحة، ووقفنا مع خلفه، فتصورا
كيف أثره؟

جادلهم أحدهم:

" ليس للخليفة حول أو قوة. ماتت الخلافة قبل موات الملكية عندنا بدهور."
رد عليه:

"الناس دوما تحب أن يبارك الخليفة حاكمها، وحتى لو كان عاجزا، فمازالت
كلمته ذات أثر. على الأقل في نفوس الجند والأهالي."

رد آخر:

"لكن تذكر كيف سحق الأسود هذا الدعي الكاذب قبل أن تعرف حقيقته، فلم
ينفعه خليفة أو بسطاء. اليوم، أصبح الأسود أقوى مائة مرة، وتحالفه مع
الأهبال والفرنجة أشد، فأنى للوريث بمناطحته؟"
أكمل العجوز مجادلته الهادئة:

"لم يكن خلف الدعي سوى دراويش ومجاذيب، أما الوريث فسيكون معه أمراء
الفرب، وقبائل بني الأسود. ولتعلم أن حديثك هذا يقوي حجتي، لأن ما قلته
يثبت كم خاف القائد الملعون من الوريث، وإنه يعلم خطره عليه، وإلا ما خرج
له من العاصمة وهو لم يشهد عوده بعد!"

تكلم مضيفنا ابن العبدلي:

"تحدث عن رجل لا نعرف إن كان حيا أم لا، ولا ندري أيرغب في ملك لا يغبط
عليه أحد، أم إنه عاقل زاهد فيه!"

قال الأسود:

"لم أستطع مخاطبته وحدي لهذا السبب، فسيخشي السدل حتما، إلا لو أتاه وقد
من أمراء الفرب يأمنوه، ويبيعوه مبيعة مكتوبة، وهنا سيعود حتما ليقودنا
في حرب مقدسة لتوحيد البلاد. وأنتم ستكونون أمراءه، وكبار رجاله، وحاشيته
التي تبسط خيرها على كل شبر من الأقاليم الثمانية، بدلا من أن تكونوا خدما
للأسود."

بدت لي أن الحجرة أضيئت بلهب الطمع، الذي برز من بعض العيون، لولا أن بدر
ابن عامر الأمر بسخطه قائلا:

’لها لهذا اللغوا أتدرك ما تطلبه منا؟ نسير في صحراء قاحلة عامرة
بالموصها، كي نعبّر النهر بين يدي القائد الأسود، غريمتنا في هذا الأمر! ثم
نصل للثغور التي يعتد حكامها بأنفسهم، ويقتلون، ويسلبون من يشاؤون من
المسافرين، لنمر وسط حرب ضروس بين أساطيل الصيادية، والسور العلي.
لنصل لطرايل باحثين عن أمير لا نعرفه، في أرض لا نعرفها. عند حاكم لن
يرحب بمن يعاندون الأهبال، الذين تذكرت الآن إن لهم قلاع على طول الطريق
من الساحل إلى طرايل!’

لم يهتر شيخ بني الأسود بالحديث، وإنما قال:

’هذا صحيح، ولذا فستكون أنت على رأس الوفد!’

شحب وجه ابن عامر قليلا، لكنه لم يتكلم. لا أدري، أيشى ان يبدو خلفا، أم
بخشى غضب الشيخ، أم ربما يفكر في أمر ما مكتوم علا.

لكن الأسود الكبير لم ينتبه لهذا، وأكمل حديثه:

’أنت تعرف الطريق جيدا، وقد عبرته أكثر من مرة لمقابلتني، ولن يكون الطريق
خطرا هكذا لو عبرتم من الجنوب، بعيدا عن أراض الأسود إلى أراض قبائلنا،
لأرحب بكم وأكرمكم وأسلمكم لحيفي الأمير الأبيض، أمير الزرقاء،
لتنقلكم سفنه على نفقتي إلى طرايل مباشرة من البحر الشرقي، بعيدا عن
الصيادية والسور العلي والأهبال.’

صمت ابن عامر فيما بدا موافقة، فقال ابن العبدلي:

’هذا يحسم الأمر في ظني، لو أتى الوريث من طرايل، فسئسوده علينا، لنسود
البلاد وهذه صفقة أطيب من أن تفوت لوعود غادرة من القائد الأسود؛ لكنه
لو رفض، فلن نملك إلا التسليم معا، أتوافقني على هذا يا ابن عامر؟’

هز ابن عامر رأسه موافقا، فتبعه باقي الأمراء دون معارضة، يبدو أنني - لأول
مرة في حياتي - أراهم يحكمون العقل، بل أيضا يحكمونه معا على قلب رجل
واحد!

فقال ابن العبدلي:

’ومن سيرافق ابن عامر، سيد الثغر الكبير، في رحلته؟’

قال الأسود الكبير:

"أود مرافقتكم بنفسي. لكن سني الكبيرة لا تسمح. وسفينة الإفرنج، التي ستعيدني لبلاي مع أهلي، لن تسهكم جميعا، خاصة لو رغبتنا في كتمان الأمر عن ولدي. سيرافقكم ابن أخي حسام بدلا عني. مفوضا من بني الأسود، لهبايعة الوريث ملكا."

وأشار لهذا الشاب الذي كان يتسند عليه.

وقال الأمير الأبيض بلهجته الإفرنجية المضحكة:

"وسارافقكم أنا أيضا، لأؤمن الطريق من الزرقاء، وممثلا عن محاربيها كما طلب من حليفي الكبير."

طبعا يقصد القراصنة، لكن الأمر بدا لي مشبوحا إلا يسبقنا بسفينة الإفرنج مع الأسود الكبير. وسفينة الفرنجة هي أأمن طريق للسفر في بلادنا. لأن أحدا لن يجرؤ على إغضابهم.

ثم انضم هذا الساخط، الذي يذكر في كل جملة (ميت الدم) واثنان أخران، يبدو عليهما أنهما موتوران، والأمير (جركس ابن بارم ديله)، واللازوردي، وشهاب الشركسي، الذي سيرافقهم على الأقل حتى قلاع ساوة في الجنوب، التي تحمي الطريق بين ساوة الواحة والعاصمة، وبينها وبين الإقليم الجنوبي. جمع لطيف حقا، كفيل بإقناع الوريث، وحتما كنت سأوافق عليه، لولا ما فعله ابن العبدلي.

فقد فوجئت به يقول: "إن كنا مرسلين أحدا إلى الخطر فحتما سنرسل غولا أحمر!"

تجمدت مذعورا. لا أصدق أذني، بينما الشيخ الأسود يضيف بارتياح:

"هذا ما أدركته منذ علمت بأمره! تلك حرفتهم وقوتهم!"

وتحلقت الأنظار حولي، وأدركت إلا مفر لو أردت تجنب الموت وافتضاح الأمر. وبصوت متحشرج يعلو قلب خافق قلت:

"أنا معكم!!!!!!"

(7)

عن ذكريات سقوط الزرقاء

أدركت أن الفرار واجب، والنجاة مطلوبة، وأن الليلة يجب ألا تمضي عليّ في هذا القصر الخانق. كان الأمراء قد اتفقوا على التلاقي بعد يوم، على رأس طريق العاصمة، بعد أن يدبر كل منهم أمره، فيجتمعوا عند قلاع ساوة. وبالطبع، لم أرغب في أن أعلق معهم، وأجبر على الذهاب، لو انتظرت للصباح. فتفاديت الحرج بأن غادرت مبكرا جدا، أثناء الليل والناس نيام.

تسللت للحظيرة، لأخذ جملي. وما إن دلفت في الصحراء، حتى تبين لي أنني من المتأخرين، لا المبكرين. فأثار الخيول تملأ كل اتجاه، وخشيت أن أقابل أصحابها، فدرت حول الجبل شرقا، ثم جنوبا. رغم أنني أدرك أن هذا يؤدي بي لطريق العاصمة، لكنني فكرت إنه لو قابلني مرتاب ما، فسأخرسه بزعمي أنني أبكر لمكان التجمع.

لم يمض الكثير حتى لاقيت هذا المرتاب! الأمير الأبيض الإفرنجي، الحاكم الاسمي لثغرنا الوحيد على البحر الشرقي، خرج (ليستشيق الهواء) تحت بضع نخلات، وينظر لي في دهشة، بينما امتدت أيدي حراسه للسلاح فورا.

أشار لهم ليخفضوا سلاحهم، ثم تقدم مني وهو يتسم ابتسامة مكرة. وقال:

"إلى أين يا رجل؟"

قلت في تردد:

"أذهب لرأس الطريق، لأكون أول الراحلين، بعد أن أقابل بعض الأصدقاء."

ضحك ضحكة صافية كأنه طفل أهديته لعبة، فقلت بصرامة زالفة:

"لست من يضحك عليه يا أمير الزرقاء! ليس أنا!"

رد مبتسما:

"تعجبني! أنت حقا تعجبني! لم أر في حياتي من في مثل دهالك وخدامك وجسارتك! أنت لص، وأنا أمير قراصنة، لذا أعتبرك نوعا ما من قومي! ولذا فساهديك نصيحة غالية جدا."

رددت بفضب مصطنع:

"لست لصا، كيف تجرؤ؟"

هز كتفيه وقال:

"حقا؟! إذن فأخبرني ما كان اسمك؟"

بهت، وأخذت أشحذ ذاكرتي لأتذكره، بينما رددت عليه بسرعة،

"أنا سيد الفيلان الأحمر."

ضحك مرة أخرى وقال:

"أحسنت. إجابة فراوغة طيبة! لكنها ليست إجابة سؤالي، يقولون: على الكذوب أن يكون ذكور، وأنت لم تذكر اسمك أيها القبيل!"

قلت مناضلا الانهيار الذي يجتاحني:

"ماذا تريد مني؟ أنصحك ألا تعبت معي، فمن ورائي غيلان لا ترحم."

هز رأسه وقال:

"هم حقا لا يرحمون، أو كانوا كذلك. لكن الفيلان الأحمر انتهموا حقا، وقتلوا تفتيلا، فليس لمثلهم عودة. لكن يعجبني إصرارك، فهكذا يجب أن يكون المحتال!.. دخلت القصر، وجلست على أعلى الموائد، وخذعت الأمراء، بل أصبتهم بالرعب منك، واخترت انتحالا يكرهونه ويهابونه، وأخذت ما تريد من كنوزهم ورحلت! أهنتك. لم أر مثل هذه الجسارة إلا في الحكايات، ولم أكن أظن أن يوجد مثل أولئك الأفاقيين في الحياة. لو أردت أن تعمل معي، فستسعد

جروب "ربيع الكتب".

بالهرا. ويمكنني ان أستعين بمثلك. فانا دوما احتاج إلى جوارى ذوي الدهاء
والجراة".

سمعت متطلعا لي. لكني انتظرت حديثه. فقال:

'هي البداية ظننتك جاسوسا للقائد الأسود. لكنك بدوت مندهشا من انبائه.
واملرطت على الاستسلام له. وحين شاهدتك تنهب الطعام نهبا. أدركت
دهشك التي حيرتني: مجرد صعلوك مكرر. ارتدى درعا سرقة. او عثر عليه.
والحل زعامة الفيلان. ارهب فرقة في الأيام الخالية. ونهب ما خف وغلا. وسط
سهوة الحكام من تحت أنوفهم!'

ارتدت مجاراته. وفهم قصده. فقلت:

'والان. وقد كشفت أمري. ماذا ستفعل؟ تقبض علي؟'

اهلسم. وقال:

'هل امرض عليك ان تتضم لي. وفي المقابل سأنقذ حياتك.'

اعلصرت الرمح متبها. وقلت:

'وهم ستقذها؟'

رد:

'لأنك تمضي نحو هلاكك! هذا هو الطريق الذي اتفق الزعماء على السفر
منه. هل تظن أنهم حقا سيبحثون عن الوريث؟ كل أمير منهم سبقك يارسال
مدد من رجاله. ليكنوا في الطريق ويقتلوا الآخرين! كلهم يعمل للأسود.
وبراسله سرا. ويطمع ان قتل الوريث بيده. فسيكسب عنده حظوة. حتى بني
الأسود سيفعلون نفس الأمر! هم ياتمرون علنا بأمر شيخهم. إجلالا له. كما
ارسلني القراصنة هنا. حتى لا نفضبه! لكن وقت الأفعال. لا تعلوا كلمة فوق
علمة القائد الأسود.'

بعت لهذه الخيانة. فوجدت نفسي أقول:

'وماذا عن ابن عامر. والأمراء الموتورين من الأسود؟'

لظر لي بدهشة. وقال:

"وما يعمك من أمرهم؟ هم يفهمون الحقائق، وسيرجعون غالباً لديارهم لا يفعلون إلا ما يفعلونه دوماً: الانتظار."

قلت:

"إذا فسيقتلون الوريث المسكين، لا يدافع عنه أحد؟"

قال بهدوء:

"دعك من شأن هذا المفبون، وقل لي، ماذا عن العمل معي؟"

رددت:

"إلا يكفيك قراصتك؟"

قال:

"أنا أعمل عندهم لا العكس! واكاد أقف وحيداً، أجاهد لإلقاء الزرقاء من السقوط المحتوم."

رددت بفيظ:

"وهل بعد القراصنة سقوط؟"

قال:

"لنت إذن من الموتورين الذين هجروها عندما سقطت!"

قلت:

"أو سمعت عن الهول، الذي حدث على أيديكم من أحد مساكنها."

قال بفضب:

"على أيدينا؟ لست ممن ذبحوا سكانها. كنت أتاخر مع أهلي في السوق، فحوصرنا بفتة، ولو هربنا للصحراء - مثلما فعلت أنت - لقتلنا الأعراب. لأننا فرنجة. أنت هربت، بينما بقينا نحن نشهد الموت والدمار، ونهرب من بيت متهدم لآخر محترق، نقفز فوق الجثث والأشلاء، لا نملك أن نلتفت خلفنا لنعين من يسقط منا. تساقط أبي وأمي وأخوتي واحد تلو الآخر أمام عيني، وقتلوا أبشع قتلة، ولما بقينا أنا وأخي، توجونا - فوق جثث أهلنا - أمراء على المدينة. ومن يومها أدركت أن الحياة تسير، وعلي أن أسير معها، مقهوراً أو راضياً لا

جروب "ربيع الكتب" .

fb.com/groups/exchange.book

فارق، مادمت أعيش. اليوم لي ملك - ولو بالاسم - وبعض الخدم والحشم، وبيت آمن، فلم التمرد عليه؟ بل لأحاول أن أحفظه قدر حمدي.

لمبني فضولي. وقد كانت الزرقاء علي دوما عزيزة. فسألته.

' وهل يوجد من يهدد الزرقاء؟ كل المتخاصمين يخطبون ودها.'

رد بلهجة من يلقن تلميذه درسا:

'إن انتصر الأسود، فسيقدر بنا، ليملك الميناء. أو يهديه لحلفائه. ولو عاد الوريث، فسيسعى لطردنا - حتما - من بلاده. ولو اكتسح الأهبال كل شيء، مسيدمرون كل شيء كعادتهم. لا أمل لنا في البقاء إلا ببقاء الفوضى. فلا يستطيع أي شخص توحيد البلاد. ولا أملك إلا المكر والخداع وتأييب القوم على بعضهم البعض. وهنا أستطيع أن أستاجر رجلا مثلك أنت وكل عصابتك - لا نزعم إنك تعمل وحدك - وثق إنني ممن يجزلون العطاء.'

للحظة فكرت حقا في اتباعه. كنت أشعر بحقد وغضب على الأمراء، وأحسست أنهم خذلوني بشدة بعدما عرفته منه. أردت الانتقام منهم، ولو باتباع هذا الإفرنجي، الذي عرف كيف يستميلني بحديثه عن حصار الزرقاء، وأصبح شريك في أبشع تجربة مررت بها في حياتي.

دهفتني الذكريات: وكيف أنساها؟ كيف أنسى صوت والدي الملتاع وهو يأخذني فجأة من الكتاب، ولا يقول سوى (القراصنة، القراصنة!)، ولا ما رأيته من فزع الناس يجرون في كل اتجاه، وأنا طفل صغير لا يفهم ما الأمر. فالقراصنة في البحر ما شأننا وشأنهم؟

واحتميننا داخل المسجد. لأعرف أن القراصنة في الصباح حاصروا الميناء. وقتلوا من فيه، وأرسلوا للحاكم يأمنوه إن فتح لهم أبواب المدينة لينهبوها ويرحلون، وفعلها الأحقق الخائن، ليدفع هو وأهله والمساكين الثمن الدامي في ساعات قلائل.

إكان يتحدث عن الفرار من بيت لبيت؟ وماذا عنا حين هدموا المسجد فوق رؤوسنا؟ ثم أعلنوا امتلاكهم للمدينة ملاذاً أمنا لهم جميعا، بدلا من الجزر الصغيرة التي يتحاربون عليها. أكبر قرصنة في التاريخ كما يقولون: سرقة مدينة كاملة بأهلها وأبنيتها!

أه عليك يا زرقاء! ترى أراجع لك مع هذا الأمير؟ أذكر كم كنت جميلة مزدهرة وقت لعبي. وكيف أصبحت خربة محترقة، حينما هربنا على جمل عجوز. فترى ما شكلك الآن يا مرعى صباي؟

وهنا أتني فكرة مجنونة، ورغم أنني حاولت نفضها من رأسي، إلا أنني سأته:
"وكيف علمت بأمر الكمائن المزعومة؟"

لم يقل سوى:

"لي طريقي! وطريقي آمن يذهب بي إلى الزرقاء. فهل ستثبت حسن فطنتك، وترافقني؟"

صمت لأفكر، كان يمكنني أن أتبعه، على الأقل حتى أصل أمانا لطريق القرية. كما إن تلك الفكرة المجنونة تلح علي، وقد بدأ الضمير يحبذها، ويثقلني عن الفرار. ولا أفهم كيف وجدت نفسي أسأله:

"وماذا عن الوريث؟"

نظر بتعجب قال:

"ما شأننا به؟"

قلت:

"سيقتل هكذا، أليس كذلك؟"

رد باستخفاف:

"بالطبع، هذا قدره هو وعائلته السلعونة، أتفكر في أن نستغله مثلا؟ ستكون هذه مخاطرة حمقاء."

ظللت صامتا فترة، أجمع أفكاري، واستجمع شجاعتي. المشكلة إنني الوحيد في هذا العالم، الذي يمتلك من الضمير والمعرفة ما يوجب عليه محاولة تحذير هذا المسكين. لقد تخلى أبي - ذات مرة - عن فعل الواجب، لأن هناك آخرين يقومون به، ولأن لا فائدة ترجى من مناقحة من هم أقود، فدفع الثمن غاليا غربة، وأكمل الدفع حتى اليوم. لذا، فحين وجدت أن دم هذا الرجل سيعلق في رقبتني، وأن أمري أسوأ من أمر أبي، الذي ترك خلفه مجاهدين آخرين، شعرت بأغلال تجرني جرا نحو تلك العاوية، التي لا أعلم لها قرار، من المخاطر

جروب "ربيع الكتب"

والعلت، وأصبحت الفكرة المجنونة، الآن، مصيرا أساق له بجبروت الضمير، لا
أجد منه مناص. لكن الأمير الأبيض يقدر على مساعدتي.

أميرا جمعت من العزم ما يكفي. كما تعلمت يوما من شيخي (سر خلف ما
أراد قلبك له يميل، أو هواك عنه راغب!) وهواي يطلب النجاة من الموت،
والعودة للقريّة. فالناس تقتل عبثا، كل يوم، بلا حساب في هذا الزمن. بينما
لهي يطلب النجاة من إثم الدم البريء. وإن أغوص في الظلمات، فالذنب لا
يضيع عند الديان الذي لا يموت.

وهكذا وجدت صوتي حازما يقول:

"أيمكنك مساعدتي على إنقاذه."

نظر لي كما لو كان يرى عفريتاً! وقال:

"سمت دهرا، ونطقت كفرا!.. أتعرف جزاء من يتحدى الأسود؟ لعلك تمزح؟"

"فقط أحتاج منك لعبور البحر إلى طرابلس، وسادفع لك ما تشاء ما إن أعود من
هناك، سواء به أو بدونه."

هتف:

"جنلت حتما!"

رددت:

"إنما أرى ذنبا في عنقي إن نكصت عن إنقاذ دمائه، وفي مقدوري، ولو مثقال
ذرة من جهد، لتحذيره.

ها أمير الزرقاء أنا لست لصا كما زعمت، وإنما فلاح فقير، خشي أن يكون
اجتماع العظماء على وليمة من لحمه هو، فأتى ليتحسس الأمر، لأنذر إخواني
من شرهم."

نظر لي باحتقار، وقال:

"فلاح! حسنا أيها الفلاح.. فكر في أمري، فما عندي أشرف وأعز. دعك من
سخافاتك وأوهامك، أو على الأقل عد لفلاحتك أمنا."

غاضبي إنه يعتبر اللص والصعلوك أشرف وأعز من الفلاح، فرددت بان دفاع:

"بل ساذهب، واعدود - ياذن الله - بهذا الوريث، ليواجه الأسود. لا يختلف اثنين على ان امر الأسود شر، لولا الفوضى القائمة، التي لا تترك له بديلا، اما وها قد ظهر البديل في الوريث، فساسعى له، حتى لو كنت مجرد فلاح."

ضحك الرجل حتى كاد ان يسقط أرضا، وقال:

"فلاح يتحدى الأسود! أنت لست فلاحا، بل أنت، ببساطة، بالنسبة له لا شيء. مجرد كتلة من فراغ ملوث بتراب الأرض! أنت ضعيف جدا، بل هين الأمر: بينما هو جبار، أنت وحيد في وادي جنونك: بينما يقود هو الجيوش في عالم العقلاء، لا أمل ولا فائدة. أعجبتني بمكرك، فأترك عرضي لك قائما، وأصحك ألا تسرح، بفلواء الأوهام، عن طريقك!"

رددت عليه: "على الأقل سحاول، فهل لو وجدت نجاها ستساعدني؟"

نظر لي بدهشة، وقال: "مصر إذا؟! لا يفتأ المرء يجد العجائب في البشر!.. ربما لو بقيت حيا حتى تصل للزرقاء، أسمع لك بعبور البحر، تقديرا لشجاعتك الفيةة ليس إلا. غير هذا لا تطلب إلا نصيحتي لك بالعودة من حيث أتيت إلى بيتك الدافئ."

* * *

(8)

بداية الرحلة: المسيرة عكس الاتجاه!

لا أدري ما حدث، ولا أدرك كيف بدأ الأمر. فقط ضوء سطع في عقلي، جعلني أوجه جملي نحو الغرب دون كلمة، مطاطا الرأس. كنت أشعر أنني حدثت الرجل أكثر من اللازم، لذا لم أقل المزيد، ومشيت غربا.

لماذا الغرب؟ قرיתי في الشرق، والطريق يمضي جنوبا ثم شرقا إلى طرابلس؟ ببساطة، لأن واحة ساوة في الغرب!

لو كنت أبحث عن الوريث حقا، فيجب أن أفعل امرين: أولا لن أعود لقرיתי، وإلا سيقيدونني بسارية المسجد حتى أشفى من الجنون، وأفقد الدرع والدابة والنقود، إذ يستعيدهم الشيخ غلاب. على أي حال أرضي وبيتي رهنا عنده، وجزء من المال يمكن أن اعتبره أجري. وسأحاول أن أurd الباقي إن عدت حيا.

أما الأنباء، فمملتها لن يخفي عليه، وسينبئ بها نائب القاضي كل القرى، ومن ساوة سارسل له رسولا.

الأمر الثاني: إنني نظرت لما وراء ما أعرف، يبدو أن الأمراء فرحوا بمعرفتهم أن الوريث في طرابلس، وسيستبقون أيهم يصل هناك أولا. ليضيعوا أسابيع بلا جدوى، بحثا عن رجل لا يعرفونه، ولا يعرفون بينه، أو اسمه. سأبدأ متأخرا عنهم رياضيا، لأن من الأهم أن أعرف أولا شكل الوريث، واسمه. وقد قال الشيخ الأسود إن أنسبائه في ساوة، لذا فساوة هي مقصدي، وبعدها يجب أن أعرف

جروب " ربيع الكتب " .

الطريق من الزرقاء إلى طرابلس، وهو ما يعني رحلة أخرى نحو الغرب، كان الطريق لساوة قصيرا يسيرا، ولم أجد أثرا لحافر أمامي، أو وقعا لمطارد خلفي. ومن الواضح إن الطفاة سيقتلون بعضهم تجاه الشرق متسابقين، ولن يدركوا الحقيقة إلا بعد أن يصلوا لهنالك. تعلقت عقولهم بالشرق، وأخذتهم حمية السبق، ولم يبق لهم من الفطنة شيء. ولعلها معونة الخالق أغشت أبصارهم، وأضاعت بصيرتي.

(9)

حكاية نيمور العلاف

يقول عبد الشهيد ابن سمعان: قال لي تيمور ابن زهير عن والده عن
جده تيمور العلاف قال:

1-9 (التاجر)

كانت حياتي مزدهرة، وتجارتي رابحة. اشتري الأعلاف والفلال من ساوة وما
حولها، وأبيعها في العاصمة. تجارة ورثتها من قريب عن والدي، رضيت بأن
تكون نصيبي من إرثه، تاركا الأرض والفلاحة لأخوتي الأكبر سنا.

لم أكن أربح الكثير، حتى ثار الأمراء في الجنوب، وقطعوا الفلال فارتفعت
أثمان الأقوات، ثم في نفس العام، أتت أنباء زحف الأهبال، الاتين من أقصى
الشرق، فأحرقوا بلاد النهرين، التي حاول الملك استيراد الفلال والأقوات منها،
فأصبحت العاصمة على شفا مجاعة، ورأيت بأم عيني من كنت أوقرهم من
التجار قد استذبوا، واستحلوا الحرام، يبيعون القوت بأضعاف ثمنه، ويكتمونه
عندهم في المخازن حتى كاد يفسد، زاعمين خواء صوامعهم.

وما كنت لأسير في هذا الدرب السيئ، فكنت آتي بفلال الغرب، أبيعها بربح
حلال يكفيني، يزيد عن الأيام الخالية، لكنه في مقدور الناس. بدلا من أسعار
باقي التجار الشاهقة، فكنت لا أكاد أصل للسوق، حتى تكون بضاعتي قد
نفدت عن آخرها، واشتعل حولها الشجار والشحناء!

وذات يوم، ارسل لي كبير التجار يقول إنني أؤذيهم، وعليّ أن أرفع الأسعار. فرفضت. وبعدها بأيام، أتى نائب رئيس الشرطة يتهمني بالإخلال بالأمن العام. لأنني أتسبب في شغب الناس حول بضاعتي! وخبرني بين رفع الأسعار كباقي التجار، أو الرحيل عن المدينة أو السجن!

طبعاً رددت عليه باللفة التي يفهمها، فامسكت كيس نقود ممثلي، وقلت له:

"هذا ربح موسم واحد وهو يكفي".

نظر للكيس بجشع، فقلت:

"يمكنك أن ترحل بعيداً عني، أو اخذ الكيس. وارزق القاضي لينصفني!"

كنت أقصد إنني سأري القاضي الربح الحقيقي. لكنني كنت أعلم أنه سيفهم أنني سأرشو القاضي. ليؤذيه وهو ما يكفي لإبعاده عني.

مضت تجارتي مزدهرة حتى كثر المال، ففكرت في تجارة أخرى تنفعني في غير موسم الحصاد. كان الفرنجة وتجار بلاد الشرق الأقصى، كالهند والسند وما وراءهما، يأتون عبر البحر للزرقاء، هذا الميناء العظيم، ليبعوا ويشترى النفايس والعجائب واللطائف. ومنهم من يذهب في قافلة كبيرة كل عام إلى العاصمة. لبيع بضائعهم للأمراء والأثرياء. فأخذت أشتري منهم ما يعجبني. فإذا عدت إلى ساوة مررت في الطريق، بجمالي المحملة، بالمدن والقرى الصغيرة، أبيع لوجهائها تلك اللطائف، التي لا يعرفونها ولا يتحملون مشقة السفر للوصول إليها في العاصمة. ولهمؤلاء كنت أغلي الثمن كما أشاء، لأنها ليست بالقوت أو الضرورة، وإنما من الزينة التي يتمتعون بها.

ولما وجدت عظم الربح في تلك التجارة، وواظبت عليها، وجدت أنني أضطر للبقاء في العاصمة عدة أسابيع، بين نهاية الحصاد، وبداية توافد تجار الزرقاء، عالة على أقاربي. ففكرت أن أشتري داراً، تريحهم من ثقلي، وتؤويني. فمضيت بين دور العاصمة بحثاً عن سكن، فوجدت سكناً ومودة.

ما أن رأيتها حتى بهت! كانت جميلة حقاً، ليس الجمال الذي يؤدي العين، ويؤجج الفيرة، وإنما جمال طيب، ينساب إلى روحك. كانت هادئة خجولة، لا تكاد تسمع لها صوتاً، أو تشم لها عطراً. عيناها صافية كسمااء ليلة صيف حانية، وصوتها الخافت أجمل، في أدتاي، من أوتار القيثارة. روحها طيبة كالملائكة، وعلى فقرها، كانت سخية مع الأفقر منها.

ما إن رأيت زهيرة، حتى اشتريت الدار المقابل لها، رغم إنه كان أبعد الدور التي عايتها عن السوق.

ولم لا؟ قد بلغت سن الرجولة، وأريح مالا كثيرا، ولي دارا في ساوة، وأخرى في العاصمة! كما تقول شقيقتي دوما، بيوت العرائس تفتح لي أبوابها يسرا!

وهكذا أخذت أعد داري الجديدة بأحسن ما يمكن، مستعينا في هذا بجيراني الطيبين، ملتصقا الأعذار لأسأل بفطنة عن أهل الدار المقابلة، دون أن أفت الأنظار لأمري، فعرفت اسمها الجميل (زهيرة)، وإنها يتيمة تعيش مع أمها وجدتها العجوز في الدار، تحت كنف خالها شيخ الطريقة الشاذلية في مسجد المدينة الغربي الكبير.

علمت من أبي سكينه، تاجر الأقمشة الذي أراني هذه الدار، أنها تعمل في قصر الملك. ليس دوما، وإنما فقط في الولايم الكبيرة تذهب للقصر منذ الصباح، وتعود محملة بالكثير من فضول الضيوف، فتوزع بعضه على الفقراء، وبعضه على الجيران، وتبقي البعض تتقوت منه حتى الوليمة التالية.

فأدركت أن (زهيرتي) طباحة، تعمل في قصر الملك حينما يتقل العمل بمجيء الضيوف، فإذا إن كانت من نصيبي، ستذيقني طعام الملوك!

وعقدت العزم على الخطبة، فتساءلت كيف أفعل؟ أمن خالها؟ ربما كان لها عما غليظا، أو أختا متكبيرا، يستكثر طرفي باب الخال بدلا من بابهم؟ ولأنني أتبع النصيحة الشريفة أن استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان، وهي النصيحة التي طالما نفعني في تجارتي، لم أفصح لأحد بسؤال، وأرسلت في طلب شقيقتي، فهذه شئون لا قبل لنا بها، نحن معشر الرجال.

لم تقض أختي أقل من الليلة، إلا وأتتني بما شئت، وما لم أشأ من أخبار! عرفت أن أباه مات شهيدا ضد الفرنجة، ولا يعرف لها عم أو عمه، وهي وحيدة تركها أبوها رضية، فبقت أمها في حداد عليه لليوم، كذلك أخبرني بأصلها الطيب - على فقرها - فقد كان جدها لوالدها غنيا، كما يقولون، لكنه كان سفيها، أضاع أمواله، وباع قصره، وأتى لهذه المنطقة عاش فيها ذليلا، حتى مات محسورا.

اما جدها لامها، فكان قاضي القضاة وشيخ شيوخ الطرق الصوفية في كل القطر، وهذا لنسب يليق بامير، لولا ان تفرق على ابناء و عيال كثر، لم يصب كل منهم من المال والمنصب شيئاً يذكر.

واليوم هم رقيقو الحال، لم يبق من العز القديم شيئاً، ولولا معونة الخال الأكبر، وبقايا موائد القصر الملكي، لماتوا جوعاً، كما يزعم القوم.

وأدركت لم تاخر عنها الخطاب حتى اليوم، وحين قالت أختي بقلق:

"يتحدثون عن خطاب كثر اتوا فرحلوا؟"

رددت عليها:

"ومن يذهب لها في ظنك؟ باحث عن فقيرة مثله، يدهمه نبل اصلها، فيخاف، أم باحث عن نسبها يفاجئه فقرها، فيحجم؟ ما لها غيري ياذن الله، ولم يتاخر الخطاب إلا لكي اتقدم أنا!"

ردت شقيقتي وهي تمط شفيتها:

"أكره ان تزوج من العاصمة! مالنا ومال بناتها المرفهات؟ تعال لساوة انتقي من صويحباتي ما شئت."

قلت لها سالما هذا الجدل المتكرر:

"اشعر انها نصيبي، ولا أكون تاجرا اريبا إن تجاهلت ما رسمه لي القدر من مغنم."

قالت متبرمة:

"أي مغنم؟ إن تزوجت من خارج ساوة، فستعيش خارج ساوة، لأفقد أنا شقيقتي، وتفقد أنت تجارتك!"

تجاهلت تشاؤمها، وما كان العشق ليترك لجدلها منفذا! طمأنتها إني سأخذ زوجتي لساوة، وأطعم أشقائي من يديها طعام الملوك، فتركتني قائلة:

"أما وقد أحكمت أغلالها على لبتك، فلا فائدة، ماذا ستفعل الآن؟"

إلى حد ما أحسست بالقلق من شقيقتي! مادامت لم تتقبل الأمر، فلن ترتاح حتى تفسده بحيل النساء، وما أدراك ما حيل النساء! ربما أجد داري قد تحول

جروب " ربيع الكتب " .

الى كعبة لعائلات ساوة، تتوالى علي ضيوفا، بزعم التهنئة، وحقيقة عرض
بئاتهن علي!

لذا قلت لها:

"خير البر عاجله!"

وتركتها في غيظها، لم اخبرها بالعزيز، وعقدت عزمي على المضي دونها.
متوجهت للمسجد القربي الكبير.

وطوال الطريق، اخذت افكر كيف ساقابل الرجل؟ وماذا أقول له؟ في الحقيقة،
لقد خارت قواي فجأة، وأصابني الوهن حتى اكلتني الظنون! أترأه يردني ردا
غير جميل؟ ايقول لي إنني ابن الفلاح، لا أليق بحفيدة قاضي القضاة، ولو كانت
فقيرة؟ أيتهمني بشراء النسب بالمال؟

ولما اقتربت من المسجد، تفككت أوصالي ودعتني قدامي لركوب الريح
فرارا، وهي تخاطبني مستنجدة: هل ارتديت حلة تليق بهذا المقام؟ هل ترى
نفسك حقا أهلا للزواج؟ هل عطرك مازال نضرا، أم أن عرقك يفوح ليخفق
الرجل؟ هل الزواج اليوم أمر مناسب لك ولحالك؟ أترى وجهك مليحا يعجب
الفتاة؟ أظن بنات العاصمة يصلحن لفتيان ساوة؟

وهكذا تقاذفتني أسئلة عن شاني، مع أسئلة عن شكلي، حتى تناقلت أقدامي.
ولما وصلت للمسجد، قررت العودة مغلوبا من قلقي، لأتزين واتعطر، وأعود
في خير حال بعد أن اطمان على حالي واحسب أموالي.

ولما عدت مصفر الوجه للبيت، استقبلتني أختي بمصممة الشفاه شامته!

قالت لي بلهجة من توقعت الأمر:

"هل استكبر عليك سكان العاصمة، وأعادوك لحظيرتك وأهلك؟"

رددت مرتجفا:

"بل أصابني الفزع، إذ أدركت سوء لبسي، وقبح وجهي، وكراهة رالحتي!"

نظرت لي مندهشة، واقتربت مني، فتراجعت متضايقا إذ لا جهد لي لمواجهته
إلحاحها، ففوجئت بها تتشممني، وتقول:

"لا أشم إلا طيبا، ولا أرى إلا طيبا؟ ما بك؟ لا تخفي على أختك، هل خذلوك؟"

"بل تفكرت في الأمر. فخشيت أن أقابل الرجل بحالي هذه فيزدريني."

ضحكت! تلك الحمقاء تضحك علي تبا لها! تركتها. ومضيت لحجرتي مكسوفاً محسوراً. وأنا أشعر بضالة قدري. وحقارة حالتي. ووجدتها تبهني مسرعة. وضحكاتهما تدق على رأسي دقا.

قالت:

"أهذا أخي الجريء النشيط التاجر الأريب؟ أتسترخى بضاعتك النفيسة؟ ما اظن فيك إلا أنك بخير حال! أستبد بك الفرع يا غلامي. كما يصاب الحافظ إذا امتحنه شيخ الكتاب. فيتوه منه حفظه! لم اظنك تحبها لهذه الدرجة. إنما ظننتك فتت بجمال لم أره فيها. ووجدت صويحباتي أحق بك منها! هون عليك اليوم وغدا سأشرف على تزيينك بنفسي! واطمان سأذهب الليلة لزيارة جيراننا. حاملة معي بعضاً من أرز ساوة. وعطور الزرقاء. لأتعرف عليهم وحينها ساتيك بالخبر اليقين، إن كانت نفوسهم طيبة تستقبلك. أم لئيمة ينفرها الله فيك لتجو منها!"

فجأة، أتاني الحماس الجارف لا أدري من أين، فقلت لها:

"ولم الليلة؟ أستطيع أن احضر لك أفخر الأشياء من المخزن و....."

قاطعتني:

"أيها الخائب! لا تحرق أسرارك بهذه السرعة! هي هدية تعارف. لا نرهم بها لهفتك. حتى لا يفلو الثمن أيها التاجر الأريب! اهدأ أنت، واستخر الله حتى الفد. ودع الأمر لي."

كما قلت من قبل، هي شئون للنساء فيها باع، لا قبل لنا نحن الرجال به!

قضت الليلة في قلق ورجاء، ونزلت אחتي للمخزن تتقي من بضائعي شيئاً. فالححت عليها أن تأخذ قدر ما تستطيع. لتظهر قدرتي وكفايتي. لكنها حاجتني بانها لو أخذت المزيد، فقد يظهر الأمر كصدقة. لا هدية عادية، وهو امر لن تتقبله نفوسهم حتماً. فاكثفت تحت إلحاحي بجوال من أرز ساوة الشهير. وزجاجة صغيرة من العطر. وقطعة قماش نفيسة، ثم غادرتني مع الخادم قائلة بثقة:

"هون عليك، فمثلكا لن تجد مثلك أبدا. أنت بالنسبة لها هدية من السماء!"

جززت على أسناني، وودعتها، وجلست اتهم أصابعي قلعا متربصا.

ترى ماذا دهاني؟ في الصباح كنت واثقا مطمئنا، فإذا بي إذ اقتربت الساعة، أزوغ واتقهقر قلعا، ما أن ظهر لي احتمال الرفض، حتى وليت مدبرا ككلب خنوع.

لكن الوقت لم يمض طويلا، واتي شقيقتي هادئة فسالتها:

"كيف كان الأمر؟ عدت مبكرة؟"

ردت:

"لم اشأ أن أتركك في قلقك!"

ثم صمتت هنيهة، وقالت:

"لم يكن الأمر يستحق البقاء طويلا. جارة تزور جارتها بهدية، وتعرف عليها وتعود، كنت سأبدو سخيفة لو بقيت هناك."

سالتها:

"وماذا دار بينكن؟"

ردت:

"حديث سريع عن هدوء الحي هنا، وأنت أخي الطيب الثري، فضلت هذه الدار لطيب جوها عن الدور القرية من السوق. ثم ذكرت إن الناس تمدح في جيرانا، فأحببت التعرف إليهن، خاصة وإن الناس تذكر زهيرة بالخير. فرحين بي، وسألني عن كيف أرى الحياة هنا، فقلت أرى حياة ساوة أطيّب. ثم ودعتمهم وعدت."

نظرت لها نظرة خاوية، وقلت:

"فقط هذا! أيتها اللئيمة، ذهبت لتقولي لهن بلدي خير من بلدكن، ثم عدت!"

ردت مبتسمة:

"لا بالطبع! حينها أخص بالحديث من بين أهلي واحدا، وبالسمع من بينهم واحدة، فالأمر معروف، والتلميح يصل للتصريح، ولن يغيب عن أفاهمهن أيها المتذاكى."

جززت أسناني، متذرعا بالصبر:

"دعيني من الأعيب الحديث هذه، واخبريني بما رأيت."

قالت:

"تبدو فتاة طيبة، نعم الزوجة، ولو أن أمها حزينة بشأنها، على الأرجح لتأخر زواجها، وقد أحسست منها هي بالذات ترحابا."

(2-9)

(الخطبة)

هنا أحسست كأنما قد زال عن طريقي قاطع طريق متربص! وانشرح صدري،
وتهاوت مخاوفي. حتى استحمقت نفسي لها أصابها. وعقدت العزم على
الذهاب لخالها غدا دون إبطاء.

وفي الصباح قضيت حاجاتي مبكرا، ونظمت شؤوني، لأعود مبكرا للمنزل،
أغتسل واتعطر، وأختار أفضل ثيابي (أو اختارتها شقيقتي لي بالأصح). وذهبت
بخطى واثقة للمسجد، وكلما عاد لذهني وسواس من وسواس الأمس، نبذته
مستعيذا بالله من الشيطان.

توجهت للمسجد الغربي الكبير. فسألت عن شيخ الطريقة الشاذلية، فأشاروا
لي عليه، فتوجهت رأسا نحوه في حلقة ذكره، فقطعتها عليه، وقلت بصوت
حاسم:

"أريدك يا شيخي في أمر من مصلحة العباد، فهلا أذنت لي بانتظارك؟"

قال بصوت خاشع:

"بل آتي معك، فقد علمنا خير البرية إن قضاء حوائج العباد. مقدم على نفل
العبادات، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته."

وأتاني الشيخ الوقور متجهما قلقا، فابتدرته:

"أريدك يا مولاي في حاجة عزيزة، وأمنية شريفة. ولا أرجو منك إلا خيرا. أنا من
تجار ساوة. ارضى بالحلال. وأبذ الحرام. وقد من الله علي بالمال والصحة.
فأردت أن اكمل ديني وأتبع سنة نبيي. واستظل بنعمة العفاف.

وقد لمحت عيني زهرة صغيرة أينعت. وادرك قلبي أنها المختارة. وابقن عقلي
أنها اليمن على داري. فإن أتاني رضا وليها. أثارني لي حياتي.

نظر لي متأملا لفترة. ثم قال:

"أو تدري من والد زهيرة. ومن جدها؟"

رددت:

"سمعت إن جدها أضع ماله. فمالي وماله؟ مات أبوها شهيدا. فهل بعد ذلك
نسب؟ يزعمون فيها فقرا. فهل رأوا سخاءها؟ الفني بما يعطي. لا بما يأخذ.
ولذا فزهيرة عندي لا تسأل في نسب أو غنى. وكفاها إن جدها لأمها قاضي
القضاة."

مط شفتيه. وقال:

"أو تدري من والد زهيرة. ومن جدها؟"

كان صوته جادا. ووجه عابسا. فلم أعرف أيحذرنني من عيب فيهم. أم ينبهني
إلى أنني دونهم؟.. لكن عزمي كان قاطعا. ونيتي صادقة. فقلت:

"أوتدري يا شيخنا من هي زهيرة؟ مالي ومال جدها؟ كلكم من آدم وأدم من
تراب. إن كنت تخشى أن أضن عليها. أو أكون أقل شرفا منها. فقد قلت لك
إن الكريم أنعم علي برزق حلال. ولي أهل وعزوة. فكلنا في ساوة أخوة.
وإنهم ليعينونني وقت الحاجة، كما أعينهم عند الفاقة. فهل بعد هذا أسأل
عن رهط؟"

صمت الشيخ متفكرا حيناً. وقال كان لم يسمع غيرهاك

"كلكم من آدم وأدم من تراب."

ثم أضاف:

"حسنا يا بني كم تمهرها؟"

أشرقت السعادة في قلبي. فقلت:

"بكل غال ونفيس."

قال:

"فيم تجر؟"

رددت:

"أجر في الأعلاف صيفا، والنفالس واللطائف شتاء."

قال لي متحدثا ببطء:

"أنت قلت إن الفني بما يعطي، لا بما يأخذ؟ مهر زهيرة أن تطعم ألف جالع، وتكسو ألف عار، وتعتق مائة رقبة. وقلت إنكم في ساوة إخوة، فمهرها أن تشتري لها دارا في ساوة لها ولأمها. أتقدر على هذا المهر؟"

تجمدت للحظات أشعر بالعجز، لولا أن عقلي، الذي اعتاد على حساب كل شيء قبل أن أفكر فيه، أخبرني أن الأمر على صعوبته ليس مستحيلا، وأيده قلبي الذي تحدث عن نهر خير يجري على يد زوجة المستقبل، في وقت اشتد فيه الجوع بأهل العاصمة، ومزق الظلم ملابسهم. صحيح إن الألف كثير، ولن تكفيها أموالني، إلا لو قضيتها على أعوام، لكن لم يكن هناك مناص فالرجل يخبرني إنهم ليسوا أهل طمع، وإنما مثلها مهرها مهر الأميرات، ولست أنا بأمير، فلو جادته سارد خالبا.

لذا، نهضت دون كلمة، واتجهت للسوق أتدبر الأمر على كل وجه.

قد يكون أمر الإطعام سهلا عن غيره، فإنما هي تجارة موسم واحد ستكفيني، لكن كساء الألف، وعتق المائة لن يبقى له مال حينها.

ولكي أنفق المال، أحتاج للمال، وهنا عقدت العزم على القيام بأفضل ما يستطيعه التاجر الخبير.

أول ما بدأت به، هو تجارة اللطائف الأكثر ربحا. جهعت كل ما عندي من مال، وخرجت للزرقاء اشتري من تجارها، بمجرد نزولهم من المراكب، حيث يرخسون الربح للإسراع بالعودة.

لم تكن هذه هي زيارتي الأولى للزرقاء، فقد زرتها أحيانا مع بعض قوافل ساوة، لكني لم أحمل وقتها تجارة تذكر، وكنت أبيع لا أشتري. وبدأت لي

جروب "ربيع الكتب".

المدينة الجميلة المزدهرة فاتنة حقا. لكن تجارها خبراء ماكرون. احتاجوا
مني لمناهضة طويلة كي لا أقع في براثنهم!

كنت. لأول مرة. في مدينة تقوم على التجارة. وكل أهلها من التجار إلا قلة
من صيادين وبحارة. فاليوم يحتاج لفاصل مع المشتري. والشراء يحتاج لملاجة
مع البائع. وهو أمر مرهق أيما إرهاق!

لكني خرجت منها بقافلة طيبة. فمضيت من سوقها الكبير المزدهم إلى
أسواق الخاوية. التي لا يرتادها سواي في المدن والقرى الصغيرة البعيدة
في الغرب.

* * *

(3-9)

(كسر الحصار)

ورغم كل ما جمعته من مال في هذه الرحلة، إلا إنه لم يكن ليكفي. وقد اقترب وقت الشتاء العاصف، الذي تتوقف فيه السفن عن زيارة الزرقاء، وتندر بضائعها. إلا أنني في ترددي على الزرقاء ذهابا وإيابا، اخترت في ذهني فكرة.

حقول الجنوب تتكدس بفلالها، لا يمسهما أحد، بعد أن قطع أمراء المماليك المئونة منذ عامين، عقب هزيمة جيش الملك أمامهم. والحصار شديد يشكو منه الناس، ولولا إن ساوة، وما حولها، تسد رمقهم لفتكت المجاعة بالبلاد.

لكن لو كانت الطرق مقطوعة بيننا، وبين أقاليم الجنوب، فلا بد إن كنت مصرا على هدفي، أن اخترق هذا الحصار، أو ألتف حوله!

استاجرت من الزرقاء مركبا كبيرا، فسرت به للجنوب حتى شاطئ مقفر، فنزلت مع جمالي، وسرت ببطء في الصحراء، أتسس الطريق دون أدلاء، معتمدا على قراءة النجوم والرياح، مقتصدا في الماء والطعام، حتى وصلت أخيرا إلى أول القرى، وملها لمدينة ينبوعة الصغيرة، التي اعتدت زيارتها مع باقي تجار الزرقاء قبل الحصار.

أيتت لثتري بارخص الأسعار، فأعطوني بازهد منها. كانت بضائعهم ركدت، حتى افتقروا، وخشوا على حصادهم من الفساد، فبدوت لهم كفوث من السماء يخلصهم من حملهم!

واتى التجار والزراع يلحون علي في الشراء منهم. فاردتهم باني لا املك من الجمال ما يحمل غير ما اشتريت. وقد نفدت اموالي.

وهنا جاء عبد الله الطوخاني. شهبندر التجار في الإقليم، كان كبير تجار الفلال. وصاحب أكبر تجارة في أقاليم الجنوب كلها. قبل أن يكاد يفلس بسبب الحصار.

قال لي:

"عندي جمال هي علي عزيزة، لولا أنها سمعت من قلة العمل. فكادت أن تفضي للذبح زهيدة. ولدي غلال مقدسة في صوامعي منذ عامين، أصبحت نهبا للفران. لا أصدها عنها لأنها بلا أكل سواها. لا يضرني أن أقرضك الجمال. تحمل بضالعي وبضالك لتذهب بها للعاصمة، ولك نصف ربحي جزاء لمخاطرتك بحياتك في خرق الحصار."

نظرت له مترددا وقلت:

"لا أستطيع أن أقود قافلة بهذا الحجم يا سيدي. كما أن إعادة المال لك ستكون صعبة؟"

رد علي بهدوء:

"أثق فيك يا بني، كما أثق أن حق عبد الله الطوخاني عند أي تاجر لن يضيع! اموالي سادلك على من تعطيها له، وسيوصلها لي سالمة. هي واموال من يفعل مثلي."

لما سمع الناس بأمر خروجي بقافلة الشهبندر، توافد إلي الكثيرون يرغبون، إما من عاطلين يرغبون في الخروج معي، ومشاطرتي المغامرة والريح، أو ممن يرافقونني بتجارتهم، أو يريدون التمني على بضائعهم بنفس شروط الشهبندر.

وإذا بي أزور مدينة واحدة، لأخرج منها ببضائع إقليم كامل. أغلبها من الفلال، وبها بعض الأشياء الأخرى التي اعتاد الناس تجارتها.

لم أفرح بهذا الأمر. فالحقيقة أن الناس فقدوا حذرهم، ونسوا إن الممالك لن يرضوا بهذا الأمر، ولو وصل الخبر لهم، فسيكون الهلاك مصيرا رحيفا بنا!

جروب " ربيع الكتب "

واعلمنا تضخمت قافلتي. صعب علي أن ازوغ عن أعينهم. كما إن سفينة الرقء لن تستطيع حمل كل هذه الأحمال. مما اضطرني لإرسال رسول البحارة. لكي يعود بعضهم للرقءاء، طالبا سفنا أخرى. وهو ما كشف للناس الطريق الذي أتيت منه. مما يسهل على أمراء الممالك تبغي. ويضطرني إلى آخر مدة أطول في انتظار السفن الجديدة.

ولم أطق صبرا مع تزايد الناس في التراخي والثرثرة. إذ فوجئت وأنا أتجول في سوق المدينة ببعض الناس تثرثر عن رحلتي وبضائعي بلا اكتراث. وعن المكان الذي نزلت فيه سفني تحديدا! وقد علموا قبلي بوصولها وتكديسها. وإن الكثير من الصيادين المتعطلين عن العمل رافقوهم طمعا في أجر نقلة ما!

أسرعت أنادي بالرحيل. وأجمع القافلة المتضخمة وأنا أرجو الناس الكتمان. فإذا بي أجد المدينة. ومن حولها من قرى. قد خرجوا لي ولرجالهم مودعين. ومعهم النساء تنوح. والأطفال تهلل. فشعرت بفضيحة من يجرسه القاضي أثناء تسله لبيت يسرقه!

كان الأمراء حتى اليوم غافلين. فلست في موسم تجارة أو حصاد. أو حتى صيد. وهم لا ينتبهون للناس. خاصة في القرى والمدن الصغيرة. إلا في مواسم جمع الضرائب. والجبايات الثقيلة. لكن الفوضى العارمة. والصخب الفادح الذي حدث عند مفارتي. قد أعلمنا حتى الأموات بأمري!

مضيت في الصحراء المهجورة. أقطع الطريق مسرعا محملا كل شخص وجمل بقرب الماء. وإذا بخيال يلحق بي ملذرا بها توجست منه..

يا أخا الإسلام أسرع.

رددت عليه:

"من أنت؟"

قال:

"أنا نذير من أهل النبوة. علم الأمير ططش الألفي بأمرك. فأرسل أغاه بجنوده لاقتناصك!"

تبا لهذا الأمر. والأسوأ ان سبب معرفة الأمير الظالم كان مفيضا لي. أحد الفلاحين حمل بعضا من متاعه. يبيعه للأمير باي ثمن. فلما تعجب الأمير. أخبره الرجل -بمتهى السذاجة- إنه يجمع المال ليرسله مع القافلة لأقاربه في العاصمة!

زدت بالسرعة رغم احتمالي. وقد بدا الأمر سابقا بيني وبين جند الأمير الخفاف المدربين من ناحية. وبين كلينا والأرض القاحلة الجافة من ناحية أخرى. لو استطعت الصبر بما يكفي بعيدا عن الماء. بعد أن ينفد صبرهم. فقد أنجوا منهم. لأقع في براثن الظما.

أخذت أحث الرجال على المسير رغم سطوع الشمس القاتلة. والشمس هنا حارقة صيفا وشتاء. وأحتمهم في الوقت نفسه على الاقتصاد في الماء. ونجحت في الأولى. فلم يظهر لي غبار المطاردين إلا عند الغروب. ودق قلبي ذعرا. لكنهم إذ أصابهم الإرهاق والظما. ارتدوا خائبين.

وهنا وقعت في الثانية! الشمس القاسية. والتربة الجرداء. والهواء الجاف. يتأمرون معا على مياهنا المتناقصة بسرعة. خاصة وقد روى الرجال ظمأهم بغير حساب أثناء المطاردة. وبعضهم أهدر قربته على الأرض بسبب ذعره.

هنا أوقفت القافلة لتستريح أخيرا. وجمعت الرجال. فقلت لهم:

"الآن إما أن تسمعوا لي. أو تغادروني. منذ هذه اللحظة. فأنا الحاكم المطلق للقافلة. وأميركم الذي يسري أمره على رقابكم! لن تنجو إلا بالتدبر والحزم الشديد. فهل من معترض؟"

نظرت لوجوههم الدهشة المترقبة. ولم ياتني الرد. فأكملت:

" منذ اللحظة ونحن في خطر أشد من سيوف المماليك. إلا وهو الموت ظمنا بلا مفيث. لذا فلن يشرب أي منا في اليوم إلا كوب واحد. وفي الليلة إلا نصف كوب. سنمشي في الليل. ونحتمي من الشمس في النهار. حتر... عفف من وطأة الظما. ولا أعدكم إلا بعداب مؤلم. ومعاماة مضيئة. لكنها ستوصلكم للنجاة بإذن الله."

ام التوقع منهم التزاما بأمري. لهذا أخذت أدور على القرب أتفقدتها، لكنهم
ديوا ظن السوء عندي. ووجدتهم واعين للخطر المحدق بنا.

بنا أياما أخرى. في طريقنا للسفن. كان سيرنا بطيئا بسبب أثقالنا. وتفاوت
الاهوال. فالقافلة تسير على حمل أضعافها، فبدأ لي أن ما ظننته يكفينا من ماء
وراد قبل الرحلة، لن يجدي اليوم حتى مع الاقتصاد نفعا. وأمرت القوم أن
يأخذوا كل منهم بكوب ماء واحد في اليوم، وأخذت أسأل ذوي الخبرة
بالمكان منهم، هل من أبار قريبة، فيردوا أن هذه أرضا مهجورة. لا يعرف
فيها بئر!

وهل أن نصل للساحل يومين، نغد الماء عن آخره، وأصابني الفزع والكد.
أموت من العطش هنا على أعتاب النجاة؟ وقد استبد بنا وبدواننا التعب. فلم
ستطع أن نجد المسير، فأمرت بنصب الخيام للمعسكر، فصرخوا فزعين
"سنموت عطشا."

قلت لهم:

"رحمة ربكم واسعة، فنستغيث بها. سأخذ بالأسباب قدر استطاعتي. سأختار
مكم أجلكم على أخف دابة، ليطير مستغيثا بالبحارة، ليأتونا بالماء، بينما نبقى
لحن هنا، مدخرين ما بقي في عروقتنا من طاقة، مبتعدين عن حر النهار،
وزمهير الليل."

أرسلت رسول النجدة، وحثته أن يسرع، وانتظرت مع من معي، أدعو الله أن
يصبر الأيام الأربع.

باستثناء المشقة والعطش، مر أول يومين على خير؛ لكن الإرهاق شدد وطأته
ملينا بعدها. وبدأ الهلاك يرقبنا بصبر فارغ، فأصيب ثمانية منا دفعة واحدة
بالحمى، التي أقلقتنا. وخرجنا نبحث عن عشب أو شيء يداويهم، كما نصحن
أحد الرجال ممن له خبرة بالعطارة.

لكن هذا المكان القاحل لم يكن به إلا حفنة من أشواك. وخطب، وبعض
الصبار القليل.

وهنا واتتني فكرة، أتيت بصبارة، فشقققتها متحاملًا الأشواك، واستخرجت بعض لبها، فمضفته، فلم أجد إلا قليل من رطوبة ومرارة، لكنها أنهشتني. فأخذت ثلاثة من رجال، هم كل من يقوى معي على العمل، نمزق الصبار القليل حولنا وندفع بلبه في أفواه العطشى، علما تتصبر قليلا.

ولو إن بطوننا أمتنا يومها بشدة، خاصة وأن بعض أنواع الصبار مليئة للبطن، كما أعلمتني التجربة، إلا أننا تجاوزنا اليوم دون مزيد من جراح.

لكن في فجر اليوم التالي، بدأ الهلاك وشيكا حقا، فأمرت الرجال بذبح ثلاثة من الجمال المنهكة، وجمع دماؤها في إناء كبير. ورغم أننا كنا في مخمصة، إلا أن أيا منا لم يستسغ شرب الدم المسفوح، رغم الضرورة. ولذا جمعت الدم، وأوقدت عليه النار أعليه، وأضع أنا والرجال بعض الأطباق الباردة، أو القدور الفارغة ليتكثف عليها بعض من قطرات الماء المر، فنلحقها بشغف حتى احترق الوعاء بما فيه، دون أن نجد ما يروي الظما.

ثم أتى اليوم الرابع، الذي أرجح مجيء النجدة في آخره، فتناول علينا كأنه بلا نهاية، وقبل أن تغادر الشمس كبد السماء، كانت الحمى أوقعت الجميع إلا اثنين. وأحسست معهم بالألم واليأس، وبدأ الوهن يفتتني، والألم يحرقني، وارى الهلاوس حولي في كل مكان، لولا أن تماسكت حتى لا يفقد الرجال بقية جأشهم إذا وجدوا قالداهم قد انفطر.

وبدا البعض يحتضر فعلا من العطش والإنهاك، لولا مطر خفيف نزل فجأة على غير انتظار، وأشد ترحاب. بدت لي قطرات المطر حينها أثنى من قطرات ذهب وماس، فأخذنا نضع خرق القماش على الأرض لتمتص الماء، فنضعه على أفواهنا، وجباه المحمومين، ولم نملك من الجهد ما نستطيع به مع الماء بغير هذا الطريق، وقد أصاب العطش البعض بالجنون، فهجموا على الإناء المحترق، الذي حوى دم الإبل، يلحقونه بما اجتمع فيه من ماء أسن، دون أن أقوى على ردهم.

ورفعت رأسي للسماء استغيث، وخفضتها فوجدت النجدة آتية!

ثمانية من الأعراب، حاملون قربة ماء، ينزلون بحونا مسرعين منجدين.

وافتت ذاهلا، متصورا ان الهلاوس، والسراب قد تمكنا مني اخيرا، إلى ان وجدت الماء العذب اللذيذ يصب في فمي منعشا.

استغرق الأمر مني بضع دقائق. حتى استعدت رشدي. فجلست احدث الأعراب.

كان كبيرهم رجلا عجوزا، من بني سليم، يعمل راعيا للفنم، ودليلا للقوافل الآتية من الجنوب، وقد سمع بهجاء تجارة من الشمال إلى ساحل البحر، فخرج لهله يقتص منها شيئا، وحينها قابل رسولي، وعلم بحالنا فهب لنجدتنا.

وقال لي الشيخ العجوز:

"ترك بضاعتي خلفي، وحملت بدلا منها الماء، وجلت لكم بدلا من تجار الزرقاء، لعل الله يكتب لي ثوابا حسنا بنجدتكم."

فهمت ما يقصد فقلت:

"ولن يضيع الله اجر المحسنين. واجر هذا الماء وحمله لن يضيع. وفي قافلتني متسع لشراء بضائعك"

كنت مدينا للرجل بحياتي انا ومن معي. لذا مقد اكرمه في الثمن اكراما لا يعوض كرم النجدة. مهما فعلت.

وهنا اقترب مني احد رجاله. كان شابا حديثا. تبدو على وجهه سمات العزة. وعلى ملابسه سمات الفاقة. فقال لي:

"هل لي ان اطلب منك امرا يا سيدي الفاضل."

قلت له: "تفضل."

قال:

"انا من أبناء السبيل، فقد خرج علي قطاع الطرق، وسرق ما معي. فبقيت هنا شريدا لا أستطيع العودة لموطني، ولولا كرم بني سليم معي، لهلكت. لو حملتني معك على سفينتك للزرقاء؟ وسأرد لك نفقة السفر ما ان أعود لأهلي في بني الأسود. وتكون مكرمة لك علي لا يحوها الدهر."

ابتسمت. وقلت:

"لا تخيب ظني في بني الاسود! أترد بفقة مساعدتك؟ ما كان هذا لي، وما كان لكم."

وهكذا زادت قافلتي فردا، وكان نشيطا مخلصا ممتنا. وأكملنا طريقنا بأمان. وأنا أقودهم مهتديا بالنجوم. حتى وصلت للنشاطى. وقد حدثت عن المكان قليلا. واضطرت لإرسال الكشافة على الساحل شمالا وجنوبا. حتى اهتديت لمكان لقائي بالسفن.

وهنا اذهلني ما رأيت! السفن القليلة الصغيرة التي اتفقت معها لم تعد وحدها! لقد وجدت ميناء جديدا! مراكب كثيرة بعضها يتاجر. وبعضها يصطاد. وخيام حولها تشبه أسواق الأعراب. وخلق من كل جنس ولون يبيعون ويشترون! يبدو أن بنا رحلتي وقافلتي لم يصل لأذان العماليك فقط. بل وصل لكل بلدان العالم! وحملت السفن بضائعي، وبضائع غيري. وعدنا للزرقاء. لم ننقص فردا، وسرت ملها إلى العاصمة، فإذا بي أدخلها دخول الفاتحين!

وجدت آلاف الناس في انتظاري، تهتف، وتهلل لقافلتي، وتلوح لنا في ترحيب. والأطفال يتقافزون محاولين النظر بحثا عني. كأني أعجوبة من أعاجيب الدهر. أو ساحر أتى لهم بنفائس الهند والسند!

وعلمت أن الناس تسامعت (بالبطل)، الذي كسر الحصار بعدما فشل في كسره جيش الملك، وراوغ الأمراء وخدعهم، وأتى بالميرة رغما عن أنوفهم للعاصمة الجائعة. وحكوا في هذا قصصا لطيفة، وأساطير غريبة، تشوقت لسماعتها. رغم أنني بطلها المزعوم!

واكتملت بهجة الناس إذ أخذت أوزع الطعام على الفقراء هنا وهناك، حتى أتممت الألف، وزدت عليهم. وبيعت القافلة الضخمة بأكملها في يومين فقط. بأسعار غالية ما بين حاجب الملك الراغب في ملء خزائن القصر الفارغة، وطباخي الأمراء، وعمال القادة، وباقي التجار المتنافسين، حتى اجتمع لي ربح مهول. لم أظن في يوم أن أجمعه في عام.

وحمدت ربي على هذا الرزق العظيم، وأدركت أن صبري فيه عوض ورفضى لرفع الأسعار كباقي التجار. قد كان له عوضا مضاعفا، وما عند الناس ينقد، وما عند الله باق.

١٨٠ ان رددت اثمان البضائع، وأجرة الجمال، وأنهيت الديون والحسابات
١٨١ هدايا والصدقات، وأكرمت رفاق الزرقاء الذين أعانوني، استعددت للجزء
١٨٢ من المهر الفالي، وهو أمر أيسر مشقة، وأغلى ثمنًا.

١٨٣ اشراء ألف ثوب، دلتني رجال الزرقاء على ما أريد، وأحضروا البضائع لغاية
١٨٤، وأخذت أوزعها طوال الأسبوع حتى أتممت الألف.

١٨٥ م البليريت مائة من العبيد، واعتقتهم جميعا لأسدد آخر شرط في المهر، بأخر
١٨٦ الي الإقليلا.

١٨٧ ه لست منهنكا، أحصي أحوال الرحلة الشاقة، وأرباحها، وخسائرهما، وبعدها
١٨٨ ه هزت بخير ثوبي وعطري، وذهبت للشيخ مسرعا، ومعني الشهود العدول بما
١٨٩ ه هات، ولو إنني أظنه سمع ببلي، كما سمع به كل أهل المدينة.

(4-9)

(الحجيج)

نظر لي الرجل متفكرا ثم قال " أحججت لبيت الله يا بني؟ "

رددت " لم يأذن لي الله بالحج بعد. "

مط شفتيه وقال:

" قمت برحلة صعبة خطيرة طويلة، وتكاسلت عن الحج؟ وإني لأعلم أن زهيرة قد حجت من قبل مع والدها قبل استشهاده، وأكره أن أزوجها لمن لم يقدم دينه على دنياه. "

قلت مجادلا:

" يا مولانا، إنما أحاول أن أكمل نصف ديني بها أولا، وقد أجاز الكثير من المشايخ تقديم الزواج على الحج. وما كانت رحلتي الطويلة إلا لها. "

قال الرجل بحزم مستفز:

" رحلة أشق من الحج، ثم تقول لي تقديم وتأخير؟ لا أظنك قمت بها لأجل زهيرة، وإنما أنت محب للمخاطرة في المكسب، والكسل في الطاعة، فلا شأن لي بك. "

نهضت أجز على أسناني غيظا، لكنني تماسكت، وقلت:

" فليأذن الله بما فيه الخير. "

١٤٠ رحلت من المسجد أفكر في الأمر. طريق الحج شاق. والأعراب فيه ينهبون
١٤١ أهل الحجيج، ويقتلون ويسرقون، بلا خشية، كل من يقرب الحجاز. لكن إن
١٤٢ من أذن أذانه، فلن أحج وحدي.

١٤٣ لسأوة، أبنى أخوتي بعزمي على الحج، سألهم عن يرافقتي. وجادلتي
١٤٤ بهفتي طويلا في الأمر، فقد كانت تخشى علي كثيرا، فقالت:

١٤٥ هلك من التهلكة، واتبع نصيحتي. أزوجك من هي خير منها يا فتى. وأنت لا
١٤٦ تدري ما شأن خالها هذا، فلعنه يطلب ملك أن تحرر بيت المقدس من الفرنجة
١٤٧ هل أن تخطبها!

١٤٨ طلبي أصررت، وقلت:

١٤٩ هذه فرصة لأداء الفريضة الأشق، ونحن في صحتنا يا فتيان سأوة!

١٥٠ است ممن يرجع في أمر كهذا، هلاك قول للنبي العدنان (حجوا قبل ألا
١٥١ تحجوا.) وأما وقد عقدت العزم، فلا مفر ولا مرجع.

١٥٢ كان من أقنعها هو زوجها طالع، فقد بدا له الأمر إغراء نادرا لم يكن ليحلم
١٥٣ به. فسرت بقافلتني الصغيرة، نسبق قوافل الحجيج بثلاثة أشهر كاملة إلا
١٥٤ شهلا، لعلنا نصل قبل بدء موسم نهب القوافل.

١٥٥ حينما وصلنا لمدينة الثغر الصغير، بدا لنا طريق البر شديد الخطر، ومقطوعا.
١٥٦ فالأهبال يزحفون عبر البلاد، لا يبقون على بشر أو حيوان أو بناء إلا أهلكوه.
١٥٧ والفرنجة يستشرون بين المدن، يسالمون الملوك حينما يأمّن الناس، أو
١٥٨ يهاتلونهم فيستحلوا كل دم تقريبهم.

١٥٩ لهم في البحر قراصنة، لكنهم ليسوا بشر من قطاع الطرق من فجرة الأعراب،
١٦٠ طما إن سفن الملك وسفن الفرنجة وحتى سفن الأهبال تطاردهم هذه الأيام.
١٦١ ولذا لما علمت بقطع طريق البر، توجهت بأهلي إلى الزرقاء، لنلحق بواحدة من
١٦٢ سفن الهند.

١٦٣ كنت قد علمت أن سفن الهند تأتي محملة بالبضائع، وتعود خاوية لبلادها، وأن
١٦٤ المان البضائع لا تحمل عليها، بل تدفع في الهند من قبل أن تغادرها. لذا فهي
١٦٥ هي عودتها أمن سفن، لأن القراصنة يزهدون فيها وفي خوالها.

وهكذا ركبنا تلك السفينة. لتحملنا لليمن. ورعم ان اكثر من قرصان مر بنا لتبلغ القلوب الحناجر. إلا انهم كانوا يتعدون عنا مدركين اننا لا ساوي جهدهم. فمضى البحر بسلام. ونزلنا عندما توقفت السفينة في اليمن لتتروذ بالماء. وهكذا وصلت للجزيرة عبر طريق اطول. ارجو ان يكون آمن.

كنت أنوي البقاء في اليمن شهرا. انظر في اسواقها. وأتعلم من تجارها لكن أخوتي قالوا إنهم لن يصبروا على زيارة المدينة. لرؤية مسجد الحبيب عليه السلام. فأذعنت لهم. ومضينا نحو الحجاز. مستعينين بادلاء مهرة. تجاوزوا بنا مناطق الخطر بسهولة. ووصلنا للحرم الشريف العطر. لنقم بخير زيارة أتبعها عمرة. وقضينا صوم الشهر الكريم. ثم بقينا في الرحاب الطاهر متطهرين حتى أتى وقت الحج. فكان من دعائي في اليوم الأعظم فوق عرفة ان يبسر الله حالي وأمر زهيرة.

وبعد طواف الوداع. وزيارة الوداع للمسجد النبوي. تأهبنا للعودة مع قوافل الحجيج. فإذ بي الحظ إن تجارا كثيرين أتوا لشراء تمر الحجاز واليمن.

سالت. فأخبروني إن الأهبال - عليهم لعنة الله - أحرقوا نخيل دجلة والفرات. وفزع الفلاحون من زحفهم في الشام. فهربوا. لتبور أرضهم. فغلت التمور غلاءً فاحشا.

فتركت أخوتي يعودون مع القافلة. والتحقت بحفنة من التجار ومعني ما اشتريته من تمور. نبقي بيعها في أواخر مدن الشام. قبل ان يدهمها الأهبال. وهنا دهمنا الفرنجة.

* * *

(5-9)

ففي الأسر

ههمتنا جماعة من جند الفرنجة، فنهبوا كل أموالنا، وقتلوا الدليل والحرس، وساقونا عبيدا لبيعنا في السوق، أو ليفتدي منا من يقدر نفسه بالمال. ورغم ما أصابني من فزع، لكن من معي من تجار طمانوني، بأنهم سيتفاهمون مع أمير الفرنجة بالإتاوة المعهودة، ونخرج بفدية معا، على أن أرد لهم المال فيما بعد. وحثوني على الصبر، وعدم التمرد. لئلا يفضب علينا أولئك الجنود. وأن أطيعهم فهما يطلبون. وقال لي تاجر طرابلي يسمى زيتون:

'افعل ما يأمرتك به كالعبد الذليل، فليس هذا وقت الكرامة بل وقت النجاة.'

امتعضت من الأمر، لكنني أطعته. فهم أدرك بشئون بلادهم وبلاياها.

لكن ما أقلقني كان أمرا آخر. فالفرنجة ماضون نحو الشرق بإصرار مزعج، فتعجبت.. ألم يسمعوا بخطر الأهبال الزاحفين من هناك؟

واستبدلوا السمع رؤية! أتانا الأهبال كالموت الخاطف لا فكاك منه!.. بعد أقل من يوم، فرقة من طلائعهم أمسكت بنا، وساقتنا جميعا أسرى، ليصبح الفرنجة معنا في أغلال واحدة.

أراد من معي الانقلاب على جند الفرنجة، وضربهم انتقاما من أذاهم، وغيظا لسقوطهم في يد لا ترحم. لكنني رددتهم بقولي:

'كلنا في هم واحد اليوم، وعلينا أن نفكر معا في حيلة تنجيننا جميعا.'

أقتربت، عند الليل بعد نوم زملائي، من حارسنا، وقلت له:

"أريد الحديث مع قائدك."

لم يكن يفهم العربية، فاكتفى بلطمي. فاخذت أحاول أن أفهمه بصوت خفيض، دون جدوى سوى المزيد من اللطم، وصرخ غريب لعله سباب.

ولكنه، على ما يبدو، اندهش أخيراً من حرصي على خفض صوتي. فاخذني لزميل لهم، أفهمني أنه الوحيد الذي يفهم العربية بينهم. ولن يحدثني الفأ، إلا بعد أن يرى هو أمري.

قلت له:

"أنا تاجر من تجار ميناء الزرقاء الشهير. وكان معي جواهر وأموال، أخذها مني الفرنجة ودفنوها في الصحراء. فلو إنكم أطلقتكم سراحاً، أدلكم على المال، ولكم نصفه جزاءً لتخليصي من أولئك المعتدين، على ألا تخبروا أحداً من زملائي بالأمر."

قال لي الرجل:

"ولم تخشى من زملائك؟"

تصنعت التعلم وقلت:

"هم يظنونني تاجر تمور. لا أريد إثارة حسدهم وحقدهم علي. أرجو حقاً ألا تخبروهم بأنني أنبأتكم بأمر المال المدفون."

نظر لي الرجل، وابتسم ابتسامة خبيثة، فاطمان قلبي إنه ابتلع الطعم، وظن أن هذا ليس مالي. وإنما مال أحد زملائي وأنا أرغب في الفوز ببعضه.

مضى بي إلى القائد، الذي صدق القصة، لكنه كان أكثر اهتماماً بكوني من الزرقاء، فأخذ يثرثر معي، وعرض علي شرباً "نخب شراكتنا وكنزنا المشترك" كما زعم، فاعتذرت بأنني لا أشرب الخمر، فتبسط معي في القول، وأخذ يحدثني عن الحياة في الزرقاء.

واجزم أنه ماكر حقاً، لكن لحسن الحظ تبينت أن ما بدا لي شربة عادية، إنما هو أسئلة مفصلة ذكية، تدفعني دون وعي لوصف بلادنا بحصنها، ولما تبهمت لفخه، أخذت أغلف ألسنتي بالكذب، وأضعف في قوة الملك وجنوده بفوق الحقيقة، وقد بدا لي اهتمامه ببلادنا مرعباً حقاً.

سها معنا منذ الصباح نحو الجنوب، وأنا أدل الجنود بإشارات متفق عليها على الطريق للكنز المزعوم، كأنما أخفي الأمر عن زملائي!

كل ما استطعت التفكير فيه، هو محاولة استدراجهم لطريق القوافل، أخذنا منه الفرنجة، لعل أحدهم يقابلنا، فينقذنا. فكنت أسأل الشيخ زيتون الطريق في الليل، لأدل الأهبال عليه في النهار، لتمضي خمسة أيام قاسية، مهما لمحوا أخيرا بعض المسافرين على الطريق.

استبشر الجميع خيرا، نحن استبشرنا بالنجدة، والأهبال استبشروا بغميمة، وذاب استبشارنا في آتون سعادتهم، عندما أسرع المسافرين للفرار وجوههم، مرعويين ملقين السلاح والتجارة خلفهم!

اندفع الأهبال في جشع يطاردونهم، لم يتركوا إلا أربعة من الحرس، ولو أنهم فعلوا هذا أول يوم أسرنا فيه، لما جرؤنا على التمرد لما نسمعه من أساطير عن الأهبال؛ لكنني خبرتهم بشرا ليسوا إلا في الأيام الماضية، مرضت زملائي ما أن غاب عنا الباقون، لتنقض على الحرس، فقتلوا منا خمسة، لكننا تمكنا منهم في النهاية، وقتلناهم.

هدو أن الباقين أحسوا بثورتنا، أو بأسوا من اللحاق بطريدتهم، فعلا غبار هولهم عالدا نحون، فأراد الجميع الفرار، فقلت لهم :

لثبتوا واتكدوا وأحسنوا التدبير، لياخذ الفرنجة الخيول ويهربوا بها نحو الشمال فهم مدرين، ولن يستطيع الأهبال لحاقهم، بينما لتسلل نحن مختفين وسط الكثبان، ولناخذ السلاح معنا حيطا، فلو ركبنا ما استطعنا الفرار.

اطاعوني جميعا، فلم يرغب الفرنجة إلا في الطيران وخدمهم على ظهور البيل، بينما كرهنا نحن أن نترك الفرنجة مع السلاح جوارنا.

اسر الأهبال جوارنا كالبرق يطلبون الفرنجة، فهرعنا مبتعدين نجري نحو القافلة التي هاجمها الأهبال، فلجانا لهم ونجوننا بفضل الله.

وهنا أدركت أنني قد نلت من السفر ما يكفي، وألا تجارة أو بيع لي في هذه البلاد، واستعوضت الله في خسارتي، وعدت لبلادي خالبا لا مال معي أو تجارة.

* * *

(6-9)

العُرس

كان طريق العودة شاقا مؤلما. لكن الله سخر لي من اعانتي، جزاهم الله خيرا. عدت وحيدا مقهورا مضعضع النفس لداري، لأجد أهلي ينتظرونني هناك في قلق، فجلست مكتبا أكتبهم همي، حينما وجدت شقيقتي بعد ثلاثة أيام تسألني:

"أين تنزل للسوق؟"

قلت لها:

"ليس الآن فمازلت مهموما، ولا أملك الكثير ليعه، إلى أن يأتي الحصاد الجديد في ساوة."

صمتت قليلا، ثم قالت:

"أولن تكمل عرسك يا فتى ساوة؟ أئن تذهب لخال عروسك تطلبها؟"

أنت أختي على الجرح، ووطئتة بقسوة، فقلت لها كاتما دموعي:

"لا شأن لك بالأمر الآن، حينما أستعيد عافيتي، يمكنك أن تعرضي لي من تشائين من صويحباتك في ساوة."

قالت لي:

"ولم؟ أئن تخطب زهيرة؟"

نظرت لها مندهشا، وقلت:

قال عندي الآن، وقد خسرت الكثير، فاني لي ان أجرؤ اليوم على الذهاب
إليها؟"

الذي،

ام بطلب خالها مالا. سدوت المهر الذي طلب. وتكاليف العرس ستجمعها
من هدايا أهل ساوة. فنقوط تيمور العلاف لن يكون قليلا! وهذا ذهبي قد
سئذلت زوجي لن ابيعه لأعينك."

ام افهم لم تغيرت فجأة تجاه هذا الزواج، بعد ان كدت اياس انا من تمامه،
هاوضحت لي:

أنا كان لي ان أحج لولاها. هي فتاة ميمونة، لن اضيع فرصة ضمها لعالتنا
را تيمور."

لا سكذا لعلمت نفسي، وخرجت للمسجد الغربي الكبير، واتجهت عقب الصلاة
راسا للشيخ، قبل ان يبدأ حلقة.

طري لي بدهشة، كأنما غيابي الأشهر الماضية قد أنعش في قلبه أمل ياسي.
لكنه ابتلع دهشته، واستقبلني بترحاب، شعرت أنه صادر عن قلب طيب صادق،
هزاد من ارتياكي في شأن هذا الرجل، الذي يتفنن في الضن علي بتوام روجي.

سألني عن أحوالي، وما أصابني في غيبي الطويلة، فأخذت أحكي حكايتي من
أولها، وقد أخذ الناس يلتفون حولي، ي كاني شيخ الحلقة لا هو، بمجرد ان
ذكرت مقابلي للأهبال. التف حولي الناس يسألون:

"أحقا رأيت الأهبال؟ ما حالهم وما شكلهم؟ أهم بالفعل ضخام الأجساد،
وهل عيونهم تطلق لهبا يجفف الدم في العروق؟ أكما يقولون أنيابهم أطول
من أصابعنا؟"

أخذت أرد على الناس نافية تلك الأعاجيب:

"إنما هم بشر كسائر البشر، لولا إن قلوبهم أشد قسوة من الحجارة."

سألوني:

"أحقا يقاتلون بلا وجل، ويقبلون على الموت كأنما يشتمونه؟ أوحقا إن السيف
يجري في أيديهم، كأنما به شيطان، فيمزق من يريد، لا يناله احد؟"

قلت لهم:

"إنما قتالهم كقتال البشر، غير أنني أشهد لهم بالجلد والبراعة والمكر. رأيتم من لعب الأمراء بالسيف في الأعياد من هم خير منهم يا رجال. وقد رأيتم الفيلان الأحمر أشد جلدًا وشجاعة وإقبالًا على الموت منهم."

أخذوا يعيدون أسلتهم، وقد دب القلق من الأهبال في قلوبهم، فأرادوا مداواته بحديثي، لكنني جلت لشأني، فخشيت أن يذهب القوم بوقتته، وأحببت أن أحكم أمري على الشيخ المراءوغ، فقلت للسائلين:

"إن صدقتموني فيما أصابني - وإنني لصادق - أتشهدوا لي بالشجاعة؟"

قالوا: "نعم"

قلت:

"وإن أخبرتكم إن الشيخ طلب مني كذا وكذا، فحدث لي كذا وكذا، حتى أتعمت طلبه فهل تشهدون أنني أوفيت؟"

قالوا: "نشهد طبعًا."

نظرت للشيخ نظرة، أفرغت فيها عناء الشهور السابقة، وقلت:

"فباني أشهدكم أنني أطلب منه ابنة اخته، بعد أن أوفيت بمهرها المطلوب."

صمت الشيخ، كأنما كان يعد طلبًا آخر يؤخرني عن زهيرة؛ لكنني أجمته أمام طلابه، وأخرجته أمام الأشهداء، فقال مستسلاً أخيراً:

"وأشهدكم أنني قبلت طلبه، فأت لدارها بعد مغرب الجمعة."

ذهبت في الميعاد، سعيداً متعظراً، مرتدياً خير الثياب اليفنية المحلاة بالقشيب، وأخذت معي ثلاثمائة ديناراً ذهبياً، أقرضهم لي أشقائي لأمرها، وجاءت معي شقيقتي وزوجها، مبتهجين حاملين الحلوى والهدايا المعتادة.

وجدت في انتظارني الشيخ وأم العروس بالداخل، وعجبت لم أتت أمهما تقابلني في مجلس الرجال، وفيه الشيخ، تاركة عجلت النساء خاب منهن؛ ويبدو أن الشيخ أدرك تساؤلي، إذ كان أول ما قاله، بعد السلام والتعارف:

'هناك امر اكرهتني اختي على ان اقسم الا اذكره لك، حتى لا ترحل بلا عودة،
كما رحل من قبلك. هي تخشى على ابنتها فوات الزواج، واخشى أنا ما هو
الشد وأخطر.'

اصدرت الام زمجرة، فقال الشيخ:

'لن اخبرك برا بقسمي، وعلى كل فقد حاولت ان اجعلك تبحث عنه بنفسك. لولا
عنادك.'

قلت:

'اهو امر يمس زهيرة وحياتها؟'

قال: 'بالطبع.'

زمجرت الام، فتجاهلها وكرر:

'يمس حياتها بالطبع.'

قلت:

'لعله متعلق بابيها وجدها؟'

قال:

'هو حتما عن ايها وجدها.'

كنت قد فكرت في هذا الأمر ألف مرة، صحيح إن البعض يقول إن العرق
دساس، ولكن زهيرة قد جمعت المال والحسب والدين، وما كان لي أن أحملها
ذنب أيها أو جدها. لذا قلت بقلب متيقن:

'إذا لا شأن لي به، ولا تكرر وازرة وزر اخرى.'

نظرت المرأة بلوم لأخيها، وقالت ممتعضة:

'وزر؟'

تنحج الرجل، وقال،

'الأمر ليس كما تظن، ولا وزر أو عيب فيه، ولكن الأمانة في عنقي تجعلني
أبهدك ل...'

"كفاك يا رجل، وكفانا من أماتك المزعومة هذه، التي تريد كسر خاطر ابنتي وعريسها بها. هل لنا أن نجد زوجا خيرا منه؟ هو لا يريد أن يعرف. وأنا لا أريدك أن تقول، فهل تفصبتنا غصبا؟"

اعترف إن الفضول قد ثار في قلبي حينها، لكني خشيت من غضب المرأة، وخجلت من نفسي، فكتمت فضولي ووادته وأدا.

نظرت لي بتمعن، وقالت:

"أتريد زهيرة لذاتها أم لأهلها؟"

قلت: "بل لذاتها."

قالت:

"فهي خير النساء، لا عيب فيها، كما يكاد هذا الشيخ الخرف أن يوهم الناس.

فتح أخوها فمه ليتكلم، لكنها أخرسته، وقالت:

"بارك الله لك فيها، ولها فيك. قد قبلناك بإذن الله، وأما موعد الزفاف وغيره، فلتتفق مع أخي، بينما أنظر أنا لضيوفي الذين تركتهم!"

وغادرتنا، بعد أن حسمت الأمر لمجلس النساء، واتفق الشيخ المستسلم معي على أن يكون الزفاف بعد الحصاد التالي، لأكون وقتها قد احترزت شيئا من المال، وتفرغت من موسم التجارة، ولعله تعمد ترك المعلة لي للسؤال عن أهلها.

وبالطبع، سألت كل من حولهم، فلم يأتني إلا خيرا، لم يكن سكان الحي يعرفون عن أهل أيها الكثير، لكنه، منذ أتى لهذه الدار، والناس تشهد له بحسن الخلق، من يوم مجيئه حتى يوم استشهاده، فكرت أن أسأل بعضا من خطابها السابقين، أو أبحث عن أمر جدها، الذي يزعمون أنه أضاع ماله سفها، ولكن الشغالي بالإعداد للزفاف منعي، وهون الأمر علي حبي لها، وفرحتي بانتراع الموافقة من خالها.

ولعله قضاء ونصيب لي ألا أعلم حقيقة الأمر إلا بعد الزواج.

كان العرس كبيرا بهيجا في داري بالعاصمة. واتي أهل ساوة كلهم ليفرحوا بي ومعني. والكثير من تجار السوق. وأهالي العاصمة ممن يذكرون لي فضلا هي كسر حصار الفلال وقت الشدة.

وأولمت الولائم، لم ادخر جهدا في إكرام الضيوف. وبالذات الدراويش الذين اتوا من كل البلاد يجاملون شيخهم، وقد كانوا شاكرين لي، وأذكر كلمة احدهم:

"كرم يليق حقا بالأمرء يا بني. أحسن شيخنا إذ اختارك لذات النسب الشريف، والمكانة النبيلة"

شكرته على المجاملة، لم أفهم ما وراءها؛ ولكن بعد أن ودعت آخر الضيوف، وكان خالها لم يرحل حتى قال لي:

"أحرص عليها وعلى نفسك، وخير لكما أن تقيما في ساوة عن العاصمة. كنت دلقا عليكما قبل اليوم، لكن بعد أن رأيت حب الناس لك اطمانت. وأظن أن زيجة كان مهرها إطعام ألف جالع وحجة مبرورة، فإنها مباركة محفوظة، لن ينالها طاغية بأذى."

وتركني وخرج، وما أن أغلقت الباب، بعد أن غاب عن نظري؛ حتى دق الباب مرة أخرى.

تكاسلت للحظة، وأنا أنظر لوجه عروسي المضيء، فتكررت الدقات عنيفة و..
"افتح بأمر الملك."

نظرت لي زهيرة بخوف، وقالت:

"لا تفتح."

ابتسمت وأنا اتجه للباب، وأفتحه قائلا لها:

"كانت لي تجارة مع القصر. وقد كان لي فضل كسر الحصار العام الماضي، ولعل الحاجب أرسل لنا تهنئة أو هدية، وهذا شرف لا يرد، سيرفعك بين نساء ساوة."

فتحت الباب، وهي تكرر بقلق:

"لا تفعل."

لكن القدر قد حتم، والباب قد فتح، واختطفني الجند بحالي واضعين القيد في يدي وقدمي، واقتادوني كالسجين، لا أدري من أمري إلا أنني حزين.

حاولت سؤالهم، فأجابتي أسوأ طعم. استفتت، فلما رأى الناس الجند فروا ومضت زوجتي خلفي، فهتفت بها:

"أذهبى لخالك أو لساوة، فلا أدري أيكرمك أولئك اللئام إن أتيت خلفي"

قالت: "إنما أريد أن أشفع لك."

تشفع لي بم، وكيف، ومن ماذا. هتفت عليهما أن تبتعد، لكني لم أسمع ردها، إذ اقتادني الرجال مكبلا فوق جواد مزعج، وجروني مسرعين نحو قصر الملك

مضيت في هذا الظلام معهم، لا أفهم جريرتي، حتى وصلنا للقصر، فأنزلوني، فتوقعت أن أقابل الحاجب، فأعاتبه، لكنهم مضوا بي أمام حجرته، لم يدخلوها، فتوجست خيفة، وظننت أن الوزير سيقابلني، لكنهم تجاوزوا قاعته (أو ما سمعت من الناس أنها قاعته)، واتجهوا بي لأبعد من ذلك.

ووجدت نفسي في قاعة العرش أمام الملك نفسه!

(10)

المحاكمة الظالمة

10-1 (عار الملك!)

لم اكن قد رايت الملك من قبل. لكني عرفته بسهولة. لم يعرف عنه انه ارتدى تاج ابيه من قبل. ويزعمون انه يخشى ان تعرف الناس وجهه. فيقتلونه اذا خرج من قصره!. لكنه كان امامي. مرتديا تاجا من الذهب ابيض. تلمع عليه حواهر غالية. ويمسك بما هو حتما الصولجان. الذي اسمع عن عي الحكايات. وكان عصا من الفضة المرصعة باللؤلؤ والياقوت الاحمر. الذي كان اقل حمرة من وجهه الملتهب غيظا.

لم ادر ما اقول. فانا اصلا لا اعلم ما تهمني. لأبرئ منها نفسي. لذا وقفت امامه خاشعا منتظرا.

تكلم الملك بصوت كالرعد:

"اهذا هو الذي اهان نبلنا. واعتدى على نسبنا؟"

بهت للتهمة الفظيعة. وأردت أن اقول حاشا لله. لكن صوتي احتبس. فقال قائد الجند. الذي سجنني:

'هو يا مولاي من تزوج بالأميرة زهيرة.'

قال الملك:

"كيف تجرؤ أيها الحقيير أن تنظر لصف سادتك. وتطلب يد الأميرة زهيرة بنت الأمير كامل ابن ابن عم والدي. سليلة الملوك المتسببة للخلفاء العباسيين. وابنة بيت أعظم ملوك الأقطار كلها!"

نزل الأمر علي كالصاعقة! إذا فهذا هو ما كان الشيخ يخشاه. هذا الحاكم المستبد الطاغية. يظن أنني تناولت عليه. لأنني نكحت من آل بيته.

أكمل الملك ضراوته:

"إنك قد ارتكبت جريمة ستلوكها. فتلوكنا كل الألسن. أهكذا يختلط دم الملوك بدماء الرعاة؟"

لم احتمل. فوجدت نفسي أرد:

"إن هو إلا شرع الله. وأمر الله. ولو كانت زهيرتي، كما تقولون يا مولاي. أميرة، فلم تعيش بين الرعاة. إن لم تنكح من الرعاة؟"

رد بفضب عاصف:

"أيها الحقيير! أتجرؤ على جدالي؟ كان جدها مسرفا متلغا. أضع أموالهم. فعاشوا على قدر رزقهم. لكن نسبهم الشريف. ومكانهم النبيل ليس للصعاليك."

رددت بثبات:

"قد نكحتها ياذن وليها. فأنا زوجها."

رد: "أنا وليها."

فقلت ناظرا له:

"وخالها؟ هو من ينفق عليها ويرعاها."

ابتسم الملك ساخرا وقال:

"لا ينكح الأميرة إلا أمير. وإلا ضاعت هيبة العائلة. وما كان لي أن أسمع لك باستفلال قريبتني. لترقى بين النبلاء. وكونك أصبحت زوجها ليس بالحجة التي يصعب ضحدها!"

قلت بتحد لم أستطع كتمان:

انظني اطلقها.

رد بسخط:

تطبيقها ليس حلا وإنما ترهقها ينهي المسألة من جذورها!

لم أحر جوابا، ولم تصدق اذناي البسطة، التي يتحدث بها عن إهدار الدم الذي حرمه الله!

نظر لي باستخفاف، وأكمل:

"لو أنك نظرت للأمر من نظرتي، فستجد أن تطبيقك لها يعني بقاء لوثك على اسم أسرتي، ويعني أن واحدا من العامة لم يكتف بالزواج منا، وإنما أضاف علينا عار الطلاق! هذا التطاول له علاج سريع فعال، وعقاب رادع هو السيف! سأتركك الليلة لتفكر في أحوالك، وتوصي بأموالك، وتؤدي ديونك، وغدا سأبارك نهارك بدمالك!"

وأخذوني على قاع مظلمة أسفل القصر، ولم يمض الكثير على وحشتي، حتى وجدت زوجتي تلقى في الزنزانة المقابلة لي، فقد أتت تتشفع لي، وتسترحم ذوي الرحم أن يعفو عنها وزوجها، وتندب لأقاربها سوء حظها، فلا يبيل يرغب فيها لفقرها، ولا زوج يقبل به ملكها.

لكن قاسي القلب صرخ في وجهها، واتهمها بنكران الجميل، وأبى إلا أن يلقبها في السجن هذه الليلة، لتشهد بعينيها صباحا محو العار الذي أصابته به!

وكتمت عليها ما عناه الملك بمحو العار، فلم أرد أن أثقل عليها بنبا إعدامي، بل أوصيتها أن تغادر بعيدا عني، ما إن يخرجوها في الصباح، ويكفيني ألي أنس بوجودها قربي، في ليلتي الأخيرة.

وجلسنا طوال الليل ندعو الله أن ينجينا من هذا الظالم الفشوم، ذي الكبر الملعون، والحمق المافون، المتملك على شؤون العباد، والمتسلط على الأنفس والدماء، فما رحم عبدا، ولا أوفى حقا، ولم يعصم دما حتى لذوي القربى والأنساب.

وأخذونا بعد الفجر من سجننا، مكبلين معا، يتحدثون عن قتل كلينا، فكان الضيق رفيقنا، وأيقنا أتا الهلاك له ذاهبون، ولمر الحياة وحلوها مفادرون.

جروب " ربيع الكتب "

لكننا كبير الحجاب يجادل الملك عنا. ويبدو أن الله استجاب لدعائنا. بتدخل الشفعاء. فقد علمنا أن كبير الحجاب أئذ الملك سوء العاقبة. فللمراويش سلطان على قلوب الرعية. وزعم له أن خالها ليس ممن يترك ثاره أبدا. ولو ثار فسيبعه الدراويش في الثورة. ولو ثار الدراويش. فستثور الناس. لتقوى شوكة الخصوم، وتذهب ربح الحصون.

فعفا الملك عن زهيرة، وقرر أن يقتلني وحدي!

وهنا تدخل ولي العهد في شأني. وقال:

"وإمن تترك زهيرة بعد قتل زوجها؟ أتركها لتدور بين الناس في الأسواق. تشكو سوء الحظ، وقسوة الولي، فتثير الفتنة؟ كما إن أهل ساوة سيفضبون. وللميرة يقطعون. فلا يأتينا طعام من غرب أو شرق، والأهبال يحرقون حقول جيراننا، والمماليك يحبسون حقول جنوبنا. فالجوع سيمضي، فلا يبقى."

فقال الملك:

"أطلقهما عن بعضهما. هذا عار ليس بعده عار."

فقال ولي العهد:

"فلتات بقاض يفرق بينهما. فليس من هو مثله في مقامها. ولا يكون كفئا لها. ثم نجر عليها لخبال أصاب عقلها. فتحبس في القصر."

ولم يكن على الملك عسير أن يأت بقاض سكير. يأمره فيأتمر. ولكن حينها سيدخل بعض القضاة. ويدور القيل والقال. ويتجادل في شأننا الفقهاء. فتسمع بالفضيحة كل بلاد المسلمين. وتدون في الكتب إلى أن يرث الأرض رب العالمين!

فعاد الملك يقول:

"أقتلها معا ومعها خالها!"

واستمر الجدل. حتى زعم لي البعض أن الملك أوصل بالمقتولين لبضع وخمسين نفرا!

وجيء بي أشهد ما أسفوه محاكمة. وبدت لي حماقته جلية. وحيرته كبيرة. فألهمني الله إجابة. ظننتها تنجيني من الطاغية بسلامة.

تجاهلت الإجابة عن سؤال القاضي. وقلت:

جروب "ربيع الكتب" .

"لو يرى مولاي رأيي فالأمر هين، بدلا من أن ألحق بدرب الملوك والأمراء، وهو ما لا يليق، ولعبد مثلي لا يجوز. فتلحق الأميرة بدرب الرعاع، وينزع عنها إمارتها، فلا يكون لها، أو لنسلها، نبل أو إمارة."

رد الملك بدهشة:

"أو يمكن هذا؟ الإمارة حق بالمولد."

قلت:

"أنت ملك البلاد، وسيد العباد، وتقضي ما تشاء وتأمر، فمن يخالفك؟ ألسنت نخلع الولايات؟ فما نخلع الإمارة بأسهل من هذا، أولست نخلع أمراء المماليك من إمارتهم؟ كيف يكون حق المولد بعاصم منك؟"

بدا على الملك التفكير، خاصة وإن فكرة نخلع أمراء المماليك لتضرب وترا حساسا في قيثاره صدره السوداء. لكن نبين لي أي أصبت سوءة يخشاها ولي العهد، إذ تدخل فرعا قائلا:

"لأن حق الميلاد هو الذي أعطانا حق الملك، لا يتازعنا فيه إلا مارق."

هنا عاد الملك لسيرته الأولى، فأسرعت أقول:

"لا نعمني بالأمر النخلع، وإنما الترك. سأترك أي حق لذريتي في الإمارة، وتترك زهيرة حق إمارتها بلا رجعة، ونكتب هذا في صك يختمه الملك بختمه، وعفوه، وربما يضيف عليها براءة من كل بيتكم الطيب! نحن أسألا لكم، فلتبرءوا منّا! وسنرحل فوراً لساوة، نكفيكم خيراً وشرنا."

صفت الملك مفكراً مرة أخرى، ففتح القاضي، وقال:

"حق الملك يؤكد خطاب الخليفة، الذي بايعه المؤمنون في سلاتكم الطاهرة، فهو غير حق الإمارة يا مولاي، لا يجوز فيه نخلع إلا بأمر الخليفة."

نظرت بامتنان لهذا القاضي، ولو إنني واثق أنه لو طلب الملك رأسينا، لقضى بهذا دون تردد!

على إن الملك أنهى المحاكمة، وأمر بنا فساقونا للزنازين.

(2-10)

كلمة حنق

مرت بنا أيام كالأعوام. ثم انتزعونا من السجن ذات صباح. والقونا بين يدي الطاغية.

كان معه لفيف من الوجهاء. لم أعرف منهم إلا ولي العهد. وصفيره الذي يقال له الشهابي. أعلمتني زوجتي فيما بعد. أنهم كبار أمراء الدولة. وأركان الأسرة. وقادة الجيوش.

بدا الملك خطابا طويلا مزعجا. أتت منه اللفة. قبل أذانتنا. استنزل فيه علينا اللعنات. ثم انتهى بطردنا من زمرة الأمراء. وإنا تخلينا عن حقوق النبالة. ثم دفع لنا بصك مختوم. كان شهادة بأننا طردنا من أسرة الملك. وتخلينا عن أي كرم من نفحاتها.

وكتبنا له ما أراد بنفس راضية. وقبل أن أخرج مودعا العاصمة كلها. جاشت في نفسي العليقة كلمة. أبت إلا أن تخرج للملك. فقلت له:

"ما عاد لنا حق في إمارة أو نبالة؛ لكن حق النسب لا يسقط أبدا!"

نظر لي بفضب. فأكملت مهرولا:

"إن احتجتم للمعونة. أو ألم بكم كرب. فاعلموا أن لكم في ساوة أنساب. لا يقطعون الرحم أبدا!"

وخرجت تلاحقني ضحكاته. وامتلات قاعته بسخرية الساخرين.

لكن لم يفض على استقرارنا في ساوة أكثر من عام، ولعل ابني زهير لم يكن قد ولد بعد، حتى أصبحت كلمتي هذه طوق نجاة يتيم.

هاج الأمراء كلهم على الملك، وتشئت الأجناد، وتفتت البلاد، ودار المماليك في كل الأحياء يتصيدون الملك، وأتباعه، والأمراء، وأقاربهم، وأبنائهم، فأحصوهم عددا، وقتلوهم بددا، واتبعوا خلفهم كل طريق، وبحثوا عنهم في كل مكان، معلوم أو غريب، حتى لم يبق من تلك الأسرة العامرة، والنجوم الساهرة إلا امرأتي زهيرة أصدرت صك البراءة للقتلة، فتركونا ضاحكين، إلا أن زعمائهم أصبحوا منهم غاضبين، فعادوا غادرين.

لكن سيف القدر بتار، والأعمار مقدره، ورحمة ربي انتخبنا بعيدا عن الأيدي الباطشة، فماتت زوجتي الجميلة، وزهرتي البريلة، بعد ولادتها لابني زهير.

وحين أتى غلاظ الأكباد ينوون بها فعل الأهوال، وجدوها منهم رحمت، وللبري الرحمن ذهبت. بينما الدنيا أظلمت علي من نورها، وبقيت في وحدتين اجتر ذكرياتها، واتعطر بالترحم على ثراها.

غير أنني لم أيس من رحمة ربي، ورغم مصيبي، وعذابي السقيم، وحزني الدفين، فقد كانت هناك مواساة.

مواساة أنها لم تقتل، ولم تهن وتعذب قبل الموت، كما فعل بأقاربها.

مواساة أن خبيت ظن زبانية الدنيا، فزفتها ملائكة الجنة.

مواساة في ابلها، الذي غفل عنه - أو تغافل عنه - الجند، ولعلمهم أدركوا أن مثله لا خوف منه.

ومواساة بهجاء الشهابي وسارة!

الشهابي المسكين، ابن ولي العهد، فر بعد أن اغتيل أبوه، وجدته، وأخوته. فقد كان يزور بيت ابن خالته، وإذ خرج للطريق، بدأ عقبه الحريق، رجع لداره، فوجدها حطاما، فتخبط مرتبكا في العاصفة. لم يكن يعرف أحدا من الناس، بينما الناس تعرفه، وتبفضه، وتطلبه.

لم يكن له مكرمة على أحد فيؤويه، ولا عود يقاتل به فينجيه، إلى أن وجد زمرة من الفيلان الحمر!

لا أذكر من أي فرقة كانوا. كان بعض الفيلان يقاتلون لجوار الملك، لا لشيء إلا لأنهم أقسموا على حمايته، والفيلان لا تكث قسمها أبدا، رغم كرههم

للملك، وشوهدت كانوا (أو احد فرقة قيهم لا أدري) من أكبر الساعين عام
تدميرنا، وانحاء بكلماته.

كانت تلك الزمرة قد استنقذت، من اول بيت حرق، بنت احد الأمراء الأغنياء، ذود
القرابة البعيدة عن الملك، ولم يكن له جند يدافعون عنه، بينما شغلت أمواله
النهايين عن تتبع أبنائه، فنجت تلك الفتاة سارة، وحملها الفيلان، حتى وجدهم
الشهابي، الذي لم يكن يعرفها، فقال لنفسه:

"كم في أسرتي من أناس لم اعرفهم، أنا ورغم ذلك عرفهم القتلة جميعا!"

ادرك الأبقاء له في العاصمة، وتذكر كلمتي إن حق النسب لا يضع عندي،
وفي غمرة ظلام الفتى، لم يجد إلا هذا الضوء، فمضى في الطريق، قطعه
وسط الصحراء متسللا، يخشى القتل ويخشى الناس، ولا يعرف أين ساوة، ولا
يأمن ان يسأل عنها احدا!

لكنه وصل لنا.. أتاني الفتى مستغيثا، بعد رحيل الجنود، ورحلت قبلهم زوجتي،
التي ظلمت بيد الملك وأعدائه معا.

فكرت حقا حينها أن القيه - من نعمتي - وسط الصحراء، للذئاب الجائعة.

لكني أفقت، وتذكرت أنهما طفلان بريطان طمعا في كلمة قلتها، ولست أنا
من يفدر بهما، كلمة الحق القديمة، تحولت لأمان لمن أردت إغاظتهم بها،
وعهد في عنقي أن أحميهم مع أهلي بارواحنا، وسبحان الله مقلب الأحوال.

عاش الاثنيين دهرا عندي، وعلمت أن الفيلان، الذين أنقذوهما، قد رحلوا، إذ
أتاهم نبا الأهوال التي حلت، والحروب التي اندلعت.

وكان ما كان من غزو الأهبال، وخروجهم، وصعود من أسموا أنفسهم
بالأمراء، يتنازعون الملك بينهم، وكنا في ساوة عنهم بعيدين، وبجهلهم عنا،
وجهلنا عنهم متسترين.

ثم وصل نبا الالاجي للجنود، فحميت الفتى بكل جهدي، وأوصيت به وبأهله،
أهلي وابني.

* * *

(11)

في واحة ساوة

قال عبد الشهيد ابن سمعان:

بعد أن غادرت الأمير الأبيض - أمير الزرقاء المخادع - توجهت نحو ساوة، بحثاً عن أنسباء الملك اليعزوميين. كنت أعلم الطريق إلى ساوة، فحين أتيت لقريتي أول مرة. لم يرغب أحد في بيعي شيئاً مما أحتاجه للزراعة. من بذور وتقاوي. فترددت على ساوة أكثر من مرة، لأشتري من تجارها. كان طريقها من الطرق القليلة الآمنة في بلادنا. فحتى قطاع الطرق يدركون أن قطع قوافل الفلال من ساوة للحاضرة. أمر مريع. يهلك الناس من الجوع. ويثير غضب حكام الحاضرة، وهم اليوم القائد الأسود المخيف نفسه! لم أكن أخشى اللصوص. لكني خشيت أن يتذكرني تاجر ممن اشتريت منهم. لذا، فقد أنزلت اللثام على وجهي. وغيّرت صوتي، وتوجهت لأول منزل قابلني خارج الواحة. فسألت عن أنسباء الملك. لا أعرف لهم اسماً.

دلوني على دار زهير ابن تيمور. العلاف. وهو فلاح حاذق. قوي البنية، طيب الوجه. نظر لي هو وأهله بتوجس. لكنه. لدهشتي، اطمأن إذ سمع أنني غول أحمر. كنت قد عزمت على الإبقاء على هذا الستار. رغم إن أولئك الفيلان - كما يظهر - لهم أعداء كثير. لكن هيبة تلك القبيلة، أو الفرقة، تفزع الناس. فتحميني سمعتهم من غدر أعدائي، وأعدائهم معاً. ولو إلى حين.

واتضح لي أنه من حسن الطالع. كون أنسباء الملك أصدقاء لتلك الجماعة الغامضة. فقد حكى لي كيف إن جماعة منهم. تنتمي لإحدى فرقتهم. قاتلوا مع والده حتى قتلوا جميعاً. أثناء دفاعهم عن الأمير الشهابي. آخر أمراء بيت

جروب " ربيع الكتب " .

أخذت حماري وركبته في ثل العيران وفتحهم لكي تفتنهم في
ذاتي، وأخذت أقاله عن أمر الوريث

كان وقتها حديث السن، وقد أمعن في إخفاء نسبه الممهلك في الأيام
المظلمة، فلم يعرف الناس، خارج الواحة، سوى إنهم أنسباء الملك، أما إن أمه
كانت أميرة فقيرة (وهو أمر لا أظنني أصدقه!) فقد أخفوه تماما، لدرجة أنه
هجر مهنة والده - التجارة - وبقي في أرض أعمامه، فلاحا يزرع، رغم كون
أمه أميرة من البيت الحاكم!

كان أمرا محيرا لي، كيف قبلت أميرة الزواج منهم، لكني كنت لحوحا في أمر
الوريث، فحكى لي كيف كانت المعركة، التي هربت منها تلك الفتاة سارة.

حكى لي:

"أذكر ذات يوم، بينما كنت الهو مع رفاقي، أن جاء حفنة من رجال، يرتدون
دروعا حمراء، لعلها كدروعك هذه، وساد الذعر والاضطراب بين الأهالي
بعدها، وسمعت إن الجنود أتون لقتل ابن خالي، الأمير الشهابي، كان الشهابي
شابا ظريفا، طيبا، مهذبا، يلهو معنا حيننا، ويعلمنا القراءة والقرآن في كتاب
القرية أحيانا أخرى، فكان محبوبا منا جميعا، وخاصة أنا، الذي يرتبط معه
بالقربة.

أخذتنا أمهاتنا بعيدا، في خيام بين بساتين النخيل، بينما أخذ الرجال والشباب
يحملون السلاح، دفاعا عن نسيبها، متحصنين في دار شيخ الواحة الكبيرة،
وحفروا حولها خندقا، وأعدوا العدة لقتال صارم، مستعنيين بأولئك الفيلان.

وأتى الجنود الهمج، أتوا صارخين، ممزقين، يطيحون بمن يقابلهم، فوقفوا
مبهوتين، إذ وجدوا راية الفيلان مرفوعة على الدار المحصنة.

في البداية، حاولوا إشعال النار في الحقل المجاور للدار، ثم الهجوم عليه أثناء
الغروب، لكن ثلّة الفيلان بسيوفها، وأهل الواحة بسهامهم ردوهم خائنين.

صعدنا، نحن الفلمان، على النخلات العالية، ننظر للقتال، ونبأ أمهاتنا
المكلمات في أمر أزواجهن، وأبنائهن، لكننا رأينا الجند يرجعون مقهورين،
فهللنا فرحا، وظننا أن النصر أت، وهللنا باسم الملك الشهابي المنصور، داعين
له بالنجاة وطول العمر.

لكن الجنود عادوا برجال أكثر عند الفجر، ونصبوا حصارا حول الدار، يكتفون
بببادل الرمي مع المحصورين بين الحين والحين.

دام الحصار اللعين سبعة أيام كاملة. ولم يكن أحد يحسب حساب هذا الأمر.
لم يكن الرجال يملكون طعاما أو ماءً يكفيهم كل هذه المدة، فإذا بالفيلان،
في اليوم السابع، يخرجون من الدار بحلهم المدرعة الحمراء، هاتفين باسم
الشجاعة، معلنين رفض الظلم والمهانة، واندفعوا وسط الجنود كالليوث. في
مشهد لم يفادر ذهن أي صبي شاهده حتى اليوم.

حين قتلوا عن آخرهم، هجم الجند على الدار، فأحرقوها، وقتلوا من فيها
جميعا.

نزلت الدموع من عين الرجل المسكين، وهو يحكي كيف صلبوا والده،
والشهابي فوق نخيل الواحة، ينزفون حتى الموت.

ثم أكمل:

"لكن الشهابي كانت له زوجة. كانت أميرة هي الأخرى؛ لكن أحدا لم يعرف
بلجاتها، تدعى سارة بنت عدنان. وكانت حلي، فخشي زوجها أن تقتل مع
وليدها، فأرسلها أبي. تيمور العلاف، لصديق له من أعراب في الشرق، يسمون
بني الأسود، كان لوالدي أثناء تجارته مكرمة ما عليه."

صمت حينئذ، ثم أكمل:

"يزعم البعض، إن هذا الأعرابي، الذي حمل الأميرة خارج البلاد هو شيخ شيوخ
بني الأسود اليوم، بأنه والد جبار العاصمة، غليظ القلب، وإن كنت لا اصدق
هذا."

سألت زهيرا:

"وأين ذهبت تلك الفتاة بعدها؟ هل نجت من المطاردين؟ أعني، ألم يأت أحدهم
لسؤالكم عن مكاتها؟"

رد:

"لا، لم يطاردها أحد. رغم تواتر بعض الأقاويل عن إن الشهابي ترك وراءه
خلفا. انشغل الأمراء بحروبهم مع بعضهم البعض، وصد غزوات خانات
الأهبال، وأمراء الفرنجة في الشمال والشرق، وبتبعضهم للفيلان الحمر

جروب " ربيع الكتب " .

لإبادتهم، وهو ما فشلوا فيه كما يظهر! اقتحموا الواحة أكثر من مرة، فلم يسألوا عن الأميرة، وإنما عن الفيلان. يستنطقون حتى الأطفال، إن كانوا يعرفون أحدا منهم. كانوا يخشونهم. ويكرهونهم. ويجمعون إن الملك لن يستقيم لأحد في وجودهم. صحيح أن غيلان الغرب كانوا قليلين جدا، وأغلبهم ممن فروا من مواطنهم الأولى. اظنهم أتوا من الجنوب الأقصى. والبعض يزعم بل من الشمال الأقصى. لعلك أكثر من يعرف هذا الأمر؟

وابتسم، فلم أفهم الأمر في البداية، قبل أن أعني أنه يقصدني. فقلت محاولا من ناحية، أن أتعد عن سؤاله. ومن ناحية أخرى، أن أفهم المزيد عن أولئك القوم، الذين اتحلهم:

"ماذا تعرف أنت عن الفيلان؟ أعني من ساعدوكم في الواحة، من كانوا؟"

لم يندهش لسؤالي، على سذاجته، كان يبدو لي من النوع الثرثار، الذي يحب الإجابة على أي سؤال، مهما كان. فقال:

"لا أعلم الكثير عنكم، لكن شجاعتكم مهولة. الفول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا. كان هذا هتافكم. أعني هتاف من أتوا للدفاع عن الشهابي.

أعترف أنني كنت معجبا بكم، حتى تمنيت لو أصبحت غولا أحمر بدوري، لولا أنني ظننت شجاعتكم حماقة، أدت لهلاككم عن آخركم. كنت طفلا صغيرا، أتساءل دوما لم لا يكذبون؟ لماذا إذا سالكم عدو متربص أنتم من الفيلان الأحمر، ظهرتم من مخبأكم وحاربتموه، بدلا من أن تكذبوا. ففتحوا وتمهروا.

حقا لم أنسكم طوال تلك السنين، وتساءلت عنكم. قل لي احقا كتم من الرفض؟ لكن أفعالكم غير أفعالها. أم كتم جماعة من المماليك المارقة؟ لكني عرفت فيكم أحرارا جوار العبيد؟ لم أفهم الفيلان أبدا، فلعلك تفهمني شأنهم؟"

تنحنت مرتبكا من السؤال المفاجيء، رغم أنني كان يجب أن أحسب حسابه، فقلت مراوغا:

"لا أدري ما الذي يربكك؟ نحن لسنا رافضة، أو مماليك مارقة. نحن غيلان حمر، وهذا هو الأمر ببساطة!"

وهكذا فسرت له الماء بالماء، فلم يعلق: بل أكمل بأسئلة أرذل:

كان منكم فريقان، أحدهما يحارب الملك، والآخر يحارب معه. وكلا الفريقين اصطاده الأمراء، فاي فرقة أنتم اليوم؟

رددت:

"نحن الفيلان الأحمر و فقط اليوم نقاتل جوار الحق و فقط!"

مط شفتيه، فعدت للسؤال:

"ماذا حدث للأميرة الحبلى؟"

قال:

"أثناء الانشغال، والفوضى، والحروب المتتالية، ذهبت الفتاة مع بعض تجارنا لبني الأسود، وهناك أخذها هذا الرجل، الذي كان مدينا لأبي، فاستطاع إخراجها من البلاد بسهولة إلى طرابلس. ولما اطمان رجالنا عليها، وأتتهم رسالة بأنها وصلت لتاجر طرابلسي، يسمى زيتون بن عبادة، عادوا لساوة، ثم انقطعت أخبارها تماما. فقد هلك زيتون وأهله وقريته منذ دهور. تشتت الناس في كل البلاد، بعد أن دهمتهم حروب مدينتي الصيادية والسور العلي، التي لم تخدم من مائة عام."

قلت:

"إذًا، فلا أمل في العثور عليها؟"

هز رأسه بهدوء، وقال مبتسما:

"لا أمل بالطبع، وإلا ما قصصت عليك حكايتها أصلا!"

قلت مجدلا:

"لكن يا شيخ زهير، إتنا نريد الوصول للوريث إنقاذًا لحياته، رسل القائد الأسود - جبار العاصمة كما تسميه - غادرت من مدة تجاه طرابلس، تبقي رأسه، بعد أن أفشى شيخ بني الأسود بسرّها لمن لا يؤتمنوا. أخبرني كيف نصل للوريث، فندافع عنه كما دافعنا عن أبيه، وتنصبه ملكا على البلاد، يعيد لها أمنها."

هز رأسه مرة أخرى، وقال:

"هذا كل ما عندي! لا أعلم شيئا عما حدث للأميرة سارة. آخر ما سمعته - وكان قولاً لمن لا ترجى شهادته - أنها وضعت وليدها صحيحا معافى، ولكن أين؟"

جروب "ربيع الكتب"

وإلى أين ذهبت؟ من بعد تعدم قرية ابن عبادة هذا، لم أخرج من قريتي، ولم يخرج تجارنا لأبعد من أراضي بني الأسود. لقد زادت الحرب بين الصيادية والصور العلي ضراوة، وقطعت كل الأنباء بيننا وبين طرابلس، وما حولها، فهي أرض لم يسمع أحدا عنها من سنين! ولعل هذا الوريث قد مات خلال هذا العمر. ولعله لم يولد أصلاً!"

أحسست بالضياح برهة. كان ما اعتمدت عليه هو أن اخذع أهل ساوة، ليطمأنوا لي، فيخبروني بمكانها، لكنهم رغم اطمئنانهم لي - بفضل درعي الأحمر - لكنهم لا يعرفون شيئاً ينفعني!

بدا لي الأمل الواهن، هو الوحيد الباقي، لأتشبث به؛ ولكن إقناع زهير بهذا الأمر ليس ييسير.

قلت لزهير:

"أتذكر كيف كان شكل الشهابي؟"

مط شفتيه، وقال:

"حسناً، بعض الشيء؛ كان طويلاً، أبيض الوجه، أسود الشعر، بني العين."

كانت صفات معقدة حقاً، تنطبق على ثلث سكان الواحة، لكني جاريته بقولي:

"هذا عظيم، ولكن لو أشرت لي على أحد أبنائك أنه يشبهه، أعني أتم آخر أقربائه، فمن هو؟"

رفع الرجل حاجبيه وهو يحك رأسه مفكراً، وقال "أظن أحدهم، حتى تيمور في مثل طول، ولكن....."

قاطعته قائلاً:

"إني ذاهب للبحث عن الوريث. وقد أوصاك والدك - كما تزعم - به وبأمه.

فعليك أن تلزم عهد أهلك، وترسل معي أحد أبنائك لطرابلس، فربما ترى في قرابة الدم ما يجعلنا نعرفه. لم يبق لدي لمعرفة الوريث سوى الشبه المحتمل كما ترى، ولذا....."

قاطعني بفضب:

"ليس لك أن تطلب....."

لم يكمل كلمته، إذ أني استبدلت سريعاً الإقناع بالإقناع، فألقيت ردي
مذهب مصطنع، فمرك إلى جواره، لينفوس في باب داره المتهالكة، فشطرت
لسفينة، ونظرت له بحدة قائلاً:

"تذكر أنك تحدث غولا أحمر!"

فصمت الرجل، وأشار لابنه الأكبر تيمور، لكي يذهب معي."

* * *

(12)

قال الحكيم وهدان

بِت ليلتي في منزل آل العلاف، لكي استيقظ على اخبار عجاف! فقد أتت قافلة من تجار ساوة، فإذا بالناس يلتمون حولها في لفظ، فذهبت لأرى ما الفلظ، فعلمت أنهم وجدوا الأمير الأبيض - أمير الزرقاء - قد قتل، هو ومن معه، وأن القتلة تركوا المال والنفالس، لم يحملوها معهم، فذب الذعر في قلوب الناس، يتحدثون عن قتلة من جن وشياطين، ينفون الروح لا المال!

وتواترت الأنباء سريعا عن سباق بين عدة جماعات من الأمراء، تسرع عبر الشرق، وتقتل بعضها بعضا، وضعت كمائن هنا وهناك، تفتال المسافرين بلا رحمة، وبدا الأمر محيرا، والناس في ساوة لا تفهم ما يحدث، فامتنعوا عن مفادرة البلدة رعبا!

وهنا أدركت أن الطريق الذي اعرفه ليس امنا أبدا، وإن رجولي نحو الشرق يعني الهلاك الحتمي، وأيقنت أنه لا بد من البحث عن طريق آخر.

ولم يكن هناك غيره لأسأله، الشيخ وهدان الحكيم!

اندهش تيمور بن زهير، إذ وجدني أسير غريبا، فسأل:

"السنا ذاهبين لطرايل؟"

قلت له:

"نعم، لكني سأصعد الجبل الكبير أولا."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

١٠٠٠ الشيخ وهدان حكيمًا بلغ من العمر أربعمائة من فخر معروف لأهل ساوة
لكنه معروف لقرانا وما حولها وله شهرة في كل إمام الشيخ عصفور -
كما أسمع - لكنه ترك القرية منذ سنوات بعيدة ليعيش متعبدا متصوفا في
صومعة بالجبل. لا يشق عليه هدمها إلا طالبي المشورة

وطالبو مشورته كثر. لأن معارفه كثيرة حقا. فهو بحر في أخبار الناس
ووقائعهم. وخبير بالطب والدواء. والطرق والدواب ويحكون عن شبابه. إنه
قطع البلاد جيئة وذهابا. مرات كثيرة. بل غادرها في أسفار بعيدة شرقا وغربا.
حتى زعموا أنه تردد على قصور ملوك الفرنجة وراء البحر! كما إنه كان جنديا
مفوارا. يتدرون بعبقريته في المعارك والحروب. رغم إنه لم يكن سوى جندي
صغير. لم يتول قيادة الزمام في أي حرب: لكنها عادة أهل الريف في إضفاء
الأساطير على كل لامع من أبنائهم.

كان والدي يحكي لي عنه. وعن معارفه. مثلما حكى لي الناس بعد عودتي.
ولذا بدا لي أن الاستعانة بخبرة صديق قديم لوالدي. لمعرفة أمن الطرق
لطرابلس. مهما كان شاقا أو طويلا. وانتهازتها فرصة. لأفهم منه المزيد عن
أولئك الفيلان. بدلا من أن يحرمني شخص. كما فعل الأمير الأبيض بقطته. أو
زهير بسذاجته.

كان القليل الذي عرفته عن أولئك القوم. من حديث تيمور وأبيه زهير. قد
جعلني أزداد التصاقا بالفيلان. لأن حتما الوريث سيطمئن لهم عن غيرهم.
وسيتبعني فقط لو لم يكشف قناعي!

وصلت لصومعته عند القروب. ولحسن حظي كان خاوية من الزوار. فأبقيت
تيمور خارجا عند الدواب والزاد. ودخلت له وحدي.

سلمت عليه. وجلست بين يديه. وقلت:

"يا سيدي، أنا عبد الشهيد ابن سمعان. والدي هو سمعان الصياد. ابن وردان.
وكان من تلاميذك، وأوصاتي كثيرا بزيارتك إن عدت لبلدته."

لكن ذاكرة الشيخ كانت حديدية! فرد فوراً:

"أذكر سمعان ابن وردان؛ لكنه لم يعرف بالصياد أبدا! ولم يكن تلميذا لي. فلم
أره إلا لماما، ولن أنسى أنه أبق للزرقاء. إذ ادلهمت الخطوب! لا تحاول منافقتي
يا غلام، وقل حاجتك. وارحل عن رأسي العجوز!"

ابتلعت ريقى وقلت:

"نعم يا سيدي، هرب والدي للزرقاء، وتزوج هناك وأجبنني، قبل أن نهرب مرة أخرى، بعد أن حطم القراصنة المدينة، ففرعنا للصحراء نقتات من صيد سهامه، فعرف بين الناس بالصياد. مضت علينا سنوات شريفة في البلاد، حتى سمعنا بالوريث، الذي كان دعيا كاذبا، فاتبعناه مع من اتبعه، وحاربنا معه، لم نلهزم مع من هزموا وفروا. اكتفى أبي من الفرار حينها، وظل صامدا أمام الخطوب العظام، لولا معرفتنا بكذبه، فمات أبي كمدا محسورا، وأوصاني بالعودة للبلدة. لا تقس على والدي، فقد جازته الحياة بقسوتها."

صمت الرجل، قبل أن يرتشف رشفة ماء من قدر جواره، وقال:

"أعلم تلك الحكاية، أتاني الشيخ غلاب شيخ البلد يقصها علي، ويسألني كيف يسلم لك الأرض، وأنى له بمعرفة حقيقة نسبك، حتى أخبرته بصفات كانت في أهلك، وجدها فيك، فما زالت لي براعة في علم القيافة يا غلام، لعلها نفعتك!" كانت أول مرة أعرف فيها هذا الأمر، فقلبني الصمت، فقال الحكيم:

"ما هذا الذي ترتديه؟ إنه درع أمالة، ترك عندي واستعاره الشيخ غلاب منذ أيام ولم يرده؟ بل إنه أرسل لي يقول إنه يخشى فقدته، فكيف انتهى إليك؟"

هنا حكيت كل نبأ منذ غادرت القرية، حتى دخلت الصومعة!

نظر الرجل لي بإشفاق، وقال:

"حماسة الشباب، قد ذقت والله سكرتها مرات عديدة! أحقا ترغب في مجادلة ابن الأسود يا غلام؟ أنت لست أهلا له! أضحك بالظفر بالسلامة، فلا جدوى ولا نصر في معاداة هذا الجبار الظالم، أيها الأبله الصغير، الذي لم ينبت له عود بعد! عد لقريتك، ولتكن شوكتك بين أحسبك. لن تستطيع، فارجع سالما خير لك." قلت له، مجادله بحجته:

"السلامة طلبها والدي، فمات شريدا! لن يرتاح ضميري ما لم أؤدي ما قضي علي."

قال لي:

"لن تنجح، فلم المحاولة العبثة؟"

هنا مصر:

"ان يحاسبنا الله على نجاحنا فيما استطعناه يا مولانا. سيحاسبنا على سعينا
فهما وجب علينا."

ابن اسم الرجل وقال:

"حماسة الشباب، قد ذقت لذتها وبراءتها! عسى الله ان يجعل حظك في البر
خيرا مني ومن ابيك! عندي امر قد ينفعك لم افهمه وقتها، ولم اخبر به احدا
فبك. ويا سبحان الله، الذي سخرنى احفظه لك حتى مجيئك بعد السنين! اتاني
رسول من شيخ مسجد طرابلس الكبير، منذ دهور بعيدة، بعد وفاة الشيخ
عصفور بهدة قصيرة. كان الرجل يسأل عن القاضي، فلما اخبروه بموته،
سالهم عن خليفته. ولعل الناس ظنوه يسأل عن خليفته في الدين، وكانت
شهرتي في القرى بدأت تعرف. عندما غررتني الحياة، وتصورت ان التصوف هو
ان يكون لي حلقة تمجدي باسم الله في كل قرية!

دله الناس على بيتي، فالقى علي السلام، وطلب الخلوة، فاخبرني انه اتى من
صديق للقطب الصوفي الشيخ عصفور، هو الشيخ زعفران امام مسجد طرابلس
الكبير، وكان يريد ان يبلغ اهل فتاة في ساوة - بعيدا عن اعين المتربصين -
بانها وصلت سالمة، هي وحملها، ولتها تركت رجلا، يدعى ابن عبادة لانها لم
تثق في بني الأسود. لم اكن اعرف من سارة هذه، ومعرفتي باهل ساوة
ضعيفة، فلن استطيع معرفة المتربص من غير المتربص فيهم. لم اكن ادري
شيئا، كما انني اعرف هدى بطش بني الأسود، الذين لا تثق فيهم الفتاة،
ففضلت الكتمان على انه خير من الإخبار.

ويا سبحان الله! تاتيني انت اليوم، كأنها هو قدر مقدور، لتعرف بالنبا وحدك!"

قلت مبتهجا:

"هو نبا عظيم، غفل عنه الباقون. عسى ان اجد هذا الإمام، او اهل بيته، اول ما
اصل لطرابلس. ولكن في جعبتي أسئلة مزعجة، ارجو ان تهملها."

صمت الرجل منتظرا، فقلت:

"اولا من اي طريق اذهب إلى طرابلس؟ اعني الطريق الذي يفصل عنه الأعداء،
ومن هم الفيضان الحمر الذين اتحل شخصهم؟ واحقا هذا الدرع لهم؟

كما، هل تعرف في آل الملك علامة أميز بها الوريث عن غيره؟

قال الرجل الذي أخبرته السنون:

"يا بني، لا أعلم عن آل الملك شيئا، ولكن لعل قريبه الذي أخذته معك يحن دمه له. أما الطريق فلا أستطيع أنا أو غيري إجابتك. حينما كنت أتجول طريدا مثلك، كنت أنا من أرسم الطريق. سترى الخطر، فتحدد عنه، وترى الضر، فتستحي له. كل ما أظنه ينفعك هو نصيحتي ألا تعبر النهر من أراضي الأسود.

انتظر لحظة، كنت قد سمعت إن الأحرار في الشمال، والمستنقعات قرب الساحل، أكثر أمنا بكثير، ومهجورة تماما، صحيح إنك ستضطر لعبور فروع النهر، واحدا تلو الآخر، بدلا من عبوره دفعة واحدة، لكنك ستبتعد عن يد هذا الظالم الجبار."

كنت أعلم بعض الأشياء عن أرض الشمال، التي صعدنا فيها مع الوريث الكاذب، فبدت لي نصيحتة طيبة. لكني عدت أسأله بلهفة:

"وماذا عن الفيلان الأحمر؟ من هم؟"

قال:

"سأحكى لك حكايتهم."

(13)

حكاية غزو الأهبال وقنال الفيلان

ظهر الفيلان في شرق البلاد، كان أكثر نفوذهم في الشمال والشرق، لا يمنعهم عن الجنوب سوى بني الأسود، وعن الغرب سوى الحاضرة. زعم اعداؤهم أنهم فرقة من الخوارج أو الروافض. وزعم آخرون أنهم قبيلة متمردة من الأساودة، أو جماعة مماليك أبقة. لكن كل هذا ليس من الباطل بعيد. فقد رأيت بين جندهم روافض، وخوارج، ونصارى أيضا من الأحرار، وقلة من المماليك!

لا أعلم الكثير عن بدايتهم، ومذاهبهم، لكني كنت شاهد عيان على نهايتهم.

أظنهم بدعوا كعصابة، مثل قطاع الطرق. أنت تعرف أولئك المرتزقة، الذين يسمون أنفسهم أسود الجبل؟ الذين كانوا لصوصا، قبل أن يتحولوا لامتهان القتال؟ أرجح أن الفيلان الحمر مثلهم، لأنهم لم يكونوا يدعون لدين أو ملة، ولا لمذهب أو شيعة، على عكس غيرهم من الفرق!

أولئك المغامرون اشتد نفوذهم، وقويت شوكتهم. فوعيت للعالم وهم ملء السمع والبصر، تسلطوا على مدن وقلاع كثيرة في الشرق والشمال، حتى بلغ من جبروتهم أن استطاعوا إجلاء بعض قبائل بني الأسود عن أراضيهم، وشتوهم إلى الجنوب، لم يرجعوا إلا بعد غزو الأهبال.

كان الفيلان الحمر يؤمنون بالشجاعة، فهي أسمى ما عندهم، وهي ما يثمنون

به الرجال. خطيتهم الكبرى هي أن ترى خطرا فتتركه.. لتكون غولا أحمر.
فعليك مطاردة الأخطار. لا الهروب منها.

قيل إنهم لا يضمون رجلا لهم. إلا إذا اصطاد وحشا بيديه العاريتين، وبالتحديد
الفيلان من الأحراش في الشمال. ولهذا سموهم بالفيلان الأحمر.

لكني أظن هذا باطلا. لأن الفيلان الحقيقية لا وجود لها أصلا.

قاطعت الشيخ وهدان بقولي:

"سمعت. من بعض الزنوج في الزرقاء. إنه توجد غابات بعيدة جدا في الجنوب.
حيث بلادهم لا ينقطع عنها الحر والمطر - في زعمهم - تثبت أشجارها غيلانا
سوداء ضخمة خرساء. ويقولون إنها قبيحة كالقردة. كثيفة الشعر كما لو
كانت لبدة أسد سوداء تغطي كل جسدها؛ لكنها لا تأكل اللحم. غير إن من
يفضبها يعرض نفسه لقوتها المرعبة."

قال الحكيم وهدان:

"يا بني، هذه حيوانات من خلق الله في أبعد بلاد الله. لكن حتى تلك الفيلان. لا
توجد في بلادنا. أظن إن الفيلان الأحمر كانوا يصطادون الذئاب أو ابن أوى. على
أي حال هم لم يعرفوا باسم آخر. أيا كان من أسماهم به.

كانوا يكررون دوما قولهم (القول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا)
وسمعتهم يسمون هذا بالقانون الأول. كان لهم كتاب صغير. يسمونه
القوانين. يحمله كل فرد منهم. يحوي ما كتبه لهم غولهم الأكبر. الذي
يزعمون أنه غول حقيقي عملاق من نسل ملوك الجن. طرده غريم لأبيه. فرباه
صعاليك البشر. وقد كتب لهم مائة قانون. تحوي خلاصة حكمة ملوك الجن
في هذا الكتاب. الذي يقرؤونه. وقد كان تعلم القراءة والكتابة لزاما عليهم
كما أظن. لكني شاهدت هذا الكتاب. حين كان يجمع ويحرق. فوجدته رقعا
صغيرة. لا أظنها تستطيع أن تحمل أكثر من خمسين قانونا.

يحكون إن بدايتهم كانت قتال الظالمين والجاثرين. لكني لم أشهد أشد منهم
جورا وظلما وبطشا بالضعفاء. نشروا الرعب في القاصي والداني. حتى تسامع
بهم الملوك خارج بلادنا. وأصبحت لهم رهبة. فلا يذكر اسمهم إلا بوجل.
عاثوا في الأرض فسادا. لا يردهم أحد. واقتلعوا كل لسان يعظهم. وقطعوا

جروب " ربيع الكتب " .

هل يد تردهم، وقدفوا بالفرع في قلوب الأمراء، الذين كانوا يخافون ممن لا يخافون الموت.

عرف عنهم اختطاف الأطفال من الأهالي الفقيرة، يدفعونهم لزعيمهم ليرببهم في قلعتهم، على حبه والإخلاص له، وعلى اعتناق الشجاعة الخالصة، ليكونوا غيلانا حمرا أشداء، لكن هذا كان خطاهم الأكبر، فحين حانت ساعاتهم، كان أولئك الأبناء أشد الساعين عليهم.

حينما استشرى نفوذ الفيلان في كل مكان، جعلوا منهم فرقة، تسمى الخفية، كانت أول لمحة من نفاق فيهم، تتخفى بين الناس، وتتسمع الأخبار، وتقاتل لجوار أعدائهم، حتى تعرف كل شيء، فتخبر به غولهم الكبير، وأراد الملك اتقاء شرهم، واستغلال بطشهم، فهادنهم، وعقد معهم حلفا، أن يمنحوه فرقة تحميه، فشكّلوا فرقة جديدة، أسموها الملكيين، يقاتلون معه، بشرط ألا يقاتلوا غولا أحمرًا آخر أبدا.

لكنهم لم يكثروا من الحلفاء، قدر إكثارهم للكره والبغضاء، فقد كانوا يزعمون الشجاعة، فيأتون بالقساوة، ويقاتلون ببراعة، لكن قلوبهم كالحجارة.

ثم تفسخ ملك الملك، وخرج عليه أمراء المماليك، ليزداد الجوع والفتن، قبل أن يأتي الأهبال.

كان الأهبال قبائل وخلالط تتقاتل فيما بينها، غير أن ظهر لهم زعيم قاس، يقال له (المهول)، فكان هولا على الناس، مضوا كالطوفان، يحرقون ويقتلون، يقال إنه عبر مائة عام، لم تتوقف الحروب بين الصيادية والصور العلي، إلا لدمار المدينتين معا على يد الأهبال، كانوا يدمرون، فلا تعصم منهم الحصون.

ويقتلون، فلا تهرب منهم الدروب، وقيل إن أرض بين النهرين بحمار الدم عقبهم أربعين خريفا، وأن الأبار فيها كانت تضخ دما بدلا من الماء.

ولما اكتسحوا، بقيادة المهول، ما حولنا من بلدان، أغراهم ضعفنا وما أصابنا من فتن وحروب، فالتفتوا لنا بجيوش لا أول لها ولا آخر.

حطموا جيش الملك، الذي خرج لملاقاتهم، شر تحطيم، فأبادوه عن آخره، لم يبقوا له راكب أو راجل، وحينها سقط ملك الملك فورا، إذ أدرك الناس أنه فقد سنده، فسفكوا دمه، ومزقوا أهله وملكه.

ومضى الأهبال، فحاول بني الأسود الذود عن مراعيهم، فدمروهم. ثم مضوا شمالا، فوصلوا لقلع الفيلان الحمر، وهي سبعة قلاع، قيل إن فيها سبعة آلاف غول، هم أكبر عددهم، وأقوى عزمهم، وعليهم رؤسأؤهم وحكماؤهم.

لم يكن الفيلان يلقون بالا للأهبال، ولا أظنهم كانوا ينوون حربهم لو تركوهم وشأنهم. لكن جيش الهول العظيم، الذي فاض عن الثلاثمائة ألف مقاتل، هاجم القلاع، يتصور تحطيمها كما فعل بغيرها.

لم يكونوا عالمين بالفيلان، لم يهرب الفيلان كغيرهم، ولم يسالموا الهول، أو يتعدوا عن هول جيشه، فلم يكونوا بمن يهرب من قتال يطلبهم.

جمعوا كل أعوانهم، وصمدوا في قلاعهم زمنا طويلا، شهورا عدة تفوق أي زمن صمد فيه أحد أمام الهول. كانوا لا يزيدون عن عشرة آلاف غول، أمام ثلاثمائة ألف من الأهبال، فيقاتلونهم بطريقتهم المعهودة، وشجاعتهم المعهودة، وبراعتهم المسمومة. وأذاقوا الهول هولهم الخاص، وألقوا في قلوب رجاله الرعب من مواجعتهم.

قتل الفيلان عن آخرهم، وسويت قلاعهم بالأرض، لكن بعد أن قتلوا من جيش الهول ستين، ويقال ثمانون ألفا من الأهبال الأبطال.

كانوا أول من صمد أمام الأهبال، منذ بدأ زحفهم، ومعهم عرف أولئك القوم الفلاظ طعم الحرب، التي لا حرب بعدها.

قيل إنها كانت هزيمتهم غدرا، إذ أرسل لهم الهول من يأنهم، ويطلب عفوهم، على أن يتعد عن بلادهم أمانا من هجماتهم، فلما قبلوا، غدر بهم وأرسل جيشا يرتدي زيهم، ففتحوا له الأبواب، ليسيطر على باب القلاع، ويهجم عليهم بكل جيشه في مقتلة مريعة، سالت فيها دماء رجاله أنهارا، فلم يلق لها بالا، وأقسم ألا يترك الميدين حتى يقتل آخر غول.

ورعموا أن هناك خونة، قالوا للفول الكبير إن القتال وراء الجدران ليس من شيم الفول الأحمر الحق، فاستمعوا لتلك الحماقة، وخرجوا بكامل عدتهم لملاقاة عدوهم، فهلكوا جميعا.

على أن الفيلان بقت لهم قلاع صغيرة، وجماعات متناثرة في كل البلاد، يناجزون الأهبال ثارا، فكانت فرق الأهبال تفرع إذا وجدوهم، ولو رأوا علمهم في قرية، حادوا عنها خوفا.

طوال هذه الحرب، التي قاربت على العام، كان الأمراء منشغلين بحرب الملك، وقتل أهله. فلما أبادوهم، قاتلوا بعضهم بعضا، حتى اقترب الأهبال من العاصمة.

هنا برز أحدهم، يدعى الأمير منصور، فجمع الجموع، ووجد الصفوف، وأبس جيشه كله زي الفيلان، ودروعهم الحمراء، وهجم بهم على معسكر الهول، مظن الأهبال انهم امام مائة ألف غول احمر، فاستبد بهم الفرع، الذي أذاقوه من قبل للناس، وتشتتوا في البلاد، وهزم بقيتهم هزيمة منكرة، وقتل الهول شر قتلة، وابنه الأكبر معه.

ومازالوا يتبعون الأهبال، يمزقونهم حتى طرابلس، حيث دارت موقعة كبيرة - شهدتما - بين الفريقين، قتلنا فيها خاقانهم الأعظم، وقتل أميرنا منصور في تلك الموقعة، فعاد الأهبال لسيرتهم الأولى، من الفرقة والتنازع على ما ملكوه من قلاع في بلاد الشرق، ورجع أمراؤنا لحالهم، من التنازع والتقاتل على العرش المسموم.

وأصبح الأهبال يغيرون على الحدود أحيانا، فيربحون مرة، ويطردهم الأساودة، أو الفرنجة، أو الأمراء مرات، غير أن هيبتهم ظلت في النفوس، وتضاعفت في أيام ضعفنا هذه، رغم إننا كنا من أذاقهم الهزيمة المرة يوما.

ثم تتابعت على بلادنا المسكينة الفتن العظيمة، والبلوى الكبيرة، فتقلب الناس على بعضهم البعض، وقاتل الأمير الأمير، والمملوك المملوك، والفول الأحمر الفول الأحمر.

هاجت البلاد وماجت، فكان أمراء المدن يحاربون أتباع الملك، والمماليك يحاربون أمراء المدن، والعامّة تقتل المماليك، والعربان يتخطفون العامة، وانفرد كل وال ببلده، وكل أمير بأرضه، وكان ما كان من شراء المرتزقة، وتجمع الأثرياء لنهب أراضي القرى، واستعباد أصحابها، فدار ما تعرفه من حرب هرب منها أبوك.

أما الفيلان، فقد انقسموا لفرقتين عظيمتين، قسم أسمى نفسه بالمولودين، وكان متمردا، جله ممن خطفوا في طفولتهم، فشبوا على البغضاء، وشهوة الانتقام.

والثاني تسمى بالمبتدئين، وكان من ظل على العهد القديم.

وانشطرت معهم الفرقة الملكية، وتلك الخفية. فأصبحوا يقاتلون هنا وهناك، لجوار هذا وضد ذلك، في فوضى مزرية. إلا أن تواعد الطرفان في واد عميق، قرب الثغر الصغير، يسمى وادي الذهب، فتقاتلوا في مقتلة عظيمة، في حرب لم ير مثلها أبدا.

رأيت في حياتي الكثير من المعارك، وشاركت في الكثير منها، لكني إذ كنت فوق التل، ألقب تلك المعركة مذهولا. صليل السيوف يقرع الأذان، وهدير السهام يرجف القلوب، وصرخات الهجوم كقصف الرعد، وطيران الرماح كضرب البرق.

لا أدري أي الفريقين دارت عليه الدائرة، إذ ما إن تبقى منهم القليل المنهك، حتى أمرنا الأمراء بالانقضاء عليهم، فأبدنا كل من في الميدان، كما تنقض الضباع على الأسد الجريح.

وسارت في البلاد كالحمى أن اقتلوا الفيلان! تتبعهم الأمراء بأشد ما تتبعوا آل الملك. يخبرونهم بما القتل، أو ترك مذهب الفيلان، وقد كان في قوائينهم قولا: "إن الفول الأحمر، لو أنكر حقيقته، بسبب الخوف، فلم يعد منهم". ولذا، سهل على خصومهم كشفهم وإبادتهم. فأمن الأمراء شرهم بعد سنين المطاردة، ولم يعد لهم وجود من عقود. وإن بقيت سمعتهم ورهبتهم في صدور الكبراء والمسنيين حتى اليوم.

وهذه يا بني حكاية الفيلان الأحمر.

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"استمعت لحكاية الحكيم بإنصات، وتذخرت عنها شذرات. حقا كنت قد سمعت بعض ما قال في سنين الطفولة في الزرقاء. لكني علمت بعض ما ينفع، كمسألة كتابهم المسمى بالقوتين، وأن زعيمهم (أي أنا) يسمى بالفول الأعظم. وفهمت ما يقصدون بالفرقتين المتنازعتين، التي تحدث عنهما زهير.

غير أنني تذكرت أمرا، فقلت للحكيم:

"هذا الدرع الذي ارتديه يبدو حقا درعا للفيلان. من أين أتاك؟ لو كان من بينهم من ظل حيا، فسأنتفع به حتما."

قال الحكيم:

"اللي منذ زمن فتى صغير، يرجو النجاة من القتل، فوضع عندي هذا الدرع
أهالة، إلى أن يرسل لي من يأخذه، لكنه رحل ولم يعد، حتى طلبه الشيخ غلاب،
إذ راه عندي ذات يوم، ليرتديه ابنه يقيه في حرب الأثرياء."

قلت:

"بليخي أشكرك، ولكن من كان هذا الفتى؟ أما زال حيا؟ وهل كان من
الملكيين الذين أقسموا على حماية الملك؟"

انقسم وقال:

"لا أعلم يا بني في أي فريق كان، لكنه كبر في السن، وزاد في المال ونسبني،
وألا لم أنسه! حاول خداعي في اسمه، لكنك تعرف اسمه الحقيقي، وقد
التقيته."

ردت مندهشا:

"أنا؟ من هو؟ أهو الشيخ غلاب؟"

ضحك الشيخ وقال:

"الشيخ غلاب أيها المفترى! لا! بل هو الثري الذي جمعكم في داره مع شيخ
الأساودة، هو ابن العبدلي"

* * *

حكاية حرب الصيادية والسور العلي

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"مضيت أبقي قصر ابن العبدلي. لأستوضح منه الأمر، وأطلب العون. الآن فهمت، لم كان يتأملني في دهشة، ولم كان الأكثر فزعا، إذ قلت إنني من الغيلان الحمر. وأخذت معي تيمور الساواتي، الذي ورث، عن أبيه زهير، حب الثرثرة، فأخذ يصدعني بحكايات متتالية عن الطريق، الذي لا أدري أنصل له سالمين أم لا.

قال لي تيمور ابن زهير:

"قال لي حسان ابن همدان الصياداني إن العبور إلى طرابلس من البر مستحيل، وأن لا منفذ لها إلا عن البحر الشرقي. لا لشمالي."

قلت له: "ولم؟"

قال:

"البر مشتعل بجيوش الصيادية والسور العلي منذ مائة عام. وبحر الشمال يغلي بأساطيلهما."

قلت:

هو لا يدري أن القراصنة أقسى. وأمرهم أخطر. ولعل الحرب بينهما تتوقف
عليهما، نختلسها للعبور إلى طرابلس".

ال تيمور:

قال لي حسان ابن همدان، عن أبيه همدان، إن الحرب لم تنطفئ لحظة واحدة.
همد كانت الصيادية قرية صغيرة، تعيش على الصيد في البحر، بينما السور
العلي مدينة كبيرة، تعيش على التجارة. وذات يوم، خرج بعض من الصيادين،
فألزلوا شباكهم، فاغترفت لهم من البحر كترا من الذهب، ففرحوا به،
وأخذوه لبيعه في السور العلي.

لكن بعض الحرس راوهم، فضربوهم، واستولوا على كنزهم، وأغلقوا أبواب
المدينة دونهم. وغضب أهل الصيادية، فقطعوا عن السور العلي المؤن،
وامتنعوا عن بيع أسماكهم في أسواقها. فبنى أهل السور العلي سورا
عظيما حول شواطئهم، ليمنع تزود سفن الصيادين بالماء العذب من ينايهم.

ثم حدث أن كان لملك السور العلي ولدان، شابان وسيمان جلدان، يقدر الواحد
منهما على فلق الحجر بضربة يده، وعلى صيد الشيطان برمية سهمه!

لكن الخلاف دب بين الاثنين، إذ أحبا نفس الفتاة الجميلة ابنة الوزير. غير أن
الفتاة مال قلبها للأخ الأصغر، فاوغرت الفيرة قلب أخيه الأكبر حقدا.

ومات الملك، فورثه الأخ الأكبر، فتآمر مع الوزير ليتزوج ابنته رغما عنها.
ففكرت في الهرب مع حبيبها. لكن جنود الملك أمسكوا بهما، وأتقما الأخ
من أخيه بقل، فقطع إحدى أذنيه، وانتزع أمواله وملابسه، وألقاه عاريا معدما
خارج المدينة.

خرج الأمير المقهور، يهضي بين البلاد يالسا، فقابلته عراف أوام وأطعمه،
وأخبره إن ملكا كبيرا ينتظره في بلد أعدائه، فعلم أنها الصيادية، وذهب إليها.

وهنا وجد القرية تعاني من وحش مريع، يأكل شبابها إذا خرجوا للصحراء، ما
لم يتركوا له كمية ضخمة من صيدهم تحت شجرة كبيرة.

ذهب الأمير يراقب الوحش، إذ يأتي لأخذ إتاوته، وتتبعه لعرينه، فوجده حفنة
من لصوص ترتدي جلد وحش، يقال له الدب، تفرع به الناس. فأخرج قوسه

جروب " ربيع الكتب " .

وسهامه، فأسقط نصفهم قبل أن يتبهبوا، ثم نزل عليهم بسيفه فشطرتهم نصفين، كل بضربة واحدة، وعاد بجلد الدب للقرية.

وهلل له الناس، وأثنوا على شجاعته، وكان أميرهم مريضا يحتضر (ويزعم الخبثاء أنه سممه!)، فاتخذة خلفا له، ليعلموه من بعده ملكا عليهم، فاستطاع بقوة شكيمة، وشدة عزمه أن يبني الصيادية، لتصبح مدينة كبيرة، ضم لها ما حولها من قرى ومدن صغيرة.

وأراد الملك، ذو الأذن الواحدة، الثار من أخيه، فاعد جيشا كبيرا، وأسطولا عظيما، أسماهما جيش وأسطول الوحدة، يريد بهما توحيد الصيادية والسور العلي تحت رايته.

وهجم على مدينة أباله، غير أن أخاه كان قد بنى سورا عاليا يحمي المدينة من الجيش، وحصن سور الساحل ليحميها من الأسطول، فصددهما.

وهنا أحرق الأخ الأصفر سفن تجارة السور العلي، وأصابهم بهجاعة وكساد، ورد الأخ الأكبر بالقاء سم في البحر، قتل أسماك، لتصاب الصيادية بهتل ما أصاب السور العلي.

ومن يومها، والحرب بين البلدين سجال، والحق مستعر، ونار الثار لا تعرف لها إطفاء، فما تكاد تخمد حربا بينهما إلا تاججت أخرى، طوال مائة عام من معارك، لا هدنة فيها.

حكاية الفيلان الحمر

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"وصلت لدار هذا الثري الغريب، المدعو بابن العبدلي، فوجدت قصره على حال غير الحال الذي عرفته فيها. فقد أصبح خاويا، وحديقته، التي كانت تفيض بالضيوف والخدم والحشم، لم أر فيها إلا حارسا وبستاني. علمت منهما أن سيد القصر يبيت في برج، بناه بأعلى تلك الربوة الموجود بها قصره، فلا يستخدم القصر نفسه إلا للضيوف، الذين رحلوا جميعا يبفون رأس الوريث.

أرسلت أطلب لقاءه، فأتاني الخدم يقودونني، فأبقيت معهم الفتى تيمور، وأوصيتهم بإكرامه والاعتناء بدوابنا، وذهبت لهذا البرج، فدخلت على ابن العبدلي.

كان شاحب الوجه، زالغ النظرات، مضطرب السلوك، فانتظرت حتى غادرنا الخدم، وسألته:

"أعرف من أنا؟"

رد:

"القبيل زعيم الفيلان الحمر."

قلت:

"هذا حسن، والآن من أنت؟"

صمت حينان ثم قال:

"حسنا. انا من الفيلان الحمر. او كنت كذلك حتى انكرتهم."

قلت بلهجة القاضي. الذي يصطاد متهما منكسرا:

"عظيم اذا ما زلت تذكر شيئا مما تعلمته في كتاب القوانين"

هنا التفت لي بحدة. وتاملني قليلا. قبل ان يقول:

"انت لست من الفيلان!"

ظللت في جلستي هادئا. انظر له. فأكمل:

"انت لا تعرف عن الفيلان شيئا. وما انت إلا مدع."

هزرت رأسي موافقا. وقلت بهدوء:

"هذا صحيح. ما أنا إلا مدع. لكنك لست مثلي. ودرعك الذي على بدني يشهد

بهذا. كما أخبرني الشيخ وهدان."

رد بعصبية:

"لم تفعل هذا؟ ماذا تريد؟"

قلت محتفظا بهدولي:

"في البداية، لم أكن أرغب إلا في التلصص عليكم. فقد ظن شيخ بلدي انكم

تجتمعون لسلبنا اراضينا مرة أخرى."

هدأت نفسه قليلا. وقال:

"أما وقد علمت غير ذلك؟"

قلت:

"أما وقد علمت بالأمر. وعلمت بفدر الأمراء. وان الوريث مقتول لا محالة، فقد

عزمت على الذهاب إليه، والإتيان به للإقليم الغربي، ليتولى ملك أجداده، ويعيد

لنا الأمن والعدل."

نظر لي كمن ينظر إلى جواد له رأس ضفدع بأنياب ذئب! وقال:

"اجننت؟ فلاح مثلك يتحدى القائد الأسود ذاته!!!!!! من انت؟ حقا من انت؟ أنت

لا شيء. هذه هي الحقيقة الوحيدة. التي يجب ان تفهمها. بدلا من ان تورط

جروب " ربيع الكتب " .

بفسك، وتورطني معك في العبث القاتل. أنت لا شيء في قوته، ولا شيء في سلطانه أو ذكائه ودهائه. أنت لا شيء في بطشه، ولا شيء في عدد أعوانه، وحلفائه، وجواسيسه. لتي لك بخطيئة مجرد التفكير في تحديه! ألم تر كيف فعل الكبراء والوجهاء، الذين هم ملء السمع والبصر؟ تجنبوا جلب الوبال على أنفسهم. أما أنا فلا أملك إلا الذعر في انتظار وصوله، لمجرد إنني اقترحت مواجهته. فما بالك أنت يا من هو أعجز من النملة؟ عد لدارك، ولا تجلب عليك وعلي الوبال".

لا أفهم لماذا يفزعون كل هذا الفزع من كلماتي، كأنما أضع السيف. وأذهب لأطرق به على أبواب الأسود؟ جادته بقولي:
"هل إن تملك الأسود، فلن يأتينا الوبال؟"

قال بتوتر:

"بلى، ولكنه سيأتي بالأمن والوحدة للبلاد بعد طول ضياع. وسيكون للمقام وقتها مقال آخر.

قلت:

"توحيد البلاد، أم توزيعها على الأهبال والفرنجة؟ لو لم يكن له بديل لوافقتك، لكن ما دام الوريث موجود، وهناك من سيتبعه ضد الأسود، فلم لا نجازف؟ اهتر في عقده قلعا، وقال:

"وماذا يفعل الوريث؟ هذا المزعوم ما الذي يملكه لمجابهة الأسود، غير أنساب كالهباء المثلثور؟"

قلت:

"سيقود أمراء الغرب والشرق، ويوحد البلاد."

ضحك ضحكة قصيرة، وقال:

"أتصدق الأمراء الذين عاهدوني، ثم خرجوا يتقاتلون على أيهم أسبق لتدمير العهد؟"

قلت:

"كلا بالطبع؛ لكني امل في قبس من نور الضمير. وجذوة من نار السام في اتباعهم. امل في محاولة، لا أدري أنتج، أم اهلك دونها. لو هلكت، فلن أعيش لأشاهد ذل الخضوع لجبار العاصمة، ولو عشت فساحس أننا حاولنا . على الأقل- صده.. انه لم يأخذها بسهولة."

صمت ولم يرد، وطال الصمت بيننا، حتى قطعتة بقولي:

"أتساعدني؟ أنت كنت من الفيلان. وتعلم من هم حلفاؤهم، الذين أتجى إليهم، ومن لا يهادنونهم فأبتعد عنهم. وربما تعلم كيف أصل لطرابل سالما. وهلك من الملكيين، فأنت ملزم بقسمك لترافقني هناك."

قال في سام:

"دعك من أساطير الفيلان عن الملكيين والمخفيين! كل الفيلان هلكوا، لم يبق منهم سواك."

قلت:

"أنت الفول لا أنا."

قال:

"بل أعلك غولا أحمر، بصفتي الفول الأحمر الأخير، تبعا لاستثناء القانون الأخير من كتاب الشجاعة."

نظرت له نظرة بلهاء، فقال:

"انتظر هنا، وسأفهمك."

خرج قليلا، ثم عاد حاملا كتابا صغيرا من ورق مهترئ، وقال:

"هذا هو كتاب الشجاعة. ليست بالنسخة العادية منه، وإنما هو النسخة الأم، التي كتبت بيد مؤسس الفيلان. به ثمانية وثلاثون قانونا، يلتزم بها الفول الأحمر. هي وصايا في أغلبها، وليست قوانين ملزمة، والكتاب اسمه الشجاعة لا القوانين."

أول قانون فيه: الفول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا.

القانون الثاني: الفول الأحمر يجيب كل متحد، ويندفع عبر كل خطر.

جروب " ربيع الكتب "

fb.com/groups/exchange.book

«هالون الثالث: الفول الأحمر يطيع قائده، ولا يحارب غولا آخر

وهذا ثمانية وثلاثون قانونا، مكتوبين في عهدة كل غول أحمر، إلا القانون الأخير. لصفه فقط هو المكتوب في النسخ العادية، فهو مكتوب فيها: الفول الأحمر يظل دوما غولا أحمر، إلا لو أنكر هذا، خوفا أو طلبا لنجاة.

النصف الثاني من القانون لم يكتب سوى هنا، وهو الذي كنا نحفظه ونسميه الاستثناء: إلا الفول الأحمر الأخير، فإنه يظل دوما غولا أحمر، حتى يجند غولا.
١٦٠٦.

وأنا كنت هذا الفول الأخير. كنت صبيا صغيرا جدا، وكان خالي من كبار زعماء الشهبان، وجندني رغما عن أنف أبي وأمي. لأنني من سلالة ابن العبدلي، المؤسس الأخير، أو أول غول كبير، كما يسمونه، هذا الذي كان يزعم للناس أنه وريث ملوك الجن، ريبب الصعاليك، كان جدي، الذي أفتخر في صباي بسيرته!

كان أبي يكرهنا، وأمي تخشى علي من الخطر، وقد صدق حدسهما. إذ لم يعض علي في قلعة الفيلان أيام قلال، إلا ودارت علينا الدوائر، وسالت دماؤنا انهارا، بأيدينا وأيدي الفادرين، ثم اختطفني والدي من القلعة، مفامرا بحياته وجبسنني في قبو القصر، معلنا للناس إنني هلكت مع الفيلان، عندما أحرق المماليك قلعتهم، ليخفييني عن الأعين.

وأخذني والدي للفرب، بعيدا عمن يعرفونا، وظل يجبسنني في قاع القصر الجديد زمنا.

وذات يوم مظلم، أتاني خالي ينزف الدماء، لا أعرف كيف عثر علي، ولا كيف تسلل لقلب القصر، أو استطاع دخول الحجرة الحصينة، التي حبست فيها. بل كيف أصلا استطاع البقاء حيا تلك السنوات حتى وصلني.

أعلنت الفول الأحمر الأخير، وأعطاني كتاب الشجاعة، ودرعه، وأوصاني بالحفاظ عليهما، وزرا معلقا في رقبتني، حتى أجند غيلانا جددا، يعيدون مجدنا.

كان يعرفني، وأنا صبي صغير، مفتونا بسيرة أجداده، وشجاعة الفيلان الحمقاء، ودروعهم المنقوشة الحمراء، لكنه لم يعرف الفتى الحبيس، الذي ذاق الرعب شهورا تلو الشهور، ينكمش في حبسه، الذي فرض عليه كلما تجول الجنود في الدار، خوفا من أن يصلوا له، فيقتلوه، حتى استعذب الحبس، واستلذ الجبن، واستطعم الحياة الآمنة.

قبلت تركة خالي المحتضر. ليموت مطمئنا؛ لكني كنت أدرك أن الفيلان هلكوا بلا عودة أبدا. فأخفيت الكتاب، وألقيت الدرع في ركن مظلمة. قبل أن أعطيه لأحد الدراويش، يخفيه عنده ويمنحه لمن يطلبه، إسكاتا لضميري. باتني هكذا أكون وفيت بهدي لخالي، وعشت حياتي بميراث والدي، في رعب ينزع عني أي صفة من تركة خالي الملعونة، حتى أتيت أنت.

ما إن أعلنت أنت أنك غول أحمر، وسط أعدائهم. حتى أصبحت بالفعل واحدا منهم. وبما إنني كنت الفول الأخير، وقد أعلنتك، ومنحتك الكتاب واللقب، فقد زال عني وزر خالي، وخلعت نفسي من تلك الجماعة، فلا عهد لها يهمني. ولا استحقاق عليها يقضى مني.

ورغم ذلك، سأساعدك بما أستطيع، من مال وزاد ودواب، ليس إلا. على ألا تخبر أحدا بما عرفته عني. مهما كان.

سامدك بالنصالح النافعة، وما أسهل النصح، وما أصعب التطبيق! كل من يقول لك أنا حليف الفيلان، فهو غابر كاذب. إذ لم يبق لهم حليف واحد حينما اتقلب الكل عليهم.

ألد أعدائنا هم بني الأسود، فاحذرهم، ولكنهم يخشون لقب الفول كثيرا. فسيحملك منهم، ولكن إياك أن تثق فيهم، مهما كان، فقد كانوا هم من بدأ العداوة مع الفيلان الأحمر، بل هم من تسببوا في إيجادهم.

(16)

حكاية عبد الرحمن العبدلي وحفيده حسن

كان عبد الرحمن العبدلي رجلا واسع الثراء، ذو تجارة واسعة. يعيش في قرية. اسموها أم الخيرات، لأن الخير يأتيها من البحر القريب صيدا، ومن الأرض الخصبة ثمارا، ومن المدن المحيطة تجارة.

فكان عبد الرحمن يملك من هذا أرضا واسعة، وسفنا كبيرة، وقوافلا تروح وتجيء.

وكانت القرية على حدود مراعي بني الأسود، ورغم إنه لم يكن لهم وقتها ما لهم الآن من شأن وسطوة، إلا أن كلمتهم كانت مسموعة، وكانوا أصدقاء له، يشترون منه، ويبيعون له، ويؤجرون أراضيه للرعي، ويؤجر رعاتهم لماشيته.

وفوق كل هذا، كان عبد الرحمن العبدلي يفاخر القوم بنسب بعيد له مع الأمراء بني الأحمر، حكام الأندلس، حتى كان يسمي نفسه أحيانا الأمير العبدلي الأحمر، فيرد القوم ساخرين "هو أحمر أم الخيرات" يعنون أنه حمار! لكن الدنيا لم تجمع كل أطرافها لهذا الرجل. فرغم امتلاكه للمال والنسب، فلم يكن له عقب! فقد عاش مع أزواجه، لا يعيش له أبدا ولد.

ثم سمع نصيحة مشلومة، بان سمي ابناك بقبيح الأسماء، ليعيشون. ونسى وصية الرسول بإحسان أسماء اولادكم.

ولما أنجب بعدها، اسمى ابنه شحاتة، فعاش. وفرح به، وأنجب بعده تواما. اسماهما غولا ووحشا. وسعد بهم أن يكونوا السند، الذي يستند له، وهو يمضي مسرعا نحو الشيخوخة.

على إنه بعد سنوات، علم أن عذاب فقدان أشد مرارة من عذاب الحرمان. ما كان يتصوره ألما كبيرا، عندما يموت ولده عقب الولادة. كان أهون ألف مرة مما أصابه حين مات شحاتة وهو ابن ثلاث سنوات، ثم مرض وحش ولم يكمل سبع سنوات، ولحق بأخيه.

ولم يبق للرجل العجوز سوى غول، الذي شب فاسدا مترفا، أذاق والده الهوان والفضيحة. ربما لأنه كان له نصيبا من اسمه، وربما لأن والده دله خشية عليه من أدنى ألم، وحرص على رضاه مهما تمادى في البطش والسب والأذى.

وزاد الكرب فوق الكرب، أن قتل غول وهو فتى لم يتم سبعة عشر ربيعا، في شجار تافه، على دراهم قليلة، فعاش الشيخ العجوز وحدة كلبية، وأحس بضياح الحياة منه هدرا.

وهنا أتى وسط الظلام لمحة أمل. فولده الفاسد نكح واحدة من جواري الدار سرا، بعد أن أغراها بالزواج منه، لتكون سيدة الدار. ثم لما علم أنها تحمل ابنه، حاول إجهاضها ظلما، رغم إنها حليلته، واستاجر لفرضه امرأة من الفجر، لتوقع بها، لولا أن هربت الفتاة من الدار، ولم ترجع إلا بعد مقتل حبیبها.

استقبل عبد الرحمن الحفيد غير المتوقع، كانه نجدة من السماء، أو كنز ثمين يخشى عليه من العيون. أسماه حسن، لأنه كان بالفعل حسن الوجه، وأسبغ عليه العطف والحنان، وأراد تربيته تربية أصح من والده. لكن الفتى شب وجده رجل في أرذل العمر، فكان من قام عليه هن نسوة القصر، فاكسب شيئا من الرخاوة والطراوة والرعونة، التي امتزجت مع ما ورثه عن والده من الجري وراء شهواته.

كان شابا موفور الصحة، وسيما، واسع الثراء، تبعه الفتيات معجبة مذهولة. أو طامعة محمومة، فأصبح مزواجا، يتزوج ليطلق. ثم يتزوج مرة أخرى، ليكون

حريها ضحها، من الزوجات الحاليات، والسابقات، والجواري. كل واحدة تقيم مع أبنائها، قرب قصره، وقد أحاط كل تلك الدور بسور واحد، وسماها الضيفة.

وذات يوم رأى إعرابية حسناء وسط صويحباتها، ترعى الغنم في بعض أراضيه، فأعجب بها، وفتت الفتاة به، وأدار عقلها بسحره، وأسكرها بحيله، وطلبها للزواج.

كانت من بني الأسود. وهم لا يقبلون تزويج بناتهن من خارج الأساودة، إلا لماما، ولمن يمتلكون شرف نسب لا يقاوم، أو لعقد الأحلاف مع قبائل أخرى. وبالطبع رفض أهلها تزويجه منها، خاصة مع ما عرف عنه من عبث وتطليق. لكنه أكثر الإلحاح، وفتن الفتاة، فأطار لبها، لتتبرد على أبيها وأخيها. وذهب حسن ابن العبدلي إلى شيخ شيوخ بني الأسود، وكان رجلا طماعا دنيئا، فأعطاه الهدايا والرشا، ليقتضي على أبي الفتاة بتزويجها.

على إنه إن كان بني الأسود لا يقبلون بتزويج بناتهن لغيرهم، فإنهم لا يعرفون أصلا طلاقهن! لذا كالت الصفعة أمضى وأفظع، حينما سام حسن من عروسه، وطمع في غيرها، فطلقها وأعادها مغبونة ذليلة لأبيها، يجلها العار.

واشتعل الأب غيظا وكمدا، حتى مات بحسرتة في حينها. وهنا سألت الفتاة من أخيها الثار، ونداء الثار له صراخ عال في قلب أي من الأساودة. صرخة الثار النارية، التي لا يمكن إطفاءها، حكمت بالهلاك على حسن ابن العبدلي، وعروسه الجديدة.

الحت وألحت الأخت المفدورة، كغراب الشؤم تنعق طلبا للخراب، والأخ مفلول اليد، لأنه لو استنفر القبيلة، فسيرشو حسن شيخ الشيوخ مرة أخرى، ليقعوا بين نارين، إما الرضاء بالعار، أو الخروج على شيخ الشيوخ، وهذا عار على أي أسودي.

لجا الأخ للكتمان، وعمل بأعمال الخسة، مستعينا برداء الفدر الفعال. ذهب لجماعة من الصعاليك المطرودين في الجبال، من قساة القلوب، قطاع الطرق، ونفحهم المال، ووعدهم بالمزيد مقابل رأس حسن ابن العبدلي. لم يكن

يرغب إلا في اثار لشقيقته. حتى إنه لم يسمع لفحيع اخته. تطلب رأس العروس الجديدة أيضا. لكن الفجار لم يهتموا إلا بالمال. وجدوا ضيعة ثرية. وما داموا سيهاجمونها في كل حال. فليذهبوا ما يشاءون!
قتلوا الجميع. الجميع بلا استثناء ذبحوا. حسن. وأزواجه. وجواريه. وكل أطفاله. وأهله. حتى المطلقات. والعرييات. والعجائز من عماته قتلوا عن آخرهم. ونهبت أموالهم.

* * *

(17)

حكاية الفول الأحمر

لما أتى أهل القرية، بعد هروب الظلمة الفجرة، روعتهم المذبحة، وغرقوا في الحزن على ما أصاب حسن، ونال معه الكثير من بناتهم. أرسلوا في غضب يطلبون القصاص، ولكن الوالي لم يكن لديه مناص، فقد كانت قبضة الحكام على الشرق ضعيفة، والمارقين يزيدون بغيا، والقتلة هربوا بالفنيمة، وبني الأسود يحمون المحرضين.

كما كان وراء عمدة أم الخيرات هها آخر.. لقد وجد أن الأراضي الواسعة، والدور الفسيحة خلت من أهلها. وقبل أن يدفن الناس الجثث المكومة، سيكون انتهاء نسل عبد الرحمن العبدلي، كان قد احترز ما بقي من مال، واحتل رجاله الأرض والدور، واتهب لنفسه الحدائق والبساتين والسفن، ليكمل عمل قطاع الطرق المأفوس.

وبينما الناس تتلو دعوات الرحمة، وفي القبر الكبير تنزل الجثة تلو الجثة، إذا بشهقة تعلق، وصرخة ينفطر عنها أحد الأكفان!

إنه الفتى الصغير، حسان ابن عتبة، واحد من صبيان حسن الكثيرين، أنجبه من طليقته عتبة، الفتاة ذات الأصل الفقير والحسن الكبير.

شقوا الكفن، وأخرجوا الصبي. كانت ضربة السيف قد شقت رأسه، وأطارت واحدة من عينيه، وأفقده رشده، فظنه الناس مات مع من ماتوا. لكنه نجا.

الناجي الوحيد، من مذبحه مروعة، صبي هجر الحسن وجهه، بعد أن اتهمته ندبة بشعة، تقسم وجهه نصفين، وفقد واحدة من الغاليتين.

اندفع الناس يهللون ويكبرون، لكن ما أن انتهوا من التهليل والتسبيح، حتى أتى العمدة يقول:

"الفتى معجزة من الله. عليه أن يلحق بال دراويش، ونصبه وليا في مولد الشيخ بدار!"

لكن الصبي أدرك غرض العمدة الخبيث، فالتفض من بين الألم والحمى، يرفض ويقول:

"أريد العودة لداري."

فهتف العمدة بين الناس:

"أرايتم يا أهل أم الخيرات؟ الفتى ينطق بالكفر، ويرفض العبادة، ويرغب عن الإيمان! أرايتم! إنه ليس حسان ابن العبدلي! هذا شيطان مريد، استولى على جسده ليفتكم. حسان مات، فترحموا الله على روحه، وابتعدوا عن هذا الشيطان، بل ارجموا. انظروا لقيح وجهه، وسواد عينه؟"

وبين الفنية والأخرى، يلوح العمدة بسيفه وذهبه، فتخلي الناس عن اليتيم المغبون، وتركوه يعيش في القرية ذليلا فقيرا. حتى أهل أمه، اضطروا للتبرؤ منه، فعاش في العراء.

كانت الحياة على حسان ابن العبدلي قاسية جدا في أم الخيرات. أتباع العمدة ينادوه بالشيطان، ابن الجن، الذي استولى على الجسد البريء؛ بينما رعاة الأساودة يغلظون له كلما رأوه، ويتفنون في إيذائه، وينادوه بابن العاهر.

لما أطفال القرية، فقد كانوا يسخرون منه، لغرابته شكله وفقره، ولقبوه باللقب الذي التصق عليه، وأسبغه هو فيما بعد على نفسه. كانوا ينادونه بالفول الأحمر. غول لقبه وجهه، ولأسم جده، غول ابن عبد الرحمن. وأحمر لما كان يزعمه من نسب لبني الأحمر في الأندلس، ولحمرة وجهه الذي زالت عنه بشرته.

عاش الفول الأحمر في تلك القساوة حيناً، ثم لم يجد بداً من الرحيل عن أم الخيرات. يمضي وحيداً في الصحراء، فظن الناس أنه هلك، واستطاب لهم العيش في بيوتَه المنهوبة، والأكل من صيد سفنه المسروقة.

لكن الغلام التحق بركب من الصعاليك، يخدمهم، ويتعلم منهم الضرب والطعان، وفنون الشجاعة والإقدام. أصبح لا يبارى في الركوب، والرمي، والمبارزة، وهو مازال صغيراً لم يتم الثالثة عشر فيما يزعمون. وعندها عاد للقرية، أو لقربها على الأصح. عاش في الصحراء حولها، يتجول بين الكُتبان، ويسقى من ماء الأبار المتناثرة، ويعمل حمالاً للقوافل، التي تحمل بعضها ما كان يجب أن يكون ميراثه، فلا يابسه، أو يبدي للناس أنه لا يابسه.

في الحقيقة، كان هناك هاجساً يسيطر عليه. صورة تملكته عند الطفولة، حينما هرب أخوه الأصغر من بين براثن القتلة، فأمسكوه، ليندفع حسان محاولاً إنقاذه، فتصيبه ضربة السيف. هو هجم فنجاً، وأخوه أدبر فقتل. الشجاعة انقذته، والشجاعة كفيلاً بإنقاذ المفلوطين!

تعرف حسان، حينما كان يفشى القرية، على ستة صبية، بينهم أخوان يسميان ماجد ومجد، تصادقوا، وتعاهدوا على الإخلاص بينهم، وأسموا أنفسهم عصبة الفيلان الحمر في لهوهم.

وعندما بلغ حسان ابن العبدلي أشده، كان يتبعه سبعمائة من الفيلان، جمعهم من الصعاليك والحرافيش والمستضعفين، الذين لفظتهم أم الخيرات وغيرها من القرى. أغلجهم فقراء، لا يحدون قوتهم، وأكثر من نصفهم لم يبلغ الحلم إلا قرياً.

كان أول بلد بدأ بها هي أم الخيرات. أحرقها بأهلها، وقتل العمدة شر قتلة، وبني مكان الضيعة القديمة أولى قلاع الفيلان، وكتب كتاب الشجاعة بقوانينه الثمانية والثلاثين، ودعا الناس لإتباع الشجاعة، واتخاذ الجسارة مذهباً. معلنا القانون الثامن: "قد يعجز الحق عن النصر أمام القوي، والقوة تخذل أمام الأقوى؛ لكن الشجاعة هي المطلق، لا يؤذيها ما عند غيرك. والشجاعة تسمو فوق الجميع."

مضى الأمر معه على خير ما يرام. حوله مدن كثيرة لفظت يتامى ومقهورين.
أتوا للفول الكبير - سليل ملوك الجن، وريب الصعاليك، كما أشاع عن نفسه -
يستصروه، فلصرهم، وأواهم ودرهم، ليصبحوا أوفاً من الفيلان الحمر
المخلصين.

ولما ازداد ضعف الملك، ولم يقدر على حكم الأقاليم البعيدة، تمدد نفوذ ابن
العبدلي، حتى أصبح الولاة والأمراء، في الشمال والشرق، ياتمرون بأمره.

* * *

(18)

دولة الفيضان الحمر

لكن الصدام كان حتميا مع قبائل بني الأسود القوية. ليس فقط لأن له معهم ثار قديم؛ وإنما أيضا لأنهم كانوا يسيطرون نفوذهم على الشرق، خاصة جزله الجنوبي، فلما ازدادت قوة الفيضان في الشمال الشرقي، حاولوا التصدي له.

ودارت حرب عنيفة، لم يذق الأساودة لها مثيل من قبل. ولأول مرة يدب الرعب في قلوبهم أمام كتائب الفيضان المنظمة، التي تتقدم حاملة السيوف والرماح، ولا تتراجع أنملة حتى تظفر بعنقها. وسمع القاضي والداني بأمر الفيضان الحمر، عندما اضطر الأساودة للهجرة للجنوب على أيديهم. كان حدث جلل، سلط كل العيون الخاشعة على تلك القوة الجبارة النامية.

وتضخم أمر الفيضان المنتصرين في وقت قصير، وبعد أن مات حسان ابن العبدلين تولى الشقيقان ماجد ومجد زعامة الفيضان من بعده. فلما ماجد، فقد بقى في القلعة الرئيسية يزيد نفوذ وقوة الفيضان في المنطقة، حتى وصلت جنوبا لقرب الزرقاء، وشمالا إلى ساحل البحر. وأما مجد، فذهب للحاضرة، يبتث العيون والأعوان هنا وهناك. وهو من أنشأ الفرقة الخفية، التي تتلصص وتفتال، وترتكب أبشع ما ارتكبه الفيضان الحمر.

كان مجد هذا هو جد من أجداد أمي، زوج ابنته لتاجر ثري، ليستولي على أمواله. فكانت عائلة أمي مقسمة، بين جماعة تكره الفيضان أيما كره، وجماعة مفتونة بقوتهم وبنسبهم، تتبعهم أينما ذهبوا.

بعد وفاة ماجد، واغتيال مجد، مضى عهد الفول الكبير. تاركا وراءه الإرث المريع. الذي تولاه دوما سبعة زعماء، يحكمون معا، لا يفوق احدهم الآخر، إلا واحد منهم، لا يقضي أمرا إلا بمشورتهم.

كانوا دوما سبعة. كما بدعوا سبعة زعماء، يقودون سبعة رجال، أو سبعة جيوش، المهم أن يكونوا سبعة! كما بدعوا يظلون حتى جعلوه القانون السابع: "الفيلان الحمر دوما سبعة!"

أصبح الزعماء السبعة يأمرؤن، فيطاعون، ويملكون، فلا ينازعون. لا يجرؤ الأمراء على معالذتهم، ولا يفكر الملوك في مواجهتهم. دبوا الرهبة في كل القلوب، حتى ملوك المدن البعيدة.

ذات يوم، هاجمهم ملك من ملوك اليمن، وقتل بعض الفيلان الحمر، الذين كانوا ماضين للحج، واستولى على أموال كانوا يحرسونها. أرسل الفيلان سبعة رجال متخفين، بقوا في اليمن ساكنين، مخلصين لملكها، حينما يدعو الناس لنصرته. وانتظروا حتى اطمان لهم، ثم ارتدوا الدروع الحمراء، وقتلوه في عقر قصره، في فاجعة أبهتت ملوك الشرق والغرب!

إلى أن أتى آخر الملوك، بضعفه وهوانه، نازعه أخوه على الملك بمرتزة من السور العلي والفرنجة، فاشترى الملك آلاف المماليك بكل نقود الدولة، ووقعت معركة رهية بين الفريقين عند الثغر الصغير، انهزم فيها الفرنجة هزيمة ساحقة على يد المماليك، وتشتت جند الصيادية على يد جنود جيش الملك.

لكن نفقة المماليك ورواتبهم تضخمت خلال سنين الحرب، فأعجزوا الملك أكثر من مرة، خاصة مع زيادة أعدادهم، وزيادة تمردهم. فثار أمراؤهم عليه، ولم يجد الملك من ينقذه من شرهم سوى الفيلان الحمر. فعقد معهم عهدا مذلا.

يدفع لهم به جزية، ويترك لهم نفوذا وسلطة، على أن يمنحوه واحدة من فرق الفيلان، تنصره على المماليك، وهي التي تسمت بالملكيين.

كان زعماء الفيلان قد طمعوا وقتها في إنشاء دولة لهم، يحكمونها. وأصاب (ماسخ) - الفول الأكبر وقتها - هوس بجمع الأتباع، وزيادة القوة،

فطفي وتجبر، وانفرد بحكم الجزء الشمالي من الإقليم الشرقي، لا يدخله عليه حتى محتسب، أو جالب ضرائب صفير.

وتوسع في خطف الأطفال والصبية، لتربيتهم غيلانا، وهي البدعة التي بدأها ماجد في السنين الخالية. وتدخل ماسخ في كل شئون الدولة والسياسة، مفرقا بين الملك وحلفائه، ومضعفا أركان الدولة المتهاوية أصلا. وزاد على هذا، لن فرض إتاوات، ونهب أموال التجار، ليجلب المال الذي يكفيه.

وزاد جبروته وعنفه، فتملأ منه عدد من الفيلان الحمر، جلهم من الصفار والصبية، الذين كرهوا الحياة القاسية، التي فرضت عليهم، بينما يرون الفول الكبير يتمتع بالملذات. لكنه رد عليهم بالقمع والقوة، وهذا خطأ كبير، أن تحاول إرهاب من تربتهم، منذ لهومة أظافرهم، على الشجاعة! فنادوا بصيحة التمرد، وأعلنوا أنفسهم غيلانا جديدة، ولدت من رحم العدالة، فسموهم بالمستولدين. وكان أول اشتقاق على الفول الكبير، وإتذار بتصدع دولتهم الباذخة.

ثم زحف الأهبال نحو البلاد الشرقية، فدمروا السور العلي، وهزموا الفرنجة، لينزاح عن الملك خطر أخيه. حاول الملك طردهم من البلاد، وقطع رواتبهم. فثاروا ثورة عنيفة عليه، ترامت مع غزو الأهبال، وما جرى فيه من وقائع. لعلها كانت الحسنة اليتيمة للفيلان الحمر، أن ساهموا في دفع طوفانهم عن البلاد، وللمماليك من بعدهم أن هزموهم، بينما الملك جالس في قصره، متخاذل عن القتال.

ثم تتابعت الأحداث التي تعرفها، من قتل الملك وأهله، ثم نشوب الفتنة الكبرى. حينما أصبح أخوك شرا من عدوك، وصديقك أغدر بك من الغريب، وأخذ الفيلان بالقتل والتعذيب، ثارا من فسادهم، الذي كان له يد عظيمة فيما أصاب البلد من نكبات، ومداهنة لخصومهم من المماليك، وقبائل بني الأسود. ودارت على دولة الفيلان الدوائر. فزالت سطوتهم، وباد جندهم، وثار عليهم عبيدهم وصنائعهم. وانضم للمولودين جمع كثير، بينما تجمع بقايا أتباع الزعماء السبعة، وسموا أنفسهم بالمبتدلين، لتدور بين الفريقين حروب ووقائع، انتهت بنهايتهم.

(19)

الرحلة إلى الوريث.. نحو الشرق

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"أنهى ابن العبدلي حكايته، وافهمني أخيرا من هم الفيلان، وكيف كانوا، ولم تسموا بهذا الاسم. ثم منحني كتاب الشجاعة، وسيف خاله، وحفنة من مال، مهتذرا إنه لا يستطيع مساعدتي بفوق هذا. وقال لي إنه يتمنى ظفري بقلبه؛ ولكنه يدرك الحقيقة بعقله. ولو إتني عدت يوما حيا، سواء ظافرا أو مخزيا، فسيحسن استقبالي، وسيسعى لحمايتي ونجاتي.

وزاد في كرمه واعتذاره أن أخبرني إنه سيرسل رسوله نوري إلى الشيخ غلاب، ينبله ببعض من أمري، ويرد له ماله، ويستأمنه على أرضي.

وخرجت من عنده مشغول الفكر، أقلب في رأسي الأفكار، وأدرس الطريق، وكيف يكون.

فإذا بي أجد مشهدا مزعجا مضحكا! تيمور غارق في ملذات الطعام، يتهب منها نهبا! حتى إتني خفت عليه من الموت تخمة. وأحزنته بنبا استعدادنا للرحيل، وأنه ليس لنا هنا اليوم ميت! ولكن حزنه انجلى سريعا، إذ رآى دوابنا حملت بالملذات، لتكون لنا الزاد، وهو ما لم يسعدني كثيرا، لإثقاله على دوابنا الثلاثة، وإبطالها في الصحراء، فيطول علينا المرور في الأراضي الخطرة، لتعرض للقتلة، وغيرها من الشرور الجمة.

لكن من ناحية أخرى. كنت أدرك أنه ليس من اليسير لي الحصول على الطعام والزاد في رحلتي الطويلة. خاصة وإني لا أمن لنفسي في قرية، أو مدينة. فقبلت الهدية على مضض. وتجاهلت ملاحظة تيمور عن إن بعض هذا الزاد ليس مما يحتمل البقاء مدة طويلة. وأنه حتما سيفسد.

يا له من متفائل! أيتصور أننا سنحافظ على طعامنا. وراحتنا طوال الطريق! إما أن ينهبه لصوص، أو يسرقه وحوش، وإن حدثت المعجزة ونجحنا في الحفاظ عليه، فربما تتصدق به على جالع، نسأل أن يدلنا على الطريق.

كنت قد عقدت العزم على اتخاذ طريق الشمال بين المستنقعات والأحراش المهجورة، قاطعا فروع النهر. محاذيا لشاطئ البحر. لأنني عشت في تلك المنطقة فترة لا بأس بطولها. مرافقا مع والدي للوريث العزيز، وأظنني أخبرها أكثر من الآخرين، الذين أخشاهم.

ورغم إن هذا حدث منذ سنين عدة. كما إنني وقتها مررت بأخطار مختلفة، والبلاد تموج بشرار قاتلة، تغير الأحوال كل شهر قليلة، ولست واثقا من بقاء حال هذا الطريق على المأمون من مكالده. التي خبرتها، لم أن خطره زاد وتفاقم؟ لكنه في النهاية أكثر أمنا لي من غيره.

أنزلت عباءتي فوق دروعي الحمراء، وأخفيت تحتها سيفي الجديد، وأذنت بالرحيل. فبدأنا الرحلة فورا. وقد بدا الضيق على وجه تيمور، فتجاهلته، حتى انفجر بالسؤال الذي أعرفه جيدا..

"لماذا نرحل في الليل وأخطاره؟ النهار له عيون كما يقولون! كما إنني أخشى الوحوش والذئاب."

قلت:

"لنتفادى ذئاب البشر."

باغتني بسؤاله:

"ألسن غولا أحمر، لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا؟"

ارتبكت للحظة، قبل أن أستعيد رباطة جأشي، وأقول:

"الشجاعة لا تعني حماقة. الحكمة مطلوبة، ولنا هدف خطير علينا أن ننجزه. لو خسرنا الهدف السامي لسبب كان يمكن تجنبه، فهذه ليست شجاعة حتما."

بدا عليه الشك، فأسرعت أضيف:

"نحن الفيلان الحمر قد جددنا عهدنا، لم نعد نقول أن الشجاعة هي مواجهة الأخطار، بل أصبح قانوننا الثامن الجديد، إن الشجاعة هي الصبر على الدق مهما كان مرا!"

صمت ولم يرد، فأعجبتي الكذبة! واتخذت لنفسني أمام لجابة هذا المنهج. إنه كلما أزعجني بسؤال، أسنده لقانون جديد في كتاب الشجاعة! وهكذا سرنا ليال متتابعة، حتى أتت اللحظة المحتومة، وسمعنا أخيرا العواء الذي خشيه تيمور.

تجمدنا في مكاننا، فسألني تيمور:

"أترجع؟"

قلت:

"كلا، يجب أن نعبّر الصحراء، حتى نصل للثغر الكبير، وغدا سنتظننا الذئاب مثل اليوم."

قال:

"ماذا سنفعل إذا؟ أبقى هنا حتى ترحل."

يا له من مزعج! أيتصور أنني صافي الذهن، لأرد على أسئلته التي تدور مثيلاها في ذهني؟ على أي حال، لم يكن هناك إلا حل واحد

"سنسرع بأقصى ما نستطيع، علنا تتجاوزهم."

وحننا الجمال إن تسرع، وقد ألقفها العواء، فخذت مهرولة لكن هذا لم ينفعنا كثيرا، إذ سرعان ما تكاثرت الذئاب حولنا مطاردة.

أمسكت رمحي، ومددت السيف لتيمور، ولما قفز علينا أول الذئاب، شججت رأسه بمؤخرة الرمح، وتركته يتكور وهو يعوي من الألم، وأسرعت التفت للجهة الأخرى، لأصد الثاني بطعنة خفيفة، فقد خشيت أن ينفرس الرمح في أحدهم، ولا أستطيع إخراجه من جسده، فأفقدته، وبدا لي حرج موقفنا يترايد، فقلت لتيمور:

"القم ما عندك من لحم وغيره علنا نشغلهم."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

فأمسك بحقائب اللحم والفاكهة. التي أخذناها من ابن العبدلي، وألقاها خلفنا. بينما القيت أنا باقي المؤن، لأخفف عن الجمال الحمل، إلا قرية الماء. لكن أغلب الذئاب مضت تطاردنا بإصرار.

بدأ لي الحل قاسيا، لكنه الممكن كان الجمال الثالث، الذي أصبح بلا حمل، يكاد يجري ويسبقنا، فطعته طعنة قاسية برمحي في فخذه، وأسرعت بسحب الرمح بسرعة البرق، وأنا أدعو الله إلا يتبته جملي لهذا الأمر، لأن الجمال ذكية، ولا تفغر الفدر أبدا.

وأتت حيلتي شيئا من الإثمار. فقد تخلف الجمال الجريح، فهجمت عليه جماعة من الذئاب تنتهشه، لكن بعضها ظل يطاردنا بعناد سخي.

هتفت لتيemor:

"ألق بكل ما على جمالك، وأسرع بقدر ما تستطيع فوق الأرض الصخرية، حتى لا تبطلنا الرمال."

أخذ يلقي بكل ما معه، يقذف به رؤوس الذئاب في غل، حتى إنه، بحماقته، ألقى بقرية مائه فيما ألقى! وأخذت برمحي، وتيمور بالسيف نذب عنا من يهجم منهم.

مرت الساعات البطيئة الخطرة، قبل أن تحين الساعة، فيسقط جمال تيمور منهكا، مما أصابه من خدوش ونهشات. ولولا أن تعلق بيدي في اللحظة المناسبة، وتشبث بجانب جملي، لانتهدت حياته، لكنه، بمعجزة ما، تسلق جملي رغم سرعته، وجلس خلفين وأسرعنا وسط الفرع والرعب نكمل الفرار.

لكن الذئاب، انشغلت بفريستها الثانية، أو اكتفت بها، فلم تكمل مطاردتنا. ولعل بني الذئب في هذا أشرف من بني الإنسان، فإنها إن وجدت ما يشبعها، لم تلتفت للطريدة، حتى لو كانت سهلة: بينما بني الإنسان لا يملأ عيونهم إلا التراب.

لكننا سرعان ما توقفنا مكرهين. فقد نالنا من التعب والجروح ما نالنا، وزادت عينا ناقتنا التي انهارت من أسفلنا دفعة واحدة. وسقطنا أرضا، لنجد تلك الطيبة قد نزفت الكثير لكنها ظلت تجري حتى أبعدتنا عن الأنياب التي نهشت لحمها.

وأسرع تيمور يمسك سيفي، فذبح الناقة من فوره، يزكياها قبيل أن تنفق.
ورغم حزني على تلك التي أنقذتنا، لكنني كنت أدرك أنها الضرورة، لأننا فقدنا
كل طعامنا.

جمعنا بعضا من اللحم، وسرنا مبتعدين عن لرض الخطر. ولما طلعت علينا
الشمس، أخذ تيمور يسط اللحم تحتها، ليقدهه لنملك ملونة تكفينا يوما أو
اثنين.

لكن الرحلة أطول من هذا بكثير. قد يكفينا ما استقذته من ماء ببعض الصبر.
لكن المشكلة في الطعام. أصبح الصيد الآن حتما علينا، لكنني لست بالبارع
فيه.

وبدأنا المسير عند الغروب، مقتصدين في الأكل والمشرب، متمسكين الطريق
بقراءة النجوم، فمضت أحوالنا يسر دون أخطار، حتى قضينا اليوم الثالث.

ففي ذلك اليوم، عثرنا على واحة صغيرة، وبدت ليا هدية من السماء، وأسرعت
نحوها أبفي جمع ما يمكننا من التمور.

لكننا فوجئنا بعشرة من الأعراب، يهجمون علينا. كانت ملامحهم غليظة،
ويحملون خناجر غير مسنونة، وينظرون لنا نظرة أبشع من نظرة الذئاب!

القيت السلام، محاولا إنهاء الموقف بأمان، وقلت:

"السلام عليكم يا إخوة الإسلام. نحن مسافرون، فقدنا دابتنا، ولو بعتمونا دابة
وبعض التمر، فسنجذل لكم العطاء، ونربحكم الثمن."

ضحك أحدهم، وكان طويلا بين رجاله، يكاد يصل لقامتي. وكشر عن أسنان
سوداء نخرة، وقال:

"أتانا صيد طيب أفتركه؟ بم ستشتريني منا الدابة، بينا أموالك قد أصبحت لنا
غنيمة!"

وضحك على دعابته السمجة، فضحك رجاله مجاملين!

قلت بصرامة:

"لا أبفي قتالا، لكنه لن يكون في صالحكم. إنما أبفي مصلحة شريفة بيني
وبينكم."

الهدم هذا الطويل أسود الأسنان مني خطوات. وهو يكرر كلامي بطريقة سمجة:

"لا أبغي قتالا! أبغي مصلحة شريفة! يا لك من شجاع! لو إلك ترى في نفسك الفوة. لتحفظ أموالك. فافعل! لكني أتصحك بأن تسلمنا ما معك. فربما للركك حيا. ولن تلغعك تلك العصا التي تتساح بها يا أخا....."

لم يكمل كلامه. في الحقيقة كان أمكر مما يبدو عليه. إذ أراد إشغالي بحديثه السمج. بينما يتسلل من خلفي واحد آخر من رجاله. فوجئت بضربة على ظهري. ورلين صدمة الخنجر على درعي المخبئي. الذي لم يتوقعه الفادر. الآت من خلفي. والتفت بسرعة. فهويت على المهاجم المندهبش بضربة ساحقة من رمحي. أفقدته رشده. وسمعت صيحة تيمور أن احترس. فعدت أنظر لتلك الطفمة. لأجد هذا الزعيم قد أمسك سيفاً صدياً. هوى به عليّ لولا أن صدته تيمور بالسيف الذي كنت قد أعطيته له.

سحب زعيم اللصوص سيفه. وهوى به عليّ مرة أخرى: لكن رمحي كان أسبق. فطعته في ذراعه. ليسقط منه هذا السيف الصدي. فاتحنى تيمور بسرعة والتقطه. بدا أن الصراع بيننا سيكون متكافئاً. فنحن نملك أسلحة امضى. وألبس أنا دروعاً قوية. بينما هم لا يملكون إلا حفنة من خناجر وسكاكين غير مسنونة! لكن عددهم أحد عشر شقياً.

سحب الأشقياء زعيمهم المصاب. ورفيقهم المفشي عليه. وهم يسبون ويلعنون. وقد بدا واضحاً أنهم لن يجروؤوا على مهاجمتنا مرة أخرى.

تقدمت منهم وأنا أقول بصرامة:

"كل ما أبغيه هو التجارة معكم....."

قاطعونني بمزيد من سباب. وقال أحدهم:

"لن نهطيك شيئاً. فافعل ما شئت. ولن تذوق قطرة ماء من بئر الواحة. وسنكتفي بالصبر حتى يهلكك الظما. فننم مالك يا أحمق."

أدركت أنه لا فائدة. ولذا أشرت لتيمور أن نخرج من الواحة خالين. فسرنا بحذر متقهقرين.

كان معي من الماء ما يكفي، فلم أقلق من تهديدهم، لكن مشكلة الطعام بقيت كما هي، فقلت لتيemor:

"لن نبتعد عن الواحة، فحتما حيوانات الصحراء وسباعها تأتيها لشرب الماء وربما نصيد منها شيئا ينفعا."

هز رأسه موافقا، فقلت:

"بالمناسبة، أشكرك. صحيح إن هذا السيف الصدئ كان على الأرجح سيتهشم على درعي، ولكنك حاولت إنقاذ حياتي."

ابتسم وقال:

"وانت أنقذتني من الذئاب! لا شكر هنا يا رفيق."

تركته، وخرجت بحثا عن صيد، ولم يخب ظني، إذ عدت بظبي كبير.

المشكلة إنني لا أجيد الصيد، وبراعتي في رمي النبال فقيرة! لذا فصيد حيوان صغير، أو طائر في السماء لهو علي أمر عسير. لذا، كان علي أن أتحمّل سؤال تيemor المستكر، حينما وضعت أمامه هذا الظبي الثقيل.

"كل هذا!" ونظر لما جمعه من حطب، وكان لا يكفي حتما، ثم نظر بإشفاق لحجم الظبي، الذي سيضطر لسلخه وتجهيزه، وقال:

"ما كل هذا؟ لن نستطيع إنهاءه في يوم ولا أسبوع، وسيفسد منا دون حاجة!" قلت:

"ألا تستطيع تقديد بقية لحمه؟"

قال:

"أسبقى هنا حتى يقدر! وهناك رجال متربصون لنا، لا نحب أن تبقى الليلة قريبهم؟ لما لم تصد أرنا أو طيرا، فإني رأيت بعض الأرناب تجري هنا وهناك؟"

إن كان صيد الحيوان الصغير علي ثقيلًا، فإن صيد الأرناب لعنة! رغم إنني أحب لحم الأرناب، ورغم إن الكثير من الأرناب التي هجرها أصحابها في الواحات، عندما رحلوا لجفاف، أو بعد تعرضهم للفرز والنهب، فإن صيد الأرناب، الذي يقفز سريعا هنا وهناك أمر لا أطيقه! لعلي لا أحب لحمها إلا لأنه عزيز المنال!

أنا بضيق:

'لا اصيد الأرانب.'

أنا أدركت أنها فلتة لسان، حينما نظر لي نظرة غريبة، وسأل بصوت خافت
بمطر شكاً:

'أحرمها؟'

قلت لأخرسه:

'نعم.'

لم فرغت، إذ أدركت متأخراً ما وراء السؤال! فإن بعض الرافضة كما يزعمون،
بحرمون لحم الأرنب! فأسرعت أقول:

'أحرم نفسي من صيدها، لا لحمها.'

نظر لي بدهشة، وسأل السؤال المتوقع:

'ولماذا؟'

أخذت أقدم ذهني مرتبكاً، أفكر في حجة، فوجدتني أقول مراوغاً:

'عاهدت نفسي ألا أقتلها.'

كرر بإصرار:

'ولماذا؟'

ليتي قلت له أنني لا أجيد الصيد بدلا من الخجل، الذي أرسلني لكذبات مهلكة!
لكن لا مفر من الخوض في المزيد من الكذب الأحمق!

قلت:

'نحن الفيلان نتخذ من الوحوش أبا، وأخي هو الأرنب!'

نظر لي بفم مفتوح، وقال:

'أخوك الوحش هو الأرنب!'

عضضت لساني الأحمق. وأحسست بقباء كلماتي؛ ولكن لم يكن هناك مفر،
غير العضي قدما. فقط أرجو أن أذكر كل هذه الأكاذيب، بدلا من أن أخطر،
فيها أمامه!

فقلت محاولا استعادة صفاء ذهني. والعودة لمنهجي القديم في خداعه:

"كل غول يبحث عن أخلاق الحيوان... أعني أخلاق الإنسان في الحيوان...!!
الكتاب.... أعني كتاب الشجاعة في القانون ال.... الثامن (ثم تذكرت أنني
أخبرته بالقانون الثامن من قبل) القانون الثامن عشر.... يقول "علينا أن نبحث عن
الصفات المطلقة، والأخلاق النقية.

بدأ ينظر لي بفضول، فأسرعت أحكم خدعتي بقولي:

"الشجاعة، والوفاء، والإخلاص، وغيرها هي أمور على الغول أن يسعى
للوصول لها، قبل أن يصبح غولا أحمر. لكن الإنسان يلوثها بالفدر، والجبن،
والنفاق. لهذا لبحث عنها في صورتها الأولى، في مكانها النقي لدى الحيوان.
فيكون على من يريد أن يصبح غولا أن يلازم حيوانا لمدة طويلة. عام هجري
مثلا! يراقبه، ويحاول التعلم منه. كان حيواني هو الأرنب، وعادة ما نعاهد
أنفسنا ألا نقتل هذا الحيوان، وفاء له، حتى لو أكلناه على الموالد. بل إنني لا
أخجل من أن أقول إنني أحب الأرانب المقلية بالذات!"

نظر لي بغير فهم وهو يقول:

"أفكاركم عجيبة يا غيلان! ولكن ماذا تعلمت من الأرنب؟ هو حيوان ضعيف
جبان شره! كنت أظن أن زعيم الفيلان الأحمر سيتتقي الأسد مثلا؟"

فكرت في أن هذا الرجل أحمق حتما! أريد مني أن أعيش مع أسد عام
كامل!!!!

رددت عليه مراوغا،

"لا يقاس الأمر عندنا ببطش الحيوان. والزعيم كان يوما تلميذا، وأخي من بني
الحيوان لا يهينني!"

الح. كعادته حينما يسأل أسئلة سمجة:

"وماذا تعلمت من الأرنب!"

هنا فتحاملنا على نفسي ان تصمد:

'ها اتعلمه هو لي. لا أستطيع ان اخذه من احد. او امنحه لاحد.'

فلح فمه ليكمل لجاجته. وكنت قد وصلت لنهاية صبري. وأصابني الصداق من
هارة التفكير. فلجات للحل الأسهل لإخراسه! وصرخت فيه:

'ان تنظر لما بين يديك. وتطهو لنا من لحم الظبي؟'

بدأ في العمل. فنجوت من اسلته وخرجت رابحا! إذ تولى هو الصيد في الأيام
التالية!

* * *

(20)

فج الثفر الكبير نحو الشمال

وصلنا إلى واحات البوادي، وهي مجموعة من الواحات الصغيرة، القرية من النهر، ولا تبعد كثيرا عن جنوب العاصمة. فاشترينا منها بعض الدواب، وتكتمنا أمرنا، حتى زعمنا أننا ذاهبون لساوة، فقد كان الخوف علينا عظيما، لأنها من الأراضي الخاضعة لسلطان القائد الأسود. ومنها سرنا شمالا، في طريق القوافل، نحو الثفر الكبير.

كانت مدينة الثفر الكبير أكبر ميناء في بلادنا، وأعظمها ازدهارا. يزعم البعض أنها كانت ذات يوم عاصمة لكل البلاد، في عهد الرومان، الذين كانوا يفضلون دوما أن تكون عواصم البلاد موان كبيرة، تستقبل أساطيلهم الحانقة، لقمع أي ثورة أو تمرد.

ورغم بناء حاضرة البلاد وزهرتها، التي يجثم عليها الآن الأسود، فقد ظلت الثفر الكبير عظيمة مزدهرة، لها ثقلها، ولحاكمها مكانة. ولأنها أكبر مدن الغرب، فبعد انهيار المملكة، أصبحت عاصمة لإقليم الغربي، يدار منها شلونه وأحواله، سواء ما بين قراه ومدنه، أو ما يأتي من مملكة بارق وقبائل الطارق في غربنا.

لكن داء حب السلطان أتى بأوجاع الاقتتال، وعفن الفوضى، فلم يترك شيئا في بلادنا إلا وحطمه. فضمرت الميناء، وحل عليها الكساد، بسبب اقتتال أمراء الغرب. ويقال إنها كانت بها أيام ملعونة، تمزقت فيها أحيائها بين الأمراء، كما حدث مع العاصمة. لكنهم اجتمعوا معا، واتفقوا على ألا يقتلوا، ولا ينازع أحدهم الآخر في سلطانه، وبفضل هذه الحكمة، وقيادة كبيرهم ابن

جروب " ربيع الكتب " .

١٨٤ العاقلة. عم الهدوء الفرب كله، باستثناء مناوشات، وحملات سلب ونهب.
ومصراعات بين الفلاحين والأثرياء؛ لكنها كلها لا تساوي ربع ما حدث في
الوسط والجنوب من مذابح وتمزق. أو ثمن ما أصاب الشمال. الذي هجره أهله.
١٨٥ حول لمستقعات، وبارت أراضييه.

١٨٦ علم علم اليقين ما شأن ابن عامر، وهل سيحالف ابن الأسود، ويسعى
١٨٧ الوريث. أم يبقى على حاله من الحياد، وتأييد ما تكون فيه المصلحة، بعد
١٨٨ بحسم الأمر.

١٨٩ تكتمت أخباري، ولم أسع له طلبا للمعونة. واستغللت بقالي في الثغر
العظيم، لكي اتشمم الأخبار، وأعرف أحوال باقي الأمراء.

١٩٠ ماتت أخبار مقتل أمير الزرقاء الإفرنجي قد اتهم هنا. ومعها نبا مقتل
١٩١ مركس ابن بارم ديله، وذبح أمير ثالث يدعى طاووس، أرجع أنه كان هذا
١٩٢ الساخط الموتور. الذي قتل الأسود أهله.

١٩٣ وهكذا أمعنت في الاختفاء، حتى إنني أحكمت العباءة مغلقة فوق درعي
١٩٤ الأحمر ونقش الغيلان الذي عليه.

١٩٥ كان لتيemor هنا أصدقاء كثيرون من التجار، الذين يترددون على ساوة، يشترون
١٩٦ البذور، أو يبيعون حصاد الأراضي، التي تزرع على الساحل بهاء الأمطار. فبتنا
١٩٧ لبتنا عند بعضهم، واتفقوا لنا مع بعض الصيادين، ليحملونا بالبحر إلى قم
١٩٨ النهر الأول.

سألني تيemor:

"ولم لا نبحث عن مركب تاخذنا مباشرة إلى طرابلس؟"

كانت هذه فكرة طيبة، لكنها مستحيلة. فمن يقومون برحلة طويلة في
البحر، يطلبون مالا كثيرا لا أملكه، كما إنني لا أعرف الطريق جيدا، وبالتالي قد
يخدعوننا بسهولة، ويلقوا بنا على أي شاطئ. والأخطر، هو أساطيل الفرنجة،
والصيادية، والسور العلي، التي تتحارب بينها. وفوق هذا كله، فنيا سفر
البعض من الثغر الكبير إلى طرابلس، ستقله الأذان الخيثة، حتما، للقائد الأسود.
ليستقبلنا المهلاك ما إن تطأ أقدامنا الأرض!

أقتلع تيمور بحديثي. وجلس متبرما ملولا على أرض المركب، التي تفوح برائحة السمك الخانقة. لكن هذا هو أطيب سفر لنا في الشمال، وما بعده سيكون أدهى وأمر.

أنزلنا الصياد الطيب عند مصب أول فروع النهر (أو آخرها للقادمين من الشرق)، حيث تأتي دوما مراكب الصيد، وقت الفيضان، تجمع السردين.

نزلنا على الشاطئ، وتركت تيمور يوما يرتاح في إحدى الخرائب. لما كان ذات يوم قرية مزدهرة. فحتمنا علينا أن نرتاح، قبل بدأ المسيرة الطينية السخيفة في المستنقعات.

(21)

حكاية مجازيب الفولجي!

وبدأت رحلتنا في الشمال، في أحراشه ومستقعاته، الأرض التي يفرقها النهر بمائه، ويفسدها البحر بملحه، فتصبح طينا عفنا ثقيلًا ميتًا. لكنها على الأقل مهجورة، نستطيع السير فيها نهارًا، بعد أن أضننا سفر الليل.

في الماضي، كانت أرضا عامرة حية، تثبت الزرع حينما كان الفلاحون يرعونها، ويهتمون بها، حتى ليستصلحون الأرض الملاصقة لساحل البحر! لكن يزعم الزاعمين أنه لما أصاب الجفاف البلاد، ثم أثقل الملك الضرائب، هجر الناس تلك الأراضي إلى الداخل. على أي حال، كنت شاهد على الهجرة الثانية، حينما هجرت باقي الأراضي بسبب الحروب والنهب.

كانت المنطقة الموازية للساحل - رغم وحلها - مناسبة جدا لسيري، لأنها مهجورة، لا سلطان فيها إلا للهوام والأفاعي، ولا يسكنها إلا حفنة مشتتة من المطرودين، الذين بقوا من أثر تمرد الوريث الكاذب، أو الدراويش الباحثون عن الخلوة.

أراد تيمور أن نبحت عن طريق أكثر جفافا، بعد أن تبرم من الجرذان والحشرات اللاسعة، لكنني أصررت على البقاء في أقصى الشمال، نمشي موازين للبحر إلى فم النهر الأخير، عند الثغر الصغير. وكان عبور هذا الجزء من النهر هو الأخطر، في ظني، لأن عبور النهر، دون إذن حاكم المدينة، شديد الصعوبة وهو - كما سمعت من أهالي الثغر الكبير - حاكم ظالم، يخطف الناس، ويبيعهم عبيدا. ويزعم البعض إنه حليف للفرنجة. وآخرون أنه من أتباع القائد الأسود.

ولكن لم أشغل نفسي الآن بهذا الهم؟ طريقي آمن الآن نعم. لكنه شاق وطويل. علينا الحذر من الأفاعي، التي تحت كل حجر. صحيح إن أغلبها ليس من ذوي السم الذي يقتل - كما تعلمت من عشرات اللدغات، التي رافقتني في الأيام الخالية - ولكن بم يفيدني هذا، وأنا لا أثق أي منها التي أيقظتني من نومي على لسعتها؟

والفلران هي الخصم الثاني لنا في الطريق! لا تترك زادا ولا لباسا إلا ودمرتة، ولها في هذا أفانين عجيبة، وطرق لا تخطر على بال البشر! رأيت بعض الأذكياء يربطون زادهم في جبل، ويعلقونه على أغصان الأشجار، فما راوا في اليوم التالي غير فتات على الأرض. بعد أن التهمت الفلران الزاد، والكيس بحباله!

لذا كان علينا كل ليلة أن نتقي أرضا جافة جرداء للمبيت، ولا ينام احدنا، إلا والثاني مستيقظ يحرس الزاد والطعام.

سرنا بضعة أيام على وتيرة واحدة، فبدأ ذهني يفكر في عبور الثغر الصغير، وفيما وراءه. وما وراءه هذا كان ما يقلقني بشدة، لأنني لا أعرفه أصلا لا أعلم أي طريق أتخذ، فلم أتجاوز في أسفاري مع والدي الثغر الصغير أبدا، منذ رحلت طفلا عن الزرقاء نحو العاصفة.

وعلمت أن الفراغ هو عدو العزيمة الأول! فلأنني لا أجد ما أفعله في هذه المسيرة الهادئة المزعجة اللزجة، تناوبتني الأفكار وهي مرتاحة، تجد لكل منها الوقت الكافي لتثييط عزيمتي. صحيح إنني كنت أطردها من ذهني سريعا، لكن عقلي كان يعود لها، ويجادلني بعد كل هذا الشوط الطويل. فمثلا أقول لنفسي "ما لي وما لهذا الأمر؟ لم وضعت نفسي في هذا الشأن أصلا؟ منذ متى كان لهوام الناس دور في تدبير الحكم إلا أوقات الفتن والثورات؟ لأعد لقريتي، ولأنزم داري، وأعيش في سلام دون متاعب. حتى من لاموا أبي على فراره قديما، لاموني على ذهابي اليوم!

لا بأس، سأتحمل القليل من السخرية، وسأقضي بضعة أعوام أسدد للشيخ غلاب ما أنفقته، وما ضاع من ماله، فهذا أهون حتما من السيوف الباترة، والوحوش الكاسرة!

انهي نفسي عن هذا التخاذل وأقول "أبعد كل هذا تتراجع؟ أبعد أن يسر الله لك ما مضى من صحاب تخنع في الجراء الأيسر؟ أبعد مكابرتك ومجادلتك مع كل من عرفوا بأمرك؟"

فترجع النفس الأمارة بالسوء لتقول "البلاد ستسقط حتما. فماذا في يد فرد عادي مثلك ليفعله؟"

فأعود لنفض الأمر عن ذهني جاهدا، فيستعد، لكنه لم ينف لبعيد، وإنما اكتفى بالتواري في مكان مظلم كامنا لي!

كنا الآن نخوض في أعماق الأحراش، فتاهبنا للمبيت، وأخذت على عاتقي نوبة الحراسة الأولى والثانية، لأنني أفضل تأخير نومي، لأخذه دفعة واحدة سهلة، وعلى أي حال، فأمر الحراسة هنا ليس بخطير؛ إن هي إلا حفنة من فئران وثعابين.

وكانما أحس تيمور باطمئنانتي، فابى إلا أن يفسده! فأخذ يسلي نفسه إلى أن يأتيه النوم بأن يقص علي مخاطر الفئران، ونبا من أصابهم الجنون والحمى بعد أن عقرتهم!

لكنه أسدى لي خدمة لا بأس بها، لأن قلقي من الفئران التي مسها الجن، وستذيب عقلي - كما يزعم - بالحمى، قد أزاح من ذهني وساوس العودة والتراجع، وإن لم يرحح قلقي بشأن تجاوز الثفر الصغير وما وراءه.

ثم أدركت متأخرا أنني إنما كنت أحسب ثمن السمك من قبل صيده! فالمتاعب أتت مبكرا جدا عن الثفر الصغير!

استقيظت في الصباح، لأجد حولنا رجالا شعثا غبرا، يرتدون أسعلا بالية، ويمسكون بأغصان ميتة، يتخذونها عصيا، وقد أطلقوا لشعورهم العنان، ولحاهم الزمام، عيونهم محمرة، وأسنانهم مصفرة، يلفون على أعناقهم عقودا طويلة من ودع وخرز وحصي.

ظننت لوهلة أنهم من أهل الجان، الذين سكنوا الديار بعد خرابها من أهلها، ثم أققت من غفاتي، ونهضت مستندا على سيفي، وهتفت بهم:

"من أنتم وما شأنكم؟"

رد أحدهم:

”بل من انتم وما شأنكم؟“

قلت:

”نحن مسافران إلى الشرق.“

رد الرجل:

”سافروا من طريق آخر!“

قلت مصرا:

”لا يوجد طريق آمن آخر. ونحن لا نئوي لكم أذى.“

رد بفضب:

”نحن تحت حماية الشيخ، فلن ينالنا أذاكم! هذه أرض سيدنا الفولي. وليس لأحد أن يطاها!“

لم أسمع من قبل بسيدنا الفولي هذا. لكني كتمت دهشتي، وقلت مهاودا:

”تريد مقابلة سيدنا الفولي.“

قال:

”لن يدخل أحدا أرضه إلا بإذنه!“

قلت:

”تريد أن تأخذ إذنه.“

هز رأسه المغبرة وهو يقول:

”مات مولانا منذ سنوات أيها الجاحد! لكن إن ظهرت له كرامة لكم. سمحنا لكم بالعبور!“

نظرت نحوه بفباء. لا أكاد أفهم. ثم قلت:

”إذا فما حدود أرض سيدنا الفولي لندور حولها؟“

قال الخبيث:

”هي كل ما حول الضريح من الأرض. بين البحر، ومدينة دلها.“

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

لنا له! إنهم لا يتركون لنا خيارا، فدلها وما دونها خاضعة لأمر الأسود، وبها
حامية قلقة، تسيء للمسافرين، خشية أن يندس بينهم غادر. والساحل في
هذه المنطقة خطير موحل، لا يصلح للسير فيه.

لم اكن أريد، ناهيك عن الاستطاعة، أن أشق طريقي قتالا بين كل هؤلاء. فلم
املك سوى الانتظار حتى يظهر لي أمر جديد، أو اعود من حيث أتيت. وعسكرنا
قرب اولئك الدراويش أسبوعا، لا تترجح فيه قيد أنملة، ولا يهتر عنادهم
بمثقال خردلة!

كانت أعدادهم كبيرة، ربما بضع مئات من المجاذيب، ورغم غلاظة مظهرهم،
وقذارة ملابسهم، إلا أنهم كانوا طيبين ودودين معنا في الحديث، وأمدونا
بالماء العذب والطعام دون مقابل، لأننا (ضيوف الشيخ)، دون أن يسمحوا لنا
بزيارة هذا المضيف! وعلمت منهم أنهم جماعة من الدراويش، الذين تبعوا
الوريث الكذاب مع بعض من كانوا يعيشون في الخلاء، تجمعوا حول صومعة
لمتصوف اسمه الفولي. وأصبحوا مجاذيبه حتى مات، وبعدها أتى ثلاثة رجال،
زعموا أنهم خلفائه، منهم رجل يسمى أبا برق، وقد عرفت رجلا بهذا الاسم
بين أتباع الوريث، كان منافقا مكروها، وكان والدي يرى أنه جشع، أتانا بحثا
عن المال، رغم إنه أضعف من الارتزاق، فلا نفع منه في حرب، ولا خجل منه
في طلب المال!

ويبدو أن أبا برق عثر على اثنين من الأفاقين، ساعده على تولي أمر اولئك
المجاذيب بالأكاذيب! فبنوا ضريحا، وغرروا بالمساكين، ليسيطوا لأنفسهم
سلطانا على بقعة من الأرض، حتى لو كانت خرائب!

لكن الثلاثة (الخلفاء) ماتوا بعد وقت قصير، وكما يزعم القوم: بعد أن
عقرهم فار، فأصيبوا بالحمى! يبدو أن هناك الكثيرون ممن يسمعون لمثل
أحاديث تيمور المفزعة! لن أمن لفار بعد اليوم!

ولكن الأثر الخبيث للأفاقين مازال باقيا، وهل هي الأرض علينا محرمة إتباعا
لبدعتهم! وعلي أن أعثر على كرامة ما، ليسمح لي مجاذيب الفولي بالعبور.

ظللنا في معسكرنا هذا لا نفادره إلا للسمر مع حرس الدراويش، لتأخذ منهم
المؤمن، وتجادلهم دون جدوى، وتبادل الحكايات والأخبار، فأقص عليهم ما
حدث في أمر البلاد، التي هجروها منذ زمن بعيد، ويخبرونني بأمر هذه الأرض
الخربة، والمواضع التي أحذرهما، لكثرة السباع أو التماسيح فيها. وقد اصطدت

جروب " ربيع الكتب "

معهم، بمعونة تيمور، تمساحا كبيرا، كان يلتهم الدجاج الذي يريه الدراويش، وجلسنا معهم نشق لحمه القاسي، لنسلخه، ثم تركوا لي الجلد كاملا، زاهدين في ثمنه، أو أجرتهم! فهو في نظرهم زينة لا تليق بهم. وتركته بدوري تيمور، فهو التاجر الآتي من ساوة، وسيعرف كيف يبيعه في مكان ما!

وأخذت أسنان التمساح، فعالجتها، وثقبتها، وهذبتها لأصنع منها مسبحة، لطف شكلا من تلك الغليظة، التي يضعها المجاذيب على صدورهم من الحطب والحجر والودع، وأهديتها لأحدهم، علما تذيب شيئا من سد الطريق، وأخذت أجادلهم واحذرهم من خطر القائد الأسود، وحلفائه الفرنجة والأهبال، الذين يطمعون في امتلاك الثغور، مقابل مساعدته، ولا يقف أمامهم سوى الوريث، ولا يقف بيني وبين الوريث سواهم!

لكن المجاذيب مغيبون في عالم آخر، لا يرون مما يحدث حولهم شيئا، ولا يفهمون إلا أن الفولي ولي صالح سينقذهم! وما أظن الفولي هجر العمران إلى الأحراش إلا هربا من أمثال تلك العقول المغلقة!

كانوا لا يسأمون من جدالي معهم، لأنهم لا يعيرون حججي التفاتا، ولا تحرك كلماتي عقولهم، إلا كما يحرك الريح الجبل! حتى بدأ السام يصيبي أنا، وادركت أن الاستسلام والعودة للسلامة هو الخيار الوحيد للعاقلين.

لكن أثناء الجدل، أفرعني سؤال، هل أنا خير من مجاذيب الفولي؟ هم يذفنون عقولهم، ويهربون من عالمنا القاسي إلى روحانيات أضرحة الأولياء، بينما أنا أراود نفسي في العودة سالما لداري.. أفلست مثلهم؟ أغيب عقلي، وأسخر روحي، لإرضاء هم بطني، وأمن جسدي؟ على الأقل هم يسعون لروح باقية، ولو أخطأوا طريقها، وأنا لا أسعى إلا لسلامة جسد فان، وإن أصبت الطريق.

هنا كانت لحظة حاسمة، قطعت دابر أفكار الخائفة، وأعدت لعزيمتي إخلاصها، وأوقدت نار الحرب ضد الأسود في قلبي.

استيقظ في قلبي الآن جزء صغير أماته موت أبي، الجزء الوحيد الذي كان يفهم لم ذهب أبي لقتال مع الوريث، ولماذا قتله الكمد حينما علم بكذبه، رغم إدراكه أن الهزيمة قد حلت علينا من قبلها، ورغم أن باقي أجزاء صدري كانت لا تفهم غير تأييده في الفرار من القرية ومن الزرقاء وقت الخطر!

هكذا أخيرا خلصت نيتي في رحلتي، وحينما تخلص النية، تأتي النجدة!

لا أدري كيف أتاني الإلهام لتروير كرامة للفولي! كنا نتجول حول مجرى صغير، يبدو أنه كان ذات يوم قناة للري، فإذا بي أجد على جانبه بعض البيض الكبير المدفون في الطين، ففرحت به وأسرعت نحوه مستبشرا، لكن تيمور أوقفني بقوله:

"دعك من هذا، فهو ليس بيض طيور، بل بيض تماسيح!"

"ماذا؟"

"بيض تماسيح!"

نظرت له مستكرا، وقلت:

"بيض تماسيح! لم أسمع بمثل هذه الأعجوبة من قبل! وما أدراك أنت؟"

قال: "رأيت من قبل، ففي أوقات الجفاف، نذهب نحن أهل ساوة في قوافل كبيرة، نشترى الفلال والتقاوي من الجنوب وأقصى الجنوب. وهناك تكثر التماسيح على ضفاف النهر، وقد رأيت بيضها، وأخبرني عنه أهل البلاد. التماسيح هناك كبيرة جدا، وشرسة، وأعدادها أكثر من هنا بكثير. ففي الجنوب موطنها، ومن ضفافه منبعها. وإن كانت هنا أكثر بكثير من العاصمة وما وراءها، لا أدري كيف."

قلت مخمنا:

"ربما لكثرة الوحل، وقلة البشر."

ثم قفزت لذهنى تلك الكرامة الفريدة! فقصدت المجازيب بعد صلاة الفجر، وقلت لإمامهم بصوت يسمعه الجميع:

"قد جاءني الشيخ الفولي في المنام، وأخبرني إنه غاضب عليكم، وأنكم يجب أن تتركوني أعبّر."

نظر لي مستكرا، وقال:

"إن كنت قد رأيت حقا، فصفه لنا!"

لم يفاجئني سؤاله، إذ كنت أعددت له العدة، فقلت:

جروب "ربيع الكتب".

”قد كان في وجهه نور ساطع، ويرتدي الثياب الخضراء الإستبرق! وبين حاجبيه نور. وفي عينيه صفاء، وفي وجهه نعيم الجنة!“

قال أحد المجازيب:

”الله أكبر!“

نظر لي الإمام بفيظ، بينما التف حولي البقية مصدقين، رغم أنني لم أذكر لهم صفة واحدة تعرف!

بادرت بالكلام:

”قد أخبرني إن الصدا علا قلوبكم، وأنكم لن تصدقوني، لذا فسيمسح الله طعامكم، ثم شرابكم، ثم يمسحكم أنفسكم، إن لم تخلوا بيني وبين درب الجهاد، لإصلاح سبيل المسلمين!“

نظر لي الإمام بفضب جامع، وصرخ:

”أعلى قلوبنا نحن الصدا أيها الفاسق؟ وماذا تعني بمسح طعامنا؟“

بدأ لي أن أول بذرة لحيتي قد نمت، فالفضب في سؤاله الأول لم يخف القلق في سؤاله الثاني!

هزرت كتفي حائرا، وقلت:

”لا أدري! هذا هو ما قاله لي، وقد جئت أخبرك به، لأريح ضميري، وأنفذ وصيته.“

نظر لي متاملا، كأنها يحاول رؤية ما بصدري، ثم ياس، فقال:

”إذا، فاذهب الآن، وستنظر في أمرك.“

تركته، وأخذت تيمور معي، فسالني مبتهجا:

”أحقا جاءك سيدنا الفولي، وسيمسح المجازيب؟“

قلت له:

”لا تكن أحمقا يا غلام! الأولياء لا يضررون ولا ينفعون بعد مماتهم، وليس لهم إلا الدعوة الصالحة في حياتهم، ربك وحده هو الضار النافع.“

هز كتفيه وقال:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

"لما تبرك بهم."

قلت بفضب:

"الخطوة الأولى على سبيل قوم نوح. أما قرأت في كتاب الله تعالى (ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى)؟"

قال تيمور:

"إذا فلم قلت هذا للرجل؟"

أشرت له ليسرع خلفي. وقلت:

"اتبعني في صمت."

وفي الصباح التالي. كان الدراويش قلقون. يتهامسون إذا راوني. ولاحظت أن البيض قد اختفى من طعامهم. الذي يضيفوننا عليه.

ولثلاثة أيام متتالية. ظل الدراويش يصدمون. كلما أرادوا جمع البيض من حظائرهم. وسرعان ما علمت أنهم يجدونه مليئا بالدم يحوي أشكالا كريهة. فيلقونه فزعين.

لكنهم لم يتزحزحوا عن عنادهم. وظننت أن الفشل ات لخطتي. ما لم أجد الطريقة لمسخ شرابهم.

لكن في النهار الرابع. سمعت صراخا واستجادا. فنهضت مفزوعا ومعي تيمور. لأجد أحدهم قد أمسكت به التماسيح عند حظيرة الدجاج.

كان تمساحا مهولا. لم أر في حياتي مثيله. يقبض بأسنان من حديد على ذراع أحد الدراويش. ويجرره جرا. بينما المجاذيب يصرخون. ويهوون بعصيمهم على الوحش دون جدوى.

هويت برمحي على عنق التمساح. فأفلت ذراع المسدخين. والتفت نحوي بعينين صفراوتين تحنان للدم. كان جلده القوي قد أهنه من الضربة الأولى. فدفعت بالثانية في فمه الفاجر. لينبثق منه الدم الفزير. فقبض على الرمح بأسنانه. لم استطع نزعها منها. وهوى بذيله نحوي. فتفاديته. وأخرجت سيفي وجلا. اتحاشى هذا الوحش المريع. وهتفت بتيمور أن يخرج الجريح بعيدا عن هنا.

نظرت متحفزا للتمساح، فوجدت خلفه تماسيح أخرى، تملأ حظيرة الدجاج، وإن كانت لحسن الحظ أصغر حجما. فتراجعت ببطء، والوحش يتبعني. وقد أثقله الرمح المفروس في فكه، ثم قفزت عليه مرة واحدة، وهويت بالسيف بأقصى قوتي على رأسه، لكن الضربة بدت دون أثر يذكر. ورد علي بلطمة من ذيله، اوقعني، وأسالت الدم من رأسي، واحسست بعينه تنظر لي في شهوة المنتصر، فأصابني الفزع، ودفعت بسيفي دفع اليأس، فأصاب عنقه.

ويبدو أن الضربة كانت في موضع ضربة أخرى شجبت جلده، ففرس السيف في جسده، ودفعته بإصرار في اللحم القاسي حتى المقبض، ثم أخرجته ملطخا بالدماء، مبتعدا عن اتفافة الجريح، الذي سرعان ما همد إلى الأبد.

نهضت مسرعا بسيفي، فشطرت تمساحا صغيرا إلى نصفين، وسرعان ما أتى تيمور وباقي الدراويش، يحملون الفئوس، ويمزقون أسراب التماسيح حتى كلت أيدينا، وسالت الدماء، فصبفت البركة التي يشربون منها باللون الأحمر.

وعدت لجثة التمساح العملاق، فنزعت رمحي منه بصعوبة، ورفعته نحو السماء، أرقب ما أصابه من ضرر في ضوء الشمس. والتفت، فوجدت الدراويش ينظرون لي بإجلال ورهبة، ثم اندفعوا نحوي معتذرين عما سلف، ويشكروني على إنقاذ زميلهم. شكر لم أشعر أنني استحقته، فانا السبب فيما أصاب الرجل. وغمرني الندم، لو فقد هذا الدراويش ذراعه، فإنما حدث هذا لأنني كنت أحتلس بيض التماسيح، وأبدل به بيض الدجاج أثناء الليل، وأنت أم الوحوش تبحث عن ابنائها الذين سرقتهم.

لكني حينما ذهبت للجريح اطمانت. وتوليت بنفسي غسل الجرح، وتنظيفه، ومعالجته. لم أفقد بعد ما تعلمته وأنا صغير على يد طيب حانق، كان معنا مع الهارين من الزرقاء، وقد اتخذني مساعدا، لأنني أصغر الموجودين وأخفهم يدا. رحم الله الطبيب ابن جلجمة، فقد تعلمت منه علاج الجروح، فعالجت جرح ذنبي، وأدركت أن الرجل لن يفقد ذراعه بإذن الله، وأنه مازال يستطيع تحريكها على خير.

وبقيت طوال الأسبوع التالي أرى الرجل الجريح، واسمه مغبون ابن مظلوم. لا أدري أنه نصيب من اسمه، أم هم لقبوه بهذا بسبب حظه! وبعد أن زال الخطر، ولم تدهمه الحمى، وبدا يشفى بأمر الله الشافي، سمح لي المجازيب بعبور

ارضهم. على ان ازور ضريح سيدنا الفولي واستعطفه. الا يمسخوا كما مسخ
الطعام والماء!

وزرت الضريح. وقرات له الفاتحة. احسست هناك انني بالفعل في مكان
مبوك. جوار رجل صالح بريء مما حوله من بدع منكرة. فدعوت الله ان
يوفقني في امري. ويوفق المجازيب للهدى.

ومشيت في امان. عابرا ارض مجازيب الفولي. ومعنا منهم واحد يكلم بقية
جماعاتهم. ليتركونا نهر. وهو يخبرهم بكرامة الشيخ الجديدة.

وقبل ان اغادر اخر ارضهم. قلت لدليلي:

"الشيخ الفولي غاضب حقا عليكم. هو يري. واظنه الحق. انكم قد سمتوه اكثر
من اللازم. والله وحده هو القدوس. وان هذا ليزلقكم إلى الشرك. وقد كان
هذا ما يخشاه منكم في حياته. فقد اوقعتموه بعد مماته. فاتقوا طريق قوم
نوح."

تركني الرجل دامع العينين. مصدقا لمقولتي. وراها كرامة اخرى! إذ كيف
علمت أن الشيخ الفولي كان يخشاه منهم وينهرهم في حياته؟

وتركت اولئك القوم الطيبين المساكين. ومضيت في طريقي نحو الثغر
الصفير. لا أدري ما يصيني فيه. وهو كارض الفولي لا مهرب منه. بل أشد.
لأن لا عبور لفرع النهر الأخير. إلا بجسرهم الذي يقف عليه حرس حاكمهم
الظالم.

* * *

(22)

في الثغر الصغير

لا أدري، لعلها بركات الشيخ الفولي قد حلت علينا فعلا! فقد كان أمرنا سهلا. عبرنا من أرضه. وما وراءها بيسر. وعبرنا فروع اللهر دون مشقة. حتى أتينا للفرع الشرقي الأخير. أكثرهم غزارة وعمقا. وأصعبهم في العبور إلا بجسر كبير. بناه أهل الثغر الصغير. لأجل تجارتهم مع أهل الشمال. ولأنه يؤدي لقلب مدينتهم مباشرة. فقد كان الحرس المشدد عليه لا ينام.

لكن لعلها كما قلت بركات سيدنا الفولي. فقد وجدت الجسر خاليا. لا حارس عليه. ولا عابر فوقه!

كان يبدو. هو وغرفة الحرس. مهملين. يعلوهم التراب والعفن. ربما بعدما هجرت الأراضي غرب المدينة. ترك الناس الجسر. بعد أن أصبح بلا نفع!

ودخلنا للمدينة بسهولة ويسر. واشترينا راحلة من سوقها. دون إزعاج. وأتينا بالزاد والزواد. وتوجهنا لبوابة المدينة الجنوبية. نبغي الخروج مطمئنين.

وهنا انتهت آخر أيام السلامة في رحلتنا. وبدأت متاعبنا الأكثر خشونة.

قبض علينا حراس الوالي. ونحن على البوابة. واقتادونا بغلظة له.

كان الوالي رجلا سمينا جدا. يبلغ من عمره الأربعين تقريبا. ويخفي نصف وجهه أسفل عمامة ضخمة من الحرير. مزينة بريش كبير. لا أدهش إن كان ريش النعام! ويتدلى منها عقود لؤلؤ. في جمهرة للبذخ والتفاخر. تؤذي العين وللذوق السليم. وأما نصف وجهه الثاني. فقد اختبا خلف شارب عظيم. لم أر في حياتي له مثيلا. وهو لا ينفك يرمه ويمسحه. بعد كل كلمة يقولها.

كان يجلس فوق عرش عال جدا، حتى لو أن أحدهم دفعه من أعلاه، لسقط ميتا. فكان علينا، وقد الصقونا بأسفل العرش راكعين، أن نرفع رقبتينا عاليا، لننظر له، حتى أصاب الألم عنقينا. ولا أدري لم كل هذا الكبر في نفسه!

تكلم بلسان معوج، نصف أعجمي، متعثرا في حبات التين، التي يلقبها في فهمه الكبيرن كما نلقي نحن حبات الزبيب في أفواهنا، فلم أفهم منه كلمة واحدة! لكن رجاله ردوا عليه بقولهم:

"قبضنا عليهم عند الباب الجنوبي، يريدون الخروج، وقد اعترفوا أنهم غرباء عن المدينة، ولم نجد معهم أوراق دخولها، فعلمنا أنهم متسللون."

سال الوالي سؤالا آخر، لم أفهمه، فاجاب رجه:

"كان معهما راحلة، وطعاما يكفي لمسافة بعيدة، فشككنا في أمرهما، لعلهما جاسوسين."

تكلم الوالي مرة أخرى، بطريقته المتفطرسة المتعثرة المقيتة، واحتاج الأمر مني جهدا، لكي أفهم أنه يحدثنا نحن، وأنه على الأرجح يسألنا من نحن، وإلى أين نذهب.

وقبل أن أفك طلاسم الفم الفليظ، تدخل قم مخيف آخر! قم ثرثار خفيف العقل! فيبدو أن الحرس أدركوا أننا لن نفهم مقالة الوالي، ولأن تيمور كان متأخرا خلفي، فقد همس الحرس له بتفسير سؤال الوالي، فأسرع يجيب بحماسة قبلي.

قال تيمور:

"أنا تيمور السواتي. من آل العلاف في ساوة، ونحن أنسباء الملك."

أردت الالتفات له، لأخرسه؛ لكن أحد الحرس لطمني، لأعود لرفع رأسي نحو الوالي، وأكمل الأحق:

"وهذا هو القبيل، زعيم الفيلان الحمر، ونحن ذاهبان إلى طرابل ل....."

لم يكمل لأن يدي هوت على ركبته لأخرسه. ولكن بعد أن وقعت الواقعة!

بالطبع صادروا أموالنا، وأسلحتنا، واقتادونا للسجن. فالوالي ممن يراءون القائد الأسود، وقد آتته كما أفهمنا حرسه أبناء الوفود الذاهبة للوريث، فأدرك

جروب " ربيع الكتب " .

بفضل حماقة تيمور، الذي قال إنه من أنسباء الملك، أنا وفد مثلهم. لكن معاد
للأسود!

كان السجن في أسفل القصر مظلمًا كئيبًا واسعًا، لكنهم أقوا فيه بكل
السجناء معًا، فضاقت بهم. وما أن دخلناه، حتى التف حولنا ثلاثة رجال ضخام
الجنّة!

قال هذا الذي على يميني:

"من أنتم؟"

أما الذي على يسار تيمور فقال:

"ما الذي ألقى بكم هنا؟"

وأتبعه الثالث من أمامنا،

"يبدو أنهم خرس بكم!"

وهنا باغتتنا الرابع من خلفنا بصوت أجش:

"هم خدم جديد لملك السجن، وسيبدءون بدفع التقدمة الآن!"

(23)

حكاية الشاطر عدنان

هوى أحد الرجال الأربعة على كتف تيمور، كأنها يصافحه، لكن يده هوت، وهوت بتيمور ذاته معها! وبدت ابتسامة خيثة على وجوه الرجال الأربعة، وامتلأ عقلي برعب الفهم! سيفتحون ليلتنا بضربنا، وتحطيم ضلوعنا كتقدمة لزعيم الزنزاة. وفي هذه اللحظة، ضاع مني أي أثر للفيلان، والاحمر، والأسود، والقتال! لا أحب أن أضرب؛ وإن وجدت نفسي دون سلاح، محاطا بأربعة عماليق. فسأفعل كل ما يطلبونه مني دون تردد!

لكن النجدة أتت من حيث لا نحتسب، فأحد الحرس بالخارج هتف:

"يا كلثوم دعهم، فهذا من الفيلان الاحمر."

تجمدت الزنزاة كلها، قبل أن ينهض كل من فيها، وينظر نحونا، كأنما يرون أعجوبة من أعاجيب الدهر. أكاد أزعم أن قوم ثمود ما نظروا بأعجب من هذا إلى ناقة صالح!

نحن هنا في الشرق وفي شماله تحديدا، حيث للفيلان ذكرى قوية. فهنا نشنوا وتسلطنوا، وكانت تلك المدينة أول المدن الكبيرة خضوعا لهم، وأول من ذاقت طعم خطف الأبناء على يد الفيلان. لذا فقد كان للقبى رهبة في النفوس.

لم أجدها في أي إقليم آخر. حتى في الجنوب الشرقي المجاور لهم، نزع الأساودة

الكثير من ذكرى الفيلان الحمر .

وتلك الذكرى المرهبة هي ما أنقذتنا تلك الليلة، كما أخبرني الشاطر عدنان.
كان هذا الكثوم هو العملاق، الذي أتى من خلفنا. كان ضخما جدا، حتى إن
حجمه يماثل الثلاثة الآخرين مجتمعين! ويظهر على وجهه لمحات ذكاء. على
الأقل تفوق رجاله.

أجلسنا كثوم معه، وأفرد لنا مكانا مريحا، تفوح منه رائحة تينة، وسألني:

"أنت من الفيلان الحمر حقا؟ ظننتهم بادوا؟"

أجبتُه بمثل جوابي لشيخ بني الأسود:

"لقد عدنا."

نظر نحوي بفضول وقال:

"قد قتل جدي على يد الفيلان، حينما اختطفوا أخي الأكبر، وقد قتل هو الآخر
في حروبهم، التي لا ناقة لنا فيها ولا جمل."

ابتلعت ريقِي بصعوبة محاولا التماسك. لو كان كارها للفيلان، فإن يخشاننا
أفضل من أن يامن لنا.

قلت محاولا الحديث ناحيته:

"ظننتك أصفر سنا من هذا؟"

قال بفخر:

"أنا من أسرة معمرة، كما إنني ولدت بعد هذا الأمر بعقود، أقول لك الحق.
إنني أكره الفيلان الحمر، وأقولها صراحة بلا خشية. لكن هؤلاء رجالي، أكره
أن أدخلهم عداء لا داع له."

تذكرت قولا قرأته في كتاب الشجاعة، الذي كان تسليتي الوحيدة أثناء انتظارنا
على بوابة الفولي:

"الفول الأحمر الحق، ليس الذي يتبع الفيلان، وإنما الذي لا يهاب حتى الفيلان."

قال متبرما:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

يا هذا الصراء؟

قلت:

'أبولنا السابع والثلاثين.'

ملح عينيه بدهشة، وقال:

'إذا فانت غول أحمر حقا! سارى ما يقوله الشاطر في امرك. ما كنت لأقطع
هي هذا الشأن دونه.'

لم أفهم، ولم أسأل، فاليوم ظهرت لي حكومة أخرى، تسيطر على قاع
المدينة وسجنها، بقبضة أقوى من قبضة الوالي الظالم على بقيتها. وظهر
أن هؤلاء الصعاليك والحرافيش، ياتمرون بأمر واحد، وفوجئت مفاجأة لم
أسرني، إن هذا الكثوم الغليظ ليس سوى بلطجي أقوى من غيره، يبسط
نفوذه على السجن، وإنما هو تابع لزعيم آخر، هذا الذي يلقبه بالشاطر، ولا
أدرى، إن كان هذا هو التابع، فأنى لي بقاء المتبوع؟

مد الفجر أيقظنا كثوم، واخذنا لباب الزنزانة، فسألته:

'ماذا تريد يا كثوم؟ ثار جدك؟'

مدحك كاشفا أسنانه المسودة، وقال:

'كلا! إنما سأخرجكما من هنا.'

قلت بلهفة:

'ماذا؟! كيف؟ دلنا على الطريق.'

قال:

'أخبرني أولا ماذا تريد الفيلان من هذه البلد؟'

فتح تيمور فمه، ليلقي بكارثة أخرى على الأرجح، لولا أن سبقته بقولي:

'لا شيء. فقط كنا ذاهبين إلى طرابلس، لزيارة أقارب هذا الشاب.'

لظر لي بسخرية، وقال:

"أهو من الفيلان؟ طبعا لا! إذا لم تصحبه؟"

قلت بصراحة:

"هذا شأن من شئون الفيلان."

لانت ملامحه فجأة، وقال مهاودا:

"حسنا، حسنا! أخبرني الشاطر إنكما ذاهبان لاستدعاء الملك لحرب كبيرة مع بني الأسود! والأمر يقلق الوالي كثيرا، ولعله يفكر في قتلكما. لكن الشاطر يريدكما هو الآخر. لأنه ينقم عليكما إضاعتكما لوسيلة! ولما كان الأمر كذلك، فقد أخبرني قائد الحرس أن نريحه منكما، ونريحكما منه، فهو يكره أن يكون له ثار مع الفيلان إن قتلتما هنا، ولا يأمن بقاءكما معنا، لذا فحين نذهب لاستعادة وسيلة، فسيغفل عنكما الحرس."

لم أفهم شيئا مما قال! كان يتكلم ببساطة عن أشياء لا أعرفها، وأحداث لا يقبلها العقل! من هي وسيلة؟ وكيف أضعتها؟ وكيف يحدث قائد الحرس بهذه البساطة عن هروبنا؟ ومن هو الشاطر أصلا، وكيف عرف بمقصدنا؟

لكن لم يكن هناك الكثير مما أحتاج لفهمه، فقد أتتني ضربة على رأسي، وألقوا كيسا على وجهي، وسحبوني وتيمور للخارج كالجوالين!

ظنوا أنني فقدت الرشد، وساعدتهم على ذلك، لأنه لا حاجة لي لضربة مؤلمة أخرى! والتبعت لسماع ما يحدث حولي، فوجدت أصواتا زاعقة، وصليل سيوف، وهتاف إن الفول خطف سيفا، وهاجم الحرس، بينما الفول في الحقيقة ملقى على عربة كريهة الرائحة، ظننتها في البداية تحمل القمامة، ثم عرفت فيها الطعام الذي يقدم للمساجين! وبسرعة البرق، كنا جميعا خارج القصر!

انهضوني، وافاقوني بجهد (فقد أجدت التمثيل، عليهم لدرجة أن ألقوا علي بوعالين من ماء قذرا!) ففتحت عيني أخيرا، أرقب ما حولي، فوجدت رجلا مالوف المظهر، لا أذكر أين رأيته من قبل.

ثم نظرت حولي، لأجد تيمور مثلي، وجواره كلثوم يفيقه، ونظرت لعربة الطعام، فرأيت الدابة التي تجرها، فعرفت أنها وتذكرت من هذا الواقف أمامي! ابتسم لي، وسألني بلهجة ودودة:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

٤٥٥. حالك أيها الغول الضمام؟ كما ترى فقد أصلحنا ذنبك. واستعدنا
وسيلة!١

بطلت له محاولا الفهم. وقلت:

وسيلة؟ أهى الدابة التى اشتريتها منك بالأمس؟

٤٥٦. حاجبيه وقال:

'لا نفل على وسيلة دابة! إنما هى أفضل دابة فى العالم. أبيعها فى الصباح
اسادج مثلك، فتعود لى فى المساء محملة بمتاعه وأمواله! لذا فهى ثمينة جدا
هدى. ولا أقوى على فراقها!'

بطلت إليه متعجبا، فلم أسمع فى حياتى بمثل هذه الحيلة. على كثرة ما
سمعت من طرافل المحتالين والشطار.

سأله:

'أنت هو الشاطر أليس كذلك؟'

قال:

'محسوبك الشهبندر عدنان، كبير تجار سوق الدواب بالثغر صباحا، والشاطر
هدلان الملك المسالى للمدينة!'

قلت:

'على كل، أشكرك لإنقاذنا.'

قال:

'حسنا ما أن أخبرنى كلثوم - أه! - تذكرت! يا كلثوم، يجب عليك أن تعود
للسجن قبل طعام الغداء! ماذا كنت أقول؟ حسنا! ما أن أخبرنى كلثوم بوجود
غول أحمر فى زنزانته، حتى ابتهجت! ليس لأن أجدادى كانوا منهم كما ظن،
فأنا رجل عملى يترك الأموات فى قبورها، ولا ينازعها فى أمجادها وإنما لأنه
ستلصق بك تهمة اقتحام القصر، وسرقتها، بدلا من رجالي حينما، نذهب
لاستعادة وسيلة! ولولا هذا، لقام الوالى بمصادرة كل نياق السوق ثارا!'

قلت بفضب:

"هذا الوالي الظالم. حتما ساراه هالكا. حينما تنتهي الحروب من البلاد."

قال الشاطر عدنان:

"تنتهي الحروب! ألما نهاية! على أي حال لا أظن أن هذا سيحدث. لأنه سينحني للحاكم الجديد. بنفس الحماسة والإخلاص. اللتان ينحني بهما لفرق الفرنجة المختلفة. وسادات الأهبال! ويداهنه كما يداهن ملوك الصيادية، والسور العلي، وقبال الأسود! كل حاكم قوي يحتاج لبعض من ينحنون له. والوالي يجيد هذا بشدة!"

قلت:

"راع! تضيف له تهمتي النفاق والخيانة!"

هز رأسه نفيا. وقال:

"عزيزي، أنا مدين لهذا الحاكم بثلاثة خصال. الأولى. إن في عهده السعيد. أصبحت أنا اللص الحقير. زعيما مطاعا في المدينة. وبفضل المال يتلقى قائد الحرس أوامري. قبل أوامره أحيانا! والثانية. إنه يانحنائه لكل من حولنا من طفاة، أنقذ المدينة من الدمار والخراب. ولو أتى حاكم آخر يملك ذرة من كرامة لهذه المدينة. لتسبب في هدمها على رؤوسنا! تماما كما حدث لغيرنا من المدن. والثالثة. إنه لا يحب القتل. ولعلك أتت نفسك مدين له بهذه! وكم من مرة أمسك فيها بكتثوم. فلم يؤذه إذا ما اتفقنا إن السجن الملكي. الذي يعيش فيه. أفضل بكثير من الجحر الذي ولد فيه!"

كنت أسمع له بنصف أذن. لأن عقلي مشغول بهصيري مع هذا الشاطر. كنت أرجح أنه لن يقتلنا، ولكني أشك في أنه سيقتر كنا نرحل بهدوء. وربما كان خير ما فعله هو أن أتشبث بزّي الفيلان الحمر. لعل الحنين لأسلافه ينفعني.

ومضت علينا أيام عدة في (ضيافة) الشاطر عدنان. حتى أدركت أنه ينتظر منا ثمن إنهاء هذه الضيافة. وهو أمر صعب. بعدما فقدت المال والسلاح. ولم يبق لي إلا هذا الدرع السخيف. الذي أوقعني في كل هذه المصائب! وخشيت

جروب "ربيع الغتب".

٤٠، يلفظ الثمن من خصومنا، وصارحت تيمور بهذا الأمر، فأظهر لي الفتى أول
بعضه ذكاء منذ رافقني في الرحلة!

ذهب إلى الشاطر، وأخبره أنه يريد الذهاب للسوق، للبحث عن بعض أهل ساوة،
بمعرض منهم مالا يكافئه به على حسن ضيافته. ودوما في السوق تجد رجلا
من أهل ساوة، أو ممن يترددون عليهم، فتجارتهم قد تتسع أحيانا حتى تصل
لبلاد الحجاز شرقا، والسواد جنوبا، وقد أجادوا معاملة الحكام في المدن، فلم
يهد أحد يتعرض لهم، خاصة إنهم يحملون أئمن سلعة، ذات أرخص ثمن، إلا
وهي الطعام! فلا يوجد اللص الذي يطمع فيهم، ولا الأمير الراغب عنهم!

على أي حال، تمت الصفقة، فقد أتى الشاطر عدنان بأحد تجار ساوة، يدعى
أدهم، كان أتيا له لشراء راحلة منه، فقابلته تيمور وعرفه، واقترض منه مالا،
أعطاه للشاطر مقابل حريتنا، والزراد، والراحلة، التي اطمأنت أنها ليست وسيلة!

وهصحنا الشاطر عدنان إلا نرحل سويا، حتى لا يتذكرنا الحرس، ويقبض علينا
مرة أخرى، فرحل تيمور مع التاجر أدهم، على أن الحق بهما في الطريق.

لما ان ابتعد تيمور وأدهم عن أنظارنا، حتى باغتني رجال عدنان وقيدوني!

بطلت له نظرة استنكار، تخفي رعبا، فابتسم وقال:

'هذا ابن ساوة قد افتداه ابن ساوة، فمن يفتديك أيها الفول؟ أخبرك أنا! لقد
أخبرني الوالي أثناء غدائي معه، حينما كان يطلب مني قرضا، أن القائد الأسود
يريد زعيم الفيلان الحمر بشدة، ولا تخف! أظنه لن يقتلك، وسيجزل لي العطاء
إن أتيت بك حيا! أظنه يريد منكم أيها الفيلان أن تساندوه، أو على الأقل تكفوه
حربكم.'

وهكذا ألبسوني كرها درع الفيلان، ووضعوا سيفهم ورمحي في لفافة،
ربطوها خلف ظهري، قبل أن يقيدونني، وتناول الشاطر عدنان كتاب الشجاعة،
لفظ له بسخرية، وألقاه في وجهي، فوضعه أحد الرجال في جراب، علقه
بحزامي.

وقال الشاطر عدنان:

"كما ترون يا رجال. فحتى الفيلان الحمر المفزعين لا يملكون من شأنهم شيئاً أمام سطوة المال المال الذي اتر بهم بدلولي لي انا الشاطر عدنان. ملائيل المدينة. والمال الذي جعل الوالي يبعني بصانعهم. وجعل القائد الأسود يتخلص من عدو هرير له."

ثم الصق وجهه بعيني. وضحك بسخرية. واكمل:

"عزيزي زعيم الفيلان! لا تنقم علي. وعلى اي حال. لا تهمني نعمتكم! فالا لست مثل الوالي. لن تستطيع غيلاتك ان تذهب لقصري لتؤذيني. او لقلعتي لتقتلني. لأنني بلا قصر وبلا قلعة. الأمر الوحيد الذي يمنعني من إرسالك للأسود جثة هامة. هي إنني أخشى الا تكون من الفيلان حقا. فأثير غيظه. صحيح انه لن ينالني هو الآخر بسوء. لكنه لن يجزل لي العطاء حينها. لا تحزن يا رجل. إنها محض تجارة! وعلى اي حال. كما قلت لك لا أخشاك أنت او الأسود. لأن بطش الأسد لا ينفع. أمام اختلاس البرغووث للدم. مادام البرغووث لا يبقى في مكانه. اما سمعت بحكاية الأسد والبرغووث؟"

* * *

(24)

حكاية الأسد والبرغوث

«على أن أسدا قويا باطشا فرض سلطانه، وبسط حكمه على كل حيوانات
الهاية، وقد زاد في البطش قامعا كل الوحوش، فلا تسمع إلا رايه، ولا تهتف
إلا بتأييده.

«حكم على كل حيوان في الغابة أن يقدم له شيئا من طعامه ضريبة. وكان
بمقدس ما يأكل وما لا يأكل من الطعام، حتى لو فسد، يمنعه عن الجاعين من
رعيته.

«ثم أتى ذات يوم كلب أجرب، أمسك بقطعة لحم، وقعت من أحد الجزارين،
وطارده الجزار، فهرب من القرية للغابة. وهناك أمسك به حرس الأسد،
وقالوا:

«ما هذا الذي بين أسنانك؟»

«هال لهم:

«أنا كلب جالع فقير، اختلست شيئا من الجزار أسد به رمقي. لا تفشوا سري،
واحموني من الجزار، أكون لكم شاكرا.»

ضحك النسناس، وقال:

«لحميك من الجزار يا ابله! قد أوقعت نفسك في عداوة من الجزار، ولم تفز
باللحم. لن يتركك الحرس، حتى تقدم للملك شيئا من طعامك، وانت لا تملك
إلا قطعة اللحم.»

وسار الكلب الأجرى مقهوراً لعرين الأسد، فحياه وقال:

"مولاي الملك العظيم، أشكو لك مظلمتي. قد جوعني أهل القرية ونبذوني. وإذ اختلست من اللحم النزر اليسير، لأنجو من الموت جوعاً، ولجات لمملكتك. أراد اللئام الإيقاع بينك وبين رعيتك، فزعموا كاذبين أنك راغب في طعامي، وإني لأراك ملكاً عظيماً، في غنى ورفاهة، فأنصفني من اللئام، وأجرني من الجزاء"

قال الأسد:

"قد أنصفتك وأجرتك."

قال الكلب:

"أشكر يا مولاي."

فقال الأسد:

"ولكن الإنصاف والإجارة لهما أجر! وأرى أنك لا تملك إلا قطعة اللحم هذه، فاتركها أجر لي على حمايتك!"

قال الكلب مندهشاً:

"لكن يا مولاي إنما أحتمي، لأنجو بها!"

فلم يرد الأسد عليه إلا بزئير مرعب، وقال:

"لا تملك سواها، وعليك أن تدفع!"

فقال الكلب بحقد:

"لا أملك سواها إلا شيء صغير، وسأمنحك كل ما أملك يا مولاي."

وترك الكلب الأجرى اللحم أمام الأسد، ثم رفع قدمه الخلفية، ونفض جلده، فألقى برغوثاً فوق اللحم، وانصرف مقهوراً.

أما الأسد، فقال لأصحابه:

"انظروا لأعظم حيوان في الغابة! هذا الذي قهر الإنسان، وخطف منه اللحم، أتاني ذليلاً، يسلمني ما سرقه!"

وانقض على قطعة اللحم، فالتقمها لقمة واحدة، وقفز منها البرغوث، فاختبأ في لبدة الأسد الكثيفة، وأخذ يلدغ الأسد لدغاً شديداً، ناهباً دماغه، وكلما هوى

جروب "ربيع الكتب"

الأسد بيده الباطشة على موضع اللدغة، وجد أن البرغوث قد انتقل لمكان
الأسد. فلا ينال الأسد إلا من شعر لبدته، ولا يصيب إلا نفسه بالجروح، حتى سقط
أهبا مقهورا.

وعلمت الحيوانات بأمر تعب الأسد، ففرحت، وبدأت تخالفه، وبدأ سلطانه
ضعف، لا يستطيع ردعهم، لأنه متعب مرهق لا ينام، وجسده امتلأ بالجروح،
التي أحدثها في نفسه، ونظر الأسد، مستنجا بالنسناس، أخلص أعوانه، فأشار
النسناس للأسد بالصبر، وقال:

"هاهو الأسد العظيم قد قهر."

نظر الأسد له بفضب، فأشار له النسناس خلسة إنه يدبر أمرا.

وأتت الحيوانات على صيحة النسناس فرحة، فأخذ النسناس يشمت في الأسد،
وهبث بشعره ساخرا، والأسد المرهق راقد مقهور هامد، ثم أخذ النسناس
بهتف:

"بعيش البرغوث العظيم قاهر السد."

هتفت الحيوانات:

"بعيش البرغوث سيد الغابة الجديد."

فقال النسناس:

"لنشرب جميعا نخب سيد الغابة الجديد."

وهنا وقف البرغوث فرحا فخورا، يتأمل الجسد العظيم، الذي أسقطه، وأمسك
بعض دم الأسد المستكين، فشرب نخب الانتصار، لكنه حينها قد بقي في
مكان واحد أكثر من اللازم، فلم يدر إلا بقبضة الأسد تهوي عليه وتسحقه!

(25)

حكاية أهل الفاربة مع الشاطر عدنان

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان الحمر:

"أرسلني الشاطر عدنان، مع حفنة من رجاله، نحو العاصمة. ومضت القافلة تحت الخطو للجنوب على ضفة النهر، حتى وصلنا للمكان الذي تجتمع فيه فروع النهر معا، عند قرية أم العيون، على مقربة من شمال العاصمة. كانوا ستة من الرجال المسلحين، أحدهم واحد من عمالقة كلثوم، الذين قابلتهم في سجن الوالي. كانوا يتبادلون على ثلاثة جمال، ويجرونني خلفهم أمشي مثقلا بالدرع والسلاح، وهم يصارحونني إنهم يرغبون في إنهاكي، حتى لا أجروا على قتالهم، ولا أدري كيف أفعلها وأنا مقيد بكل هذه القيود!

من الغريب، إن الوحيد فيهم الذي كان به شيء من الود واللفف تجاهي، هو أغلظهم مظهرا، ألا وهو هذا العملاق شرس الوجه ظاهر الفباء! بعد أيام من رحلتنا، بدا لي أشبه بالعبد، الذي لا يملك إلا أن يؤمر. فيطيع ذليلا. ولم يكن ينام ليلا أبدا. الحقيقة إنني لم أراه ينام أدا. فكان يسلي نفسه، بينما الآخرون ينام، بالحديث والثرثرة في أذني. حتى يغلبني النوم. كان يثرثر ويثرثر ويثرثر. حتى وددت لو تطوى بنا الأرض، فاصل لزبانية السود في غمضة عين، لأتخلص من ثرثرته!

لم أكن أعني أغلب ما يقول، لأنني في شغل عنه بما أصابني من نصب، بفضل السير والحر والعطش، لكننا حينما وصلنا لأم العيون حيث تتفرع الفروع

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

«سبعة للنهر، وأدرك أننا لم يبق لنا إلا أقل من اليوم لنصل للعاصمة. أتاني في
٨١٨ من زملائه، وسألني:

«أه أنت من الفيلان الأحمر؟»

قلت له: «منهكا»:

«وأم تسأل؟»

قال:

«ربما أكون غيباً؛ لكنني أعرف أن الفيلان هلكوا عن آخرهم، وإن ظهروا اليوم،
وسط هذا العداء، فلن يرسلوا رجلاً وحيداً، وإنما سيسيرون في جماعة كبيرة،
أظهر بطشهم. على الأقل لن يرسلوا زعيمهم كما ترعم.»

قلت محاولاً إيقاظ عقلي للمجادة:

«السيت أن الشجاعة فرض على الغول؟»

ابتسم وقال:

«لكنك لست شجاعاً! رأيت هذا في عينيك أكثر من مرة، ورأيت في أفعالك
أيضاً. لقد سمعت الكثير عن الفيلان الأحمر، وأرى أنك لست منهم. حتى
الشاطر عدنان يشك في أمرك.»

قلت بسام:

«وبم يفيدك السؤال والجواب؟ قد انتهى الأمر، وخلصت البلاد للأسود الاسم
والقلب والفعل.»

نظر نحوي باهتمام وقال:

«أفعل هذا حقاً لكي تحارب الأسود، وتمنعه من سلب باقي البلاد؟»

قلت:

«ولم أفعله إذن؟»

قال:

«طلباً للملك لنفسك!»

١١٠٠. من كل البلاد أتت. واستقرت. وامتزج فيهم التجار والعبيد. الأبقين.
١١٠١. الأقبام. وبعض الصناعات. ليخرج من أصلابهم قوم غرباء الأطوار.
١١٠٢. رهي الفضب. بارعي التجارة. شديدي البخل والمهارة. وقد أغلقوا عليهم
١١٠٣. السوار العالية. والحصون القوية. عندما نشبت الحروب في البلاد. ورفضوا أي
١١٠٤. سلطان عليهم. حتى لبني الأسود. أو للقائد الأسود في العاصمة. ولخطر
١١٠٥. وكثرة أعدائهم. وبخلهم ذهب بهم الحذر لأبعد الحدود. فهم لا
١١٠٦. يدخلون بدخول أي غريب لديارهم. حتى ضرب بهم المثل في الفطنة. وفي
١١٠٧. سهوبة النيل منهم.

١١٠٨. ذهب عدنان للغاربة. مرتديا زي الأعراب. وساق أمامهم بعض الفتم. وأقام
١١٠٩. أمام أبوابهم شهرا كاملا. حتى اطمانوا له. ثم ارتاد أسواقهم يبيع اللبن.
١١١٠. يشتري بعض الحاجات.

١١١١. ذهب ذات يوم لأحد التجار. وعرض يبيع كل غنمه له. مقابل حصان واحد
١١١٢. سريع. واشترط أن يختبر سرعته أولا. وإلا أعاده.

١١١٣. هل التاجر بالصفقة فورا. فالأغنام قيمتها معا أكبر من ثمن أي من خيوله.
١١١٤. ولو عاد الحصان له. فسيكون قد انتفع باللبن والصوف. أكثر من أجره الحصان.
١١١٥. ولكن عدنان أعاد له الحصان بعد يوم. واستعاد غنمه. وذهب بهم لتاجر آخر.
١١١٦. يطلب أسرع خيوله.

١١١٧. ونظر التاجر الأول لحصانه. ليطمئن عليه. ففوجئ بأثر تراب الذهب على
١١١٨. حوافره. فتربص لليوم التالي. وذهب ليجد أن عدنان قد أعاد له حصانه. وأيضا
١١١٩. هي حوافره بعض التبر!

١١٢٠. وكرر عدنان هذا الأمر مع أغلب التجار. حتى أثار جنونهم! وأرادوا اكتشاف
١١٢١. مصدر هذا الذهب. الذي يعلق بحوافر خيولهم. وبعد أن بلغت بهم اللهفة
١١٢٢. أفصاها. جلس الشاطر مع بعض الندماء في جلسة خمر. حتى سكروا جميعا.
١١٢٣. فتصنع أنه مخمور مثلهم. وأخذ يحدثهم بفخر عن واد قريب. موجود خارج
١١٢٤. المدينة. وقال إنه حين يجري بحصان سريع في هذا الوادي. وهو يقول كلمات
١١٢٥. علمها له سيميائي عجوز. يتحول بعض ترابه لذهب. فيجمع منه ما يشاء.

١١٢٦. لم أخذ أحد الندماء معه إذ لم يصدق. وأردفه خلفه. وجرى بحصانه. وأشهده
١١٢٧. على ما وجده في الأرض من بريق الذهب.

وفي الصباح، التفت الناس حول الشاطر، يلحون، ويهددون، ويفرون، يريدونه ان
يكشف لهم عن الكلمات السحرية!

وأخيرا دفعوا له مبلغا ضخما جدا، ظنوا أنهم سيستعيدونه في شهر واحد.
فأخبرهم إن عليهم البدء فجر يوم الجمعة، لأنه يوم مبارك. وأن الذهب ان
يظهر إلا لو جرت الخيول بأقصى سرعة من الفجر، وحتى تعلق الشمس كند
السماء.

وترك القوم يعدون الهدية للذهب الموعود، وذهب هو لكثوم، الذي كان قد
نسى أمره، فألقى بالمال بين يديه، وقال:

"هذا ذهب الفاربيين، وإن أتيتم معي الآن، سقنا خيولهم وبضائعهم،
فأربحكم أكثر مما تفعلون في عام كامل."

وتبعوه مندهشين، وعندما علت الشمس لكبد السماء من يوم الجمعة، وأصبح
رجال الغاربة منهكين، وقد أضناهم الجري، والصراخ، وحر الشمس، انقض
عليهم عدنان برجاله، فقيدوهم بسهولة، واستولوا على خيولهم،
وملابسهم، وارتدتها العصابة. وقادهم عدنان للمدينة، واضعا على رأس
القافلة صناديق، أحدها مفتوح، ملاءه بالتراب، وغطى سطحه بمزيج من النحاس
الأصفر، يلمع كالذهب في شمس الظهيرة. ولما كان أهل المدينة إما
مقيدين في الوادي المهجور، أو منشغلين في صلاة الجمعة، فلم يتبه أحد
لوجوه العالدين، ولم ينظر الحرس إلا لبريق الذهب المزيف، ففتحو البوابات
للعصابة فورا، فدخلوا للمدينة بسهولة، وقيدوا الحراس المبهوتين، واندفعوا
للسوق الخاوي، فنهبوه عن آخره، وخرجوا بأمان، غانمين، قبل انتهاء صلاة
الجمعة!

ومن يومها، أصبح الشاطر عدنان زعيم اللصوص، وسيد الصعاليك، وملك
الشطار! لا ييز في الثغر الصغير، ولا يعلا عليه فيما حوله، فهو الرجل الذي
نهب مدينة الغاربة بأكملها!

* * *

(26)

حكاية غول الحف

بهاول عبد الشهيد ابن سمعان:

'هرغ الرجل من حكايته العجيبة، التي لو سمعتها من قبل ما وثقت لحظة في هذا الشاطر، ولكن الآن قد حم القضاء! ونظر لي الرجل العملاق وقال:

'لم تفعل هذا؟ لا تبغي المال مثل الشاطر عدنان ومثلنا. والقائد الأسود بطشه لا يقدر عليه أحد، ولست بند له، والأمرأء خونة غدارون، لا يوثق بكلمتهم، ولا نفع من معونتهم. إنك لهالك لا محالة، لو كنت غولا لفهمت أنك تبغي إثبات السجاعة، لكنك رجل عادي من أهل البلد، ممن يطلبون الستر والسلامة.'

ردت:

'رجل من أهل البلد، أبغي لها كلها الستر والسلامة، على حساب سلامتي. صدقني لو إنه لم يكن هناك وريثاً يرجى صموده معنا، لسلمت للأسود، راسانته، فرغم مساوئه، سيوحد كلمة البلاد بعد التمزق، أو على الأقل ما يبقى منها. بعد اقتطاع الفرنجة والأهبال لما يريدونه. لكن الوريث موجود، لذا، فلم لا نحاول؟ الكارثة هي أن لا أحدا يحاول إنقاذ البلد الذي نعيش فيه. كان أبي، وهو يتبع الوريث الكاذب، يقول لي "هذا بلد غارق في الظلمات، والكل يجار من هذا، والكل يتعذب. لذا حينما يأتي رجل، يقول إنه سيعيد الأمان،

فعلينا أن تتبعه، وإلا كانت شكواتنا بلا معنى، وسنشارك في إثم من ضيعوا البلاد قبلنا. هذا ما رسخ في ذهني من أبي، وهو ما أحاول اليوم إعادة بعثه."

مما الرجل شفتيه وقال:

"أكره الأسود والفرنجية، وكل هؤلاء الطفافة. أكره حياة السرقة، فلا أكره طريقا آخر للعيش، مع معرفتي في نفسي حماقة! أنعم الله علي بدمي، ضخم، لكني لا أملك إلا قلب صغير، ينكمش بالخوف دوما. خائف من أن يقتلني، أو يسرقني أحد، فانضم للقتلة والسارقين. خائف من الفقر والجوع فأهجم بضراوة على المال. دوما خائف من الحياة، ومن الموت، ومن كل شيء."

قلت له بحماس:

"إذا، فاتبعني! لم يظهر الفيلان الحمر إلا من بين الخائفين، الذين كرهوا خوفهم، وأرادوا أن يستعبدوه بدلا من أن يستعبدهم. انضم لي، وطلق حياة الخوف."

قال بحيرة:

"لكنك لست غولا؟"

قلت:

"ولا أريد أن أكون غولا. لكن أعداءنا يحتاجون لزي فيلان يرددهم. اتبعني على مثل نهج الفيلان الحمر. على نهج الفيلان الحمر الجدد، لنقف أمام هؤلاء، ونخبرهم أن ساعة القصاص قد حانت، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا."

قال بتردد:

"ولكن....."

عاجلته:

"باب التوبة مفتوح يا رجل، فاتهمز الفرصة، وتب عما سبق من أثمك، واكسب لنفسك مقعدا بين المجاهدين. اهزم خوفك، وتخلص من مقتك لنفسك." كانت حيرته شديدة، وقال وهو يبدو كأنما يجادل نفسه أكثر من مجادلتي. "واين نذهب إذا؟ أرض الأسود تمتد حولنا في كل اتجاه."

قلت:

"لنذهب للفاربية، التي أخبرتني عنها. لنلجأ لها حيننا، حتى تكل عنا العيون، ثم نرحل منها للزرقاء، ونركب البحر لطرابلس."

أكمل جداله لنفسه:

أكر الفاربة في قلب الصحراء. وأهلها لا يدخلون عليهم غريبا؟

قلت:

استمع لصوت قلبك الذي يئن ألما. واهجر أوزارك. لو أخلصت لقلبك.
فسبخلص الطريق لك. لو أخلصت له. فسيصدقك لسانك. وحينها يصدقك
لسانك. سيصدقك الناس. ويفتحون لك الأبواب.

بدت عليه الحيرة القاسية. وصمت كأنها يصارع نفسه صراعا مريرا. فاحترمت
سمته. لم أحاول أن أتدخل أكثر من هذا. حتى لو كان مصيري معلق بقراره.
لو فعلت. فسأكون حكمت عليه بشقاء وعنت. مازالت نفسي تراودني لتركه.
لو لم يتخذ هو قراره بنفسه. فلن أملك له من الأمر شيئا. ولو حثته أكثر من
هذا. فتبني بغير قناعة. لهلك وأهلكني معه.

ولكن الصمت انتهى بصوت أذان الفجر يعلو. أتيا عبر الليل الصافي من أم
الميون. لم يكن الفلاظ حراسي يصلون. ولكن صوت الأذان. الذي فاجئنا نزل
رطبا على قلبه. وشرح صدره. فقال:

أنتبعك على بركة الله. وحتى النهاية ياذن الله.

قلت له مبتسما:

إذا. فأعلك غولا أحمرًا جديدًا. ما اسمك؟

قال:

سأبذ حياتي القديمة باسم جديد. لا تناديني بغيره: غول الحق. فلن أزم إلا
جالب الحق.

قلت:

حسنا يا غول الحق كما تشاء. لكن أرجو ألا أثقل عليك بفك قيدي. قبل أن
يستيقظ الزبانية!

(27)

الرحلة للغاربة

مضينا شمالا، بحذاء النهر مسافة قصيرة، ثم توغلنا في الشرق، واختفينا وسط بعض الأجمة، فصلينا الصبح، وبقينا ننتظر. واطاعني في هذا رفيقي الجديد، دون جدال، رغم إن الحيرة كانت في عيني، ولكن الحيرة انطفت، عندما وجد الخمسة المطاردين لنا يتبعون آثارنا، ويحثون الخطى للشمال، يظنون أنهم يطاردوننا إلى الثغر. كنت أرجح أنهم سيظنون اني ساعود للبحث عن تيمور، أو العودة للقرب عبر الجسر، ولكني كمنت في مكاني، حتى اطمانت أنهم سبقونا بمسافة كبيرة، واكملت طريقي أمانا، لأن المسافة بيننا تزيد كل يوم، حيث نمشي ببطء وهم يهرعون مسرعين في مطاردة مقلوبة!

سرنا ثلاثة أيام بحذاء النهر، نقتات من سمكه، أو بعض ما نعثر عليه من ثمار، ثم توجهنا للشرق بين القرى الصغيرة، ننام في مساجدها، ونأكل من كرم فلاحها، ونساعد البعض في أعماله، مقابل الطعام والماوى

وصلنا أخيرا لأخر قرية من قرى الوادي، وأصبح علينا أن نتجه للغاربة من طريق غير مطروق، بعيد عن جنود الأسود، وهو ما يحتاج لزاد وراحلة، وهما ما يحتاجان للمال.

وهنا، كان حتما علينا أن نبقى لعدة طويلة في القرية، نجد ونعمل لكسب المال. وقد طالت بنا المدة إلى شهر بأكمله، شهر تعلمت فيه بعض أصول الزراعة.

التي ستفني لو عدت لأرضي، ولكن كلما مضى الوقت، ازداد قلقي من الاصل لطرابل، إلا بعد فوات الأوان.

على إن الأنباء تتناثر. والأخبار الغالية العزيزة تصبح سائفة في كل الأفواه
بمرور الوقت. فقد علمت، من مجالس السفر، أن هناك وفود أمراء عدة ذهبت
إلى طرابلس، وتقابلت في الطريق، فدار بينهم قتال شديد. ثم اشتبكوا مع
لصوص. وبعض بني الأسود والفرنجية، وبعد هذه الأهوال، لم يستطيعوا
الوصول للوريث. ولم يخبرهم أهل طرابلس عنه شيئا.

وعلمت أيضا أن هناك غولا أحمرانجا من الثغر الصغير، ويسعى لإعادة الوريث.
وهو ما أثار غضب القائد الأسود. المنشغل في حروب ضارية في الجنوب.
فأرسل مجموعة من رجاله. أمرهم ألا يفادروا طرابلس. إلا ومعهم رأس
الوريث. ولن تلك الفرقة ستخرج من العاصمة بعد أيام، وعلى رأسها شقيق
الأسود الأصفر. وهو فارس مشهور ببراعته وقوته، يسمى ميسون، ويلقبه
الناس بالداهم.

وهنا أدركت أن البقاء أكثر من هذا لا يجدي، فجمعت ما معنا من قروش
قليلة، ولم أستطع أن أشتري بها إلا حمرا عجوزا، ليس حتما ما يعتمد عليه في
عبور الصحراء؛ لكنه على الأقل سيحمل الثقل من المتاع والماء.

ومضينا فورا نحو الفاربية، في طريق شاق؛ لكننا كنا مطمئنين، لأن خصومنا
قد يئسوا حتما من مطاردتنا، ولعلمهم يظنون أننا وصلنا لطرابلس الآن.

مضينا في الطريق، وقد أنهكنا، لكن في غير الظما والحر لم يقابلنا ما يستحق
الذكر. مضينا تحت الشمس القاتلة، واضعين متاعنا وطعامنا القليل على ظهر
الحمار العليل، متبعين نجما يسميه أهل المنطقة بالفارب. من يمضي على
هداه وقت الغروب، يصل للفاربية، ومنه جاء اسمها.

لم أهتم كثيرا بالتعب. فقد عرفت أياما أسوأ، لكن ما شعرت به من أمان، رغم
إنني في قلب أراضي الأسود، كما إنني أعتبر غول الحق إلى جوارى علامة من
العلامات، التي ترشدني بها السماء إلى التثبيت بطريقي. وأن أعلم أن الله
معي.

كنت في قمة التفاؤل، والمصاعب التي تبدو مستحيلة هانت في ناظري، وقلت
لنفسني "ستفرج كما فرجت غيرها من الأبواب المفلقة! لله در الشاعر:

ضاققت فلما استحكمت حلقاتها - فرجت وكنت أظنها لا تفرج

حتما النصر لي مقدر."

ووصلنا أخيرا للفارسية.

كانت تشبه قلعة كبيرة. تظنني بمدينة ساوة. التي بنيت جنوب الواحات. لحماية تجارتها. لكن أسوارها الحصينة أضخم بكثير. وحولها بضع خيام متناثرة. وجدنا بها التجار، والمسافرين، وأبناء السبيل. يتعاملون مع أهل المدينة، لا يسمحون لهم بدخولها.

وعلمت أنهم زادوا الحيطة والحراسة. بعد أن أعلنوا رفضهم الانضواء تحت لواء القائد الأسود. فهم يخشون أن يهاجمهم بجيوشه. ولكن هذه العداوة، التي تفلق في وجهي الأبواب، هي ما اعتمد عليه. لكي يعينونني بالقوت، والدليل، والراحلة للزرقاء. علي اليوم أن أكون شحاذا ناجحا. لانتزع منهم المعونة!

توجهنا للحرس وناديت:

"السلام عليكم يا أهل الفارسية."

رد علينا أحدهم:

"وعليكم السلام. ماذا تبغيان؟"

قلت:

"نحن رسولان من سادة الفيلان الحمر السبعة، نريد مقابلة زعيم المدينة."

بدا الاضطراب والصدمة على وجوه الحرس، وساد بينهم هرج ومرج، ولم يفعلوا شيئا سوى دخول البوابة، وإغلاقها خلفهم!

بقيت منتظرا قليلا، ثم عدنا على أعقابنا، وفي النهار التالي ذهبت لهم ثانية. وهنا خرج لي أحد أبناء حاكم المدينة.

كان شابا هادئا صارما، بادرني بالسؤال:

"من أنتما؟"

قلت:

"نحن من الفيلان الحمر."

قال:

"الفيضان هلكوا."

قلت:

"لقد عادوا."

قال:

"بل أنتما كاذبان!"

تذكرت كلمة قالها شيخ بني الأسود. عندما شكك في أمري أحد الأمراء.
فكررتها له:

"أي أحق سيزعم أنه من الفيضان، إلا إن كان من الفيضان؟"

بهت للحظة، لكنه أثبت سرعة بديهة، ورد:

"عدو للفيضان يخدع أهل الفاربية!"

قلت:

"لا نبغي بكم شرا. ونحن من الفيضان حقا، وأخبار عودتنا سمع بها كل أهل البلاد."

قال الفتى بصوت خافت:

"أن تسمع ليس كما ت..... لكن ماذا يريد من الفيضان؟"

قلت:

"لا نريد بكم خيرا أو شرا! إن هو إلا أمر بيننا وبين القائد الأسود."

قال:

"أحالفتموه؟"

قلت:

"كلا كلا! بل نعاديه، لأنه عادانا وحاول قتل زعيمنا. إنما نريد الذهاب إلى طرابلس، لاستعادة الوريث كي يقود الحرب ضده."

قال مندهشا:

"أي وريث؟"

وهكذا دار بيننا حوار طويل. ذكرت له فيه ما أعرفه عن الوريث الحقيقي. ومساندة شيخ شيوخ بني الأسود لعودته. واجتماع أمراء العرب على تأييده. ثم ساد بيننا صمت طويل. لم يكسره الفتى. فودعته. على أن أعود غدا. وعدت لإحدى الخيام المبسوطة صدقة لعابري السبيل حيث نيت.

ولكن الأمر طال لبضعة أيام. أتردد على بوابتهم. فلا يدخلونني. وإنما يكتفي هذا الشاب بمحادثتي. وبدأ الخوف يدب في قلبي. أن يصل نبأ لابن الأسود. أو الشاطر عدنان. فيبعث من يفتالنا. ولكن غول الحق كان يطمئني. بأنه ليس للشاطر هنا عيون. لأن أهل الغاربة شديدي الحذر. لا حياة للص بينهم. وهو لن يطلب قتلنا. لأن ما يهمه ليس إلا المال.

لكني لم أطمئن. وأخذت أغير مكان المبيت كل ليلة. وخلفت درع الفيلان. وأبقيت السلاح في يدي دوما.

وصدق حدسي. إذ كنا سالرين نحو البوابة - كهادتنا - طالبين المعونة من أهل المدينة. فإذا برجل يقترب منا وهو ينظر نحوي مبتسما. فنظرت له رادا الابتسامة. أحاول أن أفهم مفرها. خشية أن يكون قد علق في ثيابي أو وجهي شيء مضحك! وبينما أنا مرتبك. إذا برفيقي غول الحق. يخرج سيفه بفتنة ويهوي به على رجلي خلفنا. فأطاح رأسه!

والتفت فرعا. فوجدت الرجل المبتسم يمد يده لأسفل عباةته. فعالجته بطعنة من رمحي. وإذا بنار محرقة تشتعل في ذراعي الأيسر. كأنما أنا المطعون. وليس هو! ولم يطل عجبي. إذ وجدت سهم ثان يسقط بين قدمي. ونظرت. فوجدت ملثما مختبئا في الرمال. يعد سهمها ثالث.

لكني لم أستطع الاتجاه نحوه لمقاتلته. إذ خرج لنا ثلاثة رجال شاهرين السيوف. بعد أن أيقنوا فشل تسلل زميلهم. فأسقط غول الحق أحدهم فورا. لكن الرامي أصابه بسهمه في ظهره. فقفزت مبتعدا عن الرجلين قدر استطاعتي. وصوبت رمحي وقذفت الرامي. بأسرع ما أستطيع. واطنني أصبته. ثم أخرجت سيفي. الذي لا أجيد استخدامه. موقنا بالهلاك. خاصة مع جرح ذراعي. لكن على الأقل لامت مرفوع الرأس. مثل غول الحق. الذي نهض والدم يغمره. متحاملا على نفسه يفي القتال.

لكن سهم نزل علينا، تلاه ثان. هذه المرة في صدور خصومنا. فأسقطهم مجندين. ونظرت باحثاً عن المنقذ. فوجدته هذا الشاب، ابن حاكم المدينة. بعثني السور بقوسه وسهامه.

نظرت لفظ الحق، لأرى جرحه، لكنه قال:

"أسرع وطارد رامي السهام، قبل أن يأتينا بالمزيد من الأعوان."

نظرت نحو الرامي، فوجدت أن رمحي لم يصبه، لكنه انفرس -لحسن الحظ- في كنانة أسهمه، فأبعدها عن يده، فجريت بأقصى ما أستطيع، أطارده. حتى رأيته أمامي، قد أبطأ العدو، فشهرت رمحي، وأطلقته بإتقان هذه المرة، ليصيب قدمه، ويسقطه. وذهبت نحوه أريد تهديده لمعرفة من وراءه.

لكني وجدت نفسي في مواجهة من هم أمامنا! ثلاثة آخرين، خرجوا مسرعين من خيمة صغيرة، يحملون سيوفا وفلوسا، وأدركت أن الرمح لن ينفعني بيد مصابة، والسيف لن ينجيني ببراعة مفقودة، فخلعت قناع الفول الشجاع، ووليت الأدبار أبغي الفرار.

لكني لم أبتعد كثيراً، إذ أتى بعض حراس الفاربية، فهرب الرجال حاملين جريحهم، بعد أن قذفوا إلي رمحي.

نظرت للحرس، وقد أضناني التعب والألم، وملأني الهم، وظننت أن أمري انكشف، بفراري الذي لا يصح من الفيضان الحمر.

لكن الحرس وهم يرافقونني، أخذوا يتحدثون عن شجاعتني العظيمة، وكيف إننا كنا اثنين هزمتنا خمسة، وكنت واحداً وواجهت أربعة! لم ينتبهوا، لأنني كنت أولي الأدبار، وانقلب الأمر لصالحني، فلم يعد أحد يشكك في كوني غولاً!

وأتاني هذا الشاب، ابن حاكم المدينة، فرحب بي، وأخبرني إن اسمه جابر، وأخذني لواحدة من الخيام، في مكان منعزل، وأشرف بنفسه على علاج جروحي، أنا وغول الحق.

وأصبح بعدها ودوداً معي، يحدثني دون تكلف، أخبرني إنهم يؤيدونني في هدفي، ولكنهم يكرهون إدخال المدينة، وإعلان التأييد لي في حرب الأسود، لأنهم بالطبع لا يتعجلون حربه! فهم إن كانوا لا يقبلون بسلطانته، إلا إنهم يفضلون البقاء في الحياض، بعيداً عن الموت والدمار.

طلبت منه معونة، وطعام، ودليل يقودنا للزرقاء، فأجابني لكل هذا من حر ماله، على أن أقسم ألا أخبر أحدا بمن منحني هذه المساعدة. ولا أعلن لأحد أن الغاربة معي ضد الأسود. فأقسمت له.

وأخبرني إنه عرفني منذ راني أول مرة. لأن رجلا من ساوة أخبرهم إنه متجه للزرقاء، وأنه كان رفيقا لزعيم الفيضان الحمر!

لقد مر تيمور من هنا، ومازال مصرا على إكمال الطريق وحده، يبدو أن هذا الفتى يخفي من الشجاعة والصلابة. ما لم أتصوره."

* * *

(28)

نبأ ما أطاب نيمور بعد خروجه من الثغر الصغير

قال تيمور الساواتي:

"خرجت من ساوة مكرها، في رحلة ظهر شؤمها من بدايتها! لو كان الأمر بيدي، لعدت لداري منذ وقت طويل، ولكنه الواجب والعهد المعلق في رقبتني، أنا وآل العلاف، يفل يدي.

أول الأمر، كان إكراه على خروجي، رغما عن انف أبي، الذي أرهبه القبيل زعيم الفيلان الحمر، الذي أتانا بنفسه يطلب معونتنا، للوصول إلى الوريث. وبعد أن أثبت هذا القبيل جبروته وعناده، أثبت حماقته، وسار بنا في الليل البهيم وسط الصحراء، رغم إلحاحي عليه. وثبت أنني على حق، فهاجمتنا الذئاب، وأضاعت أغلب متاعنا، ولولا مطقتي، وحسن تديري أن قذفت لها بعض اللحم، الذي كنا نحمله معنا لأهلكتنا. ثم واصل في مكابرة طريقه وسط الظلام بعد هذا!

وبعدها تشاجر مع الأعراب بحماقة، فطردونا من واحتهم، التي رغبتنا في شراء طعام منها، وأنقذت حياته بأعجوبة، ثم أصبح علي وحدي عناء الصيد لإطعامه!

وكان الشؤم لا يفارقنا، وأناى له أن يفارقنا والحماقة ترافقنا! أهناك عاقل يشق طريقه وسط أحراش مقفرة، ومستقعات مظلمة، بدلا من الطريق المطروق

الأمن الأقصر والأسرع. زعما بأن هذا خوفا من رجال الأسود؟ أتى لرجال الأسود أن يعرفوا بخبرنا؟ للتكلم. وندس بين الناس. فلن يزعجتنا أحد! لكنه أصر على طريقته. وسط الفئران التي تبخ السم في عقرها. والبعوض المسموم. الذي يلدغ بالحمى. والثعابين التي كانت تحت كل خطوة نخطوها!

ووجد أن الأمور ليست طيبة بما يكفي. فاراد زيادة الطين بلة. وحين أتينا لأرض أحد الأولياء الصالحين، لجا لحيل خبيثة، وخدع الدراويش، ليتركونا نعبر، بعد أن أوهمهم أن الفولي غاضب عليهم.

ولكن العقوبة أتت، فألقونا في سجن الثغر الصغير، عاجزين. ولولا أن قيض الله لنا هذا الرجل الكريم، المدعو الشاطر عدنان، لما نجونا من الموت.

وظننت أخيرا أن الطريق تيسر. بعد تركنا للأراضي المهجورة، وسيرنا في الدروب المطروقة، ولكن القليل زاد في استخفافه بي. فبعد أن حاولت إخراجنا من المدينة بقرض من أحد معارفي، طلب من الفول الأحمر مضاعفة القرض، لمكافأة عدنان، وشراء تجهيزات السفر، كان الاستدانة أمر بسيط، وكانني أملك في ساوة كنوزا، تسدد ما علي بسهولة! وفوق هذا، إنه سألتني أن أسبقه، وسيلحق بنا في الطريق، فبقيت مع صاحبي أدهم الساواتي نتظره مدة طويلة، لكنه غدر بنا، ورحل وحده. وزاد من نقمتي عليه، أن نوقنا هربت بحملها، بعد أن سأمت من انتظار الفيلان! ولعله غضب سيدنا الفولي، الذي دنس هذا الفول مقامه، قد أصابني فاستيقظنا ذات صباح، لنجد إننا بلا راحة، أو زاد، أو ماء!

بدا الهلاك وشيكا، ولكن من رحمة الله بنا أن أدهم كان يحتفظ بجواره دوما بقرية ماء، لأنه كثير العطش. فأنقذتنا، حتى حملتنا قافلة ذاهبة لمدينة تدعى الغاربة، فاشترى منهم أدهم طعاما لنا، وزادا، وأكمل أيديه البيضاء علي بشراء بغل قوي، وحملني معه حتى الطريق إلى الزرقاء، وتركني أرافق إحدى القوافل الذاهبة لهنالك.

كنت وقتها قد استوثقت من أن البقاء مع الفول الأحمر لن يصيني إلا بالشؤم، والعت، وكثرة الأعداء. لذا، قررت أن أفي بعهد العائلة وحدي، وأحاول أن أجد مركبا في الزرقاء، تحملي إلى طرابلس، أو الفيحاء، أو أي ميناء قريب منها.

لم أذهب للزرقاء من قبل. كثير من أهل ساوة يتحدثون عن أيام مجدها، وزهوتها قبل السقوط في يد القراصنة. كانت أحاديثهم تشوقني، وتجعلني

جروب " ربيع الكتب " .

أتمنى الوصول لها، لرؤية تلك العجيبة، التي حوت بهاء البحار، وشموخ الجبال، وهيبة الصحراء. أعظم ميناء على البحر الشرقي، بين أحضان جبال شامخة، تحفها الصحراء بسياج واق، جعلها حصينة منيعة، لا يستطيع أحد اقتحامها عنوة، إلا لو أتاها من البحر بأسطول عظيم. لكنني اليوم، إذ قطعت المكان، ووصلتها، علمت أنه من المحال قطع الزمان لرؤيتها! فزرقاء الماضي لا أثر لها في تلك الأسوار المهدمة قبيحة المنظر، والدماء التي لطخت كل أبوابها من أثر القتال، الذي لا ينقطع في طرقاتها. هنا في زرقاء القراصنة، لا يتفاهم الناس، ولا يتشاجرون إلا بالسلاح، ولا يربحون إلا بقتل الخصوم! وتترك الجثث لا تدفن، إلا لو طفت رائحتها على النفوس، فتدفن بعد أن تتعفن أمام العيون.

تجولت بين البيوت، التي سودتها آثار المحارق، والقصور المنيفة التي أصبحت خراب. ومضيت عابرا الأحياء، التي انفردت كل عصابة من القراصنة بالسيطرة عليها، تتقاتل فيما بينها، ككشأن أغلب المدن الكبيرة في بلادنا، لا فرق بين قراصنة صعاليك، وبين أمراء ممالكك!

لكن ما يميزهم هنا عن غيرهم من حكام المدن هو السوق! سوق واحدة تجمع الكل، لأن المال هنا يتحدث! الكلمة في السوق واحدة، والحكم في شجارات السوق واحد، للأمير الأبيض الثاني، حاكمهم الإفرنجي، الذي قتل أخوه أمام ساوة منذ شهور قليلة.

كان التراصنة يدركون خطر السوق على حياتهم، فلو خرب تماما، فلن يستطيعوا بيع غنائمهم بسهولة، بل سيضطرون إلى تسريبها في المدن بأبخس الأسعار، ويا سبحان الله! هم في حرصهم على مصلحة التجار وأمان التجارة قد فاقوا الحمقى من الأمراء، فوجدت في زرقاء القراصنة المحترقة حياة أفضل، وأكثر ازدهارا من بعض المدن، التي كانت يوما عظيمة حتى أفقرها حكامها!

لكنها لفة المال، التي لا يفهم القراصنة سواها، فيجيدون الحفاظ عليها!

لا تدخل القوافل الزرقاء مباشرة، فللصوصها لصوص آخرون متربصون! حول المدينة - كما أخبروني - جماعات من المطرودين والموتورين، الذين يحقدون على من بقوا داخلها، ولذا تتوقف القافلة على مسيرة يوم من الزرقاء، وتتشتت، ليدخل كل مسافر وحده لقلب المدينة. أما يوم خروج

القافلة، فهو يوم عظيم، تجتمع فيه جيوش، وتدور حروب، ترافقها حتى تخرج من قبضة جبال الزرقاء القاسية.

وأخبروني إن جبال الزرقاء غادرة جدا، لها أساطير وحكايات تشيب الولدان! ولذا خشيت، إن تسللت وسطها، من وحوشها، ودلفت بشجاعة السائس البائس، الذي لا يملك ما يسرق منه، للمدينة من أبوابها، وسبحان من نجاني من قطاع الطريق!

الآن أنا في قلب المدينة المخيفة، التي لا يأمن أحد على نفسه فيها، اضطرت لأن أبيت أول ليلة في السوق، لأنهم يزعمون أنه أكثر الأماكن أمنا في المدينة، لكني لا أستطيع المبيت فيه كل يوم، وإلا قبض علي جنود الأمير الأبيض، لا أملك إلا ثلاثة دنائير فحسب، لا تكفي للوصول لطرابلس، ولا لعودتي لساوة، ولا تنفعي في البقاء وشراء قوتي من تلك المدينة الخبيثة.

لكني من أهل ساوة، وحتما، كباقي أهلها، أعرف طريق السوق! أخذت أبيع جهدي في الأحمال، وأدلل على البضائع، وأساوم هذا وذاك، وأفاوض هنا وهناك، وبعد أسبوع واحد، التقطني أحد تجار الفرنجة، يسمى جبرائيل، لأعمل على بضالعه فترة مكوثه في المدينة، وقدم لي المأوى، والمأكل، والأجرة لأسابيع تالية.

وأخذت، في أوقات فراغين أتسلل للميناء، أتسم منه الأخبار، كان أخبث مكان على ظهر الأرض هو ميناء الزرقاء! أخلاط من أغلظ القراصنة، وأحقر اللصوص يؤفونهم من كل العالم! ولكني شققت طريقي فيه بالحذر والفتنة، وسمعت أخبار الأمراء، الذين رحلوا لطرابلس، وأنباء حروب الأسود، وتكاسل الأهبال عن نصرته، وأدركت أن وقت الرحيل قد أزف.

أخذت أدبر أمري كيف أرحل؟ وأثناء مكوثي، عند إحدى المقاهي، أتاني الجواب.

وجدت رجلا يتفاوض همسا مع قرصان، ليحمله معه للفيحاء، على أن يخدم على ظهر السفينة بأجرة النقل، فأسرعت أنضم لهما، وأقدم نفس العرض، ودفعت ما معي من مال عربونا، وفزت بصفقة الرحيل عن البلاد.

واخذت أجهز نفسي سرا. فكما الحديث الشريف (استعينوا على قضاء حوائجكم بالكتمان) كتبت أمري حتى عن التاجر الإفرنجي. ولكني تركت له فرطاسا، وضحت فيه بإخلاص ما كان من تجارته، وأمر ذهابي ومفادرتة.

وهذا الصباح، كان أول يوم في حياتي أركب فيه البحر.

لم تكن معرفتي بالبحر جميلة. أذكر حكاية أمي لي عن صبية البحر المليحة. تلك التي تفتن الرجال، الذين يكون هذا أول سفر لهم في بحرها، ثم تفدر بهم، وتفرقهم، لكي يقات بلحمهم أبأوها من الأسماك أكلة اللحم. كما كان أبي يحكي لي عما يواجهه الحجاج من أهوال في البحر، مثل العواصف، التي يرتفع الموج فيها كالجبال، أو الثعابين العملاقة، التي تلتهم السفن، أو الأسماك المفترسة، التي تقفز لتخطف فريستها من فوق سطح السفن.

لذا كان للأمر رهبة وتهيب؛ لكن بقالي في المدينة الخيثة، حيث النهب غنيمة، والقتل شريعة، أمر لا أطيقه.

ذهبت للميناء منذ الصباح الباكر، ولم أركب السفينة إلا مع آخر ضوء غارب، لأعلو البحر الغدار، وأذوق بنفسي المرار!

ما إن غابت الزرقاء عن العيون، حتى أمسك بنا البحارة، وقيدونا، وأعلنونا أننا وقعنا في شر أعمالنا، وسيتم بيعنا عبيدا في أسواق الفرنجة.

وجلست في الذل مكروبا، لا أملك إلا الدعاء والاستغاثة بالله، كان الفلاظ يوقظ منا من الفجر، ننظف قذارتهم، تحت سلطان السياط، ونحبس بعدها في قعر السفينة، دون طعام يذكر، وهم يقولون بسخرية:

"ستصلون قريبا للفيحاء، وحينها تعلمون أننا رحماء بكم، بعد أن تتذوقوا أفاعيل نخاسي الفرنجة!"

ولكن القدر تدخل، فهاجمتنا سفينة قرصان جبار، أسقط السفينة وبضائعها في يده، ونهب كل من عليها، ثم أتى بالبحارة، فقطع رقابهم، وبالسفينة فأحرقها، ونظر للبضائع، فأبقى ما يشتهي، وألقى بالبقية في الماء. وأخيرا التفت للعبيد.

وقف ينظر إلينا، وهو يفكر بصوت مسموع:

"ترى يستحقون مشقة نقلهم للسوق لبيعهم، أم أقتلهم وأستريح؟"

طبعاً لم يجرؤ أحداً على القول بأنه حر مخطوف. لئلا يلحق بالخاطف ذي العنق المقصوف.

كان كبير القراصنة رجلاً قصيراً جداً، تزين سحنته الندوب. وله شفة مشقوقة يرتدي سروالاً فضفاضاً، أكبر منه بكثير. يزعمون أنه يخفي أسفله أكوام من الخناجر والسيوف. وكانت براعته في استخدام السلاح مذهلة. بارز بحارة السفينة بسيفه، فأوقعهم. ولكن خناجره كانت أوقع بهم. أثناء المعركة، رأيته يقذف خناجره، واحداً تلو الآخر. ليسقط بها الصناديد كالواح من حديد!

وجلسنا تحت رحمة أبي شفة (وهذا لقبه) مرتجفين. كان سريع الغضب. لا يطيق مراجعته في أي أمر. وعجرفته عظيمة. والحقد في قلبه لا يحاول دونه فقد جمعنا فجأة في اليوم التالي، لأنه استيقظ ومزاجه غير رائق. فاتفق منا كل طويل ووسيم، فذبحه بيده! ثم أبقى بقيتنا، ليعهم في الزرقاء!

ووجدت أنني أعود لحيث بدأت، حتى إنني فكرت في العودة إلى ساوة، وكفاني ما أصابني من حسرة وندامة. ولكن أين المفر من الأسر؟

وبعد يومين في البحر الفادر، عدنا للمدينة الملعونة، وقادونا كالبهائم للسوق. وهنا وجدني التاجر الإفرنجي، جبرائيل، الذي كنت أعمل عنده!

أسرع نحو ي ينظر، وبشأن ي يفكر. ثم صرخ في الجموع أن اغيثوه. فهذه بضائع مسروقة، ومنه منهوبة. وهذا القرصان قد خالف العهد، ونقض الذمة، وسرق تاجراً حاملاً لصك الأمان.

دهشت حيناً، حتى فهمت أن بعض تجار الفرنجة يحصلون على ما يسمى بصك الأمان من الأمير الأبيض، مقابل أموال، وبعد وساطات. لكن من يحمل هذا الصك، لا يقترب منه أي من قراصنة الزرقاء، سواء في المدينة، أو في البحر. ومن يخالف هذا الصك، ينبذ من المدينة، ولا يسمح له أن يبيع فيها الفئيمة.

وجادله القرصان بغضب. لأن السفينة التي نهبها ليست لأحد التجار، وإنما لصياد ينقل تجارة دون إذن، أو دفع إتاوة. لكنه بعد أن أحرق السفينة، وقتل البحارة، لم يبق في يده دليل يدحض بينة التاجر.

وبينة التاجر قوية! مال يرشي به من شاء من اليهود، وأحلاف مع أمراء الفرنجة، وغيرهم من القراصنة، ينصرونه ليضيقوا الخناق على خصمه!

وبالفعل تجمع عدد من الرجال، يميلون على جبرائيل، يفاوضونه همسا في ثمن
بصرتة. ودارت العيون حولنا، لثرى عشرات البلطجية يتجمعون، طمعا في أن
رئسب القتال، ليحصلوا على أجر عن كل رأس يقطعونه.

وهنا ذابت عجرفة أبي شفة القصير، وطلب الحكم والتقدير من أمير المدينة،
لأن هذا خلاف سوق، وخلافات السوق لا تحل بالقتال، وإنما عند الأمير.

وهنا أتوا بنا وبالْبضائع للأمير. وهمس التاجر قليلا في أذنه، فحكم بالبضائع
لأبي شفة، والعبيد لجبرائيل، على أن يدفع لأبي شفة مقدار الإتاوة المفروضة
على سفن البضائع، فرضى الاثنان بالحكم، الذي بدا للقرصان سخيا معه، فلم
بجادل!

وتدافعنا على جبرائيل نشكره، ويفتدي من يستطيع نفسه بالمال، لا نرغب إلا
في الفرار من تلك المدينة الملعونة.

أطلقهم التاجر بالفدية إلا أنا. أبقاني جانبا، ثم اخذني للأمير.
تكلم الأمير:

"هذا التاجر يزعم أنك رسول من رسل القائد الأسود؟"

صمت ولم أجب، فتكلم جبرائيل نيابة علي:

"خدمني بضعة أسابيع يا مولاي، زاعما إنه أت من ساوة في الغرب، من حيث
أتى أولئك الأمراء. وما سأل عن شيء، إلا عن أبناء الأمراء، هو جاسوس للقائد
الأسود، يتسمع الأخبار حتما."

نظر له الأمير الأبيض برود، ثم أخرج كيس دنائير، فنفضه له، وأشار له أن
يتركنا منفردين.

ما أن خرج جبرائيل، حتى قال الأمير:

"أتعلم أن بيني وبين سيدك ثارا؟"

أسرعت أقول:

"مولاي الأمير الأبيض، لست بخادم للحقير، ولا جاسوس للطاغية. إنني ذاهب
إلى طرابلس، لإنقاذ قريبي من شره، فأنا من أهل ساوة، وللواريخ علينا ذمة
وأمانة، ووجبت علينا حمايته من القتل غدرا وغيلة."

نظر لي بدهشة، وقال:

"أنت رفيق الفول الأحمر، الذي يتحدثون عنه هنا؟ ما شأن ذلك الرجل؟"

رددت:

"مالي وماله؟ هو رجل أحمق مفرور، لكنه واسع الحيلة، شديد الجراءة والبطش. على أنني انفصلت عنه عند الثغر الصغير، وأكملت طريقي وحدي." تكلم الأمير بصوت هامس:

"يقال إنه حاول إلقاء أخي من قتلة الأسود؟"

رددت بما علمت:

"أخبرني إنه التقى بشقيقك، وكان بينهما شيء من وفاق، ولكن شقيقك أصر على السير في طريقه وحده، معتزما معاهدة الأسود، لولا أن الأخير غدر به، كما سيفدر بكل حلفائه."

تغير وجه الأمير في سرعة مذهلة، وقال بصرامة:

"حسنا يا ابن ساوة، القائد الأسود شر لا بد منه، ولا أستطيع مناقبته، وإرسالك إلى طرابلس. ولكن قلبي لا يقوى على إرسالك له، فمازلت ناقما لأخي. على أي حال، أنا أبعد نظرا من هذا الفول، الذي بعث حيا بعد طول موات، وسأختار إبقاءك في سجنني، حتى نرى من أمر الأمور، واحتدام الخطوب، وكيف تسير بنا المقادير في هذا الهم الخطير."

واقفادوني إلى قعر مظلمة، أقيت فيها، وسط خليط من أرجاس ومظالم، لا أدري من شأنه شيئا، ولا أعلم لنهاية الليل فجرا."

(29)

الزرقاء

يقول الفول الأحمر، عبد الشهيد ابن سمعان:

"بقينا على أطراف الفاربية، يطبنا جابر، متكتما امرنا، وأشاع بين الناس نبأ رحيلنا. كان فتى مخلصا، متحمسا، تهم نفسه بالثورة، ويخنفه الضيق والحزن على أحوال تلك المملكة، التي كانت يوما عظيمة. ذكرني بشقيقي الأكبر، الذي قتله والي الزرقاء، ليتخلص من تحريضه للمظلومين على الظالمين.

أحببت جابر هذا كثيرا، وأظنني لاقيت هوى في نفسه. كان يأتينا كل ليلة، يتسمع مني ما أعرفه من أخبار البلاد، وحال ما أصاب الشمال والغرب من بلاء. لكنه أثار ضيقي، بالحاحه في السؤال عن أمر الفيلان الأحمر، فكان إذا ما بدأ الحديث عنهم لم يتنه، ولو حاولت بتره، ويبقى راسخا لا يمضي، ولو حاولت صرفه!

زعمت له إننا غيلان حمر جدد، لسنا من المولودين، أو غيرهم من فرق الفيلان القديمة، وإنما نحن بعث جديد. نبذنا العاضي بذنوبه، وتسمينا بالجدد. وقد غيرنا من بعض القوانين الظالمة في كتاب الشجاعة، الذي كان الفتى مفتونا به، حتى إنه نسخه بالكامل في ليلة واحدة.

وكان نسخه لعنة علي! فقد كان يناقشني في الكثير من القوانين، التي لا أعياها. فأريح رأسي، وأقول إننا استبدلناها بكذا وكذا.

فمثلا أتاني يقول:

"أترى حقا كما القانون الثامن أن الشجاعة تسمو فوق كل شيء؟"

جروب "ربيع الكتب"

"القانون الجديد نلزم جانب الحق مهما كان."

والحادي والعشرين الجديد:

"لا ضعيف بين الفيلان."

والثالث عشر:

"سيفنا لا يُخفّض حتى يُخفّض الظالم"

وغيرها من التغييرات، التي لم أحتفظ بها في ذاكرتي، لكنه سارع بنقشها في أوراقه! ثم أتاني ذات يوم بسؤال مزعج:

"كيف يصبح المرء غولا أحمر؟"

أخذت أشحذ ذهني، وأجيب ببعض الأكاذيب، التي خدعت بها تيمور ابن زهير الساواتي. مضيفا القانون الطريف بأمر البحث عن الأخلاق النقية عند الحيوانات، حتى أزيح همه عني، فلا يفاجئني بطلب الانضمام لهم!

وقد تحمس جابر لتلك الخزعبلات، لا ألقى في ناره بالجديد منها، إلا زاد في إزعاجي طلبا للمزيد. ولذا، فما أن اشتد ساعدي، عزممت بكل ارتياح على الرحيل، وتوجهت مع غول الحق إلى الزرقاء.

سرنا مع دليل، أوصلنا لبداية الطريق، ثم أكملنا وحدنا، مهتدين بالنجوم تحت ستر الليل الآمن، ومضيئا حتى وصلنا للزرقاء.

الزرقاء، تلك المدينة العتيقة، التي شهدت طفولتي، ومراعي الصبا. واه يا زرقاء! كم اشتقت إليك، وكم أهابك يا من خضبتك الدماء.

مدينة غادرة، متقلبة كالبحر الذي نبت منه، لا أمان لحاكم فيك، ولا مستقر لساكن منك. كم ابتلعت قبورك من أبرياء، وكم لفظ بحرك من ضحايا، وكم جذبت أسواقك من مفتونين، وكم أوت جبالك من أشقياء!

هلكت جيوش تطمع في غزوك، وأخرى تدافع عنك، وبين هذين، سالت دماء ابنائك أنهارا بريئة، لا تصب إلا في بحرك العالج.

لكني لا أنسى كرمك الفالض، وخيراتك المنعمة حينما تحنين، كما حنوت على
أبي اللاحق، وأوليتي، وأهنتي من غدر الأهل، وجور الحكام. لكنك أخذت الثمن
بقطف ثمرة قلبه البكر دون إنذار، قبل أن تفرقي كلك في بحور الفجار.

أه يا زرقاء. ها أنا أعود لك. على غير انتظار، كما خرجت منك بغير توقع. وشتان
بين اليوم والأمس. خرجت فاراً، تطاردني الأهوال، وأجاهد لكي الحق بخطي
والدي المسرعة. في ثاني هروب له، ولم يكن الأخير. لقد هربنا حتى سأمنا
الهرب.

ورغم فزعه، أذكر أنه لم يقاوم الالتفات خلفنا، والنظر إليك نظرة، ظنتها
الأخيرة، وأنت تتوهجين بنار، وقودها القصور والأبرياء.

لحنا أتى والدي فلاحاً، فأصبح صياد سمك. وهنا عرف أمي، وتزوجها، وذاق
حلاوة الأبناء والسعادة. ومن هنا خرجنا فزعين، لا نجد أماناً إلا في الجبال
المخيفة، التي تربينا على حكاياتها المفزعة عن جن وشياطين، وعشنا على
صيد البر نقتات ونبيع، حتى هجرنا المكان كله، وابتعدت عنا المدينة الحبيبة،
وهي تحتضر في قبضة حكامها الجدد.

شتان بين الأمس واليوم. خرجت بالأمس من أسوار بيضاء جميلة، مزينة برسوم
زهور وأسماء، واليوم أعود لها شاباً فتياً، يزعم إنه زعيم مهاب، يطارد
الأخطار عبر حطام مهدم أسود.

دخلت مع غول الحق للمدينة، وتجولت في طرق أحفظها رغم يد الدمار التي
بدلتها. هذا كان قصر شهبندر تجار الأقمشة، وهو اليوم خرابة تمتلئ بالتنين
والمخلفات. وتلك كانت حديقة اللعب فيها مع أطفال المدينة، ونمرح حول
نافوراتها في قيظ الصيف، تحولت لمقبرة مقدسة بالآف القتلى.

وذاك كان المسجد العامر، منارة العلم والفقہ والإيمان، أصبح مهجوراً
منبوذاً، يأوي البوم نهاراً، والمشردين ليلاً.

وبه كان مبيتنا.

بت باقي الليل مع غول الحق، أجاهد دموعي على ما آلت له أحوال المدينة، ولما
استيقظنا - إن كان بعد الأرق يقظة - أردت معرفة ما أصاب أهلها، فتجولنا.

كان أهل الزرقاء، الودودون البشوشون المهذبون. قد انقضوا، لم يبق من وجوههم الجميلة شيء، وحل محلها تلك السحن البغيضة القاسية. لم أجد ممن عرفتهم من السكان أحدا. لم يعد للمدينة التي عرفتها أثرا.

اه يا زرقاء، كم تبدلت يا مدينة التجار والبحارة!

على إنني في النهار التالي، أدركت أن بعض سنن المدينة القديمة مازالت حية. لكي تعرف ما تريد من أخبار، فستجدها بسهولة في الميناء؛ ولكن في المقابل، سيعرف كل من هب ودب بأمرك!.. لكن لو تركت الميناء، واكتفيت بالإنصات في الحمامات والأسواق الصغيرة المزدهمة، أو لو ثرثرت مع عمال السفن الرحالة، في أمر بعيد تماما عما تريد، ستجد أنباء الدنيا كلها، تنصب يسر في أذنك، تتقي منها ما تشاء.

واختلطت بالعمال، الذين يتجمعون قرب الأسواق، يتظنون أن يكثرهم أي شخص في البر أو البحر، كما اعتدت على رؤيتهم في صباي. فقط زاد عليهم أن انضم لهم البلطجية، لمن يرغب في تاجير سفاك دماء!

علمت، مما جمعته من أخبار، أن الكثير من الأمراء والرسل رحلوا من الزرقاء لطرابلس، ولكن أكثر من نصفهم لم يصل (لفرحتي وشماتي) لها سالما!

وسمعت نبا غريب، عن جاسوس للأسود، اعتقله قرصان، فافتداه تاجر ليحبسه الأمير! وأصابني الشك في هذا النبا، وما أكد شكوكي، هو إن أمير

الزرقاء الجديد، إما أن يهادن السود، فيطلق سراح جاسوسه، أو يقتله ثارا لأخيه.

وراودتني نفسي أنه ربما يكون تيمور، فهو أحمق بما يكفي لكي يعلم كل أهل المدينة أنه يطلب طرابلس، سعيا خلف الوريث، وفي الوقت نفسه تلقى درسا مؤلما في الثغر الصغير، ليكتم أمر نسبه وتأييده للوريث.

ولأقطع الشك باليقين، ذهبت للتاجر الإفرنجي جبرائيل، زاعما البحث عن عمل، وبالفعل كنت، وغول الحق، بحاجة للعمل، لتكسب معيشتنا، دون أن نلفت انتباه الناس لما معنا من نفقة قليلة، منحنا إياها جابر الفاربي.

لكن التاجر الماكر لم يأمن لنا في البداية، فجسدانا الطويلان القويان يصلحان لحمل الأثقال، كما يصلحان للقتل والاغتيال! أخذت أحاول إزالة الريبة من قلبه،

جروب " ربيع الكتب " .

وأخبرته أنني ولدت في هذه المدينة. وهي حقيقة. يسهل أن أثبتها بذكر
أسماء الأسر القديمة. وقلت له أنني عدت مع أبي لبلدته القديمة. هربا من
مذابح القراصنة. ولكن أهله طردوني. لما مات. واستولوا على لرضي. فقلت
إن الأمر سواسية. ولأعد لدار طفولتي. مع صاحبي نسترزق من التجار. كانت
حكاية منمقة تماثلها آلاف الحكايا التي سمعها الرجل. ولكن ما يميزها أنني
أعرف خبايا المدينة. والأهم خبايا جبالها. التي لجئت لها عدة شهور.

وجبال الزرقاء وعرة. مخيفة أساطيرها. ولكنها الملجأ وقت الاحتياج. إن ثار
عليك غضب القراصنة. وممراتها تتحكم بطرق القوافل البرية. الآتية بالكثير
من الرزق والمكسب. وثناياها تخفي لصوص القوافل. الذين ترغب في
الهروب منهم بيضاعتك. والاتفاق على شراء بخس لما نهبوه من بضائع
غيرك!

ولذا كانت معرفتي بها هدية ثمينة لجبرائيل. وأحمد الله إن غول الحق لم
يسمع بحكايات كالوعر ابن محباس. والأميرة سليلة. وشقيق المجذوب.
وغيرها من الأساطير المرعبة. وإلا ما سار معي خطوة واحدة نحوها!

* * *

(30)

حكاية الوعر ابن محباس

فاما الوعر ابن محباس، فكان، فيما يزعمون، قاطع طريق شهير. أسقطه احد الأمراء، وقتله. ولكن الناس تزعم انه نجا، وهرب إلى أعلى الجبل، حيث لا يعيش بشر. كانت قمة الجبل أرضا خالية، خالصة لسكانها من الجن، فلما اقتحم الوعر بن محباس خلوتهم، وأثار الضجيج، وأزعج راحتهم، لعنه ملك الجن، فمسخه وحشا بين الإنسان والثعبان، فهو يمضي متجولا هنا وهناك، بلين ثنايا الجبل. فمن وجده هناك من البشر، باغته، فبغ السم القاتل في وجهه، ومن حاربه، قصه بالسيف. ويحكون أن له ذيل طويل جدا، يصل إلى مائة ذراع، فلو واجه عدو صلب، شاغله من أمامه بالسيف، بينما يمد ذيله يلتف بين الصخور، متسللا من خلف عدوه، حتى يلتف حوله بفتة، ويعتصر رقبتة اعتصارا، فيلتهم الرؤوس، ويترك باقي الجسد، فريسة لإخوته من الحيات. ولهم عنه وعن معاركه المفزعة أقاصيص كثيرة غريبة.

* * *

(31)

حكاية الأميرة سليلة

واما الأميرة سليلة، فهي قصة مخيفة، تثير فزعي حتى اليوم. يحكى أن الأميرة سليلة كانت فتاة جميلة، هي أبهى بنات والي الزرقاء. ولكنها أصيبت بالسل اللعين، فاختنق صدرها، وضاق نفسها، ولم تعد تطيق هواء البحر.

وجمع لها والدها الحكماء من كل البلاد. فأجمعوا أنه لا علاج لها إلا أن تستشفى في هواء جاف، في منطقة جبلية ما. وحذروه إنه لا حياة لها جوار البحر.

ولأن والدها كان يعشقها، ولا يطيق فراقها، فقد رأى ألا يبعتها عنه إلى مدينة أخرى. فأرسلها لتعيش فوق أعلى جبال الزرقاء، وبنى لها قصرا جميلا، ملأه بالخدم والحرس. وكان يزورها كل حين، ويأتي لها معه بأغلى العطور والألبسة.

لكن قصرها الجميل كان مطمعا للكثيرين. فمنهم من أتاها خاطبا، ومنهم من هاجمه مغيرا. فأما الخطاب، فقد ردهم أبوها، لأنه يخشى على جسدها العليل من أثقال الزواج. وأما المغيرين، فردهم حرسها القوي، والسور المنيع.

عاشت سليلة في قصرها المنعزل حياة هادئة طيبة. ولم تجد ما تشغل نفسها فيه إلا حديقتهما. زرعت حديقة صغيرة في فناء القصر، وقضت أغلب وقتها في رعايتها، رغم أن قسوة التربة، وندرة الماء تحكم على أي حديقة بالهلاك.

لكن حديقة سليمة ازدهرت. رغما عن أنف الساخرين. وأمام عيون وصيفاتها
الذاهلة، تفتحت الزهور، وأينعت الرياحين، واجتمع لها من النباتات النادرة، ذاب
الروائح والألوان المبهرة ما لا يوجد حتى في حدائق الملوك والخلفاء.

وذات يوم، صعد الجبل إعرابي صعلوك من المفامرین، يسمى الأجهم. كان
الأجهم قد قتل أحد الفلاحين، وطارده أهله طلبا للثأر. فلم يجد مفرا إلا صعود
الجبل المهجور. وكاد أن يهلك جوعا وعطشا، عندما التقطت أنفه رائحة
الرياحين، فقال لنفسه:

"لعله وهم يصيني في الاحتضار. فأنا لست بالعرء الصالح، الذي يجد ریح الجنة
عند موته! يا لخيتي التي أضاعتي، وأضاعت حياتي هدرا، وجعلت آخرتي
ضرا!"

لكنه مضى يتتبع الرائحة الزكية، ففتح عينيه مبهورا إذ رأى القصر في هذا
المكان المهجور، حتى تصور أنه قصر من قصور ملوك الجان.

طرق باب القصر مستفيثا، لا يطلب إلا حفنة من طعام، وشربة ماء تنقذه من
الموت. فرق قلب الأميرة له، وأمرت الحرس أن يفتحوا له الباب، ويكرموا
الضيف.

وأكرمه أيما إكرام. فبسطت له موائد الطعام والشراب، وأفردت له حجرة
في القصر للمبيت. ثم تركته وذهبت كعادتها، للعناية بحديقتهما.

ولما ذهب عناء الجوع، ووعكة السفر، زحفت غشاوة الجشع، فوق فضائل
الوفاء. وتحرك قلب الصعلوك النهم إلى ما رآه من كنوز ومجوهرات عند
الأميرة سليمة. لكنه كان أكثر مكررا وشرا وطمعا من أن يختلس القليل
ويهرب. فذهب لقائد الحرس، وأخذ يحدثه ويمازحه، ووجد عنده زجاجة خمر،
يخفيها عن الأميرة التي تكرهها، فقال له:

"وما لذة الشرب دون نديم؟"

فجلس قائد الحرس والأجهم معا يعاقران الخمر، حتى خف لسان القائد، وتودد
له الصعلوك، وبدأ يفريه، فقال:

"تلك الأميرة المسكينة مريضة حقا. وإن موتها لقريب."

قال قائد الحرس:

”حقاً ستموت قريباً. للعود لديارنا أخيراً.“

قال الأجهم:

”واظن أن أهلها ينتظرون موتها.“

ضحك قائد الحرس، وقال:

”ليس مثلي. أنا أنتظره بصبر فارغ، لأعود لداري، وهم ينتظرونه بحزن وتوجس كاره.“

قال الأجهم:

”تعني أنهم لا يطمعون في ميراثها، وتوزيع كنوزها؟“

قال القائد:

”وما كنوزها وسط أموال أيها؟ إنه والي الزرقاء، يفرف في الأموال كيف يشاء من التجار والبحارة.“

قال الأجهم:

”خسارة حقاً أن تحرس كل هذا المال، وأن تبذل حياتك لحمايته، من أجل فتاة ميتة، ثم في النهاية لا تنال شيئاً، وتعود خائباً.“

قال القائد:

”لا تذكرني، وتريد همي.“

فقال الأجهم:

”لو كان لك شريك مفكر، لربما استطعت أن تفوز بقليل من الغنيمة، مكافأة تستحقها على جهدك.“

قال القائد:

”وكيف هذا؟“

قال الأجهم:

”لو كنت مكانك لبحثت عن شخص يعينني. فما أن تموت الأميرة، حتى يدفن في قبرها بعض الجواهر والذهب. وبعد أن ينفذ الناس، ويفادروا القصر،

جروب " ربيع الكتب " .

ويفتشوا كل الحرس، ويطمئنوا أن شيئا لم يخرج معهم، تعود فتأخذ الجواهر المدفونة، وتقتسمها معه.

قال قائد الحرس متعجبا:

"وماذا عن جسد الأميرة؟"

قال الأجهم:

"هذا دور الشريك الماكر، فعليه أن يحمل جثتها، ويخفيها بعيدا."

قال قائد الحرس باهتمام:

"ولكن عند موت الأميرة سيحوظها الحكماء والوصيفات؟"

تحول الأجهم للصراحة، فقال:

"أكفيك أنا شر الأميرة. أخذها وأضعها في كهف رأيت، أحبسها حتى تموت. بينما تعلن أنت موتها، وتدفن الذهب في كفنها. لن يكذبك أحد يا قائد الحرس، فكل شيء هنا تحت إمرتك ورحتك. وتبقى الأميرة عندي، حتى تعود لي بالذهب، وتقتسمه معي. فيأمن كلانا غدر صاحبه. أنت معك المال، فلا أستطيع تركك، وأنا معي الأميرة، لو تركتها هلكت أنت."

فكر الغادران معا في الخطة الماكرة، وقلباها على كل وجه، ثم أمسكا بالأميرة، فوضعا الصعلوك في كيس ضيق، وجمع القائد ذهبها، ولفه في خرقة من كتان أبيض، كالكفن ووضعها في تابوت، وخرج على القوم مولولا، معللا أن الأميرة سقطت ميتة بفتة.

حمل الحرس تابوت الذهب، فدفنوه في الحديفة التي أحبتها الأميرة، بينما اتهمز الأجهم انشغال القوم، وتسلل بالكيس، المربوطة فيه الأميرة سليلة، نحو الجبل.

وجاء الوالي حزينا، يشهد دفن ابنته، ويصلي عليها، ثم رحل مع الخدم والوصيفات، تاركا أغواته يحترزون المال، والحلى، والأثاث، قبل أن يفلق القائد أبواب القصر، ويعود معهم نظيفا خالي الوفاض للمدينة، لا يرى أحد معه درهم من ذهب الوالي.

ثم في الليل، عاد قائد الحرس. ليس خاوي الوفاض، كما غادر؛ بل كان يحمل معه ثلاثة أشياء: مفاتيح القصر، ومجرفاً للحفر، وسيفاً مسموماً لقتل الأعرابي والأميرة!

أخذ يحفر القبر الوهمي، وفتح التابوت متلهفاً. لرؤية أكداش الذهب. فإذا به يجد بدلاً منها جسد الأميرة!

ففي غيبة الحرس، كان من السهل على مغامر متمرس مثل الأجهم، أن يتسلق سور القصر، ويأخذ الثروة لنفسه، ووضع مكانها سليلاً المسكينة، وأغلق عليها القبر وهي حية.

وثارت دماء القائد الفادر المغدور. فحمل سيفه المسموم، وترك جثة سليلاً مكشوفة للضباع والذئاب، وخرج من القصر يتتبع آثار أقدام الأجهم في غضب حقود.

وعثر عليه سريعاً.

أو على الأصح عثر على ما بقي منه. كانت عيناه مقلوعتين، وجلده مسلوخ بالكامل، وقد علق ومازال فيه النفس فوق شجرة هزيلة، وأسفله الوحوش تلعق دمه، وتنهش قدمه.

لكن بريق الذهب الأصفر كان غالباً للدم الأحمر، ففض نظره عن شريكه الممتدب، وانحنى على أكوام النقود الملقاة خلف الشجرة. يريد جمع ما يستطيع منها والهرب.

وإذا به يجد قدماً تقف فوق المال. رفع عينه. فوجد الأميرة واقفة أمامه!

كانت ميتة حتماً. عفن الموت يفوح من جسدها، الذي كان غصاً، ورغم ذلك خرجت من قبرها، ومشيت تجاهه!

تمالك جاشه كمسكري محنك، وأخرج السيف. فبتر رأسها بضربة واحدة.

لكن باقى جسدها، ظل يقترب منه، فلم يملك إلا التراجع بخطى مذعورة.

طعنها مرة أخرى بالسيف، ولم ينتزعه من جسدها، بل تركه وهرب. لكن الذهب ثقيل، والأحجار وعرة، فتعثرت المرة تلو المرة، ولم يلبث أن ألقى بالمال أرضاً، وأسرع يهرب منها خفيفاً.

وهنا احتبسه فجأة وحش عملاق.

يزعمون أنه كان في صورة ابن أوى، أو ذئب، أو ضبع، لكن ضخامة جسده، وجهامة وجهه لم تكن مثل أي من تلك الوحوش. وكانت العينان مشتعلتين بنار، تبدو آتية من الجحيم، والأنياب طولها ذراع كامل، ومخالبه من حديد، اخترق درع القائد بسهولة.

تكلم الوحش ثائرا، وقال إنه ملك جن هذا الجبل. عاش فيه زاهدا منعزلا منبوذا، حتى جاورته الأميرة، واثلجت صدره بكلماتها الرقيقة، التي صبرته على عقوق أهله. فوقع في حبها، وزرع لها حديقة بلا مثيل، ثم أتت شياطين الإنس، فاقتلعت الحديقة، ودفنت بين جذورها غدرا سلية.

وارتجف قائد الحرس رعبا، وقال:

"لست قاتلها، لم يكن أنا."

قال ملك الجن:

"أيها الخائن الحقير، أعلم ما فعله صاحبك، فقال مني أقل مما يستحقه. لكن جرمك أشنع وأفظع، ولن أتركك تموت مرتاحا، بل ألقى بجريمته في وجهك." وانقض عليه، فنهش وجهه، واقتلع عينيه، وسلخ ذراعه اليمنى التي حملت المجرفة واتهكت قبر سلية. وقال له إن روح الأميرة ستظل هائمة في الجبل تنذره بكل من يقلق مضجعهما، وحينها سيأتي، ويثار منه بأشنع قتلة. وأمره أن يرحل بعاره، وتشوهه، وأن يخبر الناس بالآ يقربوا قصر محبوبته، وإلا سيلحق بهم غضبها وثأرها.

* * *

حكاية شقيق المجذوب

ويحكي أهل الزرقاء، أيضا عن جبالها، حكاية المجذوب وشقيقه. كان المجذوب فتى لهوبا وسيما. عشقته ابنة كبير التجار، لكنه سرعان ما سلمها، ورغب عنها، لأنه كان كارها للبقاء في المدينة. يطمح أن يسافر، ويشاهد العالم، فنبذ كل شيء إلا البحر وأخبار البحر.

وقال الناس إن حورية من حور البحر فتته، فدبرت له عاشقته السابقة بنت كبير التجار انتقاما شنيعا. فصنعت له عملا مسحورا، جعله مجذوبا شاردا، لا يدري من أمره شيئا، يجلس مسكينا أمام شاطئ البحر ذاهلا.

ثم ازدادت حالته خطورة. فحاول أن يلقي بنفسه في أعماق البحر غير مرة، لولا أن أنقذه الصيادون، وأخذ الناس يتحسرون على الشاب الوسيم، ويتحدثون في الأسواق بأمره هو وابنة كبير التجار.

وخشي كبير التجار على ابنته من السنة الناس، إن مات الفتى في الزرقاء، فأمر والد الفتى بالخروج من المدينة هو وأسرته.

لكن الأب رفض، وتمسك بيته الذي ورثه عن أجداده، ففضب كبير التجار، وسلط رجاله على الأسرة المسكينة، فدهموا داره في قلب الليل، واختطفوا المجذوب ووالديه، وألقوا بهم في الصحراء، خارج المدينة، واستبقوا عندهم الابن الأصفر، وهددوهم بقتله لو عادوا للزرقاء.

وهكذا، خشية على المخطوف، أخرج المقهور ابنه المجذوب من الزرقاء.

وبقى شقيق المجذوب صيا صغيرا أسيرا، لم يهتم به أحد. ولم يلق التاجر له
بالا، بل ضاق بنفقة إطعامه فأمر رجاله بإلقائه بعيدا عنه. فأمسكوا به،
وقيدوه، وألقوه في الصحراء، لكن الفتى هرب منهم، وصعد للجبل، وأصبح
الحقد يملكه على كل أهل الزرقاء، فإن رأى إنسيا يصعد الجبل تسلل وراءه،
ودفعه ليهوي قتيلا من حلق.

وغير هذه من الحكايات الكثير، عن مخلوقات ثائرة، تبغي الدماء، تسكن أعالي
الجبال المحيطة بالزرقاء، فتتفر أهلها من الاقتراب منها.

* * *

(33)

جبرائيل الإفرنجي

كان جبرائيل عاشقا متيما. وحبه الكبير يملأ عليه حياته. فكل ما يفعله ينبع من هذا الحب، ولهذا الحب! ولكن حبه لم يكن لفتاة، أو أهل، أو بلد. كان حبه كله للمال وحده! له قلب يسع أي شخص، مهما كان حقيرا، أو فاسدا، أو مبغضا له، مادام سيزهر حياته بمعشوقاته من الدنانير الذهبية!

هكذا عرفته. بعد وقت قصير من العمل معه. القراصنة لا تتسامح أبدا مع أي شخص يهرب من دفع إتاواتها. أو يشتري بضائع لم تدفع عليها الإتاوات الباهظة؛ ولكنه يقبل المخاطرة، بقلب جسور، للفوز بالمزيد من المال. وقد ذهب في هذا لأبعد الحدود فوق تصوري، ربحت ثقته بسرعة أذهلتني. بل أصابتنني بالرغبة! وسرعان ما استخدمني أنا وغول الحق، لنقل البضائع الثمينة من مكان لآخر، عبر المدينة، أو لخارجها بعيدا عن العيون. وجعلنا نهرب منها العطور والتوابل، وإليها العاج والجواهر، عبر الجبال، بعيدا عن مداخل المدينة المطروقة.

كانت المهمة شاقة جدا علي في بدايتهما. لأن حال الجبال تغير كثيرا خلال السنوات الماضية، وعمرت بعض أجزاءها بأخلاط من قطاع الطرق والمهربين، الذين جذبتهم، أو لفظتهم المدينة الهائجة. وأضف لهذا، إنني إنما كنت صبيا صغيرا في دروب الجبال، لا يعي كل ما حوله. لكن بقليل من الحظ والمخاطرة،

مزجته بالحذر والفتنة، شققت طريقي أمانا. وعرفت من الدروب الفريدة، ما غفل عنه غيري ممن سكنوها منذ سنين!

وسرعان ما اطمئن التاجر لنا. بعد ان استوثق من براعتنا وأمانتنا. وكنت في الامانة هذه حذرا. لأنه سيرتاب حتما فيمن يعمل في هذه المهمة الخطرة دون ان تراوده نفسه لبعض المغام. فاتخذت حلا وسطا. بان أعود له بعد مهمة. محتفظا بشيء من البضائع لنفسى. لأقول له بقلظة:

"كان الأمر اليوم شاقا، فزدت من أجري. واخذت كذا!"

ولأن هذا ال (كذا) يكون أقل مما يختلسه غيري في غفلة منه، فقد رصى بهذا الحال، بل قال لي:

"إني لأنس بك يا عندليب (وهو الاسم الذي انتحلته لنفسى) فإنك مثلي محب للمال، ومخلص له، وتفهم كيف تربحه، دون أن تثير غضب غيرك. وهي صفة عظيمة، تجعلني اطمئن لولائك لي، مادام رزقك معي!"

وجاريتة في ثرثرته، وسمعت منه حكايته. كان تاجر عطور وعطارة صغير في البندقية، ولما هبت الحملات الإفرنجية، تتوالى كقطع الليل المظلم على بلادنا العربية، خرج جده مع المقاتلين الأثمين، فأصبح له إمارة وجند. قبل أن يموت، ويخلفه أكبر أبنائه.

وتولى الحاكم الجديد الإمارة الصغيرة، وفرج بما غنمه، وتطلع لأن يجمع كل أهله من حوله، يساندونه ويعزونه. فأرسل لإخوته وأبناء إخوته وعمومته أن يأتوه، ومنهم جبرائيل، وأكرمهم، ونصبهم فرساتا.

وكان جبرائيل في شبابه (كما يزعم ولست واثقا من قوله) وسيما مليحا. يعجب الفتيات، فأحبته ابنة عمه الأمير، وتطلعت له زوجا. كما إنه كان عليما، بفضل تجارته، بالعربية والهندية.. ولفات عدة جعلته يجيد العمل مع الأمراء، والخانات، وغيرهم ممن يترددون على قلعة عمه، طلبا للحلف أو الحرب.

ولهذا وذاك، قربه عمه له أكثر من غيره، واتخذة أحد وزرائه، ومهد لأمر زواجه من ابنته، لولا أن قتل بفتة في غارة على إحدى المدن العربية.

وهنا اضمر له أبناء عمه، وإخوة خطيبته، الشر. كان الملك الصليبي لبيت المقدس يحب بث الفرقة بين الأمراء الصفار. لكي تظل قلاعهم الصغيرة ضعيفة أمامه، تطيع أمره. فحذر أبناء عم جبرائيل، وقال لهم:

هذا رجل يعرف من اللغات والألسنة ما لا تعرفون، فما أدراكم أن يتامر مع
شراء خصوصكم أمامكم، وأنتم لا تدرون؟ ويعرف من فنون العطاراة الكثير،
فما أدراكم أن يدس في طعامكم أو عطوركم سما يخلصه منكم، بعد
ماجه من اختكم؟ شخص كهذا، لو كان في بلاطي، لقطعت رأسه!

لبن جبرائيل لم يكن هاويا لسلطة أو زعامة، العال هو عشقه الوحيد! لم
يصعب عليه أن يهجر الأميرة ابنة عمه، وأقاربه، والفرسان الذين يلهجون
باسمه، تخلى بسهولة عن كل هذا الزخرف، رغم إنه - كما يزعم - كان محبوبا
من الجنود والساسة، ولو أراد، لخلع خصوصه، وتولى مكانهم! ببساطة رحل
عن قلعة عمه مختارا، وعاد إلى التجارة حيث كان جمع العال من أراضي الشرق
المهوبة أمرا سهلا. هناك كنوز وأموال نهبت، تجري في أيدي جنود لا
يعرفون قيمتها، أو جواهر مسروقة يبيعهما السارق بربع الثمن، حينما يغلي.
لطي يرتحل ويسرق غيرها!

وجد الكثير من مناجم الذهب، التي تفيض لأي جشع، وسرعان ما أصبح ثريا
جدا، ووجد في الزرقاء ملاذا ومستقرا آمنا. أدرك بفطنته أن القراصنة - بعدما
أحرقوا المدينة - لن يمالعوا في مجيء التجار لهم، لبيع غنائمهم، فكان أول
تاجر يتجرا على الاقتراب من المدينة بعد سقوطها! وقد أغنمه هذا أرباح
مخيفة، مازال يتذكرها بحنان وشوق! وأكسبه نفودا كبيرا وسطهم.

الفرجة عموما لا يتورعون عن التعامل مع القراصنة، فالتجارة شطارة بالنسبة
لهم، لا يهم أن تكون البضائع مسروقة، فنجد العلاقة بين الفريقين طيبة،
رغم إن كل منهما ينصيد الآخر في البحر! لا أفهم حقا كيف أصف الأمر بين
الفريقين، فهو أعجوبة من عجائب الدهر! على إنلي أذكر مقولة كان يقولها
أحد المتفلسفين في الزرقاء، إن القرصان يخرج في سفينة لفزو سفينة،
والإفرنجي يخرج في أسطول لنهب مدينة! فخلاهما أخوة!

على أي حال، أجدت دور المستمع المداهن، والمساعد المشاغب لجبرائيل
الإفرنجي، وسرعان ما اعتاد أن يقص علي أمجاده ومآثره! أي شخص تعيره
أذن مستمعة، وتزعم إنك معجب به، سيفيض بالحديث معك مفاخرا بسهولة،
وسيصعب عليه أن يكتم عنك أسرارَه! استمعت في صبر لحكايته المزعومة
مع أولاد العمومة، وأبدت إعجابي به، فانتقل مفاخرا لمكره وصفقاته، وكيف
خدع هنا وذاك، مدليا بأسرار كثيرة، لكنها قديمة، فزعمت أنه لي مثل أعلى،

جروب " ربيع الكتب " .

أتعلم منه لأكون يوما مثله! وسرعان ما انتقل من حديث التاريخ لدى الحاضر. وبعد صبر لأيام أدلى أخيرا بما أرغبه، وتحدث عن مكاتنه لدى حاكم المدينة، وكيف خدمهم بحماس، وأوهمهم بالإخلاص، فأصبح موثوقهم، ونفوذهم عندهم مزدهر!

وبالطبع كان حديثه عن جاسوس الأسود، الذي عمل عنده هو ما أهمني! علمت منه صفاته، وازداد يقيني إنه تيمور، وعزمت على استفلال نفوذ التاجر الواسع لمساعدتي في إخراج تيمور من سجنه، والسفر إلى طرابل.

وأتاني غول الحق ذات يوم بخبر سعيد، بينما كنت أحسب وأخطط لدخول السجن، فعلها هو ببساطة! ذهب ليلا للسجن، وغافل الحراس هنا وهناك، حتى وصل لقلبه، وشاهد تيمور وعرف مكاتنه، ثم النسل عالدا! كان يتحدث ببساطة شديدة، كأنما هذا فعل يسير، اعتاده في سجون الثغر الصغير. الأش من سجن الزرقاء كما يقول.

واتفق معي على أن يتولى إخراج تيمور من السجن، على أن أعد العدة للخروج من الزرقاء بعدها فورا، وإلا فسرعان ما يكتشفون أمرنا، ويمسكون بنا جميعا.

هنا انتقلت من مرحلة الاستماع للتاجر، إلى مرحلة الحديث والتطبيق، أخبرني أنني أريد الخوض في مغامرات المال مثله ومعها، وإنني أحتاج للخروج إلى تجارته في المدن الأخرى، لأشاهد وأتعلم. طبعا لم يستجب لي في البداية لاحتياجه لي هنا. لكنني ألححت، وزدت الإلحاح، والإغراء بهكاسب من البلاد الشرقية، أزعجني أنني أستطيع جلبها له. كنت أحتاج بشدة للسفر على سمنه الأمانة من القراصنة، وأحتاج للسفر بأسرع وقت ممكن. لقد تأخرت شهورا طويلة عن الأمراء القتلة ووفودهم، والأسود يزداد قوة، والأنباء عن قرصنة تفاهمه مع الفرنجة والأهبال، لمساعدته في غزو البلاد تتزايد. كان الخطر يزيد بمرور الوقت، وتأخري أكثر من هذا ليس في صالحني.

لكن تأخري هذا كانت له مزية ما لم أتوقعها! الوريث! حكايات متتالية بين الناس عن الوريث، حكايات يملؤها الأمل يرددها البسطاء. كانوا يتكلمون عن عظمة الوريث، وعبقريته في الاختفاء عن الأمراء، ويذكرون بمنتهى الشمان، ما أصاب بعضهم، عندما سقطوا أسارى في يد الأهبال، فعذبوهم حتى الموت!

كان الأمل هذا ينفخ في صدري حماسا، ويزيد لهفتي على السفر. ولذا لم ارتج، حتى أعددت كل شيء على ما أريد. استعددت للرحيل فجر الجمعة، مع أول سفينة مفادرة للتاجر جبرائيل، وأعد غول الحق نفسه لاستخراج تيمور من سجنه. لم أسأله كيف سيفعلها، فمثله من عشر الشاطر عدنان، يعلم من الحيل ما يعجز العقول!

وعند فجر الجمعة، أتاني الفول وتيمور سالمين. كان تيمور مرهقا جدا، ومنهكا، وقد لاقى أهوال في سجن حراسه من اللصوص. لم يرغب حتى في الحديث عما أصابه، وكان يلهم بحمد الله أن خرج من هذا الجحيم الضيق. لكنني بشرته إنه سيهود لبعض الضيق، حيث سنحشره في صندوق صغير، للضمة للبضائع إلى أن تخرج السفينة للميناء.

وصعدنا للسفينة، وجلسنا في أماكننا، حتى غفل عنا البحارة، فأخرجنا تيمور من مخبئه، وفردت الأشرطة، وتحركت ابنة اليم بعد أن ملأتها ربح الحرية. لقد خرجنا أخيرا من الزرقاء.

لقد غادرتنا المملكة أخيرا، وأصبحت طرابلس أقرب إلينا من جبل الوريد.

أخيرا!!!!

(34)

الأمير الثاني

أقبلنا على نسيم الحرية نستشقه. كان تيمور متفائلا جدا. يزعم إن ركوب البحر للمرة الثانية أسهل بكثير من المرة الأولى. التي يحفها بعد المخاطر والشؤم. وبعد أن هدأت نفسه. جلسنا لتبادل الأحاديث. لم يعرف غول الحق، لكني زعمت له إنه من الفيلان الحمر. كنا قد دسنا منذ زمن في الثغر الصغير، فأتى وأنقذني من الشاطر عدنان. لم يصدق في البداية عُذر عدنان. وبدا مصدوما من الأمر. ثم حكى لنا كيف وصل للزرقاء، وسقط في أيدي الأمير الأبيض، فسجله.

بعد أن صلينا الظهر والعصر جماعة، وقد كنت أرجو أن تكون صلاة الجمعة. غير إنه لم يكن هناك سوانا نحن الثلاثة. نظرت للبحر، فأصابني القلق. مازلنا قريبين من الشاطي، لم ندخل حتى الآن في عرض البحر، لكن غول الحق طمأنني. وقال:

"حتما جبرائيل قد اتفق مع تجار خارج المدينة، لكي يلتقط منهم بضائعا أخرى بعيدا عن إتوات القراصنة."

واقتمعت بحديثه، فقد فعلناها لسفن جبرائيل عشرات المرات. وقد ظهر إنه كان محقا، لكن البضائع كانت تنزل من السفينة إلى الشاطي، وليس العكس.

فقد كنا نحن هذه البضائع!

حاصرنا البحارة فجأة، واندفع بعضهم نحو متاعنا، فأخرجوه وانترعوا منه درع الفيلان، ثم قيدونا وحملونا. في مركب صغير نزل بنا للشاطي.

وهناك وجدنا جبرائيل، وجواره شخص لم أره من قبل، لكنني عرفته، الأمير الأبيض الثاني، أمير الزرقاء الجديد!

كانت الشماتة تقطر من جبرائيل، لا أعرف السبب، فلم ير منا هذا الرجل إلا الربيع والجمال، لكنها طباع الفرنجة اللئيمة حتما!

سلمنا التاجر مقيدتين، كالنجاج المهيئة للذبح، لحرس الأمير، قبل أن يركب سفينته، ويفادرننا مع بحارته، ووقف الأمير يرقبهم، حتى غابوا عن ناظريه، ثم أمسك بدرع الفيلان يتأمله، قبل أن يقول:

"من منكم سيد الفيلان الأحمر؟"

رددت عليه:

"أنا من تطلب."

نظر لي بدهشة، وقال:

"أنت؟ لكنك تبدو لي بالرجل ذو الحيل، لم أسمع إن الفيلان تلجأ للتحايل أبدا؟"

قلت بفيظ:

"الحيلة خير من الحماقة."

التقط نفسا عميقا، حبسه دهرا، حتى ظننت أنه سيسقط بين أيدينا مختقا، ثم قال بصوت مبحوح:

"يرعمون لك آخر من حدث أخى، قبل مقتله؟"

نظرت له لا أدري ماذا أقول، وأنا واقع تحت رحمته، فاكتفيت بهز رأسي علامة الإيجاب.

فاشار لي أن أزيد، فقلت:

"أخبرني عما أصاب أهلكما في الزرقاء وقت سقوطها، وعن إنه لا يثق في الأسود، ولا يتمنى انتصاره، لكنه يكره عداوته."

نظر لي بتمعن، وقال:

"أنت واثق من أنك زعيم الفيلان؟ يبدو لي ان شقيقي ثرثر معك بالكثير، رغم انه لا يعرفك. قل لي، لماذا تتاجز الأسود؟ حتما سيسعده التحالف مع الفيلان الحمر، لكن الفيلان لا أمل لها في محاربتهم، فكل الناس تعاديها؟"

قلت، وأنا أشعر بالسام من تكرار هذا السؤال:

"كل ما أرجوه هو عودة الأمن لبلادنا، وتنصيب الوريث حكما عدلا لكل لرجاءها. الأسود سينشر دماء وفوضى أكثر مما هو موجود اليوم."

قال بامتعاض:

"لا نفع في حرب هذا الجبار العتي. له حلفاء عظام، تهتر لهم العروش الراسخة، فما بالك بأنقاض عرش الوريث! أتى لنا بحرب الأهبال، والفرنجة، والسور العلي مجتمعين؟ الأسود يفاوض كل هؤلاء لنصرتهم، ودعني أقول إنه اقترب كثيرا من إرضائهم. ثم ماذا عن ضبة بني الأسود؟ اليوم هم يهاندون زعيمهم، ويأصبون ابنه العدا، لكنهم حتما سينقلبون للجانب الآخر! كل هذا ومعهم جيوش رجاله المخلصين، وعقله العسكري الجبار، الذي أدار به الدوائر على كل من عاداه. كيف تطلب منا حرب الأسود؟ الحيلة خير من حماقة كما تزعم؟ لماذا تستخدم الحيلة لنصرة أكبر حماقة إذن؟"

قلت:

"لنصرة الحق."

قال:

"أي نصرة! بل الهزيمة الساحقة! أنت نفسك لم تأمن لرجالك ان يقوموا عنك بهذه السفارة، فأتيت بنفسك، خشية من ان يبائعوا الأسود عليك. اتحارب من لا تقدر عليه الجيوش؟ ولأي سبب غير الدمار والالتحار؟ أتبحث عن ثار ما؟ لا أملك لك حتى في النيل من أظافره! أنت تقاتل بلا هدف يا عزيزي، بلا هدف."

بدا لي كأنما يجادل نفسه أكثر مما يجادلني، لم يحدث أصلا ان طلبت نصرة منه، أو من الزرقاء. كان شقيقه هو رفيقه الوحيد، في حياة أليمة عجيبة. صعدت به أميرا على قتلة والديه! أمير يؤمر ولا يأمر، له نفس تواقفة للثار من الأسود، وعقل خواف من جنوده. أردت النفخ في نار غضبه، لعلها تذيب قيد يدي.

تكلمت بحماس:

"وماذا يهم النجاح والفشل؟ لماذا لا أحاول؟ لو لم أفعل لقضيت حياتي نادما
مقالما محترماً. لو سلكت. فلن تضايقني ذكرى الأقراب الذين أهلكهم
الأسود! الله يحاسبنا على أعمالنا، وليس على نجاحها أو فشلها. لن يقلقني
ضميري بالفشل إن فعلت ما بوسعي، ولن يهمد لنجاح أتى من هروب!
السكون ينجيني، لكنه لن يطفى نار الثكلى، المقاومة عاجزة، لكنها تبرد
قلوب الموتورين."

ضحك ضحكة مجلجة قبيحة، وقال:

"أنت ماكر أحق! اتخاطب ثاري عسى أن أساعدك؟ أقول لك اسع لنفك،
ودعك من هذا الشأن. فتقول لي أن أرافك في رحلة الهلاك؟ ولماذا؟ لأجل
هذه البلد؟"

قلت بصرامة:

"ليست بلدك. فلا الومك. لكنني من أهلها، ولو سعينا لنفعا على حساب
نفعها، فسنخسر جميعا. «مثل القائم على خدود الله والواقع فيهما كمثل قوم
استهفوا على سفينة. فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها، فكان
الذين في أسفلها إذا استقوا من الماء مرؤا على من فوقهم فقالوا لو أنا
خرقنا في نصيبنا خرقا، ولم نؤذ من فوقنا. فإن يتركوهم وما أرادوا هلكوا
جميعا. وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعا. هكذا علمنا نينا، لو لم
يجد الأسود وزبائنه من يضرب على أيديهم، فسيخرقون السفينة ويفرقوننا."

رد بسخط:

"تدخلون الدين في كل امركم يا أهل الشرق، وتجعلون أمر الله في
خلافاتكم، وتسلمون كل حروبكم جهادا!"

قلت ببرود:

"أوليس الدين كان زعمكم في زحفكم على بلادنا يا فرنجة؟"

رد بجفاء:

"أنت أعلم مني بهذا! أتينا فاتحين، مثلما يفعل ملوككم بعض، وكما يفعل
الأسود بما حوله من أقاليم."

مرة أخرى يثبت الطفافة إنهم على ملة واحدة. ولو توزعوا على فرنجة
وقراصنة وأساودة! نفس العقل والجدل. ويتخذون بعضهم لبعض حججا! إما
إنهم يسبسون على خطي فلان، أو هم يتجبرون لحمايتنا من جيروت علان! ملة
واحدة. قبلتها هي الأراضي المنهوبة. وصلاتها اعتصار الفلاحين الغلابة.

كنت قد أدركت عقم محاورتي. وانتي بالفعل أحق، من استغنى من قبل عن
ثار أبيه. فبما يهمه ثار أخيه؟ ولذا صمت، وكففت عن الجدل العقيم.

أخذ الأمير ينظر لنا متحيرا. قبل أن يعود لنفس نهجه. الذي اتبعه مع تيمور.
فأمر حراسه بسجننا. لكن هذه المرة ليس في سجن قصره، وإنما في أحد
بيوت الزرقاء بعيدا عن العيون والأذان، وقال:

"ستظلون ضيوفا عندي. حتى يهلك الوريث، أو يطلبكم الأسود، ولكم أن
تمنوا الأولى بشدة!"

وهكذا رددنا للزرقاء خاليين، وعدنا لتلك المدينة المجنونة، التي لا تطيق بقاءنا
فيها، ولا خروجنا منها!

(35)

نبأ ما أطابهم في سجن الأمير الأبيض

قيدنا الحراس بغلظة، واحكموا ربط أيدينا بالليف الخشن، وأقدامنا بالسلاسل الحديدية الثقيلة، وحبسونا مع عدتنا ومتاعنا، في بيت صغير. هو الوحيد السليم، وما حوله بيوت مهدمّة، فيما كان يوما شمال الزرقاء.

كان مكاننا هو حجرة ضيقة على سطح المنزل، وقد تفنن الحرس الإفرنجي في مضايقتنا، والتضييق علينا. وكانوا يتأوبون علينا كل يوم. فيطلقون سراح واحد فقط للاغتسال والأكل، ويبقون القيود الغليظة في الأثنين الآخرين.

كان عددهم ثمانية، أغلبهم لا يجيد العربية، وقد تسلحوا بالدروع والسيوف حتى الأسنان، وقد بدا عليهم الفزع من هروبنا. لكن مع مرور الأيام، تراخت أعصابهم، وككل حارس، لا يجد لنفسه مهمة غير مراقبة سجناء عاجزين. يفلبه السام، ويفتر حماسه، ويلشغل عن وديعته بكل أمر تافه!

وهكذا سحت لي في لحظة غفلة، أن أخرج من الحجرة المغلقة! فقد اخذت أفكك الخشب المعترئ للباب حول مفصاته، حتى فككته بالكامل. وخرجت منه. وتدلّيت من السطح إلى نافذة في الدور الأول، ومنها إلى حجرة الحرس الغافل، فأغلقت الباب عليهم، ووضعت خلفه منضدة ثقيلة، ثم هرعت إلى متاعنا، فاستعدت السلاح، سواء سيوفنا، أو رمحي، وبلمحة غول البقرة، وأسرعت للأعلى، وصخب الحراس خلفي. فمزقت قيود زميلي، وألقيت إليهم بالسلاح، وخرجنا لنجد الحراس الثمانية ينتظروننا مبهورين.

بادرهم تيمور . فانسك ساطة عول الحق . وقذفها . فبترت يد احدهم . واخرجته من القتال . وهنا جرى الراح في يدي كئار تيس هالج . فاطاحت باثنين منهما قبل ان يفيقوا من ذهواهم . وادمع عول الحق فصد عني سيومهم وهما تبادلوا بلفتهم بضع كلعات . ثم القى دبيرهم سيفه ارضا . وهتف .

"كفى قتالا!"

تراجعا للذلف خطوة استحمزين فاكمل بتوتر

"لا نرغب في قتال الفلان الحمر حربكم مع الاسود لا ناقة لنا فيها ولا جمل! اذهبوا عنا . ونذهب اعدكم . وسنقول الاميرنا ان الفيلا دهمونا واخرجوكم "

لا اثنى كثيرا في كل هذه الفرنجة ولكنهم بدوا محلصين في ريتهم عن سيف لا مغمم عليه . اذ احدثنا نقتاع واخذنا ثانيا من طعام واموال . كئنا البرق مسرعين . هاريس . الزرقاء الملعونة!

ضربنا طريقنا فيما حولنا من صحراء . لا تدري ماذا نفعل . ولاي طريق نذهب

كان اليباس يحوطني من كل اتجا . اه كنت في طريق مسدود . يحوطني فيه اعداء جبارين . يعون سفك دمالي . لقاتلهم حتى الموت لا ابالي . لكننا الان في صريق بلا نهاية! اغلقت امامنا بوابة الرمال . ونجونا منها . ولا نملك الا السير قرب الساحل نحو الجنوب . على امل وهمي واه . ان ياتي بحار يقلنا فاحذت نقتو . رسقي بلا جدوى . في تيه الصحراء القاحلة والاراضي الخاوية لا يظللنا الا شمس قاتلة .

الان اصبح بفاضي خاويا . وجيلي حائبة . وايقنت اننا لا نسير الا للهلاك . فامرت رفبقي بالعودد لآخر بلر مررنا عليه . وانهيت المسير هناك . فلا يوجد طريق . اصلا لكي نسر فيه .

اليباس مذئوق لا يقهر . لو احكم مصيدته عليك . واظن ان مصيدة الصحراء قد احكمت من حولنا!

ابعد كل هذه تكون النهاية؟ لو كنت في سجن . لبحثت عن المهرب . وله كنت في حرب . لصلبت الشهادة . لكننا الان وسط الفراغ!

هو ضياء وسط رمال لا تنتهي

لا هاجا به ولا يفر ولا يخرج .

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

إلا بالدعاء لله أن يهديننا سواء السبيل.

وهكذا ارتفعت الأقف تطلب الفوٲ.

اظنني مخلصا في دعوتي. لا أبقي من أمري إلا مصلحة البلاد والعباد. وسط
أمواج الطفاة والأعداء المتكالبة عليها.

فاللهم غوثك.

اللهم غوثك

اللهم غوثك.

وقبل أن تزل الأقف. أتى الفوٲ. في هيئة الشيخ عمران.

(36)

حكاية البلد الميئ

يقول الشيخ أبو الوفاء عمران ابن العربي السليمي:

"كنت امضي بقافتي الصغيرة. ابغي مضارب الزرقاء. ومضارب الزرقاء هي اجتماع. بغير اتفاق. للرعاة والتجار من هنا وهناك. حول بعض المراعي أو الآبار. قرب الزرقاء. يبيعون ويشتررون فيها لبضعة أيام. إلى أن يصل خبرهم إلى كام المدينة. فيطردونهم منها. ولما كان قد تجمع عندي ما يزيد عن حاجتي من الصوف والتمر. فقد جمعت بعضا من عشيرتي. لنبحث عن المضارب. لبيع بضاعتنا. وشراء السلاح المهند الجيد. الذي سنحتاج له بعدما تواتر من أبناء. عن موقعة عظيمة. بين إخواننا من بني سليم في العاصمة. والقائد الأسود. وأن أمير جيشه قد طردهم من مساكنهم. وقهر بني زادة ومن معهم من الثوار المغاربة. فأيقنا جميعا أنه بعدما تخلص من آخر حلفائه السابقين في العاصمة. سيزحف نحو الجيوب ليخضعه. وحتما ستشتد حاجة عشيرتي للسلاح في تلك الأيام المظلمة. فبني سليم لن يسلموا أنفسهم بسهولة لدهماء جنده.

وبينما كنت أجول بين الآبار والمراعي وراء الزرقاء. عثرت عند البئر الثامنة في خيمة يتيمة. فعزمت على أن أمكث جوارها. ليجتمع مضرب جديد حولنا.

وأكسب ربح البكور في البيع. وبخس العجلة في الشراء. ودخلت على الخيمة. فألقيت على من فيها تحية الإسلام:

"السلام عليكم يا إخوة العرب.."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

كان بالخيمة ثلاثة رجال أشداء. اثنان منهما ضخمان طويلان. حتى خشيت على نفسي من بطشهما. لكن من يبدو ككبيرهم رد علي بوجه بشوش:

"وعليكم السلام يا أبا الإسلام، من أي بطون العرب أنتم؟"

أجبت:

"أنا الشيخ عمران، شيخ عشيرة العربي، من بني سليم أو بطنها، الموجود قرب مدينة جبة في الجنوب."

سألني كبيرهم:

"أوليس لك أبناء عم من حلفاء ابن الأسود، في مضارب لهم قرب الحاضرة؟"

قلت بحذر:

"كان لهم يا سيدي، كان لهم. ألم تسمع بأمر طردهم من هناك؟ انقلب عليهم الأسود اللعين، وسرعان ما يزحف جنوبا، ليطردنا خلفهم."

بدوا لي مهتمين بشدة بأمر الحاضرة، وطاقيتها. وسرعان ما عرفتهم. فقد كان لي من الفطنة ما يكفي لأن أدرك أن هذا هو القبيل، زعيم الغيلان الحمر، الذي يناجز الأسود لإعادة الوريث ملكا. فأبناؤه تناثرت، حتى سمع بها كل رجل وطفل، وتفننى بها كل راجز وراع، وأسعدني أن ألقى الله في طريقي بعض ثار أبناء عمي، فعرضت عليهم خدمتي، ومالي، وساعدي.

طلبوا مني أن أدلهم على طريق يركبون به البحر إلى البلاد الشرقية، فسرت بهم لأبعد مما كنت أظنني لأسير يوما! قدتهم عبر درب البلد الميت، للذهب إلى طرابلس برا!

كان هذا درب مشهورا للقوافل قديما، تمر به من الشرق للغرب، ومن الغرب للشرق، تأتي عبره الفلال والأقمشة، وتخرج منه التمور والحجيج.

ولما تداعى الملك في بلادنا، أهمل الملك تأمين طريق القوافل البري، واندفع للزرقاء يفر من ضرائب مينائها المزدهم. أما الدرب المهمل، فقد أقبل عليه قطاع الطرق ينتهبون، بعدما اطمأنوا من العقاب. فهجرت القوافل الدرب، وحينها انفض سكان البلاد والقرى القائمة حوله عنه، واتجهوا لحيث مضت التجارة في الزرقاء وتخومها. ولما حدث هذا، أهملت آباره ورددت، ومات

الطريق وما حوله من بلدان. حتى قطاع الطرق هجروه. ومضوا لغيره. فلم يعد يذكره إلا قلة من الأدلة والشيوخ.

وهكذا قدتهم عبر الدرب. من بلد ميت لآخر. ونحمر باحثين عن بلر مردوم هنا أو هناك. لنقطع الطريق المهجور بأمان رغم المشقة. وخرجنا من المملكة المفزقة. لنسير في الطريق البري أقودهم إلى طرابلس. عبر تخوم تغلي بالحروب. بين قلاع خانات الأهبال. ومدن الفرنجة. ومعارك السور العلى والصيدية. التي لا تنتهي. لكني رغم هذا وصلت بهم في مسيرة أيام قلال من طرابلس. وهو ما لم يقدروا على فعله دوني.

(37)

نبأ ما أصابهم في الطريق إلى طرابلس

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"خرجت من داري وحيدا مأمورا، واليوم أخرج من كل المملكة أميرا على ستة أفرادا بعد أن عجزت حيلي. واهتر أمني أتاني واحد من البدو، من رعاة بني سلام، يقود عددا من عشيرته بحثا عن بعض التجار. كان اسمه الشيخ عمران، وكان رجلا طيبا بشوشا كريما. يعمل في تجارة قليلة، ورعي بعض الأغنام، وأحيانا دليل للقوافل والحجاج، فدلنا الله به للخروج من تيه الفجاج.

كان قد أدركنا من القنوط، فمد لنا يد الجود، وأغاثنا بكرمه، وحملنا على فضل ظهره، فلم يكف بآن يكون دليلا لنا على طريق القوافل القديم، بل رافقنا إلى طرابلس، وأعارنا من بعيره ظهورا نركبها، ومن نياقه لبنا نشربه، ومن نقوده نفقة تكفينا، وزاد على هذا أن سخر نفسه وأولاده الثلاثة في إمرتنا، ولغايبتنا.

وهكذا، رغم طول الطريق ومشقته في أرض مهجورة، فبفضل هذا الشيخ السليمي، كان هذا أيسر أمن جزء في رحلتنا، فلم تظهر لنا متاعب إلا بعد أن

دخلنا في تخوم السور العلي، حيث تجري الحرب بينها وبين الصيادية.

وهناك اعتقلنا جنود من كلا الفريقين أكثر من مرة، فكنا نخرج منهم بالرجاء، أو بالرشوة تارة، وبالقتال، أو الفرار تارات أخرى.

ثم قطعت جماعة من عسكر الفرنجة الطريق، فأجارتنا واحد من الأهالي يدعى قسطنطين، ورغم إنه نصراني، إلا إنه كان رجلا دمث الأخلاق، يكره الفرنجة لكثرة فسادهم، وأخفانا في قريته وسط أهله بضعة أيام.

ثم مضى بنا الطريق بحلوه ومره، تتسلل في الظلام حيناً، ونقتحم الظهيرة حيناً، ومستعينين بالحيلة أحياناً.

فلذا تعرضنا لجند من الأهبال، فنحن تجار من العراق، نزور أهلنا في البادية، ولو هاجمنا رجال الصيادية، فنحن حجاج مغاربة، أما الفرنجة، فالرشوة تنفع، والفرار أتجع!

لكن أهم ما أصابنا أمران، أحدهما مع الفرنجة، والثاني مع الأهبال، فأما الأول، فقد كان عقب مفادرتنا لبيت قسطنطين بمسيرة يوم، طلعت علينا زمرة من قطاع الطرق، فلناوشناهم، وأثناء القتال، صادفتنا تجريدة من عسكر الفرنجة، كانت تطلب أولئك اللصوص فاعتقلونا معهم، وساقونا إلى أميرهم، الذي صادر كل ما معنا، وألقى بنا خارج حصنه.

وما كان لي أن أكمل الطريق دون مال أو زاد، والأدهى دون درع الفيلان، الذي قد يجلب لقلب الوريث الأمان، ليتبعني دوناً عن باقي الأمراء السفاكين.

لذا تربصنا طول الليل، حتى خرج الجند في تجريدة أخرى عند الفجر، فتسللت مع غول الحق إلى ذخالر الأمير، فأخذنا ما أخذ منا، وفوقه بعض المال غنيمة، وإذا بالجند يدركوننا، قبل أن نخرج من الحصن، فأشعلت النار فيما حولي من قماش وحرير، والتهبت في لحظات كل نفائس الأمير، فأمر جنوده بهلع أن يرتدوا عنا لإطفاء الحريق، فخرجنا سالمين والحصن خلفنا جمره من نار جهنم.

ولكن الخروج الظافر له ثمن، فقد طلبنا الفرنجة في كل مكان، مذهبولين من أولئك الذين تجرءوا على حصونهم، وأشاع الناس أن غيلانا حمرا هاجمت الفرنجة، وانتشر الخبر بأسرع من البرق، فما نزلنا في بيت إلا وكان أهله يتسامعون بمجيء الفيلان الأحمر إلى هذه النواحي!

ثم أتينا لطريق بين الجبال، أغلقه في وجوه الناس فئة من الروافض، فحاولنا شق طريقنا بينهم بالقوة، لكن القتال طال، وأتوا بالمزيد من جنودهم.

جروب " ربيع الكتب "

فارتدت بمن معي . وامرت أحد أبناء الشيخ عمران ان يشيع بين الناس بوجود
الفيلان الحمر في هذا المكان. فإذا بالفرجة يسرعون في أقل من اليوم إلى
المكان، ودار قتال عنيف بينهم وبين الروامض، وخرجنا من بين الفريقين إلى
طريقنا سالمين."

* * *

(38)

عند خانائ الأهبال

"وهنا دخلنا لأراضي ختات الأهبال. لم نمض كثيرا إلا وقبضوا علينا، وساقونا إلى أقرب قلاعهم مسرعين. وما أن أتينا لباب القلعة، طلب أمير الجند الذي اعتقلنا بالدخول لسيد الخان قولاي خان، فلما سئل عن معي، أسرعت بالمقاطعة قائلا:

"أسرع بفتح الباب أيها الجندي، فسيدك ينتظرنا، ولولا أمير الجند الأحقق هذا لما تأخرنا عنه كل هذا الوقت!"

فتح أمير الجند فمه ليتكلم، لكني أسرعت بالقول:

"أخبروا الخان العظيم إن رسل القائد الأسود أتت تطلب المثل بين يديه."

بهت الحرس، وأسرعوا للداخل، بينما وقف أمير الجند مندهشا، لا يدري ما يقول. أما أنا - الأسير - فقد أخذت أتكلم، وأرسل الأوامر، وأتحدث بثقة وتفاد صبر، فلم يجرؤ أحدهم على مراجعتي!!

ونجحت حيلتي المجنونة!

كنت قد عزمت على أن أزعج كوننا رسلا للأسود، مثلما ظن الناس بتيemor في الزرقاء. ومن حسن حظي، إن الأهبال كانوا ينتظرون بالفعل رسولا من الأسود! فادخلوني والشيع عمران إلى الخان في قاعته، فبدأت بالانحناء له والتحية.

"تحياتي أيها الخان العظيم من القائد الأسود."

رد علي متجهما:

"لقد أرسلنا إلى قالك هذا. بلا رد."

الأهبال قوم عمليون، لا يضيعون وقتا في التحيات. والسخافات. ولا يتأثرون بالقاب التفخيم. التي يسبقها على نفسه كل فسل من امرائنا! ونظرة واحدة للقاعة حولنا. تكفي لنترك هذا. مجرد اثاث بسيط. لا يريد عما تجده في اي بيت ميسور الحال. يخلو من الإخارف والنفالس المعتادة في قاعات ملوكنا وامراءنا

على اي حال كان ردي على قولاي خان عمليا هو الآخر اشترت لأحد الخدم فادخل تيمور حاملا درع الفول الاحمر. وانحبت مرة اخرى. وقلت:

"تاخرنا قليلا. لاني كنت اطارد زعيم الفيلان الحمر وهذا درعه، امرني سيدي بحمله لكم. وللخانات العظام. دليل قوته وبطشه. وانه لا يجرؤ على الوقوف صده احد، الا من حاقت به المهالك"

قاطعني الخان.

"إلى آخره إلى آخره! ما يهمني هو إن هناك بالفعل غيلانا حمرا أعلنت التحدي."

سألته بحذر:

"لا أظن أن حدثا كهذا يهز الحلف المجيد بينكم وبين سيدي؟"

رد بسخط:

"نحن لا نخشى الفيلان، ولكن تكتم سيدك الأمر عنا يفضينا! لقد عرفنا من أفواه العامة هنا بوجودهم. قبل مجيئك بزمان! رغم إنكار سيدك."

احسست أنهم بالفعل قلقون من الفيلان الحمر. فاردت أن أطلق سهمي على يصيب. وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى.

قلت:

"مولاي يهدكم بسحق الفيلان سحقا، وهم لم يعودوا بذئ الشأن، ويؤكد لكم إنكم إن نصرتموه، فسيزيد لكم من مكافآته."

ونظرت لعينه، فقرأت في وجهه إنه فهم ما وراء الكلمات، وأنه يظن الآن أن الأسود يخشى حقا الفيلان. ويريدهم أن ينصروه عليهم. ربما يخوف هذا الأهبال، ويعوقهم في زحفهم قليلا.

قال لي الخان:

"لن أتخلي عن نصره سيدك أبدا، لو أنه جعل لي نصيبا أكبر بعض الشيء. قل له إن قولاي خان يريد الثغر الصغير خالصا له، لا يشاركه أدشاي خان فيه. عليه أن يرسل أدشاي خان لأي بلد آخر، بعيدا عني."

لم أتصور أن تكون خيانة القائد الأسود مفاجئة لهذه الدرجة، لم أتصور أنه وعد الأهبال بمدن وأقاليم كاملة، إلا فتبا له.

على أي حال، غادرت القلعة تحت حراسة جند قولاي خان، لأصل بأمان لقلعة حليفه، جواد خان، فذكرت له مثل ما ذكرت من قبل، مظهرا درع الفيلان. وغادرت قلعته منحرفا عن طريق طرابل، ابغي قلعة أدشاي خان.

ومينما كنت أحدث أدشاي خان بمثل ما حدثت به غيره، أظهر تيمور فطنة لا بأس بها. فقد تجاوب مع حديث الخدم، الذين يستنطقونه. وهذا فن من التجسس، برع فيه الأهبال كثيرا، حيث يصادقون الخدم بالخدم، ليعرفوا أسرار السادة، ولما كان تيمور في زي الخادم أمامهم، فقد سرب لهم كأنما بغير قصد قول قولاي خان، وطلبه الانفراد بالثغر الصغير.

كان أحد خدم جواد خان قد أخبره، حينما سأله عما يدور بين الأهبال من حروب، إنها لن تعيقهم عن نصره القائد الأسود، حينما يزحف معهم لتدمير قلاع الغرب الحصينة، لأنه وعدهم بأراضى تفوق بكثير تلك الأشبار، التي يتصارعون عليها هنا.

وظن أبشاي أن غنيمته الكبيرة ستضيع، وأدرك أن قولاي يضره له شرا، فأحدثت حيلة تيمور حربا ضروسا بين خانات الأهبال، امتدت لقلاعهم جميعا!

* * *

(39)

حكاية السدين العظيمين

"كان علينا، في طريقنا إلى طرابلس، أن نتعد عن معارك الأهبال، وجماعات الفرنجة، التي ترتزق من الحروب بينهم، لذا قادنا نشيخ عمران إلى طريق بأعلى الجبال، يقود للمدينة مباشرة. وكان علينا أن نصعد جبلين، يسميان بالسدين العظيمين. الأول يدعى بجبل الحالكين، والثاني هو جبل الضائعين. ولم تبد لي الأسماء مبهجة ومريحة لمن يرغب في صعودهما؛ لكنه هون الأمر علي، وحكى لي عن سبب التسمية."

39- 1 (حكاية جبل الهالكين)

أما جبل الهالكين، فبزعمون أنه كان يعيش عليه غول عظيم، وحش ضخم يهبط من الجبل كل ليلة، ليصطاد البشر ويأكلهم. وكان له أعوان، وأتباع، وقصر كبير فوق الجبل، جعله مستقرا ومقاما لكل أعمال الشر.

دخان قد سخر في خدمته ساحر عقود، منغمس في الكفر، يتعبد ويسجد لشيطان مريد، ملك من ملوك الجن الأشرار، عليم بالسحر والكفار، يمدّه بالألعاب واللعنات.

وذات يوم، قرر ملك طرابلس تخليص بلاده من شر هذا الغول بنفسه، فسار بجيش ضخم نحو الجبل، وحاصره.

وأرسل الغول إلى خادمه، فطلب منه سلاحا عظيما، يسحق هذا الجيش الكبير. وبحث الساحر الملعون في فنون الشر، وكتب القدماء، حتى عجز. فطلب معونة من معبوده الشيطان.

فمنحه الشيطان حجرا صغيرا، في حجم قبضة اليد. ذا لون احمر. يعلوه بريق ذهبي عجيب، وقال له:

"هذا هو حجر الهلاك. ما ان ينظر له بشر، حتى تتعلق عيناه ببريقه الذهبي. فيملأه الجشع، وإذا ملأه الجشع، سعى للفتك بكل من حول،ه وبعدها يموت. ويتحول قلبه لحجر يشبهه.

أخذ الساحر الحجر فرحا لسيدة الفول. لكنه احتقره واستهان به، وألقاه بعيدا وسط أحجار الجبل، وطلب من ساحره إعداد سلاح حقيقي جبار، يدمر العشرات.

وهنا التقطه واحد من الخدم، فنظر له. فإذا بالحجر يسلب ناظريه، ويحرك فيه الجشع. فذهب المفتون لسيفه، فاغتال الفول والساحر، والتف حوله الأعوان فقتلوه. وانفطر عنه قلبه، الذي تحول لحجر جديد، أمسكه أحد الأعوان، فنظر له، فأصابه بمثل ما أصاب سابقه، وسرعان ما أخذ جند الفول يقتلون بعضهم بعضا. حتى هلكوا، لم يبق إلا آخرهم رجل واحد.

وحينما هجم جند الملك على القصر. لم يجدوا إلا هذا الرجل، فاستنطقوه ليعرفوا ما حدث، فحكى لهم عن حجر الشؤم هذا.

وعندها أصاب الملك الحيرة. لم يدر ماذا يفعل ليرفع بلاء الشيطان هذا عن مدينته، وبينما كان في حيرته أتته زوجته فسأته عما يهمة فقال لها:

"هذا الحجر القاتل، لو تركته في الجبل، فقد يأتي شخص ويناله، لينزل بالبلاء لمدينتي. ولو أرسلت جندا لجمعه، فسيهلكهم."

فردت الزوجة الحصيفة:

"دع عنك الهم يا مولاي، فالأمر بسيط. أرسل لجمعه أناس لا يستهويهم الذهب، ولا يحرق قلوبهم الجشع، ولا يقوون على الفتك."

فقال لها متحيرا:

"وهل يوجد مثل هذا بين البشر؟"

ردت:

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

"لعم! ارسل صدقة صغارا لم ييلفوا الحلم بعد هؤلاء اصعب على الشيطان من الجند المحد ، واد اصاب احدهم مثل هذا الجبون. فلن يؤذى احدا بضعفه وفدرة جنودك ليه

مارسل الملك ، نل ص بية طرايل. يبحثون عن قلوب الرجال المتحجرة. عجمها جميعا واحرقها فر النار. وألقى رمادها في البحر ليخلص منها.

ولكن قيل ان جبارا احدا يقم بجب الحجر الاول. الذي اتي به الشيطان للساحر فقد بقي في مكانه ، لأول بين احبار الجبل

في يومها خرج عشرات الملوك يبحثون عن حجر الهلاك هذا يرسلون العبيد والاطفال يح عنه يبقون به ندمير اعدائهم ومع مرور الزمن ابرك الناس انه لو خرج ملك لهد الجبل فاما هو ينوي الحرب فريبا لدرجة ان الاعداء والخصوم اذا عزموا بريارة غريمهم للجبل. يترصدون له ميقتلوه واصبح الذاهبون للجبل يهلكون دوما. فسمي بجبل الهالكين.

وقد قيل غير ذلك وانما كان بالجبل معبد قديم. من أيام الكفر. يحج له ملوك طرايل قبل الحرب. يستعينون بقوى الشياطين التي تخدمه. ولكن تلك القصة منبوذة عادة بين الاهالي.

* * *

(2-39)

حكاية جبل الضائعين

كان جبل الهالكين سهلا في تسلقه، والنزول منه، رغم إتلي لم اعتد هذه الجبال العالية، ذات القمم الثلجية. لكاه كان أيسر بكثير من جبل الضائعين، الذي كانت أحجاره خشنة، وتربته مفككة، تنزلق من فوقها بسهولة.

وحكى لنا الشيخ عمر حكاية هذا الجبل. فقد قيل إنه كان يعيش فيه راعية للفنم، فتاة هادئة، على قدر من الحسن، تعول أسرتهما، بعدما قتل أخوها في تهمة سرقة، اتهم بها أحد النبلاء أهل قريتهما.

وذات يوم، شاهدها ابن أحد الأمراء، وهي ترعى الفنم وحيدة في الجبل، فظننها فريسة سهلة، واشتهاها.

لكن الفتاة قاومت به شراسة، وهوت عليه بعصاها، حتى أجبرته على تركها. ثم أسرع للمدينة، تستغيث برئيس الشرطة.

ولأن المجرم ابن أمير، فقد طردها شر طردة، فذهب عن ابن الأمير القلق، وزاده هذا البطش جراً، فأعاد عليها الكرة، ليجد خنجرها في انتظاره، قد زاده الظلم حدة.

دفنت الفتى، وهربت عندما أتى أهله يطلبونها للتأري. فصعدت لأعلى الجبل، وهم وراءها متعطشون للدم، لكنهم حينما وصلوا لقمة الجبل لم يجدوها.

كان هناك نبع ماء لم يره أحد في المكان من قبل، وعندما حاول أحدهم ان يدس رأسه في الماء، ينظر بحثاً عن الفتاة أتكون غرقت فيه، انحسر الماء

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

بهيدا عنه، وارتجف، وعلا فوق الرؤوس منذرا، فتراجعوا حالرين، ونزلوا من
الجبل متحيرين.

وأرسل الأمير رجالا آخرين، يبحثون عن قاتلة ولده، فما وجدوها، ولا وجدوا
الينبوع المزعوم.

وهنا أتى أحد الأولياء، فقالت إن الفتاة زلرتة في المنام، وأنها لكونها بريئة،
فقد فتح لها في الينبوع بابا للجنة، مرت عبره.

وزعم أحد العرافين للقوم إن هذا الجبل - فيما يقول الأقدمون - ينبوع الشباب
الدائم، وأنه حتما هو ما راه الناس الباحثين عن الفتاة.

ومن يومها، يخرج للجبل الملات، إما مظلوم هارب مصدق للوليّ يبحث عن باب
الجنة، أو طماع عجوز مصدق للدرويش يبحث عن الينبوع!

* * *

(40)

الوصول إلى طرابلس

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الغيلان:

"كنت منكم، أشعر كأننا مائة رجل اجتمعوا على، بمقارع من حديد، يدقونني.
ليس من السهل صعود جبل الضائعين، ولا من اليسير النزول منه.

لكننا فعلناها، حقا فعلناها، وأصبحنا على مشارف طرابلس. لبثت - رغم لهفتي
- ثلاثة أيام بعد النزول من الجبل، استجمع قوتي، زاعما لأصحابي أنني انتظر
قليلا حتى تخفت أنباء وصول رسل الأسود للأهبال، حتى لا يخشانا الناس
يظنوننا هم.

ثم ذهبنا لقرية قريبة من طرابلس، تتحسس الأتباء فيها أولا، وأهل القرى عادة
أقل حذرا وحرصا في الحديث من أهل المدن، الذين اعتادوا الحروب، والحصار،
والجواسيس. فعلمنا أن أعدادا من الأمراء، والمماليك، والقتلة الماجورين
توافدوا طوال الشهور الماضية على كل القرى حول طرابلس، يتحسسون
الأنباء، ويسألون عن الوريث. ورغم أن حاكم المنطقة أغلق أبوابها في
وجوههم، لكن بعضهم تسلل لداخلها، وقبض عليهم، الحرس، فآلقوهم
خارجها بعد تجريسهم.

وكما توقعت، نال المتآمريين خيبة أمل عظمى، عندما سبقوا في الوصول، ثم
وجدوا أنفسهم متحيرين، لا يدرون عم يسألون! لو كان بالي راثقا، لقضيت
وقتا في الشماتة. لكني اليوم أتعرض لمثل اختبارهم، لا أدري أستطيع
الوصول للوريث، أم ارتد خالبا مثلهم.

انتقلنا من القرية تجاه المدينة، وحذرنا بعض التجار من وجود الكثير من الرجال
الخطرين حولها، فيبدو أن الأمراء عندما ارتدوا على أعقابهم خائسين، خلفوا
وراءهم عددا من المرتزقة الشرسين، الذين أخذوا يحومون حول المدينة بحثا
عن أي أثر للوريث طمعا في مكافآت مرصودة.

كما علمنا أن سفارة من القائد الأسود، رفض الحاكم إدخالها للمدينة، بقيت
كامنة في الجبال، متربصة، تراقب الطرق من جهة الجنوب المؤدية إلى البحر..
لحسن الحظ أننا أتينا من الشمال برا، وإلا لعلم الأسود بوصولنا.

وأخيرا طالعتنا أسوار المدينة العتيقة، التي راوغتني كثيرا!

أخيرا نحن داخل طرابلس! ياه! كم كانت تبدو لي بعيدة، كما لو كانت في آخر
الدنيا! لقد ظننت أنني لن أصلها أبدا، وأن طريقها لا ينتهي! لكنني الآن في
قلبها أخيرا، ولله الحمد.

بحثنا عن بيت ننزل فيه، فاستأجرنا حجرة قريبة من مسجد المدينة الكبير، لدى
تاجر يهودي. ولبثنا أياما تتردد على السوق، مثل كل التجار، ونواظب على
الصلاة في المسجد، حتى ألفنا رواده. ولما أحسست أن الناس قد لرتاحت لنا،
وزال التربص من عيونهم، ذهبت للإمام عقب صلاة الجمعة، أسأل عن الشيخ
زعفران، الذي أخبرني الحكيم وهدان إنه من أوى الأميرة سارة.

دلني على منزل أكبر أبناؤه، وكان اسمه سلمان. ويعمل كاتباً في قصر
الحاكم. واطمأنت لأمره، إذ لم يشك أحد في. وعلمت أن صيادي الأسود
بعيدون عن سلمان هذا، لم تصله ريتهم.

وهكذا سرت في الشوارع الضيقة للمدينة نحو هذا البيت، مرتدياً درع الفيلان.
وقد دثرته بعباءة أثقلها الحر على أكتافي، حاملاً رمحي الجديد، ومجمها
أشتاتي، وأحاول التفكير فيما سأقوله.

كيف أقنعهم بتسليمي الوريث؟ طوال رحلتي الطويلة أقنعت الكثيرين بكذبات
متقنات. اليوم علي مهمة أشق وأصعب، وهي إقناعهم بصدقني!

وصلت للسوق المزدهم، ومنه إلى الزقاق المجاور لقصر كبير، وفي نهايته
لاح لي الباب.

وقفت أمام باب دار سلمان، لا أدري ماذا سيحدث.

لحظات انتظار ليست كأي لحظات.

تري كيف هو الوريث؟ هل هو حي أصلاً؟ هل سيصدقونني ويأتمنون لإخلاء
نواياي؟

فتح الباب لنا.

الآن، في هذه اللحظة، انتهت رحلة الذهاب الطويلة.

والله وحده يعلم كيف سيكون الإياب.

(41)

ففي بيت سلمان

“فتحت لنا جارية حمقاء الباب. وما أن رأتنا. حتى أسرعنا إلى الداخل تصرخ في فزع!

بدا القلق على تيمور. فأشرت له أن يثبت مكانه. وانتظرنا حيث نحن أمام الباب المفتوح هادئين. ثم أتانا شاب صغير. فبادرته:

“السلام عليكم ورحمة الله وبركاته يا أخا الإسلام.”

نظر لي بجمود، قبل أن يرد السلام ببطء، ويقول:

“هل تريدون أمرا ما؟”

رددت مبتسما، بأقصى ود استطيعه:

“نبحث عن سلمان ابن الشيخ زعفران.”

لم يرد في البداية، ولمحت يده لتحرك من خلف ظهره، وظهر جزء من مقبض سيف. يحاول إخفاءه عنا.

فأكملت بهدوء:

“أرجو أن يكون بخير.”

لاذ بالصمت مرة أخرى. لكن فزع أهل الدار طمأنني بأنني أصبت المراد أخيرا.

حتما هناك وريث، وهم يحمونه. بل لعل هذا الشاب هو ابن الوريث الأمير البطل، الذي سيقا تل الأسود إلى جوارنا.

وانترعني الشيخ عمران من احلامي، فقال بنفاد صبر:

"يا فتى اتينا من رحلة طويلة. على الأقل هناك حق الضيافة لنا عليك. أين والدك لنحدثه؟"

بدا الحرج على الشاب. ثم لم يلبث أن قادنا لحجرة الضيوف. فأجلسنا فيها. وخرج مفلقا خلفنا الباب بإحكام، وانتظرنا ونحن نسمع صليل السيوف. كلما مر أحد قرب بابها.

وأخيرا أتانا سلمان هذا.

ألقيت عباءتي من فوق. وقدمت نفسي له:

"أنا القبيل زعيم الفيلان الحمر. وهذا دليلي الشيخ عمران من بني سليم، وهذا ساعدي الأيمن غول الحق."

ثم أشرت لتيemor وقلت:

"وهذا شخص من ساوة."

نظر له سلمان باهتمام، نزل على قلبي بردا وسلاما، وقال:

"سمعنا نبأ عن الفيلان الحمر. وحربهم مع الأسود، ولكن لا أدري ما شأن هذا بشخصي الضعيف؟"

قلت:

"هذا هو تيemor ابن زهير ابن تيemor العلاف."

وصمت للحظة لرقب وقع الاسم عليه، ثم أكملت:

"أتينا بحثا عن وديعة، كانت عند الشيخ زعفران. وديعة لها حق القربى عند أهل ساوة، وحق النصر عند الفيلان الحمر."

قال بقلق:

"وما أدراني بصدقكم؟"

قلت:

"لو كنا من الفرسان الصيادة، لما أتينا نطلب الضيافة، ونلوذ بالصبر في انتظارك، بينما يتسلح كل أهل البيت! ولا نتمهزنا فرصة الباب، الذي ترك لنا مفتوحا، واقتحمناه عليكم. ومن غير الفول الأحمر سيزعم إنه كذلك؟"

بدا عليه التردد، فأكملت:

"لعلك سمعت بما وقع بيننا وبين الفرنجة، وبأن الأهبال يطلبون رأسي. أي مجنون يتحل شخصا محكوما عليه بالقتل؟ ومن غير أهل ساوة، سيعلم بنبا الشيخ زعفران؟"

التقط نفسا عميقا قبل أن يقول:

"أقسم على ما تقول؟"

قلت متحيرا:

"وما يفني القسم إن كنت ممن يستمرءون الكذب؟" ثم أقسمت له ثلاثا إنني لا أبغي بالوريث إلا الخير، وكذا فعل من معي.

قال لنا:

"أتعلمون أنني أعمل كاتبا في ديوان القاضي؟ أعلم جيدا، من طول ملازمتي للمتخلصين، كيف أفرق بين من يقسم كذبا وهو متردد، وبين من يقسمها بلا وجل لاعتياده على اليمين الفموس، وبينهما وبين من يقسم صادقا مخلصا.

منذ يومي الأول في هذا العمل، تعرضت للمقسمين الثلاثة، وطالما رأيتهم يتكربون أمام عيني، حتى خبرتهم، وعلمت أن حلفهم لا ينفعهم ولا يداريهم."

(42)

حكاية المقسمين الثلاثة

يقول سلمان الكاتب ابن زعفران:

"كان هناك تاجر من السور العلي، اشترى بضائع من أحد تجار طرابلس بالأجل، وتخلف عن دفع باقي ثمنها، فأتاه يختصمه عند القاضي. ولأن البيعة على من ادعى، ولم يكن هناك شهود فقد ألقى القاضي باليمين على المنكر، وهو تاجر السور العلي.

أقسم إنه قد سدد الثمن كاذبا، لكنها كانت كذبه الكبرى الأولى، وقال لي القاضي:

"أنظر كيف يتعثر لسانه في عراقيل ضميره؟ لكنها شهوة المال يا سلمان! وما كان لنا أن نقضي بغير البيعة".

عاد التاجر لبلاده فرحا بالفنيمة، فإذا بالأهبال يعترضونه، فسلبوه الفنيمة وروح حاملها!

وأما الثاني فكان حمالا في السوق، احترف الكذب، واعتاده يسرق الناس. أتى يقسم بغير وجل، وقلب ثابت، فمال علي القاضي يقول:

"أترى يا سلمان؟ روحه ماتت من كذبه، فتجد قسمه باردا ميتا مثلها".

وما كان قسمه لينفعه. لشهرة كذبه، وسوء أخلاقه. فقبل القاضي فيه شهادة الشهود، وقطعت يده حدا.

وأما الثالث، فاتهموه بسرقة ناقة خصيم له، كان بينهما ثار، أكاد أقسم إنه كان ينوي الاعتراف بالجرم تباهايا. ونكاية في عائلة خصمه، لكن القسم أهابه، فأقسم إنه لم يفعل. ورغم شهادة الشهود الزور، إلا إنني أحسست بصدقه، فأوصيت القاضي بالصبر والتثبت. وأرسلنا الجنود يتحرون، فعثروا على الناقة في سوق الجمال، لدى تاجر آخر!

(43)

وديعة الوريث

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"أخذ سلمان قسما وصدقته. ثم سألنا عن أخبارنا، وأحوال بلادنا. فعددت هذا علامة طيبة. وأنه سينقل قولنا للوريث. ثم سألنا:

"وماذا ستفعلون إن وصلتم لما تبغون؟"

قلت بحماس:

"ندافع عن الوريث قدر استطاعتنا، ونحميه بأرواحنا، حتى يصل لبلاده، وياخذ ميراثه وحقه. على أن يعاهدنا أن يكون حاكما عدلا، يقف ضد الفرنجة والأهبال."

مط شفتيه، وبدا عليه التفكير الشديد، ثم قال:

"لا أستطيع نفمكم اليوم. والأمر يحتاج لتبيان، واستيثاق، ومشورة. اتنوني غدا بعد صلاة الظهر، في مجلس القاضي بقصر الحاكم."

رحلنا مستبشرين، تحفنا السعادة، والإحساس بالنصر! أقول لكم إنني قضت ليلتها في احتفال هادئ مكتوم، لكنه مبهج، مع تيمور وعمران وغول الحق. ومضت عليّ اللحظات ثقيلة، ولم نطق صبرا، حتى أتى الميعاد، فسارعنا لقصر الحاكم متلهفين. وأدخلنا الحرس، بعد تفتيش وتمعن، وسألنا عن سلمان،

جروب "ربيع الكتب" .

فقادونا لمجلس القاضي. الذي ما إن رأنا. حتى أمر بصرف الناس. وإخلاء القاعة.

نظر لنا القاضي بعين ثاقبة. وقال:

"ما شأنكم؟"

قلت بقوة:

"أتينا نبغي عودة آخر أمراء بيت ملكنا إلى بلادنا. ليحكمها."

قال:

"أليس بينكم من يحكم غيره؟"

قلت:

"لم ينل الميراث غيره. ولم ينل الولاية من الخليفة غيره. وما بقي غير القائد الأسود. يعيث في الأرض الفساد. ويسلم الثفور للفرنجة والأهبال. لكن الكثير من الأمراء، والشيوخ، وحتى العوام، اتفقوا على أن يبايعوا ابن الملوك. وسليل الخلفاء."

قال ساخرا:

"الأمراء والشيوخ والعوام. الذين تتحدث عنهم. هم من خرجوا يطلبون رأس كل أمير في بلدك. حتى لم يبقوا إلا على سارة المسكينة."

قلت:

"كان هذا عهد رعب ودمار. وأيام جاهلية، ولأقلها صراحة. فلم يكونوا ملوكا عادلين. لم أت لمبايعة الهريث ملكا. وإنما أتيت لأبايعه. بشرط الحكم بالعدل. وشريعة الله."

صمت القاضي. وأشار لأحد الحجاب. ففتح بابا صغيرا خلف مقعد القاضي. ليدخل منه شخص جليل. يرتدي ثيابا غالية. ويبدو عليه النعيم والهم معا.

كان هذا هو حاكم طرابلس بنفسه!

وكان يحمل صندوقاً من الصدف. فتحه ليخرج لنا منه لفافة. وضعها في يدي.
وقال:

"قلت لسلمان إنك أتيت تسأل عن الوديعة؟ هذه هي الوديعة التي كتبتها
الأميرة سارة. تخشى أن تموت. فلا يعرف وليدها أباه. وحكايتها معه. لك ان
تقراها."

فضضت اللفافة. لا أدري ما أهميتها. وما نفعها بشائي. وبدأت أتلو ما بها
بصوت عال. ليسمعني رفاقي."

* * *

(44)

حكاية الأميرة سارة

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"قرأت ما كتبت الأميرة سارة، فإذا بها تقول:

"كنت ضائعة في قصري. مفقودة لا يبحث عني أحد، لا أعلم شيئا مما فيه، ولا يدري بي أحد ممن فيه.

كنت فتاة ولدت في قصر أمير. يا للتعاسة، فهي لا تملك من الجمال شيئا، تميل به قلوب الرجال. فكنت لوالدي، الأمير الثري عدنان، تجارة راقدة. لا أنا بالولد، الذي يعينه، أو بالجميلة، التي يزوجها لحليف ينصره.

بين نساء القصر، كنت ابنة الجارية. وكانت تلك الجارية، بصيرتها النافذة، تحس بمصيبتني، قبل أن أدركها. لذا، فعندما كنت أشكو لها عسري في القراءة، تقسو علي، وتقول:

"يا بنية، ليس لك سواه، يجب أن تكتبي، وتقرئي، وتعلمي."

أرد والدموع مرة في فمي:

"لم يا أماه؟ أنت لا تقرئين، وحتى مولاتي، الأميرة فادمة، لا تقرأ."

كان علينا أن نخاطب زوجة أبي بمولاتي دوما، سواء كنا عبيده أو أبناءه من غيرها.

ترد أمي بحزم:

"يا ابنتي اعلمي قدرك. بين الأميرات، أنت بنت الجارية، وبين النساء قبيحة، ولن تنالي من مال أبيك شيئا، طالما كانت فاطمة وأبناؤها أحياء. لا أملك ما أحفظك به من الضياع إلا هذا، هم أهملوا العلم، فعليك بغيرته."

كانت أمي ترجو أن تراني خيرا من أقراني. لا أدري هل أملك من الذكاء نصيبا أم لا؛ لكنني حتما لا أطاول عقل فاطمة الجبار، ومهما فعلت، فساظل في القصر مجرد فتاة. فتاة أدنى من إخوتها نسبا وجمالا.

تلك كانت قيودي، وهذه كانت أمي تحاول أن ترفعها عني. كانت العبودية تحرقها، فترغب في جعلني حرة. حرة من الجهل، ومن ضعف الأنوثة، ومن الحاجة للثام لن ينصروني. فتتظر حولها بقلّة حيلتها، فلم تر إلا مؤدب الأمراء، الذي لهت عنه أخواتي، وعصاه، التي توصيه باستعمالها كلما أخطأت!

وهكذا، طوال ما كان من حياتها القصيرة، مضت طفولتي في قصر أبي. وقبل أن أغادر أطلال الطفولة، أتى الهول يحرقها.

يزعمون أنه لولا الأهبال، وزعيمهم المسمى بالهول، وسيفه الذي كان يفتك بعشرة فرسان بضربة واحدة، لمضى ملك أبائي دهورا آخرى.

لكن هذا في علم الغيب. إذ أذكر من شظايا الطفولة، تلك الكلمات عن إن الملك قد أصبح وحيدا، لا يقيم ملكه إلا على حفنة الفيلان الحمر، التي تجاهره بعدم الإخلاص، وتعلن على رؤوس الأشهاد، إنه يوم يأتي زعيمهم ليتبوا العرش، فلن يجد من يقف دونه، لأن حتى الملك، لا يملك إلا جماعة الفيلان الحمر.

عهد عجيب هذا الذي بين الملك وتلك الجماعة. يساعده على الحفاظ على ملكه، على أن يأخذه لأنفسهم حينما يريدون. لم أفهم في حمق الطفولة المفزى، فقد كان الملك لنا مخلوقا مخيفا جبارا. كان قوة مهولة ترهب أباءنا. الأميرة فاطمة تفرعني، لكنها تفرع من الملك!

أذكر حينما كنا نجتمع لوليمة، كنا الأطفال نحتشد للهو، لا فرق بين أمير وخدام، أو بنت ملكة وبنت الجارية، إلا الشهابي.

عندما ننظر له، ونقترب منه لندعوه معنا، تنهرنا أمهاتنا ويقولن: "إلا الشهابي. هذا ابن ولي العهد، وسيرث الملك يوما".

لكن حينما تتابعته الخطوب. ظهر إن هذا الملك العظيم. ليس إلا رجلا عاجزا
احمقا. استهان بأعدائه على أخوته. عليهم يؤخرون ساعته. ولكن أجل الله إذا
جاء لا يؤخر.

كنت ألهو كعادتي في برج القصر. أكسر في بعض من أطباق المطبخ! وارمق
زهور الحديقة البديعة. أرنو للهو فيها. إن سمحت لي مولاتي فاطمة.
متى كان الوقت؟ أظنه ساعة احتضار الشمس. حيث كانت السماء تبكي.
وأظنها تبكي على النهار السريع. بينما البكاء العظيم يتأهب لغزوي.
سمعت صخبا وجلبة. فنظرت من النافذة. لأشاهد مشهدا بدا لي مخيفا.
اعداد كبيرة. وحشود غاضبة تصيح بالمقت والبغض. وهي تحاصر البيت.
لا أدري ماذا فعل أبي ليفضبهم. لم أفهم لم بدا لهم الكره فضيلة. فلم
يكن عقلي ليستوعب مثل هذا الحقد. الذي ولد من الظلم ليلد الظلمات.
وجدت هر جا ومر جا. وسمعت ولولة وصراخا. بينما العبيد والجواري يجرون في
رعب لا أول له ولا آخر.

كان الناس قد نصحوا أبي بالهرب بنا. لكن نفائسه لم تهمن عليه. وجواهره
أثقلت قدمه. فأمر بالصمود. وأرسل يطلب عون فرقة من الفيلان الحمر.
قالوا له: "لن يصلوا اليوم أبدا. وليس عندنا من طعام يكفي حصارا. ولو لليلة".
فأمر بإطلاق كل الجواري والعبيد.

هكذا ببساطة. طرد حيوات كثيرة لذئاب الموت الجائعة. دوما ما كانوا
يتجاهلونني. لكنني لم أتصور أن يتترعوا مني أمي. ويلقونها خارجا.
ترى هل ظنهم الثوار جنودا يطلبونهم. أم أن الحقد أعمى القلوب والأبصار.
فهاجت الفلوس والسيوف. لا تطلب إلا اللحم الممزق.
وأمام عيني الذاهلتين. رأيت طوائف الجواري. اللاتي عشت بينهن. تؤكل صفا
تلو الصف. وأمي تصرخ بقلب بي معلق. وعين على أختها دامعة. ويد لنجدتها
عاجزة.

لا أدري ما حدث. آخر ما أذكره مشهد أمي ترفع يديها. فلا أدري ألتستعطف
الظالمين. أم لتتقي السيوف. أم لتدعوا رب المستضعفين.

وأفقت على نفسي أعدو خارج القصر . بل مبتعدة عنه. يفمرني العرق، وتتقطع
أنفاسي تعباً وفزعاً.

أهربت، أم حملتي الملائكة فوق الجموع؟ لعلها دعوة أمي الأخيرة أن أنجو.
وليس بين الله ودعوة المظلوم حجاب.

وجدتني في ساحة لا أعرفها، فنظرت خلفي، لأرى برج القصر، الذي كان مثوى
لعيي ومرعى طفولتي يحترق، فقلت مذهولة:

"بيتي، بيتي يحترق. وابتاه!"

فعرفني أحد العماليك، فهتف بمن معه:

"تلك عدنانية، فافتكوا بها."

تصلبت في مكاني، لا أدري مهرباً، وربما لا أريده. لكنهم لم ينالوني أبداً.

كانوا جماعة من الفيلان الحمر استتقذوني من بينهم، وأعملوا فيهم السيوف
والرماح، كأنها هي نار تحرق جنوداً من أوراق.

قبلها كنت أكره الفيلان كثيراً.. أصحاب الوجوه العابسة، والأصوات الصاخبة،
الذين يخطفون الأطفال من أهلهم، لا أدري لعلهم يأكلونهم!

لكن تلك الزمرة كان بقلوبهم شيء من السراحة، وبأحدهم من الشفقة ما
يكفي لنجدتي. قالوا لأصحابه:

"أرايتم تلك الفتاة التعسة؟ قالت وابتاه، وليس واقصراه.. حزنت على السقف
الذي ظللها، بدلاً من القصر الذي أمتعها."

رد آخر:

"دعك منها ولنمض."

فرد عليه:

"وبأي ذنب تقتل تلك البريئة، التي لم تبلغ من العمر ما تحبس به الذنوب؟"

رد عليه زميله:

"ما ذنبها! إنها أميرة."

قال الأول:

"أميرة؟ هي مجرد فتاة صغيرة، لن ترث من الملك الذي ضاع شيئاً يا إخوتي."
كان الفيلان ينادون بعضهم بعضاً دوماً بالأخوة، لا أدري لم. حينما كنت أصغر
سناً، كنت أتسائل عن هذا الأب، الذي أتجب وربى كل هؤلاء!
لكن أخوتهم الفامضة تلك قد احتضنتني، بخير مما فعل أبناء أبي رحمهم
الله.

مضوا بي متحيرين، واحدهم يقول، وهو ينظر للقصور المنهوبة حولنا:
"ها قد ضاعت البلاد، وأسفاه! لو علم الفول الأعظم نبأ تلك الفوضى! كم
يكره التفلت، فإذا به قد فاض على كل ما عداه."
رد عليه زميله:

"أظن ذلك؟ قد كان من أكبر الساعين لهذه الفوضى. ألم يضعف شوكة
الملك، ثم أعانه على خصومه. اليوم إذ يفزونا الأهبال، لم يجدوا من يردهم،
فضاع كل شيء، ومعهم الفول الأعظم نفسه، هو والقادة السبعة."
قال الأول:

"أتصدق تلك الأنباء؟ أحقا قتله الأهبال؟ يزعمون أن كل إخواننا سيخرجون للثار
من العول وجنوده."

تدخل شخص آخر في الحديث، وهو يسأل بصوت يقطر سخرية:

"أي إخوان؟ الذين اسموا أنفسهم بالمولودين؟ قد اشتد عودهم وخروجهم،
حتى لأزعم أنه لم يعد في الفيلان غيرهم، هم ومن وقع في حبال مكرهم.
إن هو إلا وقت يسير، حتى يخرجوا عن نهج القادة السبعة، ويمزقوا كتاب
الشجاعة."

رد عليه بصرامة، هذا الرجل ذو الشفقة، الذي راف لحالي:

"الفيلان واحد، وإن هم شقوا، فلا تشق أنت عنهم. لو بقينا هنا، فلن يهمننا من
هذا الأمر شيئاً، لأن الهلاك حولنا. لتعقد أمرنا أولاً، ونعرف ماذا نحن فاعلون."

رد عليه هذا الساخر:

"وهل بأيدينا غير أن نخرج الفتاة من الحاضرة، وندفعها إلى عجوز فقير تتفجع
بما عليها من جوهر وحرير، وتنفعها بالماكل والمامن؟"

وهكذا مضينا نخرج من المدينة، التي يحرق سوادها بعضه بعضا. وكل حين وآخر، يبرز لنا جمعا من سفاكين، أو نهايين، أو من المماليك المتعطشين للدم، لكنهم يفرون سريعا ما أن تظهر لهم دروع الفيلان الحمراء.

وعندما توغلنا في الليل، اتتحوا معي جانبا من أطلال قصر متهدم، لم يبق فيه ما يسلب، لكي ننال الراحة. لكني ما نلت منها شيئا، إذ انكشيت على نفسي في ركن حقير، انتظر أمل الفجر بصبر نافذ.

واتت شعلة الفجر أخيرا. وعقب الصلاة مباشرة ارتحلنا، فإذا بي أراه أمامنا.

كان مرتجفا باردا مترددا، يقدم رجلا ويؤخر أخرى. ينظر برجاء للفيلان، وبخوف لأسلحتهم. عرفته ولم يعرفني، فهتفت عليه:

"يا شهابي! إلى هنا.. هلم، فسيحموننا."

نظر لي الفيلان مبهموتين، وقال أحدهم:

"الشهابي؟ اتعنين ابن ولي العهد الأمير الشهابي؟ أتجا وسط كل هذا؟ يا للعجب!"

التفوا حولنا، يتداولون مصيرنا، فقد كان أحدهم شديد الغضب وهو يقول:

"أخذ الشهابي معنا هو دعوة لقتلنا. إنه الموت لكل من يرافقه!"

رد ثان:

"بل علينا إنقاذه."

- "تالله قد أصابك الخبال. إن رؤيته مع الفيلان أشد خطرا عليه وعلينا من رؤيته وحيدا. قد أنقذه الله حتى الآن، فليس لنا من الأمر شيء."

- "بل ساقه الله إلينا لنحميه. لا نكون غيلانا حمرا. بل لا نكون رجالا، إن تركنا الصبي يقتل. أنت غول لا تخشى شيئا ولا تهاب أحدا."

- "تبا لك ولشفقتك. ألم تسمع بأن لنا إخواننا، قتلوا غلاما لأن آباءهم ثاروا علينا؟ ليس من واجبات الفول أن يحمي طفل الهلاك هذا."

- "ليس من شأننا أن نتبع هؤلاء في جريرتهم. قد أقسمنا على حماية الملك وأهله، لذا فقد أتانا يرجونا بقسمنا، فما لنا أن نحنث فيه."

حسم هذا الأمر، وإن لم ينع بكاء الشهابي. الذي سمعهم وهم يتناولون موتة وحياته. لكن قلوبهم رقت له. كما رقت لي فإذا بهذا الغاضب يقول:

"غلام وفتاة. لعله تدير من القدر."

واخذوا يتناولون عن الجهة التي يذهبون بنا إليها. فتكلم الصبي فوراً:

"إلى ساوة."

نظروا له مستكرين وقالوا:

"ساوة؟ المدينة وحصنها سقطت من زمن. أما الواحة فما شأنك بأهلها. فهم لن يحموك."

قال:

"واحات ساوة لنا بها نسيب. وعدنا بالمعونة ما أصابنا خطب."

ردوا:

"أمك رومية فأى نسيب هذا؟ ما سمعنا بانسباء للملك في غير الحاضرة. وما بالك إن كان من الفلاحين."

قال باكياً:

"لا أعلم أحداً غيره. فلنذهب إلى ساوة. هو تاجر يدعى تيمور العلاف. وقد تزوج أميرة، فنزع عنها جدي الإمارة، فقال له إن حق النسب مكفول لا يضع."

قالوا محذرين، وشبهه مستهزئين:

"الطريق يا فتانا طويل، والخطر متربص. وسنمكث كل حين في مخابلنا أياما دون طعام أو شراب. لا تتحرك وسط الصحراء، حتى نصل أمنين. وبعدها سيتبعونكما حتى هناك."

قال:

"ليس لي غيرها. لا أعلم أمراً آخر."

قالوا:

"هو غلام لا يعلم أمراً آخر. إن كان يسعى لهلاكه. فهذا شأنه. هي ساوة إذا."

وهكذا مضوا متململين متذمرين، وقد بدت دروعهم الحمراء الثقيلة أثقل من الجبال في صهد الصحراء. ولم يكن الطريق باليسير. لكنهم أحسنوا تفادي خطره، فلم نلق حرباً أو قتالاً. وإن كثر منا الفرار والتخفي. تنقلنا كثيراً بين القرى والواحات الصغيرة. وحدنا عن الطريق أكثره، حتى أتت إلينا ساوة.

وسبقتنا إليها أبناء مظلمة متتالية. عما أصاب البلاد من فتن وحروب وخراب.

ووصلنا إلى ساوة. لنجد حالها لا يختلف كثيراً. فقد فجع تيمور العلاف في زوجته زهيرة. لكنه رحب بنا، وأواتنا بين أهله، لأعرف في حياتي السعادة الحقة.

وجدت ساوة واحة خضراء جميلة. ذات حجم مهول، بها آلاف النخل، الذي يسقى من عشرات الآبار والعيون، وفي شمالها أراض فسيحة، تزرع شتاء على المطر. لتتحول إلى بساط أخضر بديع.

وهنا في ساوة عرفت معنى اللطف والكرم، الذي جهلته بين أغنياء القصور. لا يعيرني أحد بأمي الجارية، أو يقيدني أحدهم بأبي الأمير. وكان لي بين النساء شأن كبير. إذ كنت أجيد القراءة والكتابة، وهو أمر نادر بين الرجال، وفريد بين النساء. فإن رغبت امرأة فيمن يكتب لها، أو يقرأ، وما كان لها أن تدخل غريبتنا عليها، فقد كانت ترسل لي، وتنفحني تمرات شهيات، أو قطع حلوى لا مثيل للذتها.

قبل أن يحنون علي قائلات:

"أميرة يتيمة مظلومة، من نسل الخلفاء، هاربة فقيرة. عجباً لشانك."

فتعود لي ذكرى أُمِّي، فلا أمسك عيني عن دمع ذكراها.

وكبرت بينهما، لا أسمع إلا قولهن:

"سارة للشهابي، وليس للشهابي غير سارة."

وهكذا أصبحنا. لم يكن لأحدنا غير رفيقه. هل أزعم أنني عشقته؟ لا أدري لكن ما كان بيننا أسمى من الحب، وأقوى من الشهوة. كان بيننا الإخلاص لا يفتر، والارتباط لا يفصم.

كنا كل شيء للآخر في هذه الحياة، لأن كل شيء آخر قد فقدناه. فكان زواجنا حتماً مقضياً.

ورغم أننا قضينا هذا (الزواج) في لهو طفولة طالما حرم منه الشهابي. فإن
تأخر حملي، لم يشغل بال أحد. فقد كنت العروس الوحيدة التي لا تشغل
اللسنة بنهشها لهذا الأمر. فسارة للشهابي، وليس للشهابي غير سارة!

عشنا معا في رحلة واحدة، ومكالتنا بين أهل الواحة تعلو. أصبح الشهابي
محفظا للقرآن لرجال الواحة، فقد أجبره رجالها على هذا، بعد أن أجبرتهم
نساؤهم على إجباره على هذا، لكي يحفظني، وأصبح أنا قارئة، محفظتهن
أيضا!

إنها البذرة، التي زرعتها أمي بين القصور، قد أورقت، لتظلني بين بيوت الواحة
الطينية. فها أنا وزوجي، حاملا لواء القرآن لألقى تبجيلا لم أر عيدا يقدمونه
للملوك.

لذا، فحينما أتت الخطوب، لم أتعجب إذ افتدونا بدمائهم.

كان حملي بالكاد ظهر، حينما أتت قطع الليل المظلم، بنذرهما من الفيلان
الحمري.

اولئك الفيلان الذين تركونا في ساوة، عادوا فجأة بعد سنوات طوال، متوجسين
يطلبون لقائي والشهابي.

قال لي كبيرهم:

"امسكوا بأحدنا. عذبه عذابا رهيبا، ليخبرهم عن كل إخوانه، فلم يحتمل،
وأخبرهم بكل شيء يمكن أن يجعلهم يتركونه. أخبرهم عن أين يجدوا
الشهابي الوريث الهارب!"

قلت فرعة:

"أخبرهم بنبتنا؟ أليس غولا أحمر. أما استطاع الصمت."

قال لي الشهابي:

"اوليس بشرا يا سارة."

صمت، فأكمل الفول:

"أتانا إذ تركوه فرحين بالفنيمة. كان يحتضر من العذاب، فقال لنا:

"رايت حياتي كلها إفك. وشاننا نحن الفيلان غشاء وزبدا يذهب جفاء. فما وجدت. إذ أتاني ظلام الموت. ضوء غير طفلين استفاثا بي. فأغثهما. هلا أنجدموهما؟ يا إخواني هلا أنقذتم لمحة الضوء الوحيدة في حياتي."

بكى الفول حينها، فتعجبت لبكائه، فقال الشهابي:

"أوليس بشرا يا سارة؟"

نظر لي الفول بعينه الصارمة الباكية. وقال:

"هم أتون يطلبونكما. لو أمسكوكما، فسينالكم القتل حتفاً."

قال تيمور:

"سنفديهما بأرواحنا."

رد الفول:

"لو حشدت كل أهل الواحة. وكل من بقى من الفيلان الحمر، ما نفعكم هذا إلا بردهم مرة أو اثنتين، ليرجعوا بحشود أكبر لا تبقي ولا تذر. ما لهما غير الفرار."

قال تيمور:

"إذن نسرع بإخراجهما إلى أي بلد."

رد الفول:

"الشهابي طلبة كبرى. لو فر الشهابي، فسيحرقون الأرض بحثا عن وريث الملك. أرى أن سارة حبلى. فلتهرب هي بوليدها، ويبقى الشهابي يشاغلهم عنها، حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا."

لم أقبل. أنا لا أعرف غيره أحدا. عالمي باكمله لا يستد إلا على ركنين، الشهابي وأنا. يستندان على تلکم الأرض الطيبة. وهذا الفريب يطلب مني هدمه بزعم النجاة.

أي نجاة تلك أيها الفول.

كلا يا رجال. لن يكون مصيري مضافة في أفواهكم. فقد تجاوزت هذا العمر. هذه حياتي ومصيري أنا. لن أترككم تدمرونها.

لجئت لكل ما أعرفه من اعتراض، وصراخ، وغرقت في بكاء دموعه كنار تحرقني. إن كان عالمي يتصدع، فلأذهب معه. ما قيمة هذه الحياة إذا؟ ما يبقيني فيها بعد ضياع كل ما أعرفه من حلوها؟ إما أن أخرج مع الشهابي، أو أموت معه هنا.

ردوا علي بالحجة، فرددت بالصراخ. حدثوني بالتفعل، فقاطعتهم بالبكاء الحازم. وحين ألحوا، لطمت وجهي حتى صمتوا.
وإذا بالشهابي يخرسني.

هي كلمة واحدة أعادت الإنصات لمعجمي،

"أحبك يا سارة."

جلست منهارة وقلت:

"وأنا لا أرى"

قاطعتني مكملًا "أحبك فأموت في سبيك. إن مت معي لم أعلم سببًا غير الظلم الفاشم لتلك المقتلة. أما إن نجوت، فقد علمت أنني افتديتك بدمي. لا تحرميني هذا الأمر."

بهت. واسودت الحياة، بعد أن انطفأت نار الغضب، وتبخر الإصرار، ولم يبق إلا طاعة زوجي في آخر أمر له في هذه الحياة. ما عاد لعيشي سبب غير أن أنجو بوليدي، وعسى الله أن يجمعنا في جنة رحمته، بعد أن فرقنا جحيم ظلم الإنسان.

خرجت في قافلة صغيرة، تهرول خشية ذئاب تبغينا، وتبطن خشية حمل يثقلني.

أعطاني تيمور العلاف ورقة وأنا راحلة، وأمرني ألا يقرأها أحد غيري، واحرقها في عقبي بعيدًا عن ساوة. ففضتها عند الغروب، وأنا أرى بين حمرة السماء، حمرة نار في مكان ما، بتلك الواحة التي ابتعدت، تداصر زوجي وتعتصر قلبي. بين الدموع، وجدت كلمات العلاف الذائبة، تعزيني في مصابي، الذي لا يعزى. وتدعو لي بالتصبر بأخبار الأم الأنبياء موسى ونوح وإيوب وعيسى عليهم السلام. كلهم لا قوا ظلما أشد. وعلى يد أقاربهم وأقوامهم. ثم أتاهم نصر الله في النهاية.

اخبرني ان اذهب لرجل من بني الأسود. في شرق البلاد. كان له يد بيضاء عليه يوما. وقد سمع إن عم هذا الرجل قد أصبح شيخ شيوخ تلك القبائل القوية. وهو داهية لا مثيل له. لذا فهو مطمئن انه سبحانه يبيسر لي الرحيل خارج المملكة. إلى طرابلس. حيث يصل بي الى رجل يعرفه هناك.

اكرمني هذا الرجل من بني الأسود. وأشفق علي إذ سمع نبلي. لم اخبره باصلي. واكتفيت بذكر امر زوجي وهلاكه. اشفق علي وليدي أن يلحق بابه. قبل ان يتنفس هواء الحياة. فقال لي:

"حسنا يا أم اليتيم. ساضعك على سفينة راحلة إلى ميناء الزاهرة. فلا تعلمي أحذا بأمرك أو مقصدك. وغيري من مسكنك بعد الأيام الأولى. وساخئل عنك ما استطعت."

لكن أيام المطاردة انتهت بعدها. استقررت عند شيخ عجوز في قرية قريبة من تخوم طرابلس. إلا أن الحرب المتأججة بين مدينتي الصيادية والسهور العلي طالتها بفارات مرتزقتها الفرنجة. فرحلت - إذ كثرت الهجمات - مع غيري من نسالها. خشية السبي. ما كان لي أن أعيد سيرة أمي. ليصبح وليدي القادم ابن جارية.

ذهبت لطرابلس في آخر هروب. فلجلت لشيخ مسجدها الكبير. الذي اكرمني. وأواني. واستوصى بي خيرا.

وهناك في قلب بيته أتاني المخاض. وأنجبت.

وهنا صمت عبد الشهيد ابن سمعان. ولم يكمل ما كتبه الأميرة سارة بنت عدنان."

* * *

(45)

حكاية الوريث الأخير

قال الراوي:

"صمت عبد الشهيد ابن سمعان، ولم يكمل القراءة، نظر للورقة في جمود، مذهولا، وقد بدا له أنه حظي بأعنف صفة في حياته، جف حلقه وذهب صوته، ولم يستطع إلا أن يخرج صوتا واحدا..

".....؟!؟"

قال سلمان:

"نعم! هو كذلك!"

أجبر عبد الشهيد نفسه على الحديث، وقال بصوت متحشرج:

"الوريث الأخير؟ ماذا عن...؟! أحقا! أنجبت سارة فتاة!"

قال سلمان:

"الأميرة الشهاوية، زوجة حاكم طرابلس السابق."

قال عبد الشهيد:

"من؟"

تكلم حاكم المدينة:

"لم تنجب سارة وريثا للعرش، لقد أنجبت طفلة ورثت جمال أبيها، وعزيمة أمها هي الأميرة الشهاوية، ثم ماتت سارة، بعد سنوات قليلة، وشبت الشهاوية

جروب "ربيع الكتب".

يتيمة في بيت الشيخ زعفران، وعملت في قصر الحاكم، ضمن من تعملن فيه من بنات طرابلس. ورأها ابن الحاكم، وكان شابا عابثا، مولعا بالنساء، فراودها عن نفسها، فصدته صدًا غير جميل، واشتكت لأمه، التي ما إن عرفت بالنسب الشريف، حتى زوجها لابنها. وكانت خير نساء طرابلس، إذ جمعت من القوة والحكمة ما دبرت به شلون زوجها ومدينته حتى مات. ولها عندنا مكانة عظيمة، فالتاس تحبها لعدلها، وعطفها على الفقراء والمحتاجين. لن تجد من يسرب عنها كلمة واحدة لأعدائها في كل طرابلس. وهي اليوم تعيش مع ابنها، وهو زوج أختي في قصر بشمال المدينة، بينما تزوجت أنا من ابنتها. وتيم معنا في هذا القصر، لتبقى الشهائية دعامة خير تقوي ملك طرابلس.

هو الفول مبهورتا على مقعد جوار القاضي، وهو يلن بقوله:

"أبعد كل هذا؟ بعد الطريق الطويل والمشقات والمخاطر، أبعد كل تلك الأمور، وبعد أن لاح الأمل عقب الضياع، أنجبت سارة بنتا. خلف الشهابي فتاة فقط!"

قال القاضي:

"هذا أمر الله يا بني، لم يعد لملوككم وريث. عد لبلادك، واترك الشهائية هنا في سلام."

فتح عبد الشهيد فمه محتجا، وقال:

"ولكن القائد الأسود....."

وصمت ولم يكمل، فقد غلبه الهم. وغادر قصر الحاكم مخزيا مع رفاقه. وتشاور الأمر معهم، فلم يجدوا بدا من العودة للبلاد خاويي الوفاض، لكن تيمور طلب البقاء أياما، حتى يزور نسييته، وينقل لها تحيات أهله وأهل ساوة. وقد أكرمه الشهائية أيما إكرام، وأعطته هدايا ونفائس لأهالي البلد، الذي أوى والديها، وأفتداهما بأرواحه.

ثم بعد أن أنهوا الزيارة، ووصلوا الرحم، جمع الرفاق المنكسرين متاعهم، وعزموا على العودة.

وبدءوا رحلة إياب خاويي الوفاض.

لطن الطريق لم يتخل عن معاندته لهم. فلم يبتعدوا كثيرا عن طرابلس، حتى بدأت المتاعب، من قبل ان يتجاوزوا حصون الأهبال.

لبنوا في طريق مظلم، قد ظلله اليأس، حين قطعه عليهم عشرة من الرجال، هنوقت القافلة الصغيرة، وأخرجوا سلاحهم. فإذا بعشرة أخرى تطلع من مكان خلفهم، وثالثة تبرز شاهرة السيوف عن يسارهم، وتعام الأربعين خرجوا متربصين من اليمين.

هتف المحصورون:

"ما شأنكم؟"

خرج من جماعة القطاع شاب، يبدو عليه سمات اعتداد النفس والثقة في النصر. كان وجهه مالوفا لعبد الشهيد، لكنه لم يستطع أن يتذكر أين رآه من قبل.

تكلم الشاب:

"مرحبا بالقبيل زعيم الفيلان الحمر! الرجل، الذي أصابنا بالكرب، وأذانا بهكره."

رد عبد الشهيد:

"لا مرحبا ولا سلاما! ماذا تريدون؟"

تكلم الرجل:

"لعلك لا تذكرني يا سيد الفيلان؟ كنت واحدا من رجال شيخ بني الأسود، الذين التقوك في دار ابن العبدلي، اسمي حسام."

قال عبد الشهيد بصرامة تخفي قلقه:

"وماذا تريد منا أيها الحسام الأعوج؟"

ابتسم حسام وقال:

"وماذا ساريد؟ الوريث طبعاً."

قال عبد الشهيد:

"لا يوجد وريث. ألم تبحث فلم تجد؟"

قال حسام:

"بحثنا غير بحث الفيلان؟ أستم تعودون ظافرين، بينما نحن هنا باقين خائين؟"

قال عبد الشهيد:

"دع عنك هذا! قد أنجب الشهابي فتاة! لا يوجد وريث للملك أصلا. اذهب عني الآن، قبل أن اذيقك حسامي أيها الحسام الأعوج."

صفت حسام مبهوتا هو ومن معه، فلم يستطع عبد الشهيد كبت ضحكة مريرة، وقال:

"مثلي تماما! كلنا فكرنا في أي أمر، في أن يكون الهريث عاش، أو قتل، أو اختبا. لكنكم مثلي. لم تفكروا في أمر أن يكون فتاة! عقول مجنونة، أضاعت نفسها في رحلة عقيمة!"

كانت المرارة في قلب عبد الشهيد كبيرة، وقد أخذ يسأل نفسه كل لحظة لم افترض الجميع أن وليد سارة ذكرا! لكن مرارته كانت بهجة في قلوب غريمه، إذ هتف الجمع المعتدي متهلا، يصيح صيحات الفرح.

وقال حسام:

"حسنا، تلك أنباء رائحة، إذا، فقد خلصت البلاد أخيرا لفخر بني الأسود."

أراد عبد الشهيد إغاضته بقوله:

"ما زال والده يعترضه، ولا يرضى به حكما، وحتما سيجد شيخ بني الأسود أنصارا في حربه ضد ابنه."

ضحك حسام بقوة وقال:

"ألم تأتكَ الأنباء يا سيد الفيلان؟ كانوا يزعمون أن الفيلان يأتون بالأنباء من قبل أن تحدث! لقد مات الشيخ العجوز يا رجل! مات بفتة وهو نائم، لا أدري أعمره المتناقل قد انهض فجأة، أم إن صبر ابنه لم يسع ذنبه الأخير؟ على أي حال بايعت كل القبائل ابن العم مهاب شيخا، وبايعنا جميعا القائد المغوار ملكا على البلاد."

صفت عبد الشهيد، فلم يجد جوابا، وانتصب الرمح والسيف في يده، فقال حسام:

اراد مليكي ان يحالفكم ايها الفيلان. لا نبغي بكم شرا! الآن قد ارتدت
الاحطار عن عرشه. فاقسم له الولاء والإخلاص وسيجزل لكم العطاء."

"امر عبد الشهيد قليلا. لم يعد له هدف الآن إلا العودة سالما. ليعيش فلاحا
في أرضه، حتى يموت ويدفن فيها. لم يعد للكفاح والقتال الآن قيمة، فقد
دلصت البلاد للأسود، كما قال هذا الحسام.

رد بطاء:

"أما وقد ثبت لنا أن الملك الشرعي للبلاد قد انتهى نسله، فلم يعد هناك بد من
مبايعة ملك جديد. ألا ولا يوجد خير من المفوار، أو القائد الأسود ليوحد البلاد.
وبجمع كلمتها."

نظر له حسام بثبات، وقال:

"لم أسمع قسما ولا مبايعة."

ابتلع عبد الشهيد ريقه، وأكمل المراوغة قليلا، عسى أن يخرج هو ورفاقه
أحياء. فمن ناحية كان يكره أن يقسم على الإخلاص للأسود، ومن ناحية أخرى
بخشى أن يأخذه حسام لمقابلة المفوار، فيفتضح أمره. ويقتل هو ومن معه،
لذا فقد قال:

"أعاهدك إنني ما إن أرجع إلى المملكة، حتى أجمع الفيلان الحمر لمبايعة الملك
الجديد."

ابتسم حسام وقال:

"بيدو لي أنك مازلت محتفظا ببعض من عقلك، أكثر مما ظننت. هلا صافحتني
على هذا العهد؟"

وترجل حسام، وألقى بسيفه علامة الأمان. فتقدم له عبد الشهيد، ملقيا برمحه
وسيفه، ومد يده ليصافحه.

مد حسام يمينه، وقبض بها على ذراع عبد الشهيد، وبسرعة البرق كانت ذراعه
تستل خنجرا من تحت عباءته، وهوك به ليمزق جانب الفول الأحمر بطعنة
نجلاء، وجدت طريقها بين الدروع.

واترع الخنجر ليهوي على الجسد الصريع، بطعنة تلو الأخرى. واستبد المرع
بفول الحق. فصاح في ارتياح. وحمل سيفه، لكن أحد رجال الأسود رماه بحربة
أسقطته، وهجم الفرسان عليه يمزقونه بسيوفهم.

وسقط غول الحق مضرجا بدماله، ويا للعجب، علت على شفتيه ابتسامة غريبة،
كانها لاقى صديقا قديما طال اشتياقه له.

وسقط عبد الشهيد مضرجا في دمه، كان كل ما في ذهنه والسواد يتلعه،
إنه كرر سيرة أبيه، بالموت غريبا شريدا، وأنه أهلك رفاقا طيبين بلا ذنب.

وقبل أن تدركه الظلمة، كانت آخر لمحة ضوء ذاقها هي ابتسامة غول الحق،
وأضاء ذلك القبس الخاطف قلبه بسكينة عجيبة، فلم يبق في صدره غير
الارتياح، الذي طرد حتى الأم الطعنات.

وهوى عبد الشهيد، آخر الفيلان، مصروعا.

وأتى حسام، فوقف على رأس الغولين الصريعين، وأشار لرجاله، فحملوا
الجثتين، وصلبوهما على الطريق فوق ساريتين، حملتا علم الأسود وعلم
الأهبال.

ثم أتاه رجاله يسألونه، ماذا يفعلون بالبقية؟ عمران وتيمور؟

نظر لهما ببرود وقال:

"أرايتما الأحمقين؟"

وبصق على جسد عبد الشهيد، فأفلتت صيحة غيظ من تيمور، فالتفت له حسام
وأكمل:

"مولاي المفوار، القائد الأسود ملك البلاد، يمد يده مرة واحدة فقط، ولا يمدّها
إلا لتلقي بيعة صريحة، من يراوغ يده العليا، أو يردّها، فستمتد اليد مرة ثانية
بالهلاك، تعال أيها الإعرابي."

وكبل رجلين من رجاله الشيخ عمران، فأجلسوه راکفا على الأرض أمام حسام،
الذي أخرج خنجره وهو مازال مضرجا بدم عبد الشهيد، ورفع أمام عين
العجوز المذعور.

قال حسام بقسوة:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

'هل ترى أيها الإعرابي جزاء من يتحدى الأسودة؟'

قال عمران مرتجفا:

'ما أنا إلا دليل للطريق.'

سما حسام شفثيه باستهزاء وقال:

'سأتركك تحيا لتقص على الناس أينما حلت عن بطش الملك الوحيد لبلادنا،
وعن خسران من يتحداه، لكن سأترك لك تذكارا صغيرا حتى لا تنسى هذا
الدرس.'

وبضربة سريعة، جدد أنف الرجل المسكين، ثم شق أذنيه، وركله لیسقطه
أرضا باحتقار، قبل أن يلتفت لتيemor ويقول:

'ومن أنت؟ هذان غولان، وذاك دليلهما فمن أنت؟'

رد تيemor وهو يرتجف من الغضب، محاولا كبح جماح نفسه:

'ما أنا إلا فلاح متواضع من ساوة.'

قال حسام باستخفاف:

'وما الذي أتى بك بعيدا عن أراضي ساوة وتجارتهما؟'

فكر تيemor أنه بعد أن انتهى كل شيء، فماله إلا أن يسيطر على نفسه،
ويسعى للنجاة من هذا الفادر، فقال مكرها متلعثما:

'لقد اقتادني الفيلان جبيرا من بلدي، لأن لأهل ساوة نسبا مع الوريث، أرادني أن
أكون رسول أمان له.'

قال حسام:

'أحقا كان الوريث امرأة؟'

رد تيemor:

'بلى يا مولاي امرأة عجوز، تزوجت من حاكم المدينة السابق، وأهل طرابلس
يحمونها، فلا يستطيع أحد نيلها.'

ابتسم حسام منتشيا وقال:

"لا حاجة لنا بقتل امرأة."

كان سعيدا بنصره على الفول، فلم يجد في نفسه حاجة لقتل الفتى، خاصة بعد أن أكد له الأنباء الطيبة عن الوريث، وانهاء عقب الملوك وسلالتهم، لذا أمر الرجال بضم الفتى للعبيد، الذين سيهديهم لقلعة الأهبال القادمة، ثم أشار لرجالهم ليتحركوا مبتعدين.

وقبل أن يرحل، ألقى نظرة ساخرة على الجثتين المصلوبتين، وقال:

"حقا يصل بعض الناس لشأن من الحماقّة، لا يداويها دواء إلا السيف."

صالح بأمر الله. هون عليك.

كاني أسمع صوتا عدبا يحدثني؟ أهو ملاك يتنزل علي بالرحمة؟ أم شيطان،
يبغي متة؟

وكاني احسست بنفحة من عاصفة باردة تجتاحني. فنهضت فجأة. وأنا أشهو
وأنطق بالشهادة.

ولأول مرة. انقشع الظلام. وزالت غشاوة عيني. كان البياض حولي في كل
مكان. وكانت هناك حورية ذات وجه مضيء. تصب علي الماء البارد. ورجال
حولي يلبسون البياض.

ظننت لوهلة أنني في الجنة. ثم أدركت أنني ما زلت حيا!

* * *

(47)

حكاية الخانون

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"نظرت حولي لرجال يرتدون البياض، تصورت أنني مت، وصعدت للجنة، لكنني
اهمقت من الغشاوة، وأدركت أنني وسط قافلة من معتمرين أو حجاج، ولكن
رى ما الذي أتى بي هنا؟

حلت بنظري بينهم، أتأمل الوجوه، لكن الألم غلبني، فأغمضت عيني لحظة، أو
هكذا بدت، لكنها حتما كانت ساعات، إذ إنني لما فتحتها، وجدت أننا قرب
الغروب، وقد حملوني على جمل كبير. استجمعت عزمي لأتكلم، لكنني عجزت.
هقد كانت أنفاسي ثقيلة، وصدري يؤلمني، ولساني بطيء لا يجاري أفكارني
المتسارعة في رأسي، الذي يطن كأنها هوت عليه مطارق من حديد مصهور.
وأخيرا، قبل لسانني أن يتحرك بسؤال واحد، فسألت عن أشد ما أصابني:

"أين تيمور؟"

قال أحد الرجال:

"لقد أفاق الرجل."

رد عليه آخر:

"دعه الآن، وغدا تراه الخاتون."

قلت بوهن، حتى لم أكد أن أسمع صوتي:

"أي خاتون؟"

سمعني الرجل الذي يجز جعلي. فاجاب:

"هي السيدة التي انقذتك ايها الفول. انها السيدة العرصفية الشريفة. امراه بالف رجل. تقدر ان تدبر امورنا، وتفصل في احوالنا، وعلى مالها يتعيش ايتامنا واوراملنا."

لم تجبني قصيدة المدح تلك عن سؤالي، لكني لم اهتم. لم يكن الألم في جسدي، والقلق في صدري، يسمح لي بالاهتمام، أو الفضول، لكني احسست بالامتان لقوله "انقذتك"، فرددت الكلمة بخفوت:
"انقذتني."

بدت لهم كسؤال، فقال الرجل:

"كنا ذاهبين للحج، حينما مررنا بكما مصلوبين، فحفنا إذ رأينا راية الأهبال، واردنا ترككما وإسراع الخطى، لكنها نهرتنا بقولها: عار عليكم، اقبل حجكم إن تركتم مسلمين مصلوبين في طريقكم؟ أتز لوهما، وادفنوهما، أو ارجعوا لبيوتكم خائين.

ولم نجد ما نفعله غير ذلك، فانزلنا زميلك ودفناه، ولما أتينا لك وجدنا بك رمق الحياة، فأسرعت تطيبك، وتداوي جروحك الكثيرة بنفسها، حتى انقذتك."

احسست بشكر لا يجزيها، تلك السيدة العظيمة الملقبة بالخاتون. رغم كل ما حدث، فبفضل الله وفضلها نجوت، وربما أستطيع العودة لبلادي.

ودفعت الفكرة في صدري ببعض القوة، فسألتهم:

"واين نحن الآن؟"

ردوا:

"على مشارف بيت الله الحرام، ألم نقل لك إننا في طريقنا للحج؟"

لم أستطع أن أبقى على يقظتي أكثر من هذا، وسرعان ما هزمني الظلام ثانية، ولم أستيقظ بعدها إلا في عصر اليوم التالي، أو الذي يليه.

أيقظتني الشمس الحامية، التي تسلت من فرجة بالخيمة، التي وضعوني فيها. فجر جرت نفسي، حتى ابتعدت عن قبسها الحارق، وكانت أول مرة أحرك فيها جسدي منذ عهد بدا لي كالدهر الطويل. وكأنما كانت سحب بددتها تلك الشمس، صفت رأسي فجأة من الامها وطنينها. واستطعت أن ألمح طبقا

جروب " ربيع الكتب "

« يسمى التمرات جوارى. فادركت فجأة انني لم اكل شيئا منذ غادرت طرابلس
«رأى وكانها ذكرت بطني بهذا. فتحدث في جوع قاتل. جعلني اتحامل على
«سعى ومددت يدي للتمر. فاكلت بعضه.

«٥١٥. علي حينها احد الحجاج. فتبسم لها راني. وقال:

«صلى الله العاقية يا اخا الإسلام. حمدا لله على سلامتكم.»

«ردت:

«حمدا لله. وشكرا لكم على إنقاذي.»

«هل «بل الشكر لله أولا، ومن بعده. إن شكرت، فللخاتون.»

«لم افهم ما يعني في البداية. ثم تذكرت. تلك السيدة. التي حدثوني عنها انها
«سهم على إنقاذي، فاستخلصتني من الموت. أنا مدين حقا لهذه السيدة.

«ثم تبهت لأمر ما فقلت للرجل:

«أخبرتني -أو احد رفاقك- إنكم من الحجاج. أليس الوقت مبكرا على موسم
«الحج؟»

«رد علي مبتسما:

«هذا لأنك لست من بلادنا. عندكم يتفق الملك مع الفرنجة. صلحا أو حربا.
«ليؤمن طريق الحجاج. أما نحن. فلا نجد من يحمينا. خاصة إنه في موسم الحج.
«يزداد بطش الأعراب. وغاراتهم. ونهبهم. فتفادى الفرنجة بالطرق الوعرة.
«غير المأهولة. ورشوة بعض أمرائهم. وتقي شر الأعراب بالآ ناتي لبلاد الحجاز
«إلا مع شهر رمضان. حيث يكفون أذاهم عن الطريق قليلا.»

«تجمدت يدي في طريقها للتمر. وسألت مفزوعا:

«أبدا شهر رمضان؟»

«قال مبتسما:

«لا حرج عليك! أنت مريض. وكنت في غيبوبة طيلة أسابيع ثلاثة. لم تذق فيها
«شيئا.»

«لظرت له مندهشا. فلم أتصور انني قضيت ثلاثة أسابيع كاملة. ولكن ظلت
«غصة غريبة في حلقي. وأنا اكل التمر. لم أفطر يوما في رمضان منذ بلغت

«جروب " ربيع الكتب " .

العاشرة. ورغم إن معي رخصتين للمرض والسفر. لكن في القلب شيء يعلو وللصوم النفس تهفو. لكني لم أجروا على الصوم. متذكرا حديث الرسول . ليس من أجزأ الصوم في السفر... وقوله « عليكم برخصة الله الذي رخص لكم.. وما كان لي أن أرد منحة الله لي في وقت مشقتي.

كان ما زال بي أثر من الحمى. لكنني أجبرت نفسي على النهوض من فراشي فعلي الكثير لأقضييه. وأوله ما فاتني من صلوات في غيبوتي. وما كان لي أن اتكاسل عنها. وقد رأيت بهيني الأجل يكاد ينسلخ. ثم ارتد فجأة بامر من الرحمن الرحيم.

كما إن علي أن أعد العدة لسفر طويل شاق لبلادي. وأن أجد عملا يقيم أودي. ويعينني على كلفة السفر.

وبين هذا وذاك. شاغلتي نفسي بأمريين. أنتهز فرصة ذهبية. وأرافق القوم لأحج حجة سهلة المنال. لم تكن على خاطر. أم أنتهز فرصة خلو الطريق. وتشاغل الأعداء. لأعود لبلادي سالما؟ كنت أفكر في مرافقة الحجاج. ولكن ليس معي مال أو زاد. وصعب أن أحصل عليهم في هذه الأرض. التي لا أعرف أهلها. ولا أجيد حرفة من حرفهم.

ولكني وجدت الحجاج مرحيين بي. يمدونني من فضلهم. فاستمرات الأمر رغم خلجي. ولكنها فرصة حج لا تهوض!

كنا على مسيرة يوم من مكة. وجهزت نفسي للفد. الذي الاقي فيه الحرم. حينما أتاني الرجال يطلبونني للقاء الخاتون.

فاستعددت للقاء منقذتي المجهولة. تلك السيدة العظيمة. التي يتفنى الرجال بشأنها. فدخلت خيمتها الكبيرة متهيبا.

كانت ترتدي ثيابا ناعمة. تزينها جواهر غالية. ونقابها من حرير مشغول. وتجلس بين خادوماتها جلسة. تذكرني ببنات الوالي في الزرقاء. حتما هي امرأة من بيت منعم ولا ريب.

ما أن دلفت الخيمة. حتى نظرت لي طويلا بعينين زرقاوتين كهيون الخرنجة. ثم تكلمت بصوت خفيض واثق:

"لن تدخل مكة معنا أيها الغول الأحمر!"

١٠. لها مذهولا. وثلت بصوت مرتجف:

والهم؟

م الانى خاطر. فاضفت:

ا، شتم ان افارقكم. واسبقكم لهنالك. خشية ان يؤذيكم وجودي معكم.
لا املك الا التسليم، وجزاكم الله خيرا عما فعلتموه لي، وان قدرت على.....

اطعتني بصوتها الخفيض الواثق:

ان لن تدخل مكة، لا معنا، ولا وحدك. ولا حتى مع غيرنا. ستعود أدراجك
هورا.

القلب امتناني إلى جفاء، وانا اسألها مفتاظا:

وكيف هذا؟

هالت:

هذا امري، وليس لك ان تعارض.

هلت:

انصديني عن المسجد الحرام؟ فما جزاء هذا؟

ردت بصوتها الواثق، كانه لا يهتر أبدا:

اهكذا تخاطب من تدين لها بعد الله- بحياتك؟

الجمني ردها، واخجلني، وسكت متحيرا. فأشارت للرجال ليتركونا، فخرجوا
صاغرين، ثم قالت لي:

اقترب.

اقتربت منها، وجلست قبالتها مباشرة، فنهضت خادمتها مبتعدات عنا بضعة
أذرع.

وهنا كشفت عن وجهها، واكاد ازمع ان الضوء سطم من وراء النقاب وهي
تسحب، يا الله! ايووجد مثل هذا الجمال بين البشر؟ بالكاد بقي لي شيء من لب،
لكي اغض بصري، الذي اعماه ضياءها.

قالت لي بصوتها الفتن هذا:

"ما ساطبته منك، لا يجب أن يطلب في الأرض الحرام. أنت مدين لي بحياتك، ولا أقبل برد الدين، إلا بحياة القائد الأسود!"

نظرت لها بفضب للحظة، لكن مراى وجهها أذهلني، فخفضت بصري ثانية، وقلت مرتبكا:

"لست ابن ملجم يا مولاتي الخاتون."

عبس وجهها كما بدا لي، وأنا اختلس له نظرة خاطفة، وقالت:

"لا أقبل الإهانة يا هذا. لست أعرض نفسي الغالية عليك، ولا أطلب منك رأس خليفة عادل، إلا تتقي الله؟! اتقارن عليّ العلي، بالأسود المسود؟"

رددت بصبر:

"لا أقارن هذا بذاك، ولكني لست قاتلا ماجورا، يخدم سيدة لجمالها."

ابتسمت ابتسامة خفيفة، وقد كشفت لها أن ما أرادته من كشف وجهها لي قد أعطى أثره، فانتقلت من فتنة الملامح، لفتنة الكلمات الأشد وطأة.

قالت لي موسوسة:

"دم الأسود مهدور بهدره دماء المسلمين، ولو قتلته فقد أرحت البلاد والعباد من شره."

رددت بحسم:

"لو قتلته بدون ملك يمسك البلاد مكانه، فقد أضعت أملها في الوحدة، واجتماع الكلمة."

ردت علي:

"الأسود ليس بالخير أبدا، لو تركته، فسيمح ثلث البلاد، وجل ثغورها للأهبال والفرنجة."

دهشت لمعرفة بتلك المؤامرة، التي يتكتم عنها الأسود وحلفاؤه، وما عرفتها أنا إلا صدفة، لكنني عقدت العزم على إنهاء هذا الأمر، الذي زججت بنفسي فيه فوق طاقتي، فقلت:

"ولو قتلت الأسود، فسيجتاح الأهبال كل بلادنا."

جروب "ربيع الكتب"

البرقت ابتسامتها الناصعة. وقالت:

"لا لن يفعلوا، بل سيرتدوا خائبين."

سُلت ساخرا:

"أحقا؟ ومن سيردهم؟ ابتسامتك هذه؟"

هالت وهي لا تزال على هدوئها المستفز. الذي يهزني بأشد من لهيب الثوار:
"أعرف عن الأهبال أكثر مما تعلم. وأعلم ما يخططون له حتى من وراء ظهر
الأسود."

نظرت لها مستخفا، فالأهبال أكثر خلق الله تكتما، وما من أمير أرسل عليهم
عيونا إلا فقلوها، وما من حاكم تستر عليهم أمرا إلا كشفوه.

أكملت قائلة:

"لي على الأهبال عيون كثيرة، هم يتركون جل أعمالهم لعبيد عم، وبين العبيد
رجالي، فأرك ما يرون وأسمع ما يسمعون. لو لم أكن خبيرة بأمر الأهبال، أتظن
أولئك القوم يقبلونني أميرة عليهم، وأنا امرأة؟"

هزتي كلماتها، لكنني تشبثت وقلت:

"أعلمي عنهم ما سئلت، فانت لا تعلمين عن بلادنا شيئا، وما شأنك أيتها الخاتون
الشريفة بذبح الأمراء والحكام في بلادنا؟"

هنا لأول مرة اهتزت، وبدا على وجهها الملائكي شياطين الحقد، وقالت
بصوت موتور:

"هذا المسمى بالمفوار، الملقب بالقائد الأسود، هو أبغض خلق الله لي. لن
بهنا لي في الدنيا بال أو حال حتى أسفك دمه."

قلت مندهشا:

"القائد الأسود؟ ولم؟ هو لم يخرج من بلادنا منذ....."

ولكنني قطعت كلامي، إذ تذكرت أمرا، كانوا يسمونها بالخاتون المرصفية،
أتراها تكون.....؟

وسألتها فورا:

"أنت هي؟ بنت المرصفي الأمير، الذي غدر به القائد الأسود في العاصمة، هو وعدوه الجبلي؟"

أكمل شيطان حقدتها الحديث:

"نعم أنا هي. أنا من قتل أباه وأخاه، وسبى أمها الشريفة سليمة آل البيت وطردها مشردة في البلاد. ملقاة لكلاب حقيرة جالعة. ولولا نجدة أتتني من الله، وعزمي وتشبثي بالحياة، لأخذ بثاري منه. لهلكت منذ زمن بعيد."

غلبني الفضول، فقلت: "وانى لك بما أنت عليه اليوم؟"

ردت مستعيدة هدوءها:

"تلك حكاية تطول، وشرح لا يسرني، لذكرى أكره عودتها. لقد ألقى الله بلا في طريقي أيها القبيل. وأنا ألد أعداء الأسود بعد أن سخر لي المال والأعوان في وقت اشتدت فيه حاجة البلاد لك. أما سمعت بتخريب الأسود للثغر الكبير، بعد أن انقلب على حليفه ابن عامر، وقتله قتلة شنيعة بالخازوق، وترك جثته تنثر في المدينة المهدمة؟ أمثل هذا تأمنه على بلادك ملكا؟ أما سمعت بقتله لمئات الدراويش المساكين في أحراش الشمال، لأنهم لم يرفعوا له الدعاء على منبر مسجد الشيخ الفولي؟ أما سمعت بخيائته وتعاونيه مع أسطول الفرنجة، فشن معهم حربا ضروسا على الزرقاء، ليبدل قراصنتها بالفرنجة الملعين؟"

فتحت فمي مذهولا، لكنها أكملت:

"لو كنت سمعت بهذا، فكيف تقبل به ملكا؟ أتسال عن توحيد البلاد؟ أما تراه انقلب على بني سلام، وذبح الآلاف منهم، فقط لأن أحدهم كان دليلا؟ أهذا ملك يوحد كلمة القبائل يا رجل؟ وفوق كل هذا، الأنباء أتتني بأن الأهبال يحشدون حشودا لغزو الثغر الصغير وما حوله من بلاد. إن الأسود لا يوحد كلمتكم، ولا يجمع فرقتكم؛ إنما هو يمزق البلاد أشلاء، ليفوز بأكبر قطعة فيها، ملقيا بأطاييها للأعداء، على حساب جثث الخلاء، هو يدمر كل من يطلب خير البلاد، لأنه لا يعلم غير الشر طعاما، وغير الدم شربا."

وهكذا أخذت تلك الخاتون توسوس، وتوسوس. والله ما أعلم أنى لي - أو لغيري - بالصمود أمام فتنة عقل راجح، ووجه قاتل، وكلام معسول بتحريض مسموم!

لكن كانت هناك حقيقة واحدة لم تعرفها، عصمتني منها: أنا لست غولا احمر، ولا أقدر على النيل من شعرة واحدة من شعر القائد الأسود. ولما كنت لا أقدر على البوح بهذه الحقيقة، خشية انتقامها مني، فقد كررت لها ما أمرتها به من قبل بدون ملك يطلب العرش، ويتبعه الناس فلا أمل من حرب الأسود، وبقاؤه خير من قتله.

وأشهد أنها تلاعبت بي بقوة رهيبية، حتى أحسست أنني دمية تتقاذفها أيدي عملاقة غليظة. أحسست أنني حقا بلا حول ولا قوة، أمام هذه الخاتون الرهيبة، التي تجيد التلاعب بالأفكار والأقوال. كدت أن أعقد العزم على السفر للعاصمة، واغتيال الأسود بالفعل! ثم فكرت في عجزتي، الذي كان أقوى من أي شيء آخر! إنها قوة العدم، الذي لا ينبت، مهما سلطت عليه من محاربت! أرى للأرض العقيم أن تتنفع بجهد المجتهدين؟

ولكن لأتخذ رأسي من الضياع، قلت لها:

"الأمر قاطع سيدتي الفاضلة، وهو ليس أمري وحدي. بل أمر كل الفيلان الحمر، الذي اجتمعوا عليه! قد تعاهدنا أن نلزم جانب الحق، وأجمعنا على إن مصلحة الأمة في اتباع الملك ضد الأسود، فإن لم يكن ملك، فلا حرب ضد الأسود، ولا مساس به، ولا يمكنني أن أخرق عهد الفيلان، أو أطالبهم بتغييره."

أخيرا أخرستها! أخيرا جعلتها تترك الأجدوى من مناقشتي، فصمتت، وتركت لي فسحة من الوقت، أجمع فيها شتات فكري.

ولكن مثل هذا العقل الماكر لا يستسلم أبدا! فقد أخرجت لي من جعبتها المزيد من العجائب!

أخذت نفسا عميقا، وزفرته ببطء من بين شفثيها الفاتتين، وحدقت في عيني مباشرة، فتحاشيت اللظر لها مرتجفا، خشية أن تفضح عيوني أكاذيبي، أمام هذا البصر الثاقب، الذي يكاد يخترق الصدور، وتكلمت مستعيدة هدوءها، وقالت:

"أتريد ملكا؟ كان الملك بين يديك، وساعده لك! هذا الفتى الذي أتى معك من ساوة....."

قلت "تيمور بن زهير؟ ماذا أصابه؟"

قالت "لقد اخذوه مع العبيد. وأهدوه للأهبال. هذا الفتى نسيب للأميرة الشهابية زوجة حاكم طرابلس الأسبق. وبنيت الشهابي آخر أحفاد الملك". نظرت لها مندهشة. لا أدري كيف عرفت بهذا أو ذلك. ولاحظت هي دهشتي فقالت:

"لا شيء يخفى عن الخاتون يا فتى. لا شيء يخفى عن الخاتون! على أي حال. فهذا الشاب يحمل دما ملكيا. تلك الوثيقة التي تنزع عنه. وعن نسل زهيرة الإمارة. لكنها لا تنزع حقه في المطالبة بالملك. إن تزوج بنت آخر الملوك. كم من ملك تولى في العرب أو الفرنجة ليس بنسبه. وإنما بنسب زوجته. وهذه شريعة معروفة بين الملوك والأمراء. كل ما عليك فعله. هو أن تزوجه الشهابية. وتشهد حاكم طرابلس على العقد مع قاضيها. وعقد الزواج مع شهادة نسبها. ونسبه المتصل بالخلفاء. وخطاب الخليفة بتولية الوريث. وكل هذا ستجده عند قاضي طرابلس. إلا خطاب الخليفة. فهو معي. وسأعطيه لك الآن....."

قاطعتها مذهولا:

"ماذا؟ لكن....."

قالت:

"لا تقاطعني! لا تسلني كيف حصلت على هذا. فهي أمور لا يقدر عليها إلا الخاتون الشريفة المرصيفة!"

تبلبلت أفكاري تماما بما قالت. لكن الخوف من العودة لهذا الكفاح. بعد أن خلصت نفسي للراحة والياس. دفعني للمجادلة فقلت لها:

"أنى لي بالحصول على تيمور بعد أن أخذه الأهبال؟ ليس اقتحام قلاعهم بأمر سهل حتى لفلو أحمر! ثم كيف أقنعه هو والشهابية بالزواج! وأنى لحاكم طرابلس أن يقبل بمثل هذا الزواج! ثم كيف يقبل الأسود والأمراء بذريعة مثل هذا الملك؟"

لم يهتز هدوءها الفتاك. وقالت:

"أمر تيمور سهل. فقبل أن ترجع لطرابلس. ستجده عند أتباعي معززا مكرما! وإقناعه لن يصعب عليك. وقد أقنعته باتباعك في تلك الرحلة المهلكة من

جروب "ربيع الكتب".

هل! وأما الشهائية، فهي امرأة عنيدة، لكني رغم كرمي لها؛ أعتزف إنها
حصيفة، وأشهد لها بالحكمة، ولو كان لي أن أشهد لامرأة أخرى غيري،
بحكمة وشكيمة تسبق الرجال، لاخترتها هي، لولا إنها لا تبرزني ذكاء، أو
مهالا، وبالطبع شبابا! ستعلم في النهاية، بعد طول جدل، ما واجبها، وأن دعاء
المسلمين في رقبته، ستستطيع أن تحتاجها بأنه إذا ازداد بطش الأهل بعد
استقوائهم بالأراضي والثغور، التي سيكسبونها من الأسود، فإن طرايل
ستهدد من انقلابهم عليها، كما تهددت من قبل، وأما زوج ابنتها، فسيرحب
بأي أمر يزيح كاهل حماته عنه، فهو يخشاها، ويضيق بتدخلها في شلونه!
ولا تتواضع وتقل من شأن الفيلان الحمر، وقدرتهم على تليين الرؤوس
الصلبة أو تهشميها! إن لكم لرهبة في النفوس، لا تزال باقية على تطاول
الزمن، وبعد المسافة."

لظرت لها مرتبكا، إنها تعد ردا لكل حجة، تلك الخاتون العجيبة، التي جمعت
ما لا يجب أن تجمعها امرأة واحدة من قوة، ومكر، وذكاء، وجمال، وشرف،
وزعامة، ودهاء! إنها لتبز الزياء بزا! خيرة بأحوال النفوس، وأعماق الخلاق،
ومفاتيح عقول الرجال، فتعبث بها كيفما شاءت، وإنها لتأتي بأمور أشبه
بالخوارق! إلا فحقا إن كيدهن عظيم! اللهم اكشف عني كيد أمثال تلك
المرأة، التي غلبتني، حينها لم يغلبني عتاة الرجال! إنني لأكاد أشفق على الأسود
المسكين أن اتخذ لنفسه عدوا مثل هذه! وما كان لي أن أكرر خطاه!

وهكذا عدت مخذولا عن أبواب الحرم إلى طرايل، لا أدري كيف أقضي حالي
فيها، لكني أثناء المسير، استبدلت اليأس بأمل كاسح، سواء كان ما قالته
الخاتون عن مَناعة، أو مجرد مكر تفتني به، فلا أظن أن نجاتي من الموت،
وعودتي للعالم من أعتاب الآخرة، إلى طريق حجاج تقودهم عدوة كئود لعدوي؟
كل هذا لا يمكن أن اتجاهله! حتما هو قضاء من الله، ووعون لي لأكمل
طريقي بعد أن خلا، وأصبح أكثر أمنا، إذ عاد الأسود لبلادهم ظافرين، وسمع
الناس بمقتل الفول، اليوم نصرهم وجهلهم يستراني، لكي أجتاز ما عرفت
من عوالم، وبقيت أمامي عراقيل عجيبة، لم أختبرها من قبل، ولم أتصور أن
تكون في رحلتي! ليسوا جنودا متربصين، بل زوج عجيب، أطلب زواجهما
كخاطبة شمطاء!"

(48)

خاطبة في دروع حمراء

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

"مضيت بالمال والمتاع، الذي منحني إياه بنت المرصفي، على الدابة القوية،
التي وهبتي، أحت الخطي، وأقلب عقلي في شائي.

كان الطريق، رغم الصيام، يسيرا إلى طرابلس، فالطريق هادئ، ولي خبرة بقطع
الصحراء، والاهتداء بالنجوم، ومن قابلتهم دلوني على الطريق بود، هداهم
الله، وجزاهم عني.

كان الفرنجة قد جمعوا حشودهم لحرب الزرقاء، التي التهبت بأشد ما ظنوا.
بعد أن دعمت بعض القبائل المدافعين عن المدينة، وأمد بعض ملوك العراق
القراصنة بالسفن، نكاية في الفرنجة، حيث تدور حرب عاتية معهم في
أراضي الرافدين. أما الأهبال فقد توقفت حروبهم، واختفوا من خارج
قلاعهم، ولعل زحفهم على الثغر الصغير قد ابتدا فعلا.

وأما أغرب الأمور، فهو إن شيوخ القبائل، وأمرأتنا لزموا منازلهم، لا يحاربون
في رمضان! لعمرى هذا أمر عجيب، ابتليت به الأمة، فحكمانا يقعدون عن
الجهاد طوال العام، ولا يقعدون عن الحروب المحرمة بينهم، التي تنشب طلبا
للدنيا، إلا في رمضان، مع إنه ليس من الأشهر الحرم! أما إن سألتهم عن
الأشهر الحرم، التي قال الله عن القتال فيها (قل قتال فيه كبير وصد عن
سبيل الله وكفر به) فلا تجد ردا إلا رماحا مرفوعة، ودماء مسفوكة، وحرمان
منتهكة. بل أصبحت تلك الشهور، التي لا تحل فيها الحرب إلا لضرورة

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

قصوى، ردا على عدو سبقنا بانتهاكها، فرصة لنهب الحجاج الأبرياء، بسيوف
تزعج إنها مسلمة، وما تعرف عن الإسلام شيئا.

ليت شعري! لم استحل المسلمون المسلمين، وحرماهم بنفس هينة، وحجج
واهنة، ولا ينفضون عنهم أرجاس الأهبال، وأوساخ الفرنجة خوفا وطمعا؟

وصلت إلى سوق الفتوح، حيث منزل الخاتون العامر، فوجدت المزيد من
أموالها ينتظرنى، مع درع الفيلان الأحمر، قد نظف ولمع، وأصلح، وصنعوا منه
نسخة أخرى، لتكون معي إن أصابه شيء! وأوقن إنهم صنعوا منه عددا، تتفجع
به الخاتون في حيلها.

وجدت كذلك عددا من أتباعها المتحمسين لخدمتي، يطيعونني في كل أمري،
ولكن بالطبع ليس فيهم مثقال ذرة من إخلاص غول الحق، رحمه الله.

أمرتهم بإعداد دواب وزاد للرحيل، وسألت عن تيمور، فظهر أنها حفظته في
مكان بعيد، حتى أرجع لطرابلس، كي تطمئن لعودتي لها، تلك الخاتون
المحاذرة. ففادرت المكان، واتجهت إلى طرابلس، فنزلت على بيت سلمان.

استقبلني سلمان بدهشة كبيرة، وكان أول ما ألقاه عليّ قبل رد التحية:

"الم تقتل؟"

قلت:

"ليس من السهل أن تقتل غولا أحمر يا سلمان! دع عنك هذا، فهناك أمر جليل،
ومهمة وعرة، أحتاج لك فيها."

وبدون مقدمات أخرى، أقيت له الأمر كله!

نظر لي نظرة من يرمق مجنونا، وفتح فمه، ربما ليصرخ، ثم أغلقه مبهورا، ثم
فتحه، ثم أغلقه! فأكملت هجومي عليه:

"هل تستطيع أن تساعدني في هذا الأمر؟"

لو سقط أمامي مصابا بالفالج، لما لمته قط! لكنه بذل مجهودا -أحسده عليه-
لكظم غيظه، وتكلم من بين أسنان تطحن بعضها البعض:

"فيم أساعدك؟ أساعدك على أن تزوج أميرة، بنت الملوك، سليفة الخلفاء، لفلاح
وضيع، يصفرها في السن، ربما بعشرين عاما، بعد أن كانت زوجة حاكم

جروب " ربيع الكتب " .

طرا بل السابق؟ ولماذا؟ لكي تضع عنقها تحت سيف طاغيتكم الأسود. وتثير علينا جنون طاغيت الأهبال؟ سواء كنت غولا. أو عفريتاً. أو حتى شيطاناً. فهذا أمر لا يمكن أن يكون له تمام."

قلت له:

"لا تكن بهذه الثقة، فإن كيد البشر أنكى من كيد الشياطين. ووالله إنني لقيت امرأة، لو طلبت إبليس، لاستعاذ بالله منها! وإنما معي في هذا الأمر، وإنه - بإذن الله - مقضي. إنني لأحس أن الأقدار تسير معي. غالباً من يغالبنني."

نظر لي بفضول، وقال:

"أي امرأة تلك؟"

قلت له:

"وما شأنك؟ هي عقل حكيم ألقاه الله في طريقي. وسخره لي، لكي أقضي أمراً، هو بإذن الله مفعول. هذا الفلاح نسيب للأميرة، وزواجه منها يجعله ملكاً متوجاً، وتملكه يحقن دماء المسلمين، التي سيريقها الأهبال، ويحفظ بلادهم. يا رجل ألم تقرا في كتاب الله (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)؟ لو لم يظهر من بيننا من يدفع شر الأهبال، فسيعم فسادهم الأرض، حتى طرا بل، ولو لم يأت من يدفع شر الفرنجة، فسيمتد بطشهم حتى الحجاز. لو لم تصد لخيانة الأسود، فسينزل غضب السماء على المتخاذلين، قبل المعتدين. ثقب إن طرا بل لن تكون أمنة، لو سقطت بلادنا."

قاطعني في فزع:

"ولم؟ ما شأننا بكم؟ بل معوتكم هي التي ستجلب الوبال علينا، ونقمة الخانات، بلا فائدة ترجى!"

أدركت أن هذا وتر حساس، فعزفت عليه.. قلت مستعيداً هدوئي، متمثلاً لهجة الخاتون الواثقة القوية:

"من الذي كسر الأهبال قديماً، وحطم حلم زعيمهم الهول؟ بلادنا. وحين تسقط بلادنا، لن نتعش أحلامهم، ويسموا لإعادة بناء مملكة الهول؟ سيبتشرون في الأرض، لا يبقون أخضراً أو يابسا."

جروب "ربيع الكتب"

وماذا يحدث عندما يتخذ الفرنجة الزرقاء قاعدة لهم؟ سيملكون البحر تماما، وبقضون على ما بقي من موانيه الأصفر بسهولة. ووقتها سيتحكمون في موانيكم. فلا تمر تجارة لطرابلس، ولا لغيرها، إلا بأمرهم!

اصفر وجهه، وقال:

"ما هذه إلا تخرصات منك، تبقي بها إثارتي، وجرفي معك إلى جنونك."

قلت مصرا:

"ما يحدث عندنا في الغرب، نرفه يدمي في الشرق. ولا نفاذ لكم من هذا المازق، إلا بالسير خلف ملك يتبعه العامة والخاصة. ينشر العدل، ويقود الجند المجاهد، ويرد الطفافة على أعقابهم خاسرين، ويكسر جموع الأهبال مرة أخرى، لا يقومون منها أبدا."

نظر لي مستكرا، وقال:

"أترك في الشاب الفرير تيمور ملكا كهذا؟"

قلت:

"ليس وحده. الملك لو التزم بالعدل والشورى، وخاف الله، فقد أصاب العبد الأكبر. سنكون معه، وقد رافقته مدة طويلة، ورغم شيء من سذاجة فيه، إلا إنه حقا غلام طيب مخلص، يحمل في قلبه قوة كفيلا بزحمة الجبال."

قلتها مجاملا، لكن وأنا أفكر فيها، دار في ذهني كيف كان تيمور صلبا معي، وكيف أكمل الطريق - أو حاول أن يفعل - وحده عندما فرقنا الشاطر عدنان. ربما لو كان حكيم عليه يوم التقيته، لما جرأت على هذه الصفة. لكلي قلبت الأمر في ذهني مليا، ووجدته اكتسب في هذه الرحلة من الألم ما قد يجعله أكثر حذرا وفطنة. على أي حال، لم يكن أمامي إلا تيمور. هو القشة التي اتعلق بها في غرقي.

نظر لي سلمان مفكرا، ثم قال:

"لا أستطيع أن أعدك بشيء أيها المجنون، لكني سأحاول!"

لا ادري اي معجزة تلك، التي جعلته يسلم لي بالأمر. أغلب الظن بسبب بغض أهل طرابلس الشديد للأهبال. كان ذكر اي اذى يصيبهم يحمسه، وذكر اي ربح يكسبه يخيفه.

كان سلمان مفتاحا لقلب القاضي والحاكم، وهما في ظني من يستطيعا تليس رأس الشهائية. أرجو أن يكون الحاكم كارها لحماته، كما زعمت لي الخاتون. وبعد أن تحولت لخاطبة شمطاء، كان علي الذهاب للفتى تيمور، وإقناعه بالزواج من امرأة لا تصغر أباه كثيرا!

"تبا! ما الذي تزعم إنك تفكر فيه أيها الفول!"

كان هذا رده الحائق، عندما رجعت للنزل، الذي نزلت فيه، ووجدته ينتظرنى. قد أرسله لي رجال الخاتون، فأقبل علي مهللا، لا يصدق رؤيتي حيا، قبل أن يرده كلامي عني!

جادلته، قلت له أن هذا هو الأمل الأخير لنجد ملكا ينقذ البلاد، لكنه رد بصرامة:

"لا أريد هذا الملك. تبا له ملكا يغبط المرء على النجاة منه! أتيت معك التراما بعهد جدي، لا لأجعل نفسي ملكا!"

رددت بهدوء:

"بل أتيت معي لإنقاذ البلاد من سفك الدماء وتضييع الحرمات، ورد الأهبال والفرنجة عنها....."

قاطعني بسخط:

"لوسنفعل هذا بالزواج من تلك العجوز؟ دع عنك هذا. تريد الجهاد، احمل سيفك وجاهد، ودع عنك زيجات القصور، والأعيب الدواوين، التي لا طائل منها!"

قلت:

"هذا ما لدينا، هي سنة الملوك، وزواجك من ابنة الملك، يؤهلك لطلب ميراثه، فيتبعك الأمراء و....."

قاطعني بحسم:

"دع عنك هذا! وابتحث لها عن زوج غيري، فإن لي خطيبة في بلدي تنتظرني، ما تركتها إلا لنداء واجب على أهلي، وما تركتني أرحل إلا لأعود لها بطلا، لا ملكا على غير مملكة، بزواج كلود غليظة!"

للمرة الثانية لا أضع بديهية في الحساب. وشاركنتي الخاتون هذه المرة، فلم تصور أن يكون للفتى قلب أحب، وعهد لا يستطيع خيانه. لكننا بصد جد، لا هزل فيه، فلم أجد بدا من الإصرار بقولي:

"لا أطلب منك أن تتزوجها، لتنجب منها خليفة، أو لتأخذ مالها وتتفع به. هي سيدة شريفة جميلة ذات ملك، أهديتها لك، لأهديك أنت لبلادنا."

طبعا لم يقنعه حديثي، واتضح أن مهمة إقناعه أصعب مما أتصور بكثير. لكن مازال في جعبتي الكثير من الحيل، الترغيب في الملك، والاستعطاف على أهل البلد، والتخويف من الأسود، بل، والتهديد ببطش الفيلان الحمر! لم أترك حيلة واحدة إلا واستخدمتها غير نادم.

لكن بدا لي أن الحيلة الوحيدة المجدية هي الإلحاح! الإلحاح الأشد مرارة من السحر. ليل نهار على أذنه حتى يستسلم.

وهكذا دخلت العالم الغريب الشائك للخطبات! أسير بين الاثنين، أوسوس، وألج.

تركنت أمر تيمور، مراهنا على رقّة قلبه وعطفه على أهله، وذهبت لمعركة الأميرة الشهاوية الصعبة. سيدة قوية، عركتها السنون والخطوب، تربت بعيدا عن بلادنا، فلا تعرف غير طرابلس ووطنا، ولن يكون أمرها أبدا سهلا.

بدأت بمن حولها، لنضفط عليها معا، فقد كنت في عجلة من أمري، أريد العودة بالملك، قبل أن ينهي الأسود حصار الزرقاء. لقد فقدت بالفعل ابن عامر، حاكم الثغر الكبير، بعد أن قتله الأسود، لمجرد إنه تعهد باتباع رأي باقي الأمراء، إن أتى لهم الوريث. وسأفقد حتما باقي أمراء الغرب، لو حسم الأسود سريعا أمر الزرقاء، وسار بجيوشه قبلي نحو الغرب. لو سقطت أي من مدن الغرب، كواحة ساوة، أو حصن ساوة، أو مدينة الطارحة، فأجزم أن كل أمير سيأخذ جنوده، ويهرب بعيدا منكفئا على نفسه في دعر، دون مزيد من قتال.

كان حاكم طرابلس، زياد ابن أسامة، الشخص الوحيد المتحمس لأمري، ليس كرها في بقاء حماته قربه، فقد كان أبعد من هذا نظرا، لقد رأى أنه لو انتصر

الملك، فسيكون حليفا قويا لطرابلس، يكسر عنها تهديد الأهلل، وشوكة الفرنجة، ولو انهزم فسيرهق جنودهم، ويكتفون بما اتهبوه من بلادنا. لا يطمحون للمزيد من التوسع جهة الشرق، وربما ينقلبون على الأسود في حرب طويلة، وفي جميع الأحوال لن تخسر طرابلس شيئا.

وقد أبدته في قوله، وزدت عليه بتخويفه من ترك الساحة لحلف الطفافة خالية. فلو اتهموا بلادنا سائفة، فسيطمعون في المزيد من البلاد، فكما يقول الشاعر (إن الطعام يقوي شهوة النهم).

وبمساعدة زياد ابن أسامة، نجحت في إقناع ابن عمه، عبد الله بن محمد، ابن الشهافية، وزوج أخته. صحيح إن الجدل معه كان عنيفا، لكنه سلم لنا بالموافقة، لم أدر رهبة من الفيلان الحمر، الذين يتناقلون عنهم أساطيرا عجيبة في بلاد لم ترهم، إلا قليلا، أم طمعا في أن يصبح وليا للعهد، عقب تيمور، كما لمح له حاكم طرابلس.

ولكن اتضح لي أن كلا الظنين مخطئ، كان الأمر متعلقا بتيمور نفسه! هناك نفوس ما أن تلتقي حتى تتألف، وكان هذا ما حدث! ما أن تكلم الاثنان، حتى طابت نفس كل منهما للآخر، وتحدثا بهدوء بعد الغضب، وظهر لابن الشهافية إن الفتى راغب تماما عن هذه الزيجة، لولا إشفاقه على أهله من بطش الأسود والفرنجة.

بعد أن اقنعت عبد الله، ظننت أن الطريق أصبح ممهدا، واتفقت معهم على أن نجلس جميعا مع الشهافية في الفد، لإقناعها، لكنني فوجئت بعائق آخر. لم يكن في الحساب!

(49)

الفيرة!

التني ابنة الشهاية، زوجة حاكم طرابلس، قبل المجلس، فرحبت بها بهدوء،
وانا أنظر بحذر للحراس الخمسة المدججين، الذين أتت بهم معها، لكنني
فوجئت بها تخرج من بين ملابسها سكيناً، ووضعتة على عنقي!
فتحت فمي لأتكلم، لكن أحد الحراس كمنني من الخلف بفتة، وقالت المرأة
بصوت كالفحيح:

"مؤامرة الخاتون الحمقاء هذه، لن تجدي معي أيها الأفاق! لو لم تترك طرابلس
فوراً، أنت وهذا الشحاذ، فلن ترحلا لأبعد من قبور طرابلس!"
عقدت حاجبائي في غضب. كنت واثقاً أنها لن تجرؤ على قتلي في قلب قصر
الحاكم هذا، لو إنها من النوع الذي يقتل أصلاً. نزعيت يدي بقوة من الحارس،
فلم يمانعني كثيراً، وأمسكت بيدها أبعد السكين، وقلبت في غضب:
"ما هذه الحماقّة؟"

نظرت لي بعيون مجنونة، وقالت:

"لن أتركك تريح أمي من طريق الخاتون يا مافون."

بدت لي ربة منزل ساذجة، لا تفهم شيئاً، فقلت محاولاً تهدئتها:

"ما شأنني وشأن الخاتون؟ لقد أتيت لمحاربة ال....."

قاطعتني:

"لست بلهاء! رجالك وأعدائك وأموالك من عند الخاتون."

قلت:

"هي تساعدني لعداوة بينها وبين ال....."

قاطعني مرة أخرى:

"تساعدك لكي تريح أمي عن كاهله، فيستطيع الزواج منها."

نظرت لها بغير فهم، وقلت:

"من يتزوج من؟"

قالت:

"زوجي حاكم طرابلس! يريد إزاحة أمي، ليتزوج علي من الخاتون."

ففرت فاهي مذهولا، ونظرت حولي غير مصق، فرفعت سكينها مرة أخرى،
وقالت:

"سأدافع عن زوجي بالدم يا أحق، ولن تهمني دروع العالم كلها، مهما كانت
حمراء."

واندفعت تفادر المكان، وهي تجهش بالبكاء! وقفت في مكاني متجمدا، فإذا
بأحد الحرس يمد يده لي بخرقة قماش، ويقول:

"لقد جرحتك في عنقك! امسح الدم يا سيدي!"

نظرت له مستنكرا، فقال:

"أسف حقا لما فعلنا، إن مولاتي تغير غير غير عادية من الخاتون. مولاي
الحاكم لم يستطع النوم طوال الأسبوع الماضي، منذ خاطبته في شأن مولاتي
الشهاية، فهو في شجار دائم ليل نهار معها!"

تركته وأسرعت للحاكم. كان علينا أن نقابل الشهاية بعد ساعات، وما كنت
أتصور أن غير النساء ستدخل لتفسد أمري. لقد ضحى تيمور بالكثير، وأجبر
نفسه على القبول بأمر سيجرح محبوبته، التي تنتظره في طرابلس، وضحيت أنا
بارضي وحياتي، وفقد غول الحق روحه، أينهار كل هذا لغيرة تافهة، أم هي
شهوة حقيقية لدى الحاكم؟

الخاتون حقا ليست بالتهديد اليسير لأي امرأة في العالم، ومع ضراوة تلك الابنة الشرسة، فعلي أن أتيقن أن الأمر لا يزيد عن شكوك نساء في بعضهن البعض. ولما واجهت الحاكم، أقحمني برده:

"بارجل، ذقت حياة صعبة، لأم تفرض عليّ أراءها، ولما كبرت وأصبحت حاكما لكل طرابلس، كانت حماتي امرأة أقوى، تعد عليّ أنفاسي، أبعد كل هذا القبي نفسي في أتون جبارة كالخاتون؟ من ذاق الزواج مثلما ذقته، لم يطلبه مرة أخرى! لا أنفي إني، كغيري، معجب بالخاتون؛ لكني أخشاهن. لها حكمة كحكمة بلقيس، مع دهاء كدهاء إبليس، ووجه جميل كالملائكة، يغطي قلب مترفع كالأكاسرة! كلا! لست أهلا لها، ولا هي أهل لي. ربما تفتت غيري بلسانها، الذي يذيب الحديد؛ لكنني لن أرى منها إلا كبرها، الذي يحقر أي مرید. لن أريدها، ولن أكون من مریدیها."

بدا لي غزله الممزوج بالذم مقلقا، لكن منطقته أقنعني. في الحقيقة، حاولت وضع نفسي مكانه، وفزعت! أن أكون زوجا للخاتون ليس بالأمر الذي يغبط عليه المرء، حتما إلا لو كان يهوي العبودية! أعوذ بالله من هذه الفكرة. أكون زوجا للخاتون! لم أحتمل بقالي في خيمتها ساعة، فأنى لي بفكرة حمقاء كهذه!

تركت الحاكم لي هنا بدقائق من راحة، قبل الاجتماع المرتقب. أخذت أعدد حججي، وأفكر في هذا الجدل الطويل القادم. لم أقابل الشهابية من قبل، إلا للحظات معدودة، ولا أعرفها، ولكن الجميع يؤكد فطنتها، وقوة شكيمتها. ترى كيف أقنع امرأة مثلها؟

جلسنا في مجلس القاضي. نتظر الشهابية، فدخلت علينا مع ابنتها، وزوجة ابنها، وجلسن قبالتنا صامتات، بينما تنظر لي الابنة متحفزة، حتى أكاد أقسم إنها، في أي لحظة، ستقفز عليّ، لتنهش عنقي، كما يفعل ابن أوى بفريسته! لكن الشهابية نفسها كانت هادئة، رصينة، تذكرني بهدوء الخاتون، لكنها أكثر وقارا.

تكلم القاضي أولا، فقال:

"بسم الله الذي له ما في الأرض، وما في السماء، مالك الملكوت، رافع العبيد، وخافض الملوك. قد جمعنا الله لأمر مبارك، أن ننظر في حلف بين بلدين

جروب " ربيع الكتب " .

مسلمين، ضد أعداء الإسلام، في زمن لم يعد المسلم يتحالف فيه، إلا لكي يتقي شر أخيه المسلم! حلف نختمه بإن الله، بزواج مبارك، يعقد لواء الملك لمن يرفع لواء الجهاد."

صدرت صرخة مزعجة من زوجة الحاكم، التي نظرت بذهول للقاضي، وقالت:

"مولانا وشيخنا، ألم تحدثني بالأمس عن إن الزواج لا يجوز بغير كفاءة؟"

تحنج القاضي، وقال:

"قد وضع لي سيدتي عظم الفائدة، وصلاح الحال في الزيجة، كما أن أمر قبول الكفاءة وغير الكفاءة في يد الولي من ناحية، وهو مولانا الحاكم، وفي يد مولاتي الشهائية، فهي ثيب، ومشهود لها بالحكمة."

انبثقت ابتسامة مكتومة على وجه زياد، وأحسست أن ما رأيته هذا الصباح، لم يكن سوى شاهد قبر، مدفون في داخله مؤامرات بحجم الأفيال!

لكن الشهائية تكلمت، فصمت الجميع منصتين، بدأت بذكر اسم الله، والثناء عليه، ثم قالت:

"ما أن سمعت بطلب الزواج المجنون هذا، حتى ضحكت واستهزأت، وكدت أمر بنفيك أيها القبيل من المدينة، وما كان ليهمني أن تكون غولا أحمرًا، أو تينا أسودًا! لكنني في حياتي لم أقطع أمرًا، مهما بدا محتمًا، إلا بالاستشارة، والاستخارة، أما الاستشارة، فكانت وبالا عليك، لم يكسر لها إلا زوج ابنتي الهمام، لفرض في نفس يعقوب!

لكن الاستخارة كان أمرها عجبًا! لم أشهد في حياتي تغيرًا لحالي، وتقلبا لصدري، بين يوم وليلة مثل اليوم. أدركت أنها زيجة لمصلحة المسلمين، لا أدري أكان في حلمي، أم في يقظتي أنني سمعت تيمور يهمس في أذني (عصمة الدم أولى).

لم يبد لي كهذا الشاب الواقف أمامي، بل بدا رجلا مهيبا، قوي العزم، لعنه جده العلاف، صاحب السضل على أهلي، والله إن فيك أيها القبيل سرًا ما، لا يعلمه إلا الله! لعنه الإخلاص، الذي وصفه بعض الصالحين، إنه قادر على زحزحة الجبال بأمر الله! إني لأرى أنك منصور بأمر الله، والله غالب على أمره، ولو كره الكافرون."

كان حديثها هادئا، وثاقا، مفعما بالإيمان. تلك امرأة أتتها الله الحكمة، لتعمل بها، وليست كالخاتون، تعمل لصالح حالها وثارها فقط.

نظرت بقلق للابنة الشرسة، لكنني وجدت كل الوجوه قد سكنت، وهدات، وانطفأت الشياطين التي كانت تتقاذف في عيني الابنة الفيور. فقلت مرتاح البال:
"جزاك الله خيرا يا مولاتي الأميرة، وإن هذا امر، لا يأتي من ورائه إلا الخير بإذن الله."

قالت الشهادية:

"حسبك، لم أكمل كلامي بعد. قلت لكم إنني لما أتيت بالاستخارة، لم يطمئن قلبي لغير القبول بهذا الأمر العجيب، لأتزوج من شاب في عمر ولدي، لم أراه قبل أسابيع قليلة، فأسافر معه لبلاد لفظتني قبل أن أولد، وأهدرت دماء والدي، رحمه الله، بغير ذنب. تلك ليست ببلادي، فأنا مولودة في طرابل، ولها أتمني، وفيها عيشي ومقامي، وإني لأخشى على أهلها من ورائي الاضطراب. لو رحلت عن طرابل، فلن أطمئن في سفري، إلا ومعني ابني، وحينها سأترك نعمة نعمة، كزوج ابنتي، فريسة سهلة لذئبة جامحة كالخاتون! وما كان لي أن أفعل هذا أبدا!"

أخ!.. ها قد عدنا لحديث الفيرة، ما كنت لأسمي حاكم طرابل بالنعجة أبدا، وإني أظنها، رغم عظم قدرها، حماة لا تعطي زوج ابنتها قدره أبدا!

رددت بنفاد صبر:

"ليست الخاتون ذئبة متربصة ببلادكم، وإنما لفي الحرب معنا، ولا اسمي حاكم طرابل بالنعجة....."

قاطعتني بقولها:

"التمس لي عذرا يا هذا! فقد عاشرت نعمة نعمة لسنوات طوال، ولولا حصافتي، لأضاع ميل زوجي للنساء طرابل وما حولها! لم تعش بيننا، وتسمع الحكايات العجائب عن اللاتي أذهبن عقله من حسناوات، دسهن علينا الأهبال! لولا ما ألهمني الله به من تدير، لما كان الحال هو حالنا اليوم. أمثال الخاتون أعرفهن، وأخبرهن جيدا، وإنهن لا يؤتمن أبدا. ولو تسلطت على رجل، محمما

جروب "ربيع الكتب"

(50)

الزواج

"الجمتي المفاجأة! بينما اتى الرد الشرس من حيث لا احتسب! من شقيقة الحاكم. زوجة عبد الله! ثارت وقالت:

"أأخذينها مع ولدك في مركب واحد! والله لا أمن على زوجي منها، ولو كانت متروجة، فإنها إن لم تفوه، أدهبت عقله، وقلبتة على أهل بيته!"

قالت الشهامية ببساطة، كأنما تدعوها لتتزه في حديقة غناء:

"فلتات أنت الأخرى معنا إذن!"

وهنا تجهم الحاكم، خوفا على أخته، وتجهمت الأخت خوفا على زوجها، وتجهم الزوج من إلحاح الزوجة!

بينما انفجر غيظي، وقلت:

"تلك رحلة قد لا تأتي منها عودة، وربما أحب ان أجمعكم إلى الموت معا! كلما قل عددنا، وخف حملنا زادت آمالنا. لن أرحل و ثقلي نصف نساء طرايل، لأنكن تخشين من الخاتون! دعوني أخبركم أر، الخاتون لا ترى في أي من رجالكم من هو أهل لها، ولا حتى القبيل زعيم الفيان، أو ابن أسامة حاكم طرايل! الخاتون لا تبحث عن زوج، وإنما كل ما تبغيه هو رأس القائد الأسود."

نظروا لي بغير فهم، مع استهجان من النساء، وأردفت بقولي:

"ماذا تعرفون عن الخاتون، قبل ان تأتي لصرايل؟"

قال ابن الشهائية، بسرعة أندمته نظرة زوجته عليها:

"كانت زوجة لشهبندر سوق الفتوح، وورثت عنه بعض ثروته."

قلت لهم:

"هي بنت الأمير المرصفي، الذي كان قائدا للجند في عاصمتنا، وغدر به القائد الأسود، فسلب ماله وسبى نساءه، وقتل أغلب ولده، إلا واحدا جعله له خادما ذليلا. كانت الخاتون أميرة غير متوجة على العاصمة، فذاقت الويل والهوان والسبي على يد الأسود. لا تحمل في قلبها إلا حقدا عليه، فلن تنازعك في ملكك يا نساء طرابلس، فدعونا من هذا الشأن، فهي معنا على غريمنا، ولن تجرؤ على مضايقتك، حتى لا نرجع عن حرب الأسود، وإذا انتهت الحرب بنصرنا، بإذن الله، فستعود لقصر أبيها، تعمره بعد خراب، وترفع رايتها مكان راية الأسود."

هدات نفوس النسوة، ربما لأنهن كن يبحثن عن الهدوء، فاطعني فيها! أو لعلها طبيعتهن في حب أحاديث النميمة، وأخبار الماضي، وأسرار الغريمات! أيا كان، فقد انتزعت بعد مشقة موافقة الشهائية، وتيمور، وأتم القاضي الزواج في جلستنا.

ما إن أنهينا عقد القران، وانفض مجلسنا الصغير، وجلسنا مع قاضي طرابلس، ليكتب لنا شهادته، حتى أتى الحرس يقولون إن هناك رسولا من الخاتون ينتظر.

شحب وجهي، ونظرت تجاه الشهائية قلقا، لكنها قالت بجفاء:

"ادخلوه."

دخل شاب صغير، أنيق الزي، فأنحني، وقال:

"تحية وتعظيم لمولاتي الملكة الشهائية."

ثم أعطاها لفافة مختومة، وقال:

"هدية زواج من مولاتي الخاتون."

مدت الشهائية يدها للفاقة بفضول، ثم تداركت نفسها، فوضعتها جانبا، وأشارت بكبرياء للرسول ليرحل، وما أن غاب عنا الرسول، حتى قالت بفيظ:

كيف ومتى علمت؟

الفضت ابنتها على الرسالة، ففتحتها، ونظرت لها مذهولة، ثم سلمتها
لأمها، التي احمر وجهها، وقالت:

"تلك الماكرة، كيف تستطيع أن تصنع تلك الأمور، والله لا أثق فيمن بمثل
مكرها أبدا! كيف أرحل عن طرابلس، وأتركها للخاتون؟"

*** * ***

(51)

حكاية البحار عمر ابن الأشرف

1-51 (الرحيل)

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

"أخيرا أعدنا العدة للرحيل بعد شد وجذب، وبدأت أتجهز، وقد زادت ثقتنا، وتضاعفت آمالنا. اتفقنا على الرحيل بالبحر، لأنه أكثر أمنا. خاصة مع ما أصاب سفن القراصنة في حصار الزرقاء الدامي. أشهد أن هؤلاء اللصوص يدافعون عن وكرهم بقوة، أشد مما دافع أهلها عنها في الغزوة الأولى! وكان هذا لحسن طالعنا.

لكن محطة بلادنا الوحيدة على البحر الشرقي هي الزرقاء نفسها، التي تحترق بالحرب والحصار. وهنا سألت، فقال الناس لي:

"عليك ببحار لا مثيل له، هو عمر ابن الأشرف".

كان بملك سفينة صغيرة، لكنها سريعة، ويتفاخر دوما بأنها أسرع ما يجري فوق البحار جميعا، بأمر الله.

تحدثت مع ابن الأشرف قليلا، لكي أرى كيف يكون رحيلنا. هلم أخبره بالطبع عن أخبارنا وغرضنا. فقط أعلمته بأنني أريد الرحيل لساوة، لترور الشهائية قبر أبيها.

أخبرني إن السفر طويل خطر، ولا جدوى من محاولة التسلل للزرقاء. وقال:

جروب "ربيع الكتب".

fb.com/groups/exchange.book

"لا يوجد في بلادكم ميناء غيرها، والبحر الشمالي لا أتصح به، رغم أنه أقصر وأيسر. أعرف بحارة طبيين يعملون فيه، يمكنني أن أدلكم عليهم إن أردتم. لكن خطر سفن الصيادية والصور العلي هناك كبير. والثغر الصغير يزحف الأهبال عليه - كما سمعت - والكبير قد تهدم، وخضع للقائد الأسود. وهو طاغية قاس. لا أمن على أميرتنا الشهاية منه."

فلت له، كأنني لا أعرف مثله وأكثر:

"فما الحل إذا؟"

رد:

"لتركبوا معي في أسرع سفينة وسط البحار، اليوم حرب على الزرقاء، سيعقبها تشتت القراصنة، يهيجون في كل البحر. فلنتهز الفرصة، وأمضي بكم سريعا لأقصى الجنوب. هناك ميناء صغير أعرفه، يستخدمه بعض التجار سرا، بعيدا عن عيون القراصنة. أنقلكم لهنالك، وترحلون منه عبر بلاد الأحباش والسواد، فتركبوا النهر شمالا، حتى تصلوا لبلادكم."

بدت لي فكرة جيدة، رغم طول السفر، وضيق الوقت. فقط لأدعو الله أن يظل الأسود عالقا في الزرقاء، ولا يشن هجومه على الغرب الآن.

وهكذا هرعنا للسفر على سفينة ابن الأشرف (السالمة)، لا نحمل إلا القليل من الفتاع، وأغلاه طبعا هذا الخطاب الثمين، الذي أوصلته لنا الخاتون. لا أدري كيف تفعل هذه المرأة ما تفعله! كيف وهي وسط صحراء الحجاز البعيدة، وصلت إلى الخليفة، لتترع منه خطابا، يعترف بتيemor ابن زهير ملكا على بلادنا! تلك ضربة قاصمة، أفرغت فيها كل حقدنا على الأسود! حقا إن كيدهم عظيم! لكن مهما أوتيت الخاتون من عجائب، فمازالت الحرب ضد الأسود مريرة، غير يسيرة.

اليوم، وقد أصبحت أفضل حالا مما بدأت، وامتكت أقصى ما كنت أحلم به ويزيد، كان اليأس يراودني. بعد أن اقتربت ساعة الحق، وفرغت من أمر الوريث، أخذت أفكر فيما هو تال. سأختبر الآن معدن الأمراء، والكارثة إنني أعلم بالفعل كم هو خسيس هذا المعدن! سينفض أغلبهم عنا حتما، الوحيد الذي كنت أعقد أملا على شهامته ومروءته، هو ابن عامر، الذي غدر به الأسود، وقتله شر قتلة.

لكن أوان التراجع قد فات، ليتني كنت حقا زعيما للفيلان الأحمر. لأجد منهم نصيرا للحق. لكن عهد الفيلان، ومن يعتنقون الشجاعة مذهبا، قد ولى عن بلادنا بغير رجعة.

أخرجت كتاب الشجاعة، أسلي نفسي فيه. الفول الأحمر لا يخشى شيئا، ولا يهاب أحدا. ليتني أمتلك مثل هذه الشجاعة الحمقاء، أو على الأقل لأمتلك من الإيمان قدرا يعوضني، ويثبتني في رحلتي هذه. أه عليك يا غول الحق، رحمتك الله. كم أحتاج اليوم لنصرتك.

هنا دخل عليّ ابن الأشرف، يدعوني لطعام أول غداء في الرحلة، قائلا:

"اتفاعل بان ناكل جميعا معا اول يوم، لتربطنا مودة الإطعام، فما يكون لي ان اضايق ضيف مائدتني، وما يكون لمن اطعمته ان يفدر بي. ولو إني أعرف بالطبع ان رفاق الشهائية لن يفدروا!"

القيت كتاب الشجاعة جانبا، ونهضت. فأمسك به ابن الأشرف متساللا:

"ما هذا؟ لا اقرأ فاعذرني إن سألت."

رددت عليه مخفيا ارتباكي:

"دعك منه، إن هو إلا كتاب تولرته عن أسلافي."

صمت لحظة يتأملني، ثم خرج دون رد. فاتبعته، وجلسنا على مائدته، نتناول السمك الشهوي، والخبز الساخن، مع بعض التمور الحجازية الشهيرة.

* * *

(2-51)

حكاية أبو الشوارب

أخذ يقص علينا حكايات، وحكايات عن البحر والبحارة والقراصنة. كان فخورا بمهنته، وسفينة المسماة بالسالمة. ويحفظ قدرا هائلا من أخبار البحارة. ولم يدخر فرصة، طوال الرحلة، ليقص علينا بعضا منها.

"فمثلا، ذات يوم أبطأت السفينة، رغم هدوء البحر، ويمن الرياح، فنظرت أبحث عن الشاطئ، فأدركت أنه بعيد وأن المكان ليس بالضحل، ولما كنت على علم بقليل من عمل البحر، منذ كنت صبيا، يخرج مع والده للصيد، فقد تعجبت من هذا، فرد علي:

"إنها الشعب! أسفل الماء هنا، ينمو مرجان كثيف، لو اصطدم بقعر أي سفينة، فسيغرقها. البحارة عادة ما يلتفون بعيدا عن المكان، ليضعوا أيما في مياه ضحلة، قرب الشاطئ، لكني أعرف طريقي بينها جيدا، فأسلك الطريق المختصر ولكن بحذر طبعاً. ذات مرة اعترضني أبو الشوارب، ربما لا تذكرونه، لكنه كان قرصانا رهيبا مشهورا في كل مكان. لم تكن الزرقاء قد سقطت، بعد فكان أبو الشوارب يتقل بين كل المواني، مهددا السفن. هاجمني، لكن السالمة الحبيبة سبقته، فتبعني بإصرار، فجررته لهذه المنطقة، وشاهدته وأنا أضحك، بينما سفينته تفرق، وقد قصمها المرجان، حتى كادت تشطر لنصفين.

وشاهدته يركب مركبا صغيرا، ولم أظن له النجاة، فسخرت منه، وقلت له "سألقي لك ببعض الطعام، والماء العذب، إن حلقت شواربك يا أبا الشوارب!"

وكان في ضيق عظيم حقا، لكني لم أظنه يفعلها، فوجئت أنا ورجاله به يخرج خنجره، ويقطع به شارب العظم بغلظة، والزممتي كلمتي، فألقيت في الماء قربه بعض الطعام والماء، وابتعدت مسرعا. وحينما عدت إلى ميناء الزاهرة، أمسك بي هو ورجاله في مقهى هناك!

أيقنت لحظتها أنني هالك لا محالة، ورقبتي ستلحق بشاربه! لكن الرجل فاجئني للمرة الثانية، فقدم لي كيسا به عشرة آلاف درهم!

لم تسمعني خطئا! نعم بالفعل عشرة آلاف درهم، لا تنقص واحدا! وقال لي:

"أبو الشوارب لا يأخذ في البر ما أخذ منه في البحر، ما كان لي أن أثار منك على الشاطئ، يا من غلبني في مملكتي، خذ هذا المال، واهجر الملاحة."

وأخذت منه المال الحرام، فوزعته على الأيتام، والثكالي، الذين أفقدهم أبو الشوارب عواللهم. وعدت للملاحة مرة أخرى متجاهلا طلبه، أتدري ما حدث؟ حاول مطاردتي مرة أخرى، لكني كنت أكثر حذرا منه، فهربت منه بفضل سرعة سفيتي وخبرتي الكبيرة. فماذا فعل أبو الشوارب؟ هل تصور؟ لقد اعتزل البحر، بعد أن غلب فيه! لم يقبل أن يجد من يتفوق عليه في البحار، وأبى أن يأخذ ثاره بالفدر في المقاهي. رجل غريب أبو الشوارب هذا. هو مجرم لص، لكنه كان يحمل في قلبه شيئا من الرجولة."

وانهى ابن الأشرف حكايته العجيبة، وانتهت معها منطقة الشعاب، فأسرعت السفينة مع الريح مسرعة نحو الجنوب.

وأخذت أتأمل بشوق وحنين صفحة الماء الهادئة أثناء الليل، حينما كنت صبيا، كان والدي إذا اشتدت بنا الفاقة، يخرج للصيد سرا أثناء الليل. كان يختار الليالي المقمرة في الصيف الهادئ، فيأخذني معه ويتجه نحو المياه العميقة، فيصيد ما يمكنه، ويتركني الهو كما أشاء حوله، أو أتأمل النجوم اللامعة. ونجوم البحر، غير نجوم البر، غير نجوم الجبل. كل منها له مذاقه، ومتعته. وحين ينهي أبي صيده، ينزلني أخرج السمك في جوال من الخيش نده المنزل، متسلا بهيدا عن أعين جباة الضرائب، بينما يعود هو لهم بالقارب خاويا عند العرسي.

ميت اذهب بدلا من اخي الأكبر رحمه الله. لأنني أحب هذه الرحلات الليلية، التي
بألف منها شقيقي. ثقل الحمل الذي أجره خلفي. يهون لساعات اللذة.
والبحر ملكنا وحدنا. أما اخي فكان يقول إن علينا مواجهة الجبابة. ليكفوا
أيديهم عن نهبنا، بدلا من التسلل برزقنا كاللصوص. رحمه الله، ما نال غير
السيف! وما نال أبي أيضا غير السيف. وأظن السيف ينالني في النهاية!

(3-51)

حكاية السمكة الفتانة

بينما كنت غارقاً في ذكرياتي، انتشلتني منها ابن الأشرف قائلاً:

"لا تقف كثيراً أثناء الليل على سطح السفينة، فنحن نمر الآن جوار جزر الفطسان."

نظرت له بغير فهم، فبدأ كعادته يحكي:

"جزر الفطسان جزر صغيرة، يغمرها الماء عند المد، وتظهر فقط في أوقات الجزر، أو عند اكتمال القمر. يقال إنها كانت عامرة بالسكان، فتمردوا وتجبروا على خلق الله، حتى أتى ولي من الأولياء، دعا عليهم، ففطست الجزر بهم. ولكن لا أظن هذا، فلا يظهر لي فيها - حينما تبرز - أثر لمبنى أو حجر. لكن البحارة يخشون منها المرور ليلاً، حتى لا تخرج لهم كما يزعمون السمكة الفتانة."

سألته عن السمكة الفتانة، فأجاب:

"هي مخلوق شرير، يقال إنها كانت ابنة جميلة، لساحر يعمل عند ملك عظيم. لكنها لم ترض بما رزقت به من جمال ونفوذ، فقد كانت حسودة حقودة، تنهشها الفيرة لما في يد غيرها. قالت لنفسها:

"أيقال عني جميلة، وزوجة الملك أجمل؟ أيقال عني غنية، وابنة الملك أغنى؟ ايظنونني معروفة بين الناس مرموقة، والملك أشهر؟"

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

هدت كثيرا على الملك وأسرته، ودبرت لهم المكائد. فاحتلست من أسرار أبيها شيئا، ألقته على الملك، فأصابه المرض والضعف والشرود.

واحتارت زوجة الملك لما أصاب زوجها، فدارت تسأل وتأتي له بالحكماء والسحرة، فلم يعرفوا ما أصابه، وما تخيلوا أن تأخذ ابنة الساحر شيئا، تؤذي به سيدها. وهنا وسوست الفتاة الحقود للزوجة المسكينة، فقالت لها:

"مثل هذا الذي يصيب الرجال إذا أحبوا! لقد سقط الملك العجوز في قبضة شيطانة صغيرة. طامعة في تاجك يا مولاتي."

قالت الزوجة المكروبة:

"وكيف هذا، ومن هي؟"

قالت الساحرة:

"أما ترينه يتغير إذا أتته ابنته مع صديقاتها؟ تلك الملعونة ميمونة، التي تختال بنفسها أمام الرجال؟ إنها سبب تغير حال زوجك. ولو طردتها من القصر، فسيعدل حاله."

غارت الأم على زوجها، وتشاجرت مع ابنتها، تريد إجبارها على مقاطعة صديقاتها جميعا.

وهنا أتت الساحرة للأميرة، في صورة الوصيصة المخلصة النصيح، تقول لها:
"لا أفهم لم تفضب أمك على صديقاتك فجأة؟ ربما يكون في الأمر شيئا، تخشى أن يعارضنها فيه."

سالت البرينة المسكينة:

"وأي شأن تدخل صديقاتي فيه؟"

قالت الخبيثة:

"أما ترين مولانا الملك مريضا قد ضعف؟ في هذه الأوقات تسعى الممالك لتقوية ملكها بمصاهرة الحلفاء، حتى لا تفري وعكة الملوك أعداءهم."

فهمت البنت ما تلمح له الساحرة، كان لهم حليفا ملكا عجوزا، تبفضه بشدة، لما عرف عنه من اشتهاة النساء، وإيذائهن، وظنت أن أمها تسعى لتزوجها له، لتقوي عرش أبيها وأخيها، وقالت الساحرة:

"تستبق رفضك بإضعافك حتما. لو بقيت صديقاتك إلى جوارك، فحتمًا سيقوينك على الرفض، ويشددن من أزرارك!"

غضبت البنت من أمها، وأصرت على إبقاء صديقاتها قريبات منها. لو تنازلت في أمر صديقاتها اليوم، فالله أعلم ما ستجبرنها على التنازل عنه غدا!

وإزداد الشقاق في البيت، الذي كان آمنا، فتعجبت أم الملكة مما دار بين حفيدتها وابنتها أثناء مرض الزوج. فحاولت الإصلاح بين الثلاثة قدر استطاعتها. واندفعت الساحرة تدور بين الثلاثة، حاملة رسال الجدة، كأنها تساعدنا بإخلاص في الصلح؛ لكنها ألقّت النار على الفتنة دوما.

وأحست الجدة بالتعب. لا تفهم ما يحدث، لأن كل واحدة تكتم مخاوفها عن الأخريات، فإذا بها تحدث الساحرة تستفهم منها عن أصل الشجار، فزعمت لها أن البنت الصغرى قد وقعت في حب غلام من غلمان أخيها، وتريد الزواج منه. ولضعة الفتى، وخشية الفضيحة، فالوالدين يكتمان الأمر.

ودست الخبيثة من سحرها ووسوستها، ما جعل الظنون تتوالى على الجدة، حتى توهمت أن الفتاة قد أذنت مع الغلام.

وثار الدم الحار في عروق الجدة، التي عرفت بشدتها. فدبرت قتل الغلام، وحبست الأميرة في سجن لا يعرفه سواها!

تعجب الملك من اختفاء ابنته، بينما غضب الابن لمقتل مساعده. وأخذ يبحث عن السبب، لكن الساحرة كانت سبابة، أوهمتته أن الجدة - أم الملكة - لما علمت بمرض الملك، وأن موته قد يكون قريبا، تبغي رؤية ابنها هي وريثا للعرش، ولذا تكيد لحفيدتها. وبدأت بقصص أجنته، باستهداف أعوانه المخلصين، ورميهم باتهامات لا يمكن تصديقها.

وأصيب الفتى بالخشية على الملك، الذي لا يملكه! وهذا نوع قاتل من الخوف، يصيب بالجنون، ويذهب بالعقول، وكم من جرائم ارتكبها ولي عهد تجاه أبيه، وأخ في حق أخيه، ممن يجري في عروقهم نفس الدم.

ودبر الأمير بمعاونة الساحرة ثورة دموية، باستخدام عدد من السجناء والمجرمين، فقتل الملك والملكة، وجدته وذاله، وانفرد بالعرش المسموم، وأجلس الساحرة زوجة إلى جواره، جزاء مساعدتها له.

لعلها تدخلت في شلون الحكم. فضاقت بها. وخشي على نفسه من مكرها
ودهاها. فذهب لها وقال:

"إن اختي حبيسة الجدران. التي وضعتها جدتي فيها. وإني أخشى إن أطلقتها
أن تجمع الناس علي ثارا لأبيها. ولو أبقيتها سجينة فقد تهرب. ولو قتلتها
هربا يثور علي القادة. أريد أن أسقيها شيئا مسحورا. يحولها لشكل قبيح
ملفر. يبعد عنها الناس. ويعجزها. فلا تقدر على عمل شيء ضدي. لا أريدها
أن تموت. وفي الوقت نفسه لن تظل حية!"

بحث الفتاة في أكوام السحر التي خلفها والدها خلفه. فوجدت شرابا يحول
من يشربه إلى سمكة. تموت لو خرجت من الماء نهارا. وتعود في الليل بشرا.
ذهبت فرحة لزوجها بنصرها. وقالت له:

"أسقها هذا الشراب. في الصباح تختنق لو خرجت من الماء. فلا تجرؤ على
مفادرة سجنها. وفي الليل يراها الناس حية. لا يهتمونك بقتلها. كل ما عليك
أن تضعها في سجن في الصحراء. حتى لا يأتي عليها النهار. وهي في طريق
به ماء."

أخذ الملك الشاب الشراب الملعون. فأخفاه لديه يوما. ثم دسه لزوجته في
الشراب. ولما تحولت لسمكة. وضعها في إناء. وأمر رجاله بحبسها في قلعة
في الصحراء. لتظل سجينة لديه للأبد.

لم يرد أن يقتلها. فقد ظن أن يديه قد تلطخت بدماء كثيرة. ولو أكثر القتل
عن هذا. فسيخشاه أعوانه. ولن يأمنوا له. كما إنه ظن أنه قد يحتاج لشيء من
سحرها في حمايته من أعدائه.

وفي سجنها. أغوت الساحرة بجمالها. وعذب لسانها. ومكرها أحد الحراس.
وأوهمته أنها تحبه. حتى أصبح العوبة في يدها. وأوهمته أنه لو قتل زوجها.
فستزوجه وتهرب معه.

ودبرت معه حيلة ماهرة. فأرسل الحارس رسالة للملك. يخبره أن بعض الثوار
هاجموا القلعة. يريدون خطف الملكة لمساومته عليها.

وأصاب الملك الفرع، وخاف أن تسقط أسراره في يد أعدائه مع الملكة الناقمة فتكشف للناس أنه قاتل أبيه وأمه، وأنه من دبر الثورة الوهمية التي سفك دماء عائلته، لينقلبوا عليه.

هرع الملك للحصن مع جنوده، وأرسل مع الحارس الخائن رسالة للقائد بالصمود أمام الثوار بأي ثمن، حتى يأتيه بالدعم.

فتح الحارس خطاب الملك، وغير كلماته كما أمرته الساحرة. وذهب للقائد يخبره بفزع إن الملك اعتبر حرس القلعة متمردين، وينوي مهاجمتهم، وقتلهم جميعا، ليتخلص من زوجته، ملصقا تهمة قتلها في الحراس المتمردين. وأبرز له الخطاب المزيف، الذي أصبح موجها لقائد الجيش. يأمره بسحق المتمردين عند قلعة الصحراء!

وهنا أمر القائد رجاله بالدفاع عن أنفسهم، فأخبره عشيق الساحرة إن أفضل وسيلة لهذا هي أن يجعلوا القلعة تبدو خاوية تماما. فيختلون في أعماقها، فإذا دخلها الملك ليفتشها، هاجموه هو ورجاله، ويباغتونه، فيقتلونهم. ويهربون بعدها إلى الميناء، ومنه عبر البحر إلى أي بلد، حاملين تاج الملك، المزين بألف جوهرة، يقتسمونها بينهم.

وأحكم التدبير، فذهب الملك بجيشه، ليجد الحارس الخائن ينتظره، فأخبره إن المتمردين قد انكسروا عن القلعة، فتراجعوا واحتشدوا خلف الجبال، لكن الملكة تطلبه لأمر هام.

خشي الملك إن ذهب للملكة، أن تؤذيه بسحرها، وإن خذلها الآن وهو قريب منها، أن تنتقم بالمرور إلى الثوار، فأرسل جيشه لتتبع المتمردين المزعومين، وذهب بصفوة جنوده الذين يثق تماما في إخلاصهم له، ليحتمي بهم في زيارته للملكة.

وهنا وجد الموت والقتل في انتظاره، جزاء وفاقا لما فعله بأهله!

وأسرع الجنود المتمردين يهربون من القلعة في الصباح، حاملين وعاء كبيرا من الماء، يحوي الملكة السمكة، وتاجا ذهبيا، سالت بكل جوهرة فيه دماء بريء.

ركب الجنود سفينة ليرحلوا بها عن البلاد، وفوق سطح السفينة، استمرت الساحرة في لعب لعبتها القاتلة في زرع الفتن، فألبت الرجال على بعضهم

جروب " ربيع الكتب " .

الدهى، كل منهم يظن أن الآخر يريد الفوز بالتاج وحده، تطمع أن تفوز هي
هي النهاية وحدها.

ولم يكن لعبتها ازدادت لهيبا، فشب قتال عنيف، قتل فيه كل الملاحين، الذين
بهرقون هذه المياه الخطرة، فاصطدمت السفينة بجزر الفطسان، وغرقت
من فيها.

وأهل أن تموت الساحرة بلحظة واحدة، انبلج الفجر، وتحولت لسمكة، ونجت.

لعلها بقيت ملعونة مدى الحياة، تذوق كل يوم طعم الموت مرتين. عند الفجر
بهاقها الهواء، لا ترتاح إلا لو غرقت في البحر، وعند الغروب يفرقها الماء،
لموت لو لم تخرج للسطح.

وفي كلا الحالين، تطاردها الألام من وحوش الأسماك، ولأعاجيب البحر، وما
أكثرها. لكنها ما فكرت أبدا في التكفير عن ذنوبها، بل تفجر الحقد في
قلبها تجاه كل البشر، فكل من عبر أمانا في سفينته ليلا، وكانت في شكلها
البشري، خرجت له وحدثته، ففتته بحديثها، وجمالها لكي تفرقه.

مرة توهم الناس أنها جنية من بنات ملك الجان، لو تتبعها في الماء لن يفرق،
والها يصبح لها زوجا، وفي مملكتها أميرا، وتارة توهمه أنها عروس البحر،
ستلده على كنز الكنوز في جزر الفطسان، وتفريه بالتاج الثمين، زاعمة إنه
جزء ضليل من الكنز المدفون، فيتبعها المسكين، حتى يدركه المد عند
الفجر، فيفرق وتتجو هي كالسمكة.

يلعمون إنها تقول أحيانا إنها سقطت من سفينة هاجمها القراصنة، فتصعد
للسفينة التي تنقذها، وهنا يكون أشد شرها إذ لا تهدأ حتى تقلب كل البحارة
ضد بعضهم البعض، حتى يهلكوا جميعا.

إن حياة البحارة أيها الفول الأحمر شاقة حقا. والخطر كل الخطر أن تنشق
صفوفنا، فليس للتمرد على سطح السفينة مكان. حتى القراصنة الأجلاف، إن
اختلفوا يصفون خلافاتهم بالدم، إما من سفيتين، أو على البر. لكن لا تتجو
سفينة أبدا في وجود فتان، يجعل من عليها يتنازعون. لهذا فخطر السمكة
الفتانة كبير جدا، يتطير منه البحارة أيها الفول الأحمر."

(4-51)

مصيب الشيخ الفولي

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

انهى ابن الأشرف حكايته، فصمت أفكر فيها، ثم اتبعت فقلت:

"كيف علمت اتي غول احمر؟"

ابتسم، وقال:

"لست بغبي، أنت تمسك بكتابك، الذي يشبه ما يتناقلونه عن كتاب الفيلان، فهذه السفينة نقلت غيلانا حمر في عهد أبي، وقد حكى لي عنهم حكايات كثيرة. وإلى جانب هذا، فمعك الأميرة الشهاوية ترحل لساوة. الكلام كثير، والحديث كثير يا سيدي. فبلادكم بأكملها تتحدث عن نبا الوريث القادم مع الغول، الذي نصره الشيخ الفولي، ومنحه الرمح المصيب! لعل هذا الشاب أو ابن الشهاوية هو وريثكم المنتظر؟"

نظرت له بدهشة، وقلت:

"ماذا تسمع عن الغول والوريث؟ أتحدث البلاد عن هذا؟"

ضحك وقال:

"كل ميناء، صفير أو كبير، يتعامل مع بلادكم تأتيه الحكايات. بعد أن هدم الأسود مسجد مجاذيب الفولي، وقتل أغلبهم، هرب بقيتهم متناثرين في البلاد، يبشرون الناس في كل مكان، حتى أصفر القرى، بل حتى في قلب مضارب بني الأسود، وفي الحي الذي يوجد به قصر المفوار! يتحدثون إنه لما

جروب " ربيع الكتب " .

١٥٥٠م الظلم الأرض. ذهب زعيم الفيلان، فقراً الفاتحة للفولي، وأدركته غفلة،
١٥٥٠م الشيخ في المنام، يأمره بالذهاب إلى طرابلس، ليجد الوريث الحقيقي،
يهود به للناس. لينشر العدل، ويهزم الأسود. ولما اشتكى ضعفه، وقلة جنده
اسم الاسودة الفلاظ، قال له إنه ممنوح المصيب.

الليفظ زعيم الفيلان. فقص على كبير المجازيب رؤياه، فكبروا وقالوا إن
المصرات. ولما كبروا، ارتجت الأرض لتكبيرهم، وأرعدت السماء، ونزل المطر
إلى على بقعة واحدة من الأرض. غشيها نور له جلال.

ذهب كبير المجازيب لتلك البقعة، فنبشها فوجد فيها رمح الشيخ الفولي.
الذي لا يهزم حامله أبداً، فكبر. ومنحه لزعيم الفيلان، الذي ألقاه نحو شجرة
بهدة، تبعد ألف ذراع، فأصابها حيث شاء، فكبر. وأسمى الرمح بالمصيب،
وانعد بهزيمة الأسود، فقد ظهرت العلامات جميعاً، وحان وقت عودة الوريث
لهلك الأجداد. وغادر زعيم الفيلان إلى طرابلس. لا يفالبه إلا مهزوم!"

* * *

(5-51)

شياطين القائد الأسود

ضحكت كثيرا وأنا اسمع تلك الحكاية الفريية عني، ولم املك نفسي ان أقول:

"يا لهم من أفاقين مساكين! غفر الله لهم، فهم يرفعون شأن الفولي لما يفوق مقامات البشر! يسعدني ان يؤلبوا الناس على الأسود، لكنهم أعجزوا رمحي الآن. فلو قاتلت به، فسيتبهنى الناس نصره لصنم الفولي، بدلا من الجهاد في سبيل الله ضد الطغاة والظالمين، طلبا للعدل في أرض الله."

قال ابن الأشراف:

"ان أتركك حتى تحكي لي حقيقة ما دار بينك وبين المجاذيب. أما دعوتهم فما هي إلا جزاء وفاقا لأفعال الأسود. حينما بدأ ملكه في الظهور، كانت تصلني حكاياته السقيمة، التي ينشرها بين الناس في الهواني ومدن الشرق. كان يزعم ان له أنصارا من الجن، وأنه حينما خرج من قبيلة أبيه، خرج له شيطان ملك، كان قد عقد حلفا مع جد الأسود الأكبر، إذ غلبه في قديم الأزل، فعاهده ان تركه ان يحمي قبيلته، من ان تشق أبدا، فأراد معاقبته على خروجه عن طاعة أبيه.

فقال له القائد الأسود:

"إني لأطلب طلبة عظيمة، وعظم المطالب ترجو عظم البذل. أطلب ملك البلاد ووحدها، فشقي لصف الأسود حيننا، إنما هو بذل لراب صدع كل البلاد."

فقال الشيطان:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

'بجلودي وملكوتي، لا أتركك تخرق عهدي لجدك. حكمت عليك بلعنة أبدية،
أهرق في رمال الصحراء، مع صعايك الجن المجائين.'

وحبسه في واد هو سجن الجن، يحبسون فيه من يصاب بالجنون فيهم، ولا
يرجى شفاؤه، فقاتلهم الأسود بسيفه، حتى غلبهم جميعا، وأخضعهم
لأمره، وسار بهم يبغي الخروج من باب السجن.

هال له ملك الشياطين:

'كيف غلبت هؤلاء، وجمعتهم على كلمتك، وهم مجائين؟'

هال الأسود:

'حينما تختل العقول، لا يبقى إلا السيف مقنعا. ولكي يتبعك الجنود، فعليهم
أن يتبعوا عقلك وحده. فوقتها لا فارق بين جندي مجنون، وآخر عاقل!'

وبارز ملك الشياطين فغلبه، فعاهده على تركه، على أن يساعده على البطش
باعدائه، مهما بعدت بهم المسافة.

وغير هذا من أساطير أرهب بها الناس حيناً، وحينما ظهرت أسطورتك أيها
القبيل، وجدوا فيك ضالتهم، لتحميمهم من شياطين الأسود!'

(52)

من أرض الأحباش

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

"أحسست براحة في نفسي، لما أبلغني به ابن الأشرف من أنباء. كنت قلقا إلا يجيئنا أحد حينما ندعو لتيemor، لكن، في ظني، لن نواجه الآن تلك العقبة. مادامت الناس تنتظر الوريث، فأى وريث يأتيها لن تنازعه، أو تشكك فيه، سيءون في حرب، والسعي لقتله فحشا ولو إنني أخشى إلا يتبعنا سوى العامة، فنلقى نفس مصير الوريث الكاذب، وأعيد سيرة أبي بأشد منها نكبا!

مضت بنا الرحلة أياما أخرى، منطلقين بسرعة عظيمة، لم أر مثيلا في سفينة من قبل. كان البحر صافيا، لم يعكره مطارذ أو قرصان. الأسود بنفسه أخلى لنا الطريق، بحربه على الزرقاء، ولو إنني متحير، لماذا تشبث القراصنة بالمدينة، ولم يفروا منها قبل أن تحاصر، كعادتهم حين يهاجمهم أحد؟ ربما صور لهم الفرور إنهم قادرين على هزيمة سفن الفرنجة، وجيوش الأساودة! وكيف هذا؟ منذ متى يهتم القراصنة بالمجد والمهارة، فجل اهتمامهم هو المال فحسب!

على أي حال لن أشكو من سهولة رحلتنا! نزلنا في هذا الميناء الصغير، القريب من بلاد الأحباش، وكان حاله بداليا سيئا، لكنه يكفي لقضاء الحوائج.

عثرنا بسهولة على قافلة، قبلت بحملنا معها، مقابل أجر زهيد إلى شمال بلاد السنوود، ومنها نرتحل قليلا لجنوب بلادنا. كان طريق القوافل، الماضي بيننا وبين الأحباش والسنوود، مطروقا، يخدمه حكام المدن وأمرؤها، ويندر أن تلقى

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

فبه قاطع طريق، لشدة العسكر عليهم. أخذ تيمور يحكي لي كيف كانت الأبار متقاربة على طول الطريق المعبد، فتمر عليه تجارة ضخمة، تعبر مختلف الممالك والمدن شرقا وغربا، وراء كل الحدود التي نعرفها.

واعجبتي حكمة قالها: "الطريق الأمن يكافي حراسه جيدا!"

وحقا وجدت أن الأحباش حراس طرق مخلصون! رغم غلظتهم وخشوتهم هي التعامل. وكثرة تذكركم لحروب قديمة، دفن ثأرها منذ قرون. لكنهم حرصوا على الأمانة معنا في كل بيع وشراء، فلم نر منهم غشا أو غدرا. وعلمت أن هذا ديدنهم مع كل التجار. لأن الحكام هنا يهتمون بهم كثيرا. وقد قيل لي في سبب ذلك حكايات، أشهره إنه ذات مرة، أتى تاجر ومعه جارية هاتنة عابثة، أقت بحبالها على ابن أحد الأمراء، وأقنعته بأن يأخذها بعيدا عن صاحبها. وفر بها الفتى غصبا، فاشتكاها التاجر للقاضي، وأرسل الباحثين يطلب حقه، بينما غضب الوالد لزواج ابنه من فتاة حقيرة المقام، فأرسل خلفه القتلة، يطلبون رأس زوجته!

وأتى الفتى بالفتاة للملك، يتوسل له، ويظهر له كيف إن حبهما عظيم. فرق قلب الملك لهما، وأمر الأب بإيقاف سيفه، وطرد التاجر المسكين، بعد أن عذبه، وصادر أمواله، وقيل بل قتله.

وهنا خاف التجار على تجارتهم وارواحهم، وقال بعضهم لبعض:

"إذا كان الملك ينصف حب عابثين على جثة العدل والحق، فإني لنا أن نأمن في تلك البلاد؟"

ماهتزت الأسواق، وضاعت أموال وأقوات كثيرة، مع موسم جفاف حل كالناعق المشنوم على البلد، حتى خشى الناس المجاعة، وظهرت بينهم احاديث إن هذا عقاب السماء لظلم الأرض!

ماجتمع أهل الحل والربط في البلد، وأقسموا عهدا صرما لا ينفك، بالا يظلم في بلادهم تاجر أبدا، مهما حدث، وأن يامن الغرباء على أموالهم وأهلهم، فربح الظلم مهما كبر خسران.

وهنا تذكرت الآية الكريمة (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث)

فقطع الحكام في بلادنا زادهم هما. والبلاد فقرا. وحينما قاسموا التجار والصناع أموالهم، والفلاحين أقواتهم، خرب الحال، وضاع المال!

وإذا بي احترق غيظا، إذ أجد بلدا فقيرا كهذه، لا يوجد به ما عندنا من كنوز الأرض والبحر، ميناءه حقير لا يقارن بالزرقاء أو الثفور، قد امتلك من القوة والثروة ما فاق أحوالنا.

تجاوزنا أرض الأحباش الغليظة، ودخلنا في ممالك السواد التسعة، وأغلب أهل تلك البلاد العريقة سود البشرة بيض القلوب، على أن رؤوسهم سريعة الاشتعال، على المرء أن يحذر من أقل فعل، قد يفسر إنه إهانة لهم، أو خدش لكرامتهم.

وهي بلاد جميلة ثرية، وأشد ما أعجبنى فيها هو الغابات. طوال عمري أسمع عن الغابة في القصص والحكايات، وكان هذا أول لقاء لي مع تلك الأماكن الشامخة!

فشاهدت - من بعيد- بعض الأسود، التي أمسكها الصيادون الشجهان، يبيعونها حية، أو بعض جلدها وأنيابها (وقد اشتريت بعضه لأتباهى به أمام أهل القرية. لكن الحقيقة، كان أكثر ما ربحته من الشراء هو قصص الشجهان، عن كيف صادوا تلك الأسود من أعماق الغابة المظلمة الخائفة!)

وأثناء توقف القافلة في إحدى القرى، ذهبنا مع أحد الأهالي، فجعلنا نشاهد الزراف. كنت - وأنا صغير - شاهدت أحد تلك المخلوقات البديعة في الزرقاء، حيث عرضها أحد التجار الفرنجة على الناس، مقابل أجره غالية. لكنني تسللت خلف الجموع، وتعلقت بحبال شراع سفينته لأشاهدها. لكنها اليوم، وهي حرة آمنة، بدت أبداع وأجمل بكثير.

سألت عن الفيلان كما وصفها لي الزنوج وأنا صغير، فقيل لي إنها قردة كبيرة خجولة، وتوجد في أعماق الغابة في الجنوب البعيد، لا يراها الناس هنا. لكن رؤية فرس النهر الضخم، بفمه العملاق، عوضتني عن حسرتي.

كانت حقا رحلة متعة للأنظار والأسماع، ناهيك عن عطور غريبة. لم تعرفها أنفي من قبل، تأتي ممتزجة من كل اتجاه. على أن الحديث عن تلك الرحلة لا يطول، فقد كنا في عجلة من أمرنا، وبفضل، الله لم يعطلنا شيء.

وصلنا لدار الزبرجد، فاستأجرنا منها بعض الحمالين والأدلة، ساروا بنا نحو
لحوم بلادنا، نبغي الوصول لأقرب قرية أو مدينة على النهر.

وعلمنا من الحمالين أن الحرب على الزرقاء وضعت أوزارها أخيرا. هزم الأسود
في البداية، وانشقت ثغرة في صفوف حصاره، دخل منها إمداد من الوقود
والسلاح للمدينة، قدمه بعض أشقياء جبال الزرقاء فيما يزعمون، فحذفوا
سفن الفرنجة بالمنجنيق، وأحرقوها. فاضطر جنود الفرنجة للنزول إلى البر،
واشتبكوا في معركة عظيمة مع القراصنة وحلفائهم داخل المدينة. بينما
جاء الأسود بنفسه ليقود جيوشه، فأغلق الثغرة، ومنع القراصنة من الهروب
برا أو بحرا، فأعملوا القتل الذريع في كل من بالزرقاء، حتى قيل إن النار التي
أحرقوا بها المدينة، ظلت موقدة لا تنطفئ أربعة عشر يوما. لا يقدر أحد على
إطفالها، ليتسلمها الفرنجة قاعا صاففا!

ولله الأمر من قبل ومن بعد. ها قد ذاق القراصنة كاسا أشد مرارة مما أذاقونا!
وحينما اقتربنا من الحدود، علمنا أن الأسود في الجنوب بجيوشه، يشن حملة
جديدة على بني سليم، حلفائه القدامى، يريد اقتلاعهم من البلاد تماما، حتى لا
تقوم لهم قومة، ولا تظهر منهم ثورة. يبدو أن الأسود يريد تحطيم كل من
يعانده، قبل الذهاب للغرب.

كان أهالي السواد يكرهون الأسود، لتحالفه مع الفرنجة، حتى إنهم زعموا
لي إن الكثير من شبابهم ذهب لمحاربته في الزرقاء. كان بفضهم للفرنجة
رهيبا، لأنهم ينزلون على شواطئهم بسفنتهم، فيعملون القتل والنهب
بالقرى، ثم يسوقون البشر عبيدا، ويجلبون بعض الحيوانات الفريدة، لترين بها
قصور ملوكهم في الشمال البعيدة وراء البحار. لا أدري هل هذا من فعل
الفرنجة أم القراصنة، لكن الفرنجة، عامة، يحتقرون غيرهم من البشر، لا
يحترمون فيهم إلا اليد التي تحمل سيفا! يرون في أنفسهم أنهم خير البشر،
وأجملهم ويشبهون أصحاب البشرة السوداء بالقرود! لعمرى إن القرد ليخجل
أن يحمل عقلا متفطرسا، أو قلبا قاسيا كالفرنجة!

مع تقدمنا في الطريق، كان قلبي يخفق لا تتراب ربح بلادنا. لكنني وجدت
رفاقي في شغل عني، فتيemor مع الشهامية وابنها عبد الله قد أصبحوا أسيرة
واحدة، تتقارب من بعضها، وأبدو بينهم غريبا! فاعتزلتهم تجاه الحمالين
اتحدث وأتبادل الأخبار، كانوا لطفاء ودودين، حكوا لي حكايات لطيفة عن

الملك صفوان ملك الجان، الذي مات عن غير وريث، فوضع ثروته في قلب جبل، فلا يجد أحد مدخل الكنز، إلا إن كان فقيرا بحاجة إلى المال، لكنه ليس بطماع يحدث عن الكنوز، فإذا دخل وأخذ من المال قدر حاجته، خرج غانما، وإذا أصابه الجشع، وجمع أكثر من حاجته، أغلقت عليه الأبواب، فحبس بين صخور الجبل إلى يوم الدين!

وحكوا عن الحورية الجميلة، التي تظهر للشباب في شكل عجوز قبيحة، تطلب المساعدة، فمن يساعدها، تكرمه وتروجه إحدى بناتها الجميلات، وإن نفر منها، آتته مرة أخرى، في شكلها الحسن، تطلب المساعدة، فإن أصر الرجل على النفور، قالت له من تحجر قلبه تحجر جسده فيمسخ حجرا في ساعته، ومن ساعدها، قالت له من يجري وراء الأشكال هو أقبح الناس، فتمسخ وجهه لوجه قرد!

وعندما رايت مرة قنفذا، أخبروني إن القنافذ إنما آتت من نسل الملك شوكان، الذي كان يؤذي أهله، ويظلم شعبه، فدعا عليه أحد الأولياء، فمسخ لفار ذي شوك، فمن كان يبغى نجدة مليكه منهم، جرحته يده فينبذه!

وغير هذا من حكايات السمر، التي تبادلوها معي، لكن أغلب الليالي كانوا يتفخرون بصيدهم لوحوش الأرض، أو خداعهم للفرنجة المتكبرين!

وصلنا أخير لهيئة سلوطة، وهو ميناء كبير للتجارة عبر النهر، بني منذ قديم الزمن، في عهد الملك الصالح المنصور، وما زالت آثار العز والعظمة باقية فيه، رغم إن الحال تدهور به، فما عاد إلا ماوى للصيادين، الذين يؤجرون مراكبهم العتيقة لتجار الإبل، في موسم تجارتها قبيل الحج.

أخذنا نبحث عن سفينة تقلنا، لكن أغلب المراكب لم تقبلنا، كان موسم الحج على وشك البدء، وكل المراكب قد اتفقت مع التجار على نقلها، يريدون التنافس على أوائل الرعاة، الذين يكونون الأشد كرما، والأكثر ثراء، فأول من يصل للحجاز ببضاعته، يبيع أفضل من غيره، وتعجبت كيف يقطعون تلك الرحلة الخطيرة، معرضين أنفسهم لخطر قطاع الطرق، ونهب الأمراء، وغيرها، فرد علي أحد الصيادين بكلمة أعجبتني:

"هذا هو نهر حياتهم، والنهر يشق طريقه إلى المصب، لا يستطيع أحد إيقافه حتى الجبال!"

مان علينا أن نجزل العطاء بها يكفي، لكي نجد مركبا تقلنا، لكننا الآن في اراض تدين للأسود بالطاعة، حتى ولو لم تكن في قبضته بعد. لذا كان علينا أن بعد عنا الشبهات، فزعم تيمور إننا تجار، أغلقت أمامنا الزرقاء، ونريد نقل بعض العطور والأقمشة سريعا إلى العاصمة، لنلحق بموسم الزواج في عيد الأضحى!

ولكي أحكم الحيلة، أتيت ببعض الصناديق المحكمة، فملأتها بالحصى والتراب، ووضعت فوقها طبقة رقيقة من الأقمشة واللطائف، التي اشتريتها من الأحباش والسواد، ثم أحكمت غلقها. والطريف، إن تيمور وصحبه ظنوا أنها بضائع حقيقية، بعض الفيلان الحمر أعطوها لي سرا، بعد وصولنا. ووجدت أثرا طيبا لهذا الوهم، الذي أشعرهم بوجود حرس لهم في الطريق مراقبهم، فتركهم في وهمهم!

وبهذه القافلة المزيفة، استأجرنا مركبا كبيرا ذا شرابين، ليصل بنا إلى الحاضرة، متجنين جيوش الأسود، وقرى بني سليم المحترقة.

وأخيرا اعتلينا النهر، النهر العظيم، الذي قطعت عنا مياهه ظلما! كم اشتقت لـ

والأهم، إنني أخيرا في أرض أعرفها! وأقترب حيثنا من نهاية الرحلة الطويلة. وأرض الجنوب طيبة. رغم وعورتها، وبها الكثير من العشائر والقبائل، التي لها كلمة مسموعة فيها. وهي عشائر طيبة، تعيش جنبا لجنب مع الفلاحين، لا تفرض عليهم بطشها كما تفعل قبائل بني الأسود في الشرق مثلا. لكنهم يمترون بأنفسهم، وبأصولهم بفخر لا يقل عن بني الأسود، لذا خرجت منهم ثورات وحروب كثيرة ضد القائد الأسود، كلما حاول أن يبسط سلطانه عليهم. على أن تفككهم وتشتهم في الأرض اضعفهم. كما إن ثلاثة من أمراء جيشه أذاقوهم، وأهالي الجنوب جميعا، أهوالا ورعبا، وأولهم كلبه المسمى النعمان ابن المرصفي، الخادم المطيع، الذي أهدر دم والده طمعا في زينة الدنيا. لم أجرؤ على أن أتحدث بدعوة للورث، أو نقد في الأسود، فلا أمن أن خوف الناس منه يجعلهم يفتدرون بنا. فالخوف يمسح الأرواح، ويقلب الطيبة شرا، والكرم غدرا. فقط حينما نصل لساوة، ويأمننا أهلها، سنستطيع الدعوة للحرب، وتتويج الملك الجديد. وحينما ينصرنا - ياذن الله - أمراء الغرب، سيكلف حولنا أفراد الجنوب والشرق وكل البلاد ياذن الله.

صضت بنا المسقىنة بحذر شديد، كلما اقتربنا من مكان على ضفافه كتل من غاب أو بوص، يطلق الربان الصبان اسرعتة خشية من اللصوص الكامنين. وكان تتحرك دوما في الظلام الحالك، أو الظهيرة القاتلة، لأنهما أكثر أمانا من بقية اليوم.

قال: من هذا الحال، فقال:

الآن أنت في مدينة أريج، ونخرج من الجنوب الأوسط إلى الجنوب الأدنى، حيث الأمان فسنأمن من اللصوص.

قال: دايكا أيها الرجل الطيب؟

قال: أحب، أو أكرهه، قد يكون ظلم وقتل ونهب، لكن بالنسبة لي لقد أعاد الأمر نصف النهر، وطهره من اللصوص، لا أحب ظلمه، لكني أئس لسلطانه واحتمي به!

حاورته:

بزعيمون إن آخر أمراء الملك سيعود للبلاد لمحاربة الأسود وتوحيدها. فلو خيرت بينهما، فمن تختار؟

قال الرجل ببساطة:

"وما شأنني بتنازع الملوك؟ كما قلت لك، لا يهمني إلا أن أمن على بيتي وورثتي. الأسود طهر نصف النهر، وهو لم يملك البلاد بعد فمن أعرفه خير ممن لا أعرفه!"

حينها قلت بصوت عال:

"إذن فأنت تترك أن الوريث سيكون أفضل من الأسود، فقط حين يطهر النصف الثاني من النهر؟ رغم إن مهمة تطهير كامل النهر أصعب، لأنك لن تكفي بطرد اللصوص للجنوب قليلا، وإنما يجب أن تسحقهم سحقا."

وحين أتى الليل والنوم، اقترب مني تيمور يسألني عما قصدته حينها.

قلت له:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

مولاي الملك، إنما أردت أن أذكرك بأصل الأمور ومبداها. لم يخلق الناس ليطيعوا الملوك، وإنما اختيرت الملوك لتسير أمور الناس. ما يحتاجه البسطاء في هذه البلد، ليس كلمات ودعوات. وحرب الأسود ليست إلا خطوة أولى. ستكون شرا لا خيرا. إن لم تتبعها الخطوات الأشق. أردت أن أذكر نفسي، وأذكرك معي. بأن الأمن والرزق، عند أغلب البسطاء، يفنيهم عن دعاوى الملوك وأنسابهم وزيجاتهم الملتوية!

صمت للحظات متفكرا، ثم قال:

"لم أطمع في هذا الملك، بل هو الذي طمع في، وفرض على جثتي فرضا! لم اغتر به، وأرجو من نفسي الضعيفة ألا تفتخر به يا زعيم الفيلان. أعاهدك أمام الله أنني لن أكون للبلاد ملكا، وإنما للعباد خادما، ولن أهنأ قبل رفع الظلم عن البلاد، ونشر الأمن في ربوعها، أو أهلك دون ذلك. يا ذن الله، لو نصرنا الله، فلن انسى البسطاء وحيواتهم في طريقي."

ابتسمت وقلت:

"والله على ما نقول شهيد، الفاتحة."

وقرأنا الفاتحة على العهد، ثم باغتني بقوله:

"والآن أين عهدك أنت؟"

قلت:

"أي عهد؟"

ظننته يريد مني أن أبايعه أو شيء كهذا، لكنه أفحمني بقوله:

"تذكيري بحال العباد اليوم امره سهل، وأنا طريد ملكي، كأنما هو جريمة تطلب دمي.. أريد عهدك إن نصرنا الله، واستقر الملك، أن تذكرني بما ذكرتني به اليوم، حينما أكون باطشا، قادرا، يخشى الناس أن يخلصوا لي النصيح، طمعا أو رهبا! ترى هل يملك الفول الأحمر شجاعة كافية، ليقول كلمة الحق في وجه ملك باطش! بدون تلك الكلمة، حتى أنا، لا أمن من نفسي على نفسي! فأين عهدك يا غول؟"

عاهدته على ما طلب، وبني وخز من تائب ضمير! حقا قد تكون الثورة على الحاكم الظالم محرمة بشدة، حتى لتخرج عن ذمة الدين، لكن أمر الله بقول كلمة الحق، ولو دفع ثمنها بما يتاساه الناس جينا!

أفهمني طلب تيمور كيف تكون الثورة بالسيف والقتل ثم الفرار، أيسر كثيرا من المواجهة بالكلمة الشجاعة، وتحمل عواقبها! أظنه سيكون ملكا صالحا تيمور هذا. قد لا يستطيع الوفاء بعهده كاملا، كما قد لا يستطيع الوفاء بعهدي كاملا، لكن على أي حال لم يخلق بعد الأنبياء- بشرا يحسن كل حكمه! لهذا كان الملك العادل في ظل الله يوم القيامة.

لكن ما شأنني بهذا الآن؟ كما قال تيمور، الحديث في هذا الأمر سهل اليوم، لكن قيمته لا تنفع إلا إن قيل بعد هزيمة الطاغية. لا أملك الآن إلا أملا مراوغا، أن ترتاح بلادنا، التي اكتوت كثيرا، فاللهم أغثها وانصرها.

أخيرا لاحت لنا مدينة الأريج قريبة، وتنفسنا الصعداء، فقد انتهى الجزء الشاق من الرحلة، بزعم الربان. وقريبا نصل لطريق القوافل جنوب العاصمة، فنهربه إلى ساوة، وتنتهي رحلتنا.

لكن القدر يخفي لنا مفاجآت حتى اللحظات الأخيرة! فمن وراء هويس قديم، كان على فم ترعة هجرت، خرجت ثلاثة زوارق، للصوص أحكموا حصار المركب، وصعدوا عليها شاهرين أسلحة عليها لون الدم، الذي اختفى من وجوه البحارة المساكين، واشتهدت له مياه النهر المترقبا فلصوص النهر لا يتركون وراءهم أحياء، حتى لا يعود لهم مطالباً بالثأر. بدا أننا سنقتل على أعتاب النهاية بيد سارقة.

(53)

نبأ حديث المغوار بن الأسود في طلب الملك

يقول القائد الأسود، المغوار بن الحازم الأسود:

من يعرف قدره، وعظم همته، ومكانته العالية بين الناس، فلا يأخذها، فهو
أحق، حكم على نفسه بالذلة والندامة!

علمت منذ الصبا أنني ممن قالت فيهم الخنساء:

إذا القوم مدوا أيديهم إلى المجد

مد إليه المجد يدا!

كنت صبيا صغيرا، حديث السن، في أول ترده على الكتاب، حينما أتى للعريف
شيخ جليل، وصل من رحلة الحج مؤخرا. واجتمعنا، نحن الصغار، نتسمع بشوق
لما بدا لنا مفامرات مذهلة، لكنه كان للشيخ الجليل عذابات وآلام في رحلة
الإيمان. وإن نسيت، لا أنسى قوله: (لو قيد الله لبلدنا هذه ملكا قويا، لنشر فيها
الأمن، وأدب الفرنجة، وعصم الحجاج من الأعراب. ولكنه التخاذل أعادنا الله من
شوروه)

ورد العريف مباحيا: (ها هم أولاد الأسود محي، عسى الله أن يخرج من بين
ظهرانهم من يفعلها.)

وهنا انتصبت قامتي فخرا، لتحطمها النظرة المستخفة من الشيخ الجليل.

على حداثة ذهني وفكري وقتها، لكنني عقدت العزم، الذي لم يلن حتى اليوم، على أن أوجد بلادنا، وأجعلها قوية باطشنة، ترهب أعداءها.

وهنا انكبت من صفري على تتبع حكايات الرسل المكرمين، والملوك الأولين، انظر كيف كان سعيهم، وما هي طرق نجاحهم.

ولما ازدادت فطنتي، بحثت أكثر في أسباب هزيمة العظماء، وضياع ريحهم، فقد رأيت بعيني كيف اجتمع لأبي كل أسباب القوة، لكن أسباب الفشل غلبته في النهاية.

أدركت عدة أشياء، وضعتها نصب عيني، ونصحت بها كل من حولي.

أولاً: إن المطالب العظيمة تحتاج لبذل أعظم، ولا بد من التضحية المؤلمة في سبيلها.

ثانياً: إن النصر لا يأتي لفرد أبداً! لا بد من جماعة تؤيد وتناصر.

ثالثاً: إن العصبية لا تنصر سبيل وحدة قط! لن غلبت قبيلة على غيرها، أو عشيرة على ما دونها، فإن الحرب ستظل سجالات لا ينفعك! لا بد أن تكون الجماعة المناصرة تعتق فكراً لا دماً.. تنصر كلمة لا قربي. لا بد من دعوة تجمع الناس حولي، لا تهتم بقراية أو قبيلة. فقط هو الكفاء المجاهد من يليق به أن يتبعني. وحتماً، فالمماليك الذين يتبعون المال، أدنى مكانة من أن أتركهم بهذه البلاد أصلاً!

فهكذا غلبت العرب العجم، ودانت الدول لسيوف الإسلام المطهرة. وغلبت العجم العرب، حينما تفرقوا، ونسوا نصره الدعوة، لغبلة الإثرة على البذل، وتشتت الجماعة، والاتصار للعصبية.

ونظرت أيضاً، فوجدت أن حال البلاد لن يستقيم لي إلا إذا كان جيشي لا أمير به غيري، ولن يستقيم بعدي إلا إذا أعددت من ورائي رجالاً يؤمنون بكلمتي، ويأتمرون بأمرى، ويأخذون عهدي أمانة يكملونها من بعدي، إذا أصابني المصيب.

وكان أول ما قابلني من بذل مؤلم، هو أن أترك أهل القبيلة، وأبث دعوتي بين العوام. أمن بنصرتي فريق، بدأت في تجهيزهم، فلقيت الأذى والسخرية من

جروب " ربيع الكتب " .

فقطعوا عني المال والمعونة، ونهزني ابي عما سماه عبثا، وعمن
...اهم صعايلكا.

هذا البذل كان هينا علي. ما اشتد علي نفسي حقا فيه. هو اضطراري
بعض من كنت احبهم، وتريبت في كنفهم. حقا المطالب العظيمة
بذل اعظم. كم المني ان اضطر لقتل بعض من رؤوس بني الأسود،
...ما عارضوني!

ازدادت قوتي وبطشي، وتهيا لي مئات من الأتباع المخلصين، الذين
...وني اينما حلت، ازدادت حاجتي للمال. ولما كان الناس هم هدف رحلتي
المهلمة، لتوحيد البلاد، فالما اسعى هذا السعي لصالحهم، كان عليهم الا
...بالحصد الثمار. فقررت ان اشركهم بنصيبهم في البذل، لا أقول بالدم
والعرق كما افعل بنفسي واهلي، وإنما بما هو أدنى من هذا، بالمال اليسير.

الذي لم ير إلا بني الأسود، وحقوق بني الأسود، وتتاسى بقية البشر
...مملكتنا المعذبة، ثار علي وهاج، حتى طردني من عنده. واني كنت راحلا
...المجد، من قبل أن يفعلها. لكنها الأقدار التي تقسم الا تجزي إلا من
...بلى.

وجدت في العاصمة امامي حفنة من الحمقى المتفهمين، الذين منحتمهم
...البلاد مكاسبا جمعة. كل هؤلاء، الذين لم يهمهم يوما أين الشعب،
...معاتاته، وافتقاده لأبسط حقوقه من أمن ومعيشة، كانوا يحولون بيني وبين
الهدف الاسمي. متسلحين بما ورثوه من اعباء الخراب، الذي أقامه الملوك
السابقين، بمعونة الأهبال والفيلان والفرنجة والقراصنة. حقا كم أنت عظيمة
...امي، فبعد كل تلك الطعنات والنهبات، مازلت حية صامدة. فقط تحتاجين
...ان تمد لك، لتخرجك عملاقا ثائرا، من أسفل رماد الطفافة.

كرهت بشدة اولئك المتفهمين اللصوص. لكن كان علي ان اصبر عليهم، قبل
ان اؤدبهم. وهنا كان علي بذل جديد، فقد تذكرت سير بعض العظماء،
كسيف ابن ذي يزن، وكيف استعانوا بالحكام الأجانب حتى حين، واستقوا بهم
لفرض الطاعة في بلادهم. أدركت أنني إن بدأت معاندا للجميع، فسيهلكونني.
فعلي ان افرق بينهم، بحلف مع هذا، وحرب مع ذلك، حتى تخلص لي البلاد، لا
باس ان اضحي ببعض المدن والثغور للفرنجة، أو ان اشارك في حروب مع
المماليك، يقتل فيها الأبرياء. فتلك المدن ستفقد حتما، واولئك الأبرياء

جروب " ربيع الكتب " .

سيهلكون غيلة أو جوعاً. خير لهذا وذاك أن يكون في سبيل توحيد البلاد، وإحيائها، على أن يكون في سبيل إطعام أفواه جشعة، لا تشبع.

وقد أثبت الزمن حسن بصيرتي، إذ لم تمض علي أعوام قليلة في العاصمة، وعلى تحالفي المكروه مع الجبلي الجشع، إلا وقد طهرت المدينة من أذئاب الحمقى واللصوص، ووجدتها في قبضتي الطاهرة الآمنة.

وإن يوم حلفائي الفرنجة لقريب بإذن الله! فقط بعد أن أتم تطهير بلادنا من رجس الأمراء والمماليك.

ولكن كلما ظننت أنني قد قطعت الشوط الأطول، ظهر لي أنه مازالت الأخطار محدقة، والأعداء متربصة.

لم أكد أتم توحيد العاصمة، حتى بزغت تلك الدعوة المزعجة. دعوة لتوحيد البلاد، على مثل ما أرغب، تحت يد ملك واحد قوي. لكنه كان رجلاً كذوباً، يزعم أنه وريث الملك، ويطالب بحق أبائه! أي حق هذا لأي أباء؟ الذين ضيعوا البلد بالجور والتخاذل؟

لو إنني أثق أن هذا الرجل سيستطيع أن يفني بنصف عهدي، لاتبعتة. لكن هذا الوقح لم يكتف بجمع العوام والدهماء، وحشد المجاذيب، ليسلب بهم القرى الصغيرة، وإنما اندفع على شخصي تقريبا وسبا. جعل دعوته الحقيرة تحذير الناس من ظلمي! نفاق مفضوح! هذا الحقيير ضم له بعض الأرجاس، التي طهرت العاصمة منها، وكان يتودد لهم بشتمي. أي عاقل سيرى أن كل من قتلته، منذ أتيت للعاصمة حتى ثورة الكاذب، بمن فيهم مماليك أعدائي، أقل من عدد الأبرياء الذين ذبحوا بلا ذنب، سوى أن وجدوا في مكان يتصارع عليه أميران، خلال عام واحد.

نعم أنا قتلت الكثيرين. لكنني أنقذت ببذل أرواحهم أعدادا أكبر. إنها الضريبة الغالية، التي يجب على الشعوب دفعها في طريقها للمجد.

سحقت هذا الكذوب سحقا. هزمت جيشه المكون من شراذم أعدائي، ومن يحسدونني، وتاكلهم الفيرة من نصر الله لي. لكن بينما تشتت عنه المماليك، والجنود، والحلفاء، بقي العوام والدهماء ثابتين، يناجزونني عاما أو اثنين. من اتبعوا المال أو السلطان سحقتهم، رغم قوتهم في ضربة واحدة. لكن من آمنوا بالكلمة، صمدوا وعادوا للكر بعد الهزيمة، لم تغلبهم إلا الكلمة عندما

لماذا تخشى الغرب أيها المفوار؟ أتخشى صحراء يسكنها فلاحون!

هكذا يسألني أعواني. حمقى لا يقيّمون الأمور.

الغرب سكانه ثلاثة. فلاحون، ومماليك وأثرياء، وهاربون.

الهاربون، سيهربون مرة أخرى لما وراء البلاد. بعضهم قد يقف ويحاربني. لكني لا أخشاهم. من هرب مرة سيهرب الثانية.

أما المماليك، فهم على كثرتهم مشتتون كعادتهم. لا أخشى منهم حربا إلا قليلا. لكنهم يكتزون أنفسهم في قلاع حصينة، وتلك القلاع التي لم تتعرض لضربات فرنجة أو أهبال، أو حتى حروب عنيفة مع الأمراء.

أدمر تلك القلاع أحتاج لأسلحة وخبرة لا أملكها. وحرب القلاع طويلة. قلاع لم تحرق من قبل، كقلاع الشرق والشمال، أو تقلب لقصور مرفهة، كقلاع أمراء الوسط والجنوب. ولو استعنت بالأهبال وأهل السور العلي، فسأجد التحريض من الصنف الثالث.

أتخشى الفلاحين يا مولاي؟ وأي فلاحين! أولئك الذين يعيشون على مطر وبئر! الغرب أفقر الأقاليم الثمانية. وهذا الفقر جلب له هدوء وأمانا جعله حقا أغنى الأقاليم! وفلاحوه متمرسون على الحرب، بسبب نزاعهم مع الأمراء.

كان هذا هو الدرس، الذي تعلمته من الوريث الكاذب. الفلاح الحقير لا يستهان به إن حارب مؤمنا بقضيته. لو دخلت الغرب غازيا مع حلفاء يكرههم الناس، كالأهبال والفرنجة، فستحرض تلك الفران، المتحصنة في قلاعها، الفلاحين علي، كما حرض الكاذب فلاحى الشمال ضدي. سيدعونهم للجهاد ضدي. وحربهم لن تكون سهلة، لكثرة خبرتهم، وتباعد قراهم، وغلبة الصحراء المرهقة لجيشي بين أراضيهم.

كان يجب أن أغزو القلوب قبل البيوت. يجب أن أكون ملكا متوجا من قبل أن أخطو خطوة واحدة في الغرب. يجب أن يرهبني الناس، وينهزموا قبل أن أحاربهم! ويجب أن يخضع كل شبر في الجنوب لي، حتى لا يثور أثناء انشغالي في حصار القلاع الطويل. لهذا، كان الغرب يجبرني على أن يكون آخر حربي.

كدت أن أفعلها لولا أبى!

١٨١٤ ظننت أنني اقتربت من الظفر، ظهرت عقبة، وتلك المرة كان أبي
والمها.

١٨١٥ الحفود، الذي نسي أنني ابنه، ونسي أن هذه بلاده، وخشي على نفوذ قبيلة،
ومسبية دم، فحرض أمراء الغرب ضدي! آخرتي حركته الحقيبة تلك عامين
١٨١٦ الأقل! كان يجب أن انتظر حتى تصبح قبائل بني الأسود في سلطاني بعد
١٨١٧، وكنت مضطرا للصبر على غزو الزرقاء، ومهادنة قراصنتها، ليقطعوا
١٨١٨ بقى الوريث المزعوم، فلست في حاجة لوريث جديد، يلتف الناس حوله كما
١٨١٩ المرة الأولى. واضطرت لتدمير الثغر الكبير أولا، كدرس لأمراء الغرب،
والإلخ من نفوذ الرجل القوي فيه، ابن عامر، ثم انسحب لأول مرة من مدينة
١٨٢٠ سنحنها، لأنني لا أستطيع الاحتفاظ بها. تبا له من والد! وكم عميقة حياته لهذا
الوطن.

١٨٢١ اهلي استغللت الوقت فيما هو خير، تخلصت من نفوذ بني سليم في الجنوب،
١٨٢٢ تحالفت مع عدد من المكارين في الشرق، لتسهيل غزو الأهبال للثغر الصغير،
١٨٢٣ لآلي احتاجهم بقوتهم في حرب الغرب، بينما حرصت القراصنة، وقويت
١٨٢٤ دفاعاتهم، أثناء مجامتي الأولى لهم، ليكونوا شوكة في حلق الفرنجة.

١٨٢٥ طانت حرب الزرقاء أكبر نجاحاتي. كم أذيت الفرنجة بها! جعلتهم خدما لي،
١٨٢٦ يدمرون القراصنة، ولكن بعد أن تدمرت قوتهم، وأسطولهم المزعج! سررت
١٨٢٧ المقاتلين والمجاهدين من السواد لداخل المدينة، وأبقيتها مغلقة. أمتنع من
١٨٢٨ فيها من الهروب، بزعم الحصار، لأجبرهم على الصمود داخلها! كنت أمتنع
١٨٢٩ الفرنجة الزرقاء، وأبدأ أولى خطوات سلبها منهم بتدمير أسطولهم! كان
١٨٣٠ شرطي صارما، "لو نجت سفينة قراصنة واحدة، لتؤذي حاجي في المستقبل،
١٨٣١ فأنا في حل من عهدكم، بينما كان فعلي ساحقا، إذ لم أترك للفرنجة في
١٨٣٢ المدينة إلا الرمادا! دفعوا، ثمنا لبعض الحطام، ألفا من جنودهم وعشرات من
١٨٣٣ سفنهم، وكنت وبلادي الرابيين الوحيدين في المعركة!"

١٨٣٤ ثم مات والدي، يشيع البعض إن بعضا من أحبابي عجلوا بنهايته، ولو إن الرجل
١٨٣٥ المعاند كان أصلا على حافة القبر.

١٨٣٦ اليوم أصبح بني الأسود وسيوفهم رهن إشارة مني أخيرا. والأهبال والفرنجة
١٨٣٧ يسبرون معي في جيشي، وقد أعددت لهم مفاجأة عظيمة، أشد من مفاجأة
١٨٣٨ الزرقاء.

اليوم أمحو خطايا أبي، وخطايا الملوك قبلي في مسيرتي للغرب.

اليوم يوم وحدتك يا وطني، فافرح واستقبلني.

فقط خطوات قليلة، ويصل المجد لنا.

فقط خطوات قليلة.

* * *

(54)

وبدأت الحرب

بقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

’ كلما تصورت ان الأسوأ قد مضى، زادت المخاطر حدة، واقتربت النصال أكثر من جبل الوريد. فبعدها احتلت على لصوص النهر، وبعثهم (بضائفي) بحياتنا، وهربنا منهم مسرعين يطاردوننا، بعدما اقتسموا غنيمة من تراب وحصى، وقفنا في كمين لجند الأسود، معد للصوص النهر.

طلبوا منا ان يفتشوننا، وكان هذا معناه هلاكنا حتما، حينما يعثرون على درع الفيلان الحمر.

تسللت بهدوء للخلف، بينما يفتش الجنود البحارة. قلت لقالدهم، عندي امر هام، اريد ان اريه لك، فاستأذنتك في الذهاب لمتاعي. قبل القائد، لكنه بفطنة اصبر على ان ينزع اولا سلاح رفاقي.

اسرعت نحو قاع المركب، حيث تخزين المؤن، فقبضت قبضة من دقيق، بللتها بالماء، فاصبحت كرة صغيرة من عجين، بحثت سريعا عن شيء احمر اصبفها به، فلم اجد إلا ان اجرح نفسي واصبفها بدمائي. وجريت لهتاع تيمور، فاستخرجت هذا الخطاب العزيز الذي تعلوه اختام الخليفة، وحاكم طرابلس، وقاضياها فلففته، ووضعت كرة العجين الحمراء عليه، كأنما هي ختم له، ودعوت الله ان ينخدع بها.

صعدت ثانية، فوجدت الجنود يستعدون لتفتيش مقاعنا، فصحت بهم:

’انتظروا!’

نظروا لي متحفزين فقلت متعبا:

"هذه رسالة مختومة كما ترون، هل ترى على ظهرها هذا الختم الملكي أيها القائد؟ إنها رسالة من ملك الأحباش، للقائد الأسود مولانا الملك المفوار. كنا ذاهبين له بهدايا، لولا أن سرقها اللصوص منا عند الهويس السابق."

نظر لي قائد الجند ذو الزي السود بتحفز، ثم قال:

"لن نترك اللصوص يهنتون ويرتعون في نهرنا. امضوا على بركة الله، وبإذنه سننال منهم، ونعيد بضاعتكم."

وتركونا نمر، بينما جمعوا بعضهم لاستعادة هدايا قائدهم المزعومة! وتركوا معنا بعض الحرس حتى نصل للعاصمة.

تسللنا أثناء الليل هارين من السفينة سباحة، حتى وصلنا للشاطئ، محتمين بالغاب والبوص، من مطاردة دؤوب قام بها جنود الأسود لنا.

وبعد مغامرة شاقة، غلبها الطين، الذي أثار جنون الشهائية، الأميرة التي عاشت حياتها في القصور، التحقنا أخيرا بقافلة ذاهبة لساوة، فإذا بنا نقع في أيدي (شهاب الشركسي).

كان (شهاب الشركسي) حاكم مدينة ساوة، حانقا عليّ منذ أول مرة زعمت فيها إتني زعيم الفيلان، وكان ممن يمالئون الأسود ومدينته، التي ليست إلا حصنا كبيرا، يحمي الطريق المؤدي للواحات الخصبة من غارات الأعراب، تتحكم في الطريق، الذي يبدأ من بعد جنوب العاصمة بقليل، حتى الواحات، فشدد مراقبته بأمر سيده له، وإذا به يتعرفني، فأمسك بي!

اضطرت لأن أزعم أنني وحدي، تركت الشهائية وتيمور وعبد الله مع التجار يكملون مسيرتهم لساوة، وسلمت نفسي بلا قتال لجند الأمير.

اقتادوني لسجن في قعر القلعة، تحت حراسة مشددة، إلى أن يتدبر أمر إرسالي لسيده. كان الأمر على ما يبدو مربكا، لأن الأسود يظن أنني قتلت. وفهمت من أحاديث الجنود أن حسام الأسود يظنها مؤامرة عليه للطعن في إخلاصه للقائد الأسود. فبدوت في سجن مشكلة، لا يعرف الشركسي لها حلا.

لكن الحل أتى رغم أنه! لقد عمل الملك سالما إلى ساوة، وثارت، وثارت خلفها كل البلاد!

الدموه التي انتظرها الناس طويلا. بعدما بشر بها الدراويش. قد تحققت.
هانوا من كل فجاج الأرض لينصروه. الدعوة للجهاد ضد الطغاة. وتوحيد البلاد
ومن ظل ملك واحد. يطرد منها أعداء الدين من الفرنجة والأهبال قد تاجت.
هجرع سقوط الزرقاء. والثغر الصغير قد بخ صديده في وجوه أعوان الأسود
أهرا. ليظهر بلدنا من حفاه.

أرجلي الشركسي من سجني معززا مكرما. وأعلن بجبن أنه منضم للملك!
وهبت لساوة. تسبقتني الأخبار عن إن الأسود جمع جيشا عظيما بلا مثيل.
وسيسير نحو واحات ساوة. مدمرا كل أمير يقف في طريقه. حتى يصل لراس
الملك.

لقد بدأت الحرب المطهرة. التي سعيت لها طويلا.

أهرا... أخيرا سنحرر بلادنا.

هقط لنصبر قليلا حتى نتسم الحرية.

هقط لنصبر قليلا.

* * *

(55)

حشود الملك

55-1 (فقراء)

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

"دخلت ساوة دخول الفاتحين. ووجدت مجلس الحرب منعقدا ميها بزعامة الشهاية، كانت، بما لها من خبرة في حكم طرابلس، قد تولت زمام الأمر. للسير في الاتجاه الصحيح. فأرسلت الرسل لكل مكان في البلاد. تطلب البيعة للملك الجديد. أرسلت رسلا حتى لبني الأسود. وللقائد الأسود نفسه!

وأنت الوفود تلو الوفود. من أهال فقراء. وصيادين معوزين. ومحاررين تشرذموا عن ساداتهم. يستجيبون لنا.

كان ظهوري في درعي الأحمر جاذبا للآلاف من البسطاء. فحكاية الفول الأحمر. حامل مصيب الفولي. المنصور بأمر الله، قد تركت اثرا عميقا فيمن ظلمهم القائد الأسود.

لكني كنت أدرك أن كل هذا ريد. يذهب جفاء. لقد نصر مثل هؤلاء الوريث الكاذب. فلم يملكوا أمام القائد الأسود إلا أن يذبحوا كالنجاج.

كان يجب أن نستعين بالأمرء. الذين بدأ بهم الأمر. وإليهم نهايته. تجاذبت مع أطراف مجلس الحرب الحديث. واستقررنا على أن ندعو كل زعماء الغرب مرة أخرى. في قصر ابن العبدلي. وأصرت الشهاية على أن تضع في رسالة الدعوة تهديدا صارما لمن يتخلف. ولو إنني أظن أن هذا لن يجدي. فمن يرغب في

جروب " ربيع الكتب " .

«ياق الأسود، سياطينا هو الآخر، حتى يتحسس الأخبار، لكنها ردت بأنه على الملك الا يترك شيئا للظنون، فعليه ان ياخذ بكل الأسباب».

والى الأمراء مصرعين لهذا الجمع بلا استبطاء، قد ظنوا أن الملك والأقاليم بوزع غنيمة فيه من قبل ان تكسب! لم أجد من بينهم سائلا، أو مشككا في امر الوريث، فقط كانوا يسألون عن العطايا، والولايات التي ستمنح لهم! حتى اصابني الضيق، فلم أحتمل، واندفعت صارخا بينما يتشاجر المركون ابن أسف مع قلبجك الادميرلي على مدينة سرية، وهتفت:

«تعلمون من أنا؟»

فألوا بأصوات مرتجفة:

«زعيم الفيلان الحمر».

قلت:

«واتعلمون من هذا؟» مشيرا إلى تيمور.

ردوا،

«ملكنا ووارث بلادنا».

قلت:

«أين بيعتكم؟ اتقسمون له على الطاعة؟»

فردوا فوراً:

«نقسم».

وهو قسم لو تعلمون خسيس! لقسم اللص أكثر وثوقا منه!

قلت مصرا :

«اتباعونه على السمع والطاعة، وعلى القتال دونه حتى يكون غالبا؟»

ردوا بنعم.

فأكملت:

«تعلمون من عدوه؟»

"القائد الأسود."

فقلت بفيظ:

"استحاربونه معنا؟"

ردوا باستخفاف:

"بلى!"

فقلت، وقد اتيت لطلبتي اخيرا:

**"فاين جنودكم وسلاحكم؟ لا أرى إلا شرادم، بينما جنودكم مكنوزين في قلاع
تحمي ما انتهبتموه من قوت الفقراء، أين الجنود يا أمراء الغرب؟ هل تظنون
أن حرب الأسود يسيرة لهذه الدرجة؟ أتوزعون الفنائم من قبل الحرب، بينما
أسلحتكم صدئت في مخازنها؟ أين الجنود يا أمراء الملك!"**

**وكانما أخذتهم على غرة! وأخذت في جدالهم لحشد الجنود معنا، فوافقوني
بسهولة تثير الإحباط، عهد كعهد الأبالسة خلافه وفاء!**

*** * ***

(2-55)

وأمرأء!

عدنا لمعسكر الحرب في ساوة مع من تبعنا، وإذا ياحباطي يتبدل أملا، حينما رايت المشهد الجديد. لقد جمعنا، والله، ما يكفي للحرب بفضل الله.

للاون ألفا من المماليك المدربين، ما كنت أطمع من الأمراء في أكثر من هذا، رغم إنني أعلم علم اليقين أن قصورهم تخفي ضعف هذا العد.

وانضم لهم ما يقرب من عشرة آلاف من الشراذمة المختلفة الألوان، بين مجازيب الفولي، والفقراء، والبسطاء. ربما لا يكونون بالقوة التي يعتمد عليها في الحرب، لكن وجودهم وعددهم قد يصنع رهبة ما. وقد أثبتت الشهائية حسن الفطنة، عندما أتت بهؤلاء لحفر الخنادق، وإعداد التحصينات لنستفيد من أذرعهم بأفضل ما يمكن.

لكن ظهر حشد ثالث.

ما يقرب من ألف وخمسمائة من اللصوص، والهجامة، والعربان، الذين ظنوا أن فرصة النهب العظيمة آتية، فاحتشدوا مهديين، ينتظرون وصول الأسود، ليسيروا معه، ويفتتمون معه. وقد أجرى لعابهم ما تناقلته الألسنة عما احتمله الأسود من كنوز، حينما نهب مدينة الثغر الكبير، مدمرا قصور أمرائها.

ربضت جماعة المرتزقة، المسماة أسود الجبل، عند أبار بني مر. والتف حولهم المئات من الفوغاء في أيام قلائل. واضطررنا للانتظار، حتى أتتا أنباء وصول طلائع حلفاء الأسود للحاضرة، من الأهبال، والفرنجة، وجنود من السور العلي أيضا. فأخذت ألفا من خيرة الجنود، وهاجمت حشد اللصوص أثناء الليل،

جروب " ربيع الكتب " .

فقتلتهم عن احرهم، مستخلصا حسابا قديما من الرعب، الذي اذقونيهِ في السنوات الخالية، ومنشرا فزعا جديدا من بطش الفيلان الحمر.

وهنا أتى المزيد من الأنصار لنا من كل البلاد. فأتى زعيم خدام الضريح، حاكم زمام الشيخ عصفور. بكل أنصاره وحلفائه في ستة آلاف دفعة واحدة. ومن ورالهم، ومعهم جماعات من الشرق والشمال، وكثير من أبناء عشائر بني سليم، الذين غدر بهم الأسود من قبل. كانت أعدادنا تتضاعف. حتى زاد الأمل لما يشبه اليقين.

وبقى علينا التربص، لنرى خطوة العدو التالية.

كان أمام الأسود طريقان لفزو الغرب الشاسع. إما أن يسير عبر الساحل. ليهاجمنا. وهو طريق اخترقه من قبل بنجاح. كما إن دفاعات الثغر الكبير قد تدمرت. ولزيت من أمامه. وإما أن يلتف عبر الجنوب، فواجهها قلعة مدينة ساوة الحصينة. وهو طريق صحراوي جاف، لكن عبوره من الممكن.

كنا متربصين في واحات ساوة. تحوطنا صحراء من كل اتجاه يصعب شقها وشرقها بالطبع وادي الضياع، غير الصالح للعبور. لذا كان قلقا من غزو في الجنوب يحتاج لصمود قلعة ساوة. أو هجوم على المدن والقرى المتركزة في الشمال، قرب الساحل وهي. على كثرة سكانها، دماعاتها مشتتة. مكرنا أن البقاء في ساوة في المنتصف أفضل. حتى تأتينا انباء تحرك جيش الأسود. فسرع لملاقاته في أي من الاتجاهين.

لكنه تربص وانتظر. لا أعرف ما يدبره، ولماذا لم يسرع بضرب ضربته. اظنه ينتظر حتى يجتمع كل أعدائه في جيش واحد. يتخلص منه بضربة واحدة. لا يعاني بعدها من تمرد. لكن تأخره يريدنا قوة. وقد أثار عبد الله بن محمد ولي العهد، وابن الشهائية قلقي، وقال إن الأسود، حتما، يدس بين الأنصار القادمة لنا في الشرق جواسيسا.

وهنا اتقيت بعض الرجال المخلصين، من خدام الضريح وعمال ابن العبدلي. ليندسوا بين الصفوف ياتوني بالأخبار فالتني الأخبار المرعبة بسرعة البرق.

جماعة من المتطوعين اتوا من الزهر الصغير، يتراسلون مع بعض الأمراء؟

١٠٠٠، الثفر الصغير أصلا لم ينهضوا لمحاربة الأهبال. حينما سقط. فقط
١٠٠٠، مهم الخانع. وقف وقفة الرجال، صامدا رافضا للتسليم، محاربا عن
١٠٠٠، بعد أن تخلى جنوده عن أسوار المدينة. ليقتل شر قتلة بعد دفاع
١٠٠٠، لم يزد عن الشهر.

* * *

(3-53)

وجواسيس!

نزلت بنفسي متخفيا، أنظر لهؤلاء الرجال، فإذا بي أراه بشحمه ولحمه ومكره! الشاطر عدنان نفسه! هذا الملعون الخبيث، الذي أكثر لي في الأذى، لا يريد تركي في حالي، وأتى بشره خلفي حتى هنا؟ كدت أن أهجم عليه فأقتله، لولا بقية من حكمة.

ذهبت لابن العبدلي، التاجر الثري، الذي منحني كتاب الغيلان، وحينما جد الجد جمع كل رجاله خلفنا، ونصب لنفسه خيمة عظيمة، كالت مستقر قيادتنا. وأنفق من أمواله على طعام الجيش، ومعاونة الأهالي.

أخبرته بما حدث، فدبر معي تدييرا. أتى ببعض من الخمر الفاخرة، وطلب مني أن أرسلها للشاطر ورجاله، زاعما أنها هدية صداقة من الأمير الشركسي، حاكم مدينة ساوة. اشماززت من أمر الخمر، لكنه قال لي:

"هي الآن سلاح نحارب به عدونا!"

لو كان الشاطر عدنان مدسوسا من الأهبال أو الأسود، فحتما سيراسل الشركسي، أجين الأمراء، والذي بيده أهم قلعة في القرب. لو استطعت استجواب هذا الشاطر، ومعرفة ما وراءه، فربما أتقي شرا عظيما.

كما توقعت، قبل الشاطر الهدية بسهولة، كأنها أتته مثلها من قبل. كان ابن العبدلي قد مزج الخمر بنبات منوم، يقال له القنب. فتربصنا، حتى غلبت السكرة والتخدير أتباع الشاطر، فتسللنا بند الفجر بهدوء، للقبض على الشاطر عدنان. وتعثرت، أو تعمدت أن اتعثر في الجسد الدنيء، نكلثوم العملاق.

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

دهمنا خيمة الشاطر، وكان أمكر من أن يسلم نفسه للخمر. فاحتطفناه
بهدوء، وجذبناه، دون أن يشعر أحد، بهيدا، لنحبسه في منزل شيخ الواحة.

فتح الرجل عينيه الخيبتين. ليجدني في دروعي الحمراء، أضع رمحي بين عينيه!
صاح بفرع:

"ظننتك هلكت!"

قلت:

"إذن فهذه أخبار سيئة جدا لك! لأنني ساكون شبعا أتى لحرق كبدك وأنت
حي!"

قال:

"أه... لا ... طبعا أخبار مفرحة كونك حي. كذب علينا الأسود كهادته إذا! لقد
أخبرني إنه يريد محالفتك، ولذا ظننت أنني أحسن لك صنعا بإرسالك له، لكن
هذا الذي باع البلاد، لا يصعب عليه أن يخدع..."

قاطعته زاعقا:

"خدعك؟ خدعك يا ملك الخداع؟ أنت يا أمكر الحقراء على ظهر البسيطة؟
اليوم تدفع الأثمن كاملا غير منقوص!"

أيقن بالهلاك، فتحول لمتوسل:

"لا أرجوك."

قلت له:

"أنت خير من يعرف أن الفيلان الأحمر لا تعرف الرحمة مع من يفدر بهم أو
يخون."

قال:

"لكني سأفعل لك كل ما بوسعي. سأفعل أي شيء تطلبه مني، وأنت تعلم
عظم نفهي."

صمت للحظات كأنني أفكر، ثم قلت:

"لو ظهر لي إنك ذو نفع، فربما أفكر في الإبقاء على حياتك."

قال بلهفة الجبناء:

"نعم. نعم. ساكون ذو نفع عظيم. ارسلني إلى الأسود. وساريك ما سافعه
به....."

قاطعه:

"هل تراني احمقا امامك؟ لن اطلق ثعباتا مسموما مثلك من محبسه ابدا."

قال مراوغا:

"إن لم تطلقني، فكيف ينفعك مكري؟"

صمت كأنها بهتني، تاركا الأمل يداعب قلبه، ثم قلت:

"هممم. هذه حجة قوية حقا. عندك حق، إن لم اطلقك فلا نفع لك، ولهذا لا
حل سوى قتلك."

وخرجت من الحجرة قائلا ببرود للمماليك الذين معي:

"جزوا رأسه، وعلقوه على باب المعسكر، عبرة لكل جاسوس."

مضيت مفادرا، وأصوات استغاثته تثقب الأذان. ترى كم مستفيث أغاثه هذا
الحقير؟ كم من مفدور قتل بسببه؟ كم من مسافر آمن مات من الجوع
والعطش، بعد أن تركته الدابة وسيلة وسط الصحراء القاحلة، لتعود لبلعها؟

قبل أن اغادر المنزل، وصلتني صرخته الأخيرة:

"سادلك على الخونة من الأمر اااااااااا!"

عدت من فوري، أرفع عنه السيف الذي أدمى رقبتة. كانت حالته مزرية حقا،
ودموعه تلتفخ خديه، ممتزجة بلبابه الذي سال، بينما يوله قد نجس الأرض
الطاهرة من أسفله.

قال - بمجرد أن رأيته - منهارا:

"كنت ارسل الأمراء، كنت ارسل الأمراء، اتركني أدلك عليهم، سيفدرون بك،
هم والأسود تأمروا عليك، ابق على حياتي وسأخبرك."

نظرت له باحتقار، وقلت:

"أخبرني، وربما أبقى على حياتك. أما تذكر حكاية البرغوث الذي أزعج الأسد؟ تلك التي سخرت مني بها؟ لا يكون الأسد إلا أحمقا، لو ترك البرغوث يهرب مقابل بضع كلمات."

مالت عيناه تدوران زائفتين بغير استقرار، وبدأ أنه لم يفهم أغلب كلماتي. أدركت أن الشاطر رغم جراته، لكنه جبان، وهو من النوع الذي يفرح حقا من الموت، حينما يلقاه محتوما، لذا فقد مالت نفسي لتصديقه.

قال،

"أستطيع أن أثبت لك، فعندي رسائل. كنت أسخ الرسائل بخطي، واحتفظ بأصل رسائل الأسود عندي. ظننت أن الملك إن اتصر، فسيشترون مني الرسائل الأصلية بأي ثمن، وإن اتصر الأسود، فسيظنون أن خطي إنما له هو، فانتفع به في خداعهم كلهم يا مولاي خونة حقراء، أسوأ مني. أنا اللص المسكين، الذي أذاه محدودا كلهم إلا الوكيع ابن عامر، وكايدهم ابن بارم ديله، بخونوك وستجد أسماءهم."

كان حديثه منطويا، فالوكيع يطلب ثار أبيه ابن عامر، الذي أحرقه الأسود حيا في الثغر الكبير، وكايدهم يطلب ثار شقيقه جركس، الذي قتل في كمين مع أمير الزرقاء، ليلة أن غادرت قصر ابن العبدلي لجلب الوريث. ولكن الجميع يستطيعون أن يضيفوا لهما اسمين أو ثلاثة، يحفظون أنهم لن يهادنوا الأسود. وليست شهادة عدنان بالمقبولة.

قلت للشاطر،

"أين تلك الأوراق؟"

قال:

"أخرجني إليك بها."

قلت:

"مرة أخرى تضع وقتي عبثا. ورائي جند أهتم بهم....."

قاطعني متوسلا:

"أرجوك، لو قتلتني دون أن تصدقني، فستموت من ورالي حتما. دعني أسرع لك بالأوراق، فالأسود الآن يزحف نحوكم بمائتي ألف جندي. وحين يص....."

صرخت مقاطعا:

"كم تقول؟"

قال منهارا:

"الأوراق في صندوق مدفون، أسفل فراشي. في خيمتي. لا أحد غيري يعرف بوجوده. ولكن أحد رجالي أخبرني أن الأسود حشد مائتي ألف جندي من أتصاره، وحلفائه، وبني الأسود. وهو يخبر أمراء الفرب في رسائله إنهم مائة ألف فقط، لأنه ينوي التفريز بهم، والخلاص منهم جميعا. لكني واثق من أن جنده وصلوا لمائتي ألف، لذا استفرق في جمعهم وقتا طويلا. أظنه سيأتي بهم عبر الجنوب، حيث تستسلم له قلعة ساوة. والفرجة أمدوه باربعين ألف. ورأيت بام عيني خمسين ألفا يتجهزون، من الأهبال، في الثفر الصغير. وعشرة آلاف من السور العلي، هم الآن في الحاضرة، يمدونه بأدوات الحصار، على أن ينصرهم ضد الصيادية! أقسم لك أنها حقائق، علمتها من رجالي. لو قرأت الرسائل، فستجد فيها بعضا مما أقول."

تبا لهذا، لو صدق فقد هزما من قبل أن نحارب. هذا حشد لم تر البلاد مثله منذ غزو الأهبال. بعد كل جهدنا لم نحشد إلا خمسة عشر ألفا من الفوغاء، الذين لن يستطيعوا قتالا، وثلاثين ألفا من المماليك، سينفض عنا أغلبهم بأمر امرائهم الخونة، ولم يتبق سوى ستة آلاف مقاتل، الذين أتى بهم زعيم خدام الضريح، أنى لهم بالصمود أمام كل هؤلاء؟

أرسلت رجلا ليتسلل لفراش الشاطر، ويأتينني بالصندوق، وأسرعت للملك والملكة، وولي العهد أخبرهم بالكارثة.

لم نجمع في مجلسنا سوى أربعتا، وابن العبدلي، ووكيع بن عامر حاكم الثفر الكبير.

في البداية كانت الشهائية ثابتة الجاش، لكنها فاجأتني بقولها:

"مادام لا أمل من الحرب، فلنحرق الدماء، ونعد سالمين على طرابل!!!!!!!"

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

لردت ان ارد عليها بكياسة، ان الدماء ستسيل انهارا بمجرد دخول الأسود للعرب، لكن كان تيمور هو من رد عليها بحدة:

'والله انا لا نقاتل طلبا لملك او مفنم، وإنما طلبا لحق وجهاد! لا ضير عندي ان نجر علقى في سبيل تحقيق ما ارجوه، فدعي عنك أوهام السلامة تلك، فإن طريق الجهاد مرير، ومن بدأ فيه فعليه الا ينتكس عنه أبدا.'

صممت مكظومة من الفيظ، خاصة وان ابنها قد أسرع معنا، يقلب الأمر وبحسبه.

كانت الأزمة صعبة، ولكن الشهائية عادت باقتراح أكثر حكمة من اقتراحها الأول:

'لطلب عن الأسود طرد الفرنجة والأهبال من البلاد، ونسلم له الملك، فنحن لا لطمع فيه، وإنما نثير غيرتنا هذا الاتهاك لأراضينا.'

لكن وكيع رفض أي صلح مع قاتل والده، وطلبه للتأثر حارق ماحق، لذا فقد رد بحجة قوية:

'أيسر على الأسود ان يحاربنا نحن، فلم نجتمع بعد عددا من الجند يصل لجيش احدهما، ناهيك عن ان يحاربهما معا!'

مقال ابن العبدلي:

'تربصوا لعد غد، فحينها ستكون أنباء زحف الفرنجة والأهبال قد اتضحت، ولحكم عن بينة، لكن بجب ان بجمع أكبر عدد ممكن من الجند المخلصين، وتكتم الأمر عن الأمراء، والا فلا نعرف كيف سيفعلون، إذا علموا بافتضاح امرهم.

قلت:

'من اين تأتي بجنود آخرين؟ هم عند الأمراء الخونة!'

قال وكيع:

'هذا وقت الغيلان الحمر، اين غيلانك ايها القليل؟'

صمت مبهورا، قبل أن تسعفني بديهتي، فقلت:

'نعرف ان الأهبال يتكئون حتى يشبثوا من امر الغيلان وأعدادهم.'

قال لي.

"هذا صحيح."

قلت:

"فلم أعجل بظهور الفيلان الأحمر؟ ليتكاجرجالي، عسى أن يرداد تباطؤ الإسهال فيفوتون المعركة، ونكفي شرهم!"

بدت حجتني مقنعة، فصمت على مضمض. وبدأ انه يفكر في رد آخر، لكن ابن العبدلي تدخل لينقذني. محولا الحديث.

"هناك الكثير من صفار الامراء والقادة. لا ياتمر احدهم على اكثر من مائة او مائتين من الجنود. لو جمعناهم. وربما نستقوي بهم."

هنا اتني فكرة مقلقة، لكن. في هذا الطرف الكليب، بدت لي حتمية. فقلت:

"سأترككم الآن، محاولا تدبر امر عدد من الجنود ولنلتق بانن الآه هنا، بعد ثلاثة أيام، في مجلس حرب."

نظروا لي بغير فهم، وفتح وكيع فمه، لهله يريد السؤال عن الفيلان الأحمر لكني تركتهم ورحلت.

(4-55)

الشيخ غلاب

"ركبت حصانا قويا، وعدت لقريتي القديمة.

لا لم اهرب، بل اتيت لاستجد باهلها!

كان شعوري غريبا حقا، حينما لاحت لي على مسافة طويلة. لأكن صادقا، لم اعتبر أن قريتي هي وطني الحقيقي. إذ لم أعش فيها إلا مدة قصيرة، لكن تلك الرحلة الطويلة، التي قطعتها وأنا أتمنى في كل لحظة ترك كل شيء والعودة لها، وكل تلك المرات التي كدت أن أموت، فتمنيت أن أدفن فيها، بدلا من أن أدفن غريبا شريدا، جعلت قلبي يتفرض حينما دخلتها، ونظرت لبيوتها الطينية البسيطة.

كم مر من وقت؟ أه شهر طويلا، ترى كيف حال أرضي؟ للأسف لم يحن بعد وقت القص، ومعرفة الأبناء، إن كان مثل هذا! لوقت سيحين أصلا!

ذهبت إلى الشيخ غلاب، وكم كالت دهشته عظيمة إذ رآني! احمر وجهه بشدة، وأشار لمن معه بالانصراف، فخرجوا وقلوبهم تحترق من الفضول.

بعد السلام، قلت لشيخ بلدي الشيخ غلاب:

"يا شيخي، تعلم الآن أنني من جنود الملك؟"

صرخ بغيظ:

"طبعا أيها الماكر المخادع الكاذب! ترعم إنك..."

قاطعته:

"لا ازعم شيئا، انت من اعطاني الدرع، اليوم كل البلاد في حاجة لهذا الدرع.
وفي حاجة اكبر لسيوفكم ودروعكم."

قال لي:

"ادعونا للحرب! ابلفت جراتك -بعد ما فعلته- ان تدعونا للهلاك معك؟ ولو
افترضت انني اجبتك، فكم رجل في القرية قادر على القتال بعيدا عن منزله؟
لو اكرهتهم بالسياط، فلن ازيدكم الا خمسين مقاتلا."

استبشرت برده خيرا، لم يجادلني في سبب القتال وغرضه، فادركت انه مقتنع
انا على حق، فقط هو كالبقية، يخشى عاقبة الامر، ويقعده عجز الموارد.

قلت:

"اليوم يوم الحسم. اليوم يوم الوحدة. منذ الآن لن تقاتل كل قرية وحدها. بل
الخمسون القادمون من كل قرية سيقاتلون معا، دفاعا عن وطننا، ودرء
للاهبال والفرنجة عنا. اليوم حان الوقت للفلاحين ان يدافعوا عن انفسهم
بانفسهم معا، فلا مكان لامراء المماليك. لانهم لن ينفعونا."

قال متبرما:

"وماذا بيدنا لنفعله؟ حاربوا اتم ان شئتم."

قلت:

"اليوم ستدور حرب ضروس، ممالك واعراب وفرنجة في جانب واحد، فمن
بقي ليصدهم؟ ظننت ان اسم الوريث قد يجدي، فلم يفن شيئا، وخذله الامراء.
استعنت بأساطير الدراويش، فلم تجلب الا شرادم، اغرينا الامراء، ودفعتنا
للمرتزقة، فأغراهم السود، وارهبهم بما فوق طاقتنا. كم بقى لنا من قوة
ندفع بها اعداء الوطن عنا؟ كم من قوة بقيت لنا لنصد طغيان السود من انا
ينالنا

فتذهب لرضنا، ودماءنا حلالا لرجالنا؟"

قال لي:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

لا شيء! لذا فعلينا أن نستسلم ونسلم. لا فائدة."

قلت:

"والله الذي لا إله إلا هو، لو أنك قلت لي هذه الكلمة من قبل لأطعتك! هل تعلم لماذا؟ لأن هذا هو ما فعله دوماً. نستسلم. لكن ماذا جئنا من الاستسلام والانكفاء؟ اضطررنا للحرب على أبواب بيوتنا مفزوعين، أو رحلنا مهجرين، كما فعل أبي. اليوم وقفت على أمر غريب. أكنت تصدق إتني سأستطيع الذهاب لطرابلس، وجلب الوريث، ومغالبة الأسود كل هذا الوقت يا شيخ غلاب؟" هل رأسه نفيا، وقد التمع الفضول في عينه، لكن لم يكن هذا وقت لقص قصصي عليه، فأكملت:

"لم استسلم في هذه الرحلة المستحيلة. أتعلم كم شخص طيب وشريير أخبرني ناصحا إلا فائدة؟ من كل الأشكال والألوان فرنجة، وعرب، وأساودة، ولصوص، ومقاتلين أبطال! لكني نجحت. هل تعلم لماذا؟ لأن دافعي الأول في هذه الرحلة كان أنت يا شيخ غلاب!"

التفض جالسا، وقال:

"أنا؟"

قلت:

"نعم أنت! أتذكر حين عايرتني بوالدي الذي هرب؟ لقد هرب والدي من هنا للزرقاء، ومن الزرقاء لأحراش الشمال، فما نجح في الفرار من الموت! قلت للنفسى لأكمل المسير، فالموت محتوم. الموت محتوم يا شيخ غلاب. لكني قلت لنفسى لأمّت مرة وأنا غير هارب! بل كار مهاجم! لأمّت ميتة لا خزي فيها، ولا يعايرني بها الشيخ غلاب. ثم علمت أمرا آخر، هو أن الله لا يحاسبنا على ما حققناه، وما ظفرنا به. جزاء الشهيد واحد، سواء انتصر، أم غلب. فقد مات في سبيل الله، لا في سبيل النصر! إلا تذكر هذا الحديث الشريف، الذي تتلوه علينا كلما خرجنا لحرب المجرمين الطامعين في نهب حصادنا؟ (من قتل دون ماله فهو شهيد) فإني أذكرك بحديث آخر: "سأل رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن القتال في سبيل الله عز وجل، فقال الرجل يُقاتل غضبا، ويُقاتل"

جروب "ربيع الكتب".

حمية. قال: فرّفع رأسه إليه - وما زفّع رأسه إليه إلا أنه كان قائما - فقال .
من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فهو في سبيل الله .»

أفهمت يا شيخ غلاب الحديث؟ لا أطلب منك القتال شجاعة، أو حمية، بل أقول
لك قاتل لتكون كلمة الله هي العليا، فترفع بسيفك الظلم عن عباد الله.

أقول لك قاتل أعداء الله، الذين يفتون الفساد في الأرض، فيستحلون المحارم
والدماء، مدمرين هويتنا، وإسلامنا، بسم السلطان والقوة والأمر والطاعة.

لا أقول لك الفرنجة، الذين استباحوا البلاد فقط، وإنما قبلهم الأمراء
الفاستدين، الذين يظنونكم موتى لا تفضبون إلا على إثناء طعامكم. هؤلاء
الذين بثوا الفتن في البلاد. أتركهم يكملون فسادهم، وينصبون طاغوتا
هلكا؟ أما حانت لحظة الحرب عليهم بعد، وهم من بدءونا بالحرب؟

إني لا أدعوك لفتنة أو ثورة على ملك جائر، فنصبر طاعة لأمر الله، وإنما أدعوك
لحرب ظالم تجبر، أتى لأبوابنا يطلب دماءنا، فتسلحا بالفرنجة والأهبال الكفرة،
ومبيحا لهم دماءنا وأعراضنا. أفترد عنهم، لأننا لسنا أقوياء، ولسنا شجعان؟

كلا يا شيخنا، فإننا لا نقاتل في سبيل غنيمة أو نصر، ولن يحاسبنا الله على ما
جمعناه من غنائم أو انتصارات. سيسألنا ويحاسبنا على لماذا قاتلنا، وكيف
قاتلنا.

يا سيدي شيخ البلد، البلد التي تحكمها لم تذوق من سواعد المرتزقة إلا الجور
والفجور، فلم ينقذها إلا أيدي ابنائها، وكذلك، فبلادنا لن يوحدها إلا أيدي
ابنائها.

مد يدك في يدي، وأرسل لكل القرى تجمع ابنائها، فالجهاد اليوم فرض عين،
لا فرض كفاية. مادام العدو أتى لأرضنا، فيجب على كل مسلم أن ينهض
لدفعه، وقد وجب هذا منذ زمن بعيد، وحانت اليوم فرصته.

أنهيت حديثي الفاضب، وأخذت الهث منتظرا في غير أمل. نادرا ما غيرت
الكلمات إنسان، فالكلمات بخرها سريع أمام نار الدنيا الموقدة بالفتن، وميل
الهوى للدعة والراحة.

وجدت الشيخ غلاب ينهض دون رد، فقلت بصوت واه:

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

إلى أين يا شيخ البلد؟

قال بصراحة:

'ساحضر سلاحي. فأنا بحاجة له! ولا تضيع وقتي الآن، فستحتاج لكلمات أشد تنميكا في كل قرية تمر عليها. اذهب لنائب القاضي. فلو أعلن دعوة عامة للجهاد، ووافقك، فلن يتبعك زمام الشيخ عصفور فحسب، بل كل القرب. اذهب لمساجد القرى، فوبخ شيوخها لعودهم عن الجهاد، فإنهم إن تبعوك تبعك الأهالي. لا تضيع وقتي يا غلام يا ابن الصياد!'

وهكذا بدأت في رحلة ظافرة، لجمع المجاهدين. حفنة من كل قرية، وجماعة من كل مدينة أو زمام. مجاميع صغيرة، كانت تكتفي بالدفاع عن قريرتها بالكاد، لكنهم معا أصبحوا جيشا من عدة آلاف، جمعتهم عند زمام الشيخ عصفور، وانطلقت بهم إلى ساوة، خلفا ورالي الدعاة، يحثون المزيد من الناس على الجهاد. والله ما كنت اظن أنني سأفعل في جمعهم، لكني رأيت حمى عاتية، تجتاحهم، وتدفعهم نحو الموت، بلا سؤال عن مكسب أو مفنم. فمارال الخير في الأمة إلى يوم القيامة.

عدت شاعرا بالظفر، رغم أن أعدادنا ما زالت لا تقارن بجيش الأسود المزعوم، لاجد في ساوة أمرا عجيبا!

لقد ابتدر الملك تيمور الأمراء الخائنين، فاعتقل رؤوسهم، واستولى بفتة على مدينة ساوة. واتزعمها من يد شهاب التركسي. وسجنه. وهنا تشتت أغلب الأمراء وجندهم، فارين كالفران لقصورهم.

الا بعدا وسحقا لهم. هم من حق فيهم قول العزيز الجبار الحكيم في كتابه الكريم (لَوْ كَرَّجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْقَوْنَكُمْ الْفِتَّةَ وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ)

دخلت لمجلس الحرب في خيمة ابن العبدلي، حيث اجتمع الصامدون: الملك، وزوجه، وابنها، وابن العبدلي، ووكيع ابن عامر، وكايدهم ابن يارم ديله، واثنان اخران من الأمراء لا أعرفهما، واخيرا رجل عجوز أحفظه جيدا!

عجور عليم بأمور الحرب والحياة. أحد ثلاثة حكيت لهم قصتي الحقيقية. ويعرفون أنني لست بفول أحمر. تبا لي! لم أفكر في طلب مشورته؟ الشيخ وهدان الحكيم. بحر العلم والعمل، الذي أخذت بركته في بداية رحلتي، والذي دلتني على أن ابن العبدلي هو صاحب الدرع الذي البسه.

حكوا لي ما فاتني.

كان ابن العبدلي أرسل يطلب كل من يعرفه، ويمكن أن ينفعنا، سواء من زملائه الأثرياء، أو بعض الأمراء الباقية في نفوسهم نخوة. والشيخ وهدان، لحكمته، وعلمه بالحروب منذ قدم الزمان.

فقال الشيخ وهدان مصححا لهم:

"لن يبحث الأسود عن الاستيلاء على جنوب الإقليم، أو شماله. وإنما سيذهب مباشرة لساوة، ليهزم جيش الملك. فهذه هي عادته، لن يذهب دوماً لأكثر رأس، فيقطعها."

ورسم أمامهم على الأرض مخططاً للغرب.

"بين الغرب وساوة، وادي الضياع، ولا يجتازه إلا هالك. حاولت في شبابي مرة اختصار طريق في حافته، فكدت أن أهلك. تلاله وكثبانته وطرقه تتغير بسرعة مذهلة، وهو جاف لا يحوي ظلاً أو ماء. لذا فكلنا ندرك أنه يستحيل على أي فرد، ناهيك عن جيش، أن يعبره. فإما أن يلتف حوله جنوباً، في طريق القوافل، أو شمالاً."

قال تيمور:

"تعرف هذا كله. إما أن يحطم قلاع مدينة ساوة، أو لن يعاود الزحف شمالاً عبر المدن المزدحمة."

فقال الشيخ وهدان بصبر:

"طريق الجنوب تعترضه قلاع ساوة الحصينة، ولن ينفعه ضخامة جيشه في اقتحامها، فهي تحتاج لحصار طويل. ولكن الحصار لجيش أغلبه من المشاة، وسط صحراء قاسية. سيجعل جيشه يعاني كثيراً. ولو حاول تركها، والمضي

جروب "ربيع الكتب" .

فدما لساوة الواحات، فسيجد مؤخرته تحت رحمتنا، والإمدادات - خاصة المؤمن والطعام لجيشه الكبير - ستقطع في زحفه البطيء، ولا يوجد في الفرب كله ما يكفي لإطعام وسقاية هذا الجيش الضخم!"

قال وكيع:

"وما أدراك أن أغلب جيشه من المشاة لا الفرسان؟ وقتها سيزحف بسرعة مكتفيا بحصار القلعة."

قال الشيخ وهدلن:

"تزعمون أنهم مائتي ألف جندي؟ أتى له بدواب تحملهم جميعا؟ لو أننا أحكمنا قبضتنا على قلعة ساوة...."

أكمل تيمور كلماته:

"فسيضطر للاتجاه شمالا، أو سيلقى عنتا كبيرا بجيشه البطيء عطشا وجوعا. ستحول ضخامة جيشه لنقمة عليه!"

وقال ولي العهد:

"وحتما سيضطر للاتفاف عبر الشمال، ليجدنا صامدين هناك أمامه، ولكني أخشى من الأهبال والفرنجة."

قال الشيخ وهدان:

"الأهبال تلكا خشية الفيلان. اصبحوا الآن، يفضلون الفوز السهل غير ذي الشوكة. أما سمعتم أن مائة من الفيلان الحمر صمدت أمامهم شهرا كاملا، مع حاكم الثغر الصغير، أمام جيشهم ذي الخمسين ألف مقاتل؟ لن يقترب الأهبال منا، إلا بعد أن يشتبك الأسود في القتال معنا ومع الفيلان فعلا. سيحطمون له القلاع الصغيرة لأمراء المماليك والأثرياء هنا وهناك، حيث أكوام الذهب مكدسة! لكنهم سيتأخرون عن دخول المعارك الكبيرة، كثيرة الكلفة، قليلة المفتم، وإلى أن يصلوا لنا، فسيكون أمامنا ما يشغلنا!"

قال ولي العهد مصرا:

"أوافقك على هذا، فهي طباع الأهبال، ولكن الفرنجة ليسوا كذلك. سيسابقون الأسود بحثًا عن المدن والثغور. لا يهمهم الذهب، قدر ما يهمهم الأرض. سيسعون حتما للاستيلاء على الثغر الكبير، رغما عن أنف الأسود. فما من مرة دخل الفرنجة فيها ميناء، إلا التصقوا به، ولو كان لحالفهم!"

قال وهدان مبتسما:

"ها قد أصبت ما لرمي إليه! لو أغلقنا طريق الجنوب أمام الأسود، بالاستيلاء على قلعة ساوة، فسيضطر للسير الطويل شمالا، بينما يتلصقا خلفه الأهبال، ويسرع قبله الفرنجة وخدمهم منفردين."

أكمل ولي العهد:

"ووقتها سيكونون وخدمهم بخمسين ألفا فقط، ونستطيع أن نكتفي بترك حامية صغيرة قوية في قلعة ساوة، ونجمع باقي جيشنا كله بسهولة، مطمئنين لظهورنا لمواجهة الفرنجة، فإن فرغنا منهم، بدأنا في حرب الأسود دون عونهم له."

وإذ اتفقوا على تلك الخطة، طلب الملك لقاء الأمراء، لأنه يستعد للرحيل جنوبا للتحصن في قلعة ساوة، فاتوه فرحين، يظنون أنه سيصبح في أيديهم لقمة سائفة، يسلمونها للأسود في سجن القلعة، بعيدا عن أيدي الأهالي والعوام المتحمسين، ليجدوا أنفسهم هم من يعتقلون، وتسرع سرية من خمسمائة مقاتل، من جنود خدام الضريح، للتسلل لمدينة ساوة والسيطرة على أبوابها. ورغم إن أكثر الجيش انصرف عنا، لكن البقية أكثر بركة ومنعة الآن.

وإذ أتيتهم بجيش جديد، شد من أزرهم اتنا الأخبار من الكشافين، بأنه بالفعل لا أثر لجيش الأسود على الطريق الجنوبي، رغم إنه خرج من البوابة الجنوبية للعاصمة، فاطمانا أننا دحرنا خطته الأولى، بتركنا محاصر بين زحفه من الجنوب وزحف الفرنجة والأهبال من الشمال، وسيضطر للسير شمالا مسيرة طويلة.

وهنا لم يكن هناك وقت لنضيقه، إن كنا نرغب حقا في مباغثة الفرنجة، قبل وصول الأسود لهم، فتركنا حامية في الواحة، من بقية جند خدام الضريح، مع بعض أهلها، وتركنا الملك في قلعة ساوة مع بعض المماليك من أتباع ابن العبدلي، أنفق عليهم جل ماله، ليشرقوا على حسن تحصين المدينة، وتركنا

جروب "ربيع الكتب"

معهم جماعة الدراويش والمساكين المتحمسين، الذين لا يجيدون القتال. فمن وراء الجدر. رأى تيمور أنهم سيكونون أكثر نفعا عن ميدان القتال المفتوح. وفي الوقت نفسه نبههم عن تحركات جيشنا، خشية أن يكون بهم جواسيس آخرون.

وهكذا تحركنا من واحة ساوة، بجيش أقل من عشرين ألفا، أغلبه من الفلاحين، ودوابه من الحمير والبغال! لا يساندهم إلا فرسان وكيع، وكأيدهم، فأسرعنا بفي إنقاذ الثغر الكبير من أيدي الفرنجة.

فأدنا في الطريق وكيع، لأنها مدينته، وفضل ألا ندخل المدينة، بل تقربص في الصحراء حولها حتى لا يصل نبا عن وصولنا للفرنجة، لأن جواسيسهم كثر بالمدينة، فعسكر بنا في مكان كريه، يكثر فيه الحصى والحجارة القاسية، ومياهه برك مالحة، أو ممتزجة بقطران أسود! يزعم إنه بعيد عن العيون، لكنه أضاع من عيوننا النوم!

وسرعان ما وصلتنا الأنباء عن الزحف السريع للفرنجة نحونا. وهنا أخذ ولي العهد زمام القيادة، فهو أخبرنا بالحروب.

* * *

(56)

معركة الثغر الكبير

"نزل جيشهم من الأسطول، بعد أول فروع اللهر مباشرة، ثم حثوا الخطو نحو المدينة، يرافقهم الأسطول عن جوارهم، ووصلت طلائعهم لنا، فكما مختبلين وسط التلال، وتركانها -بأمر ولي العهد- تمضي لتدخل المدينة، وبدأت الحسرة في عين وكيع، فسأله ولي العهد:

"استسقط المدينة في يد تلك الشرذمة؟"

رد وكيع ياباء:

"بالطبع لا! سيصطادهم الأهالي، وسيرميهم رجالي في البحر طعما للسماك! لكنهم سيحرقون ويخربون في الميناء ومراسي الصيد. أغلب الصيادين تركوا زوارقهم، بأمر ي، في جزيرة مهجورة شمال المدينة، حتى لا تدمر في القتال. لكن بقيتها ليست خسارته بالهينة، بعد ما فقدناه في غزوة الأسود لنا."

قال ولي العهد:

"يسرع الفرنجة بالطلاع لدخول المدينة لاختبار دفاعاتها. ستركهم يفعلون، والمدينة بلا جيش، لأن الجيش يبقي صيدا أكبر من الطلاع، وأثمن من سفن الصيد! ولكن ذكرني أن أسالك عن تلك المراكب فيما بعد!"

بالفعل عسكر جيش الفرنجة، وهم قرابة خمسين ألفا، شرق المدينة، لا يعدون كثيرا عن معسكرنا، لكنهم كانوا في مكان أفضل بكثير من أكوام الرمل، التي أخفانا فيها وكيع! على أي حال، كفلاحين، فقد نمنا في أماكن

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

أشد قسوة من هذه! اظن ان الأمراء المرفهين فقط، هم من سيقاتون بأشد ملا.

زحفنا طوال الليل في سكون، حتى أشرفنا على معسكر الفرنجة. كانوا مازالوا منشغلين في نصبه، فلم يرسلوا بعد الدوريات لتأمين المنطقة حوله. وهو خطأ لحسن حظنا، سنجعلهم يدفعون ثمنه عظيماً! أو لعله هذا المكان الكريه، الذي اختاره وكيع لعسكر فيه، قد أنفت كشافتهم دخوله!

أخذت أرقبهم، وهم ينصبون الخيام الضخمة كاليوت لكل أمير من أمرتهم، وللفرنجة أمراء كثر مثلنا، لكنهم وقت الحرب يجتمعون على قلب واحد، بينما تشتت الأهواء!

لكن هذا لن يحدث اليوم بإذن الله.

قدت الهجوم الأول رافعا رمحي، وشاهرا رايتي، وضوء الفجر يلعب على درعي الأحمر، وخلفي أسود لا تشتهي إلا الدم. دماء تفسل ذنوب سنين من الخضوع والفرع.

ورأينا الجبارين المتفاخرين يتشتون كالنجاج في فرع، كأنهم حمر مستقرة فرت من قسورة.

شقتت طريقي في صفوفهم، لا أدري من أين انتي شجاعة كهذه؟ كان الخوف مات ودفن في قبر عميق، لا أعرف له شاهد.

أهم فرنجة؟ وفرسان محترفون؟

لا يهم.

أنا غول أم فلاح أم ابن صياد هارب؟

لا يهم.

فقط كل ما أعرفه، أنني سأذيقهم اليوم طعني!

كان أول من اعترضني منهم فارس جلف ضخم، ولكن قبل أن تمتد يده لسيفه كان رمحي الطويل يتحاشى دروعه، ليمزق عنقه ببراعة لم أعرفها في نفسي، ثم يتركها ليهوي على رأس آخر فرع، يجري من أمامي، ثم وجدت الرمح يعود للخلف ليسقط ثالث عن يساري!

شقت طريقتي. ومن معي. في تلك الصفوف المرتجفة. نهضي كسيل عارم لا يتشتت أبدا. بل يحتفظ بصفوفه موحدة. كبنيان مرصوص. تتكسر على جوانبنا كل الهجمات. التي تحاول شراذمهم شنها علينا. لكننا لا نحيد عن هدفنا المرسوم أبدا. الخيمة الكبرى في قلب معسكرهم. حيث يوجد أجل أمرائهم عادة.

قاتل من معي بشراسة. ممهدين طريقا من دم وأشلاء. ولكن الكونتات والأمراء جمعوا شملهم. واستعادوا أترانهم. ليقاتلونا بشراسة أخرى لا تعرف الرحمة.

أصوات نفيهم تعلو. لتوقظهم. فتردها صيحة الله أكبر لتبهتهم. وأنين غضبنا يعلو فوق صراخ محتضريهم. فالنار تشتعل في مؤنهم. وسيوفنا تلمع كالبرق الخاطف لنور عيونهم.

اتظمت صفوفهم كتل متراصة أمامنا. ولزداد جمعهم ينفون حصارنا وكسرنا. لكن هيهات. ليس اليوم فهو ليس يوم انكسارنا أبدا!

واجتمع عدد منهم على الساحل. يرموننا بالسهام. ها قد استيقظ الرماة من نومهم. ليمطروننا بالهلائك. فهل وجدت أحدا منا يبالي؟ هيهات. وهنا أتاهم الهجوم الثاني بقيادة وكيع.

ملات من مراكب الصيادين الصغيرة. خرجت فجأة. تنقض على سفنهم. التي انشغل بحارتها بهراقبة هجومي. أو النزول على الشاطئ. لإمطارنا بنبالهم.

ملات المراكب المدهونة بالسواد. فلا تظهر في الليل. اقتربت من السفن سرا. وقد ملئت بالمقاتلين الأشداء.

اتطلقت تلك المراكب مسرعة رشيقة. تلقي بجمار النار فتحرق. أو تنقض وتفتح. لتلقي بالمفاوير على أسطح السفن. فيمزقون ولا يقون.

وارتبك الفرنجة أيما ارتباك. حينما رأوا سفنهم تحترق. أو تهرب. فاتحاز شطر منهم يطلب الفرار شرقا.

وهنا كان الهجوم الحاسم الأخير بباقي الجند. خلف ولي العهد.

كنت. ومن معي. محاصرين من الشمال برماة النبال. وبعض الكتائب. ومن الجنوب بفيلق كامل. وأمامي جهة الشرق جيوش أمزقها. ثم أتى هجوم

واجمع من البحر في الشمال. مزق رماتهم وكتائبهم. وأتى الآن هجوم ولي العهد من الجنوب، لتصبح فرقهم هي المحاصرة إما بيني وبين وكيع. أو بيني وبين جيش ولي العهد.

واعملنا في يالسيهم التقتيل، ورايت الشيخ غلاب يأخذ شطرا من الرجال، وهلدفع لقلب معسكرهم حيث جمعت أكبر حظائر الخيول، فشتت خيولهم، فهل أن يركبوها، ليصبح أغلبهم مشاة، لقمة سالفة لفرساننا وراكبينا.

دار القتال العنيف من الفجر حتى الظهر، لكنه كان قد حسم لنا بالفعل، منذ هجوم ولي العهد، وفرار عدد كبير منهم شرقا.

انتهت المعركة أخيرا بنصر ميين، وجثث الآلاف من الفرنجة مكومة في كل مكان، مع عشرات من سفنهم المحترقة.

وأخذت أتفحص خسائر جيشنا البطل، فوجدت أننا فقدنا أكثر من ألفي شهيد، وثلاثة آلاف جريح، وأفسد علي فرحة النصر أن كان من الشهداء الشيخ غلاب، وكثير من أهل قرיתי.

رحمه الله، كان حكيما حصيما، مات شهيدا، فاللهم أسكنه فسيح جناتك.

وجلسنا نللم أحوالنا، ونوزع غنائمنا بعد النصر، وقد كانت أكبرها تلك الرسالة القوية، التي ألقينا بها إلى الأسود والأهبال!

ولكن قبل أن نلتقط أنفاسنا، ونكمل شأننا اتانا الصارخ المشلوم

الأسود يحرق واحات ساوة!

(57)

جيش آخر

"نظرنا مذهولين للذير، واتي بنا فوراً. وهتفنا في صوت واحد.

"ماذا تقول؟"

قال لاهتاً:

"الأسود نزل بجيوشه عند الواحات. وأحرق بالفعل الواحة الشرقية. فارسلوني لكم. هو يزحف جنوباً، يبقي الملك الذي تحصن في قلعة ساوة. ومعه من فر من الواحات."

قلت مذهولاً:

"لكن كيف؟ كيف وصل لهنالك بهذه السرعة أصلاً، إن لم يكن أتى من الطريق الجنوبي؟"

قال الرسول مبهاراً

"إنه ليس بشراً! حتماً هو صادق في زعمه لأن له أخاً من الجن. فقد ساعده شيطانه، الذي لا يهزم. لأن يعبر وادي الضياع بجيشه."

بدا الأمر غريباً لا يصدق. وادي الضياع لا يعبره إلا هالك. حتى أخبر الأدلاء وأحنكهم يعجزهم أطراف الوادي. ناهيك عن شق قلبه من العاصمة إلى ساوة مباشرة. كيف يعبره بجيش كامل؟ كيف؟

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

لكن لم يكن هناك وقت للبحث عن تفسير. امام تلك الكارثة، فقد حوصر الملك الآن. بعيدا عن أغلب جيشه.

سال وكيع:

"كم عدد جند الأسود؟"

قال الرسول:

"على الأقل خمسين ومائتي ألف مقاتل. مقسمين لخمسة فيالق. كل منها خمسين ألفا، منهم ثمانين ألف فارس وهاجن."

اسقط في يدنا، وتجمدنا حيث نحن مذهولين.

قال كايدهم ابن بلم ديله:

"لا فائدة. هزمنا الفرنجة، وصددنا شرهم عن البلاد، لنهديها خالصة للأسود. فلنهادنه!"

حتى وكيع بدا مرتجفا. مائتان وخمسون ألفا، بينهم ثمانون ألف هاجن وفارس! هذا شعب بأكمله! انى له بكل هؤلاء!

وانتشر النبا المفزع بين جنودنا كالنار في الهشيم، فثار الفزع، وبدا الاضطراب بين الجنود. حتى وصلتنا صرخات اناس. ينادون على بعضهم، للعودة إلى قراهم.

كان اليأس سيد الموقف، فحتى لو عاد معي بعضهم، فسيحاربون وقلوبهم مهزومة.

ونظرنا للسماء، ودعونا الله نستفيث. بينما خرج ولي العهد يخاطب في الجنود مثبتا قلوبهم.

وهنا اتانا نذير آخر.

"جيش زاحف يقترب!"

سرت موجة من الاضطراب.. اتكون فلول الفرنجة علمت بنبا الأسود، فازدادت عزيمتها؟ ام لعلمهم الأهبال قد وصلوا بأسرع مما ابلغنا الكشافة؟

وهنا ارتجت الأرض بصوت كالرعد.

ابن العبدلي وقد اعتزل، وغول الحق وقد قتل، وأنا!

رعموا إن الجنود الذين صعدوا في الثفر الصغير مع حاكمها، كانوا مائة من
الفيلان الحمر، ظننت هذا مجرد أسطورة، تحية لهم على بطولتهم، كما أن
الأهبال أبادوهم عن آخرهم.

إذن فمن أين أتى جيش الفيلان الحمر هذا!

من أين أتى عشرة آلاف غول أحمر، بدروعهم الحمراء، ورماحهم المنتصبة،
في صفوف متساوية، تتقدم بقوة، وهي تدق على الأرض بأقدامها، وعلى
الدروع برماحها، وعلى رأسهم شخص يحمل فوق درعه رأسا، لخان من خانات
الأهبال!

عشرة آلاف غولا أحمر، يسرون نحونا بقوة وشموخ وعزة.

عشرة آلاف وقفوا تحت أقدامنا، أسفل التبة يهتفون،

"عاش القبيل زعيم الفيلان الحمر!"

لقد وصل جيش الفيلان كما وعدت! لكن كيف! لا أدري !!

* * *

(58)

نبأ الفيضان الحمر الجدد

تقدم قادة جيش الفيضان الحمر نحونا. وما أن وصلوا لنا، حتى رفع زعيمهم رمحه، الذي يزينه رأس هذا الخان من خانات الأهبال، وهتف مرة أخرى: .

"عاش القبيل زعيم الفيضان الحمر!"

رددوا من وراءه:

"عاش!"

هتف مرة أخرى:

"بأمر القانون الثامن الجديد، للزم جانب الحق مهما كان، نقاتل اليوم بأمر الله في صفوف الملك الجديد، طلبا للعدل بين العباد، وجهادا في سبيل رب الأرض والسماء. الله أكبر."

هتف الجميع، الفيضان، والجنود، والقادة:

"الله أكبر!"

كانت عينا وكيع مفرقتان بالدموع، وهو يربت على كتفي:

"الله أكبر، أخيرا أتى غيلانك، وأتوا في خير وقت!"

نظرت لوجه الشاب المتحمس، لا أعرف بم أريد عليه، كنت مذهولا ماخوذا.

كانما أنا في حلم جميل، أهرب به من لحظات اليأس، لكن الأخيرة تأتي إلا أن تطاردني بمقارع من حديد! هل هم حقا غيلان؟ أتت نجدة السماء بهذه

جروب "ربيع الكتب" .

fb.com/groups/exchange.book

السرعة؟ مرت علي مواقف كثيرة، كنت أطلب فيها نجدة السماء، فلا تنزل.
١٤١، قبلها يفلق حقا كل باب لاجتهاد بشري، وأطلبها، فإنها أتني بسرعة
١٤٢، ذات يوم في صورة الدليل عمران من بني سلام، فهل أتني اليوم
١٤٣، السرعة؟ ملائكة في صورة غيلان حمر!

لم يحولوا ملائكة، بل مجاهدين أشداء.

١٤٤، حينما خلع خوذته، ليظهر وجهه! هذا
١٤٥، زعيم لعشرة آلاف غولا أحمر! جابر، الشاب الذي عرفته ثارا، منقذا،
١٤٦، حمسا في مدينة الفاربية!

١٤٧، خلتني فورا، أسأله الأخبار، وأستفهم، وتبطني في هدوء، فلم يكن
١٤٨، أن يسمع رجاله ما يقصه!

١٤٩، غادرت مدينة الفاربية، متجها إلى الزرقاء مع غول الحق، أخذ جابر ما
١٥٠، عن لساني من قوانين الفيلان الحمر الجديدة، وأخذ يدعو الناس في
١٥١، مدينته المغلقة الأبواب لإتباعها، كان يقول للناس:

" إن إغلاق أبوابنا علينا لن ينقذنا من الخوف، لا يهزم الخوف إلا بمحاربتة، ولا
١٥٢، نصر في حربه إن لم نلزم جانب الحق، وهذا هو ما يدعو له الفيلان الجدد."

١٥٣، كان يزعم لهم إنه انضم للفيلان الحمر، وقد رآها فرصة تكسب قوة لدعوته
١٥٤، في الوقوف ضد الطغاة، موقفا أشد من إغلاق أسوار المدينة عليهم، في
١٥٥، البداية لم يتبعه إلا عدد قليل، تزايدوا لبضع عشرات مع اقتراب زحف الأهبال
١٥٦، على الثغر الصغير، وطلب الشباب أن يخرجوا لجهادهم، بينما يطلب المعجز
١٥٧، إحكام غلق الأسوار عليهم حتى تمر العاصفة، وحينما ذهب الأهبال للثغر
١٥٨، الصغير، خرج مائة من غيلان جابر إليها، فدافعوا بضراوة عنها مع حاكمها،
١٥٩، بعد استسلام حاميتها، وفرار أغلب أهلها.

قال لي جابر بأسف:

" حاول حاكم الثغر الصغير إنقاذ مدينته الصغيرة طويلا بالرشوة والنفاق
١٦٠، والخضوع، لم يكن في حد ذاته رجلا سيئا كما بدا لنا، لكن الفساد الذي ثره
١٦١، في مدينته أسقطها تماما، فبقى وحده حاملا سيفه، وتحول جسده البدين
١٦٢، لمتراس، يفلق أبواب القصر في وجه العدو بشجاعة، لم أتصور أبدا وجودها
١٦٣، فيه، إلى أن نال الشهادة، وهو يقاتل فوق عرشه."

بعد أن صمد غيلان الفاربية شهرا كاملا في وجه الأهبال، وأثاروا فزعهم
تأكد الناس أن الفيلان حقا عادت. وأنهم في جانب الحق بقوة تحميه. فدام
صيت جابر ومعسكره، وتبعته أغلب الفاربية، وكثير من القرى التي لم
شرقها، وهرب إليه بعض من رعايا الأسود المظلومين، وكثير ممن شردتهم
الحروب، خاصة على الزرقاء.

وبقى جابر ساكنا في مكانه، خلف أسوار الفاربية، يدرّب رجاله قدر استطاعته
على فنون الحرب، وعلى ما ظنه قوانين وعادات الفيلان الحمر، التي استقاها
منه! واعترف بخجل إنه تجاوز بعضها، كمرافقة حيوان ما لعام كامل، لأنه
لم يفهم هذا الجزء، عندما حكا له تيمور!

كان ينوي أن يكون جيشه، الذي يتضخم بسرعة مذهلة، درعا يفرع الأسود
عن الفاربية. ولما عاد الوريث للبلاد، وبايعه الناس ملكا، ومنهم أهل الفاربية.
عقدوا العزم على نصرته، فتبرع أغنياء المدينة بصنع دروع حمراء منقوشة
ورماح. واجتمع الفيلان الجدد، ومن حولهم من أهل المدينة، والمتطوعين.
وبعض العشائر. اجتمعوا على قلب واحد، وبايعوا جابر على القتال، والجهاد،
والالتزام بقوانين الفيلان.

أسرع يلحق بالحرب، متبعا جيش الأهبال المتلكي، فباغتهم من خلفهم.

ستون ألفا من الأهبال، أمام عشرة آلاف فقط من الفيلان الحمر!

لكنها أولا المفاجأة الساحقة من الكمين، ومن رؤية الفيلان قرييون منهم
في الشرق، ومعها الرهبة والذكرى المؤلمة التي في نفوس الأهبال من
الفيلان الحمر.

وأخيرا حسن تدريب جابر لرجالهم، جعلهم حقا مقاتلين أفضل ممن
اعترضوا الأهبال قبلها.

تشقت أغلب الأهبال فارين للثغر الصغير، متحصنين بالأرض التي كسبوها من
الأسود دون مقابل، بعدما تخلوا عن نصرته. وسحق جابر بقيتهم سحقا، وقتل
زعيمهم، وسار برأسه، ليربها لكل المدن، التي مر بها جيش الفيلان علامة
الظفر!

وهنا عقدنا مجلس حرب جديد.. مجلسا استبدل فيه بالرعب الأمل.

(59)

معركة ساوة الصغرى

"سرنا مسرعين إلى ساوة، يرافقتنا مزيج من أمل وياس. العدو مهول حقا بما وراء العقل. جيش لم يذكر إلا في الأساطير. التي تتحدث عن الهول، الأريم الأكبر للأهبال!

لكن من ناحية أخرى. فالكثير من المعجزات. التي لا تعقل. قد حدثت ونصرتنا. وقد هزمتنا الفرنجة بنصف جيشهم. وهزم الفيلان الحمر الأهبال بسدس الجيش!

وصلنا إلى ساوة، بعد مسيرة شاقة لاهثة. وكما توقع ولي العهد. لم يبق فيها الأسود، بعد أن أحرق مزارعها. ونخيلها. فقد رحل بجنوده، ليحاصر مدينة ساوة وقلاعها، يبغي راس الملك. وانضم لنا بعض من أشقات الجند وأهل الواحة، والمتطوعين الذين يطلبون الجهاد. وعرفنا منهم ابن الأسود يساتده عشرون ألفا من أهل السور العلي معهم الكثير من المجانيق، وعدد الحصار، وقد انضم له بعض من الأمراء والمماليك. فزاد جيشه لها ناهز ثلاثمائة ألفا!

بقينا في ساوة نرتاح الليلة، اردت ان نتحرك. لكن قائدا وولي عهدنا، عبد الله ابن محمد، أصر على البقاء. وقال.

"سياتينا الأسود. فلنتظروه."

والفعل أتانا من جنوب الواحة قوة تركها الأسود، غالبا لتعطيلنا. كانوا ثلاثين
إنها. جلهم من فرسان بني الأسود. وعلى رأسهم حسام الأسود، الذي قتل
هول الحق، وكاد يقتلني في طرابلس.

برروا لنا، وخرج حسام مختالا يدعونا للمبارزة. أراد ولي العهد أن يخرج له.
لظلي منعتة، وقلت:

"هنا نأر قديم، وأنت أدري بإدارة جيشك."

خرجت له، مصفما على القتال حتى الموت. صحيح كان في عقلي شيء من
رهبة، فأبناء شيوخ بني الأسود يربون على المبارزة من نعومة أظافرهم، لكن
قلبي لم يكن فيه إلا الإصرار على جز رأسه.

خرجت له، فما أن رأيته، حتى جحظت عيناه رعبا، وهتف:

"ألم تمت؟"

هلت بفلي:

"ليس من السهل قتل غول أحمر يطلب الثأر!"

ألقى بدرعه، وأسرع هاربا! لم يبارز هذا المختال أصلا! ألقى دروعه، وكل ما
بأفله، وقد ظنني شيطانا رجيفا، فكبرت، وكبر الجنود ورائي، وبدأنا المعركة.

كان رجاله محترفين بارعين، وجنودنا مرهقين متطوعين، لكن الحماسة في
قلوبهم ساوت الموازين. خاصة وإن معنا الفيلان الأحمر، برماحهم الطويلة،
القادرة على اصطياد الفرسان، فقد وقفوا في صفوف منتظمة، كلما هجم
عليها بني الأسود، مزقتهم، وردتهم، بمساعدة سهام رماتنا، أدركنا منذ
معركة الفرنجة مدى تأثير أمطار السهام على المهاجمين، فضربنا بها
الأساودة بقوة.

أدرك حسام إلا فائدة من محاولته اختراق قلبنا. فأمر جنوده أن يلتفوا حول
الفيلان من اليمين والميسرة، ليضرب باقي الجيش وراءهم.

هنا أوقع جيشه في خطأ فادح. كان فرسانه سريعي الحركة أكثر من اللازم،
أسرعوا لتنفيذ أمره بسرعة كبيرة، فطاروا تجاه مؤخرتنا، لكن هذا ترك فراغا
كبيرا في قلب جيشهم.

لم ينتظر وكيع أن يتقدم جنود الأسود من المؤخرة لسد تلك الثغرة. فامر فرسانه فورا بالهجوم. مخترقا، كالسكين في الزبد، قلب الأساودة. تجاه قائدهم. أدركت أنها مخاطرة بالهلاك في معركة ضد جند أقوى وأكثر. لكنها فرصة لنصر حاسم سريع. فأخذت شطرا من الفيلان. وحملت معه. لأصبح في قلب فرسان بني الأسود. أقاتل برمحي. مسقطا هذا عن يميني. وذاك عن يساري.

احتفى القتال. وتاججت السيوف بدماء فرانسها. وأحسست أن فرسان بني الأسود يلتفون حولنا. ليعزلونا عن باقي جيشنا. لكن وكيع شن عليهم هجوما كاسحا. مع زمرة من رجاله. كسر الحصار. وأعاد الارتباك لصفوف بني الأسود.

بدأت المعركة في صالحنا. ونحن نشق صفوفهم واحدا تلو الآخر. ونصد هجماتهم المضادة. لا أدري كم قتلت منهم. لكنه ليس بالعدد اليسير.

وانكسرت أخيرا صفوف بني الأسود. وبدأنا نعمق اختراقنا لهم. لو نجحنا في شطر جيشهم لنصفين معزولين. فسنسقط أحدهما بين نار السيوف. ولهبب السهام. معزولين عن قائدهم. فتحمسنا. وكبرنا. وزدنا في الطعان.

لم أتبه للخعة الماكرة إلا متأخرا. وجدت الفرسان تتحرك من أمامنا. لتتف خلفنا. سمع حسام لنا باختراق صفوفه. أكثر من قدرتنا. ثم أمر رجاله بالهجوم على المنطقة الضعيفة. التي فصلنا عن باقي الجيش. بعد أن ابتعدنا عن مرمى رماتنا. وأنهكنا التوغل وسط فرسانه.

وأدركت. من ارتباك الأسهم الطائرة فوقنا. أن فرسانه الأوائل نجحوا أخيرا في الالتفاف حول باقي الجيش. ليحاصروه. ويضربوا مؤخرته.

لم يكن النصر مستحيلا. لكن موقفنا أصبح دقيقا. كنت ووكيع نحاول التقهقر. مقاتلين. لنعود لباقي الجيش. بينما يحاول ولي العهد ضم صفوفه معا. ليقال من أثر الحصار عليها. حينما سمعت صوتا عاليا. يصرخ بظفر:

"الف دينار لمن يجز رأس زعيم الفيلان. ويحضره لي."

نظرت تجاه الصوت. مزيحا جسدا ثقيلًا عن طريقي. فرأيت. كان حسام محاطا ببعض حراسه الأشداء. مكره انقلب عليه مرة أخرى. فقد سمع لنا باختراق قلبه. حتى أصبح قريبا منا. ولم يرجع للمؤخرة. ربما لثقتة في النصر.

١٥١١هـ دوما ببراعتك في استخدام الرمح؟ حان يوم البلاء الفاصل.

١٥١٢هـ باربعة من الفيلان أن يتقدموني، ويفسحوا لي المجال، فاندفعوا يصدون
السيوف، التي تكاثرت طمعا في الجائزة. انطلق رمحي كالطير الأبايل، فدفعت
سهم ثمنا غاليا لدرعه، الذي ألقاه هربا من مبارزتي! لم يجد الوقت الكافي،
ليطلب من حراسه صد الرمح القادم، ولا أن يجد درعا يصد عنه الضربة.
اندهعت ذراع الخالية بسرعة، حاملة درعا وهميا، فاخرقها الرمح، واندفع
بمهل طريقه إلى صدره، فشقه وأسقطه من فوق جواده صريعا، لتدهسه
دول حراسه، ويموت ميتة أشر مما أذاقها غول الحق.

١٥١٣هـ اخذت بئارك يا أخي، لو مزقتني السيوف المتكاثرة الآن، فساموت هنيء
الخال.

لحن السيوف خفتت، وتراجعت.. كنت أكبر:

"الله أكبر"

سما الأسودة يتمتمون:

"مصيب الفولي!"

١٥١٤هـ إذا كان القائد الأسود جعل رجاله يصدقون أوهام إنه منصور بملك من الجان،
فقد دفع الثمن، إذ صدق رجاله في رهبة حكاية مصيب الفولي! ولأن الأسود
هو رجاله على اتباع عقل قائدهم فقط، فقد فقدوا عقولهم، لما أسقطت
هالده جيشهم. اختبلت قراراتهم، وتخبطوا، وتشتتوا، رغم إن الظفر كان قريبا
منهم. ولم يلبثوا أن انسحبوا مهزومين، يطاردتهم فرساننا، حتى قتلوا منهم
الكثير.

١٥١٥هـ كان نصرا مؤزرا ساحقا، لكنه مجرد البداية. فأغلب جيش الأسود لم يمس،
وهو يحاصر مدينة ساوة في الجنوب، ويستطيع أن يرسل لنا عشرة جيوش
أخرى، كالتي هزمتاه!

١٥١٦هـ أراد أغلب الرجال السير فورا لقتل المفوار نفسه! كان الحماس يملؤنا. فقد
هزمتنا الفرنجة، والأهبال، وبني الأسود. وبقيت معركة واحدة للوصول للنصر.
لكن ولي العهد رفض تماما أن تتقدم أكثر من هذا، وقال:

"يجب أن يرتاح جنودنا تماما من أثر السفر المتكرر، والمعارك القتالية، ولطهر جرحانا، عل بعضهم يلحق بنا قبل المعركة."

كان بقاؤنا عالية على أهل الواحات ثقيلة. خاصة بعدما أصابهم من فُدما ونهب في غزو الأسود المباغت. لكن ولي العهد كان مصرا على البقاء. أردد أنه لم يفتر بنصرنا، وقد أقلقته الأنباء عن ضخامة جيش الأسود، حتى لو أدى عسيرة التصديق. كنا نشكك فيها، ونقول إن الناس تبالغ، فأنى له بعبور وادع الضياع بكل هذا العدد، وعبوره أصلا معجزة أذهلتنا؟ لكن ولي العهد فصل الانتظار، لكي يرسل الأسود لنا جزء آخر من جيشه، فنحارب قواته مفتة، طر من لن نلقي بأنفسنا بين أيديها.

وهكذا مكثنا أياما في ساوة. لم يرسل الأسود لنا أحدا، كما أكدت العيون وبدا أنه أدرك خطة ولي العهد، فلم يتبعها، وفضل أن يتركنا نتظر، بينما يسقط هو القلعة. لكننا ربحنا الراحة، وعلاج الجرحى، وانضمام المزيد من الأتصار لنا.

عقدنا أخيرا أول مجلس حرب بعد المعركة، ووجدت وكيعا، وقد غطت جسده الأربطة، وكذلك جابر، الذي أصيب إصابة شديدة، لكن بريق عينيه العصرتين، ظل كما هو، يدعو للقتال والجهاد.

سألت عن كايدهم ابن بارم ديله، فقال جابر مندهشا:

"الم تعرف؟"

نظرت له متساللا، أنا ووكيع، فقد كنا في المقدمة، لم نعرف ما أصاب مؤخره جيشنا.

كان حسام قد أرسل ميمنته ومقدمته، وشطر من القلب، للاتفاف حولنا، وضرب مؤخره جيشنا. ولكن قائد المؤخرة كان كايدهم، الذي صمد بمن معه صمودا مشرفا، أمام عدو أشد وأقوى. ظل، كالسد المنيع، يحمي جيشنا من الدمار، ولكن بعدما استعاد حسام سيطرته على الجيش، وامتص ضربة وكم المباغتة، تساقط رجال كايدهم واحدا تلو الآخر، وانهاالت عليه السيوف، ونجحوا في جره أسيرا جريحا معهم، وهم ينسحبون.

أحزنتني خسارة هذا الفارس الشجاع، ولعل الأسود الآن قد قطع رقبتة، لكن ذكراه لن تموت معه. رأيت الكثير من شجعان المماليك، الذين يخشون الحرب

جروب "ربيع الكتب" .

والله موت، لكنني لم أر إلا القليل جدا من أمثال كأيدهم، الذين لا يخشون الوقوف
إلى جانب الحق، والتخلي عن متع الدنيا في سبيل الجهاد.

لما هلت من قبل، إنه قاتل معنا ثارا لشقيقه، لكنني أقولها اليوم، إنه قاتل لأنه
رهوف أين الحق، فاتبعه.

لما الله في موته، وفرج كربه إن كان حيا.

لما أي حال، استقر مجلسنا على الذهاب لمدينة ساوة، دون المزيد من الإبطاء.
لما لف هنا مكتوفي الأيدي، بينما يهدم الأسود أسوارها سورا سورا،
لما سورا أنا سنبقى منتظرين حتى يتخلص من الملك.

وهكذا أمرنا الجنود فجأة بالمسير، نريد التحرك بسرعة لنسبق جواسيسه.

لما لم نفعّل، فقبل الاقتراب من مشارف المدينة، قطع علينا الطريق كمين
من رماة الأسود، بدأ أنه أعد على عجل، فقد علم بقدومنا من هذا الطريق
وهو سبلة ما من وسائله الشيطانية، واستعد للمعركة جيدا.

استغرق التخلص من الكمين بعض الوقت، وفقدنا عددا من الرجال فيه، ودب
الاضطراب في صفوف البقية، لكن ولي العهد أدار المعركة بحكمة، متقدما
بجنود مدرعين ببطء، حتى نال من الرماة، واحتل الربوة التي كانوا مختبئين
فيها.

وهنا حدث أمرين متتابعين، أثارا إحباط جنودنا، وضاعف قلقهم.

لما رأوا، ورأيت معهم، بحرا من السواد لا أول له ولا آخر، يحيط بأسوار
مهدمة، ومبان مفتحة محترقة! كان عدد جيش الأسود، الذي بلغنا، حقيقي! لم
الصور رؤية كل هؤلاء البشر في مكان واحد قبل يوم الحشر!

ومعهم كانت آلات حرب ضخمة، لم نعرف لها مثيلا، تقذف المدينة بسيل لا
بقطع من الأحجار والنار.

كان ملات الألوف من المشاة، يحوطون المدينة، كبحر هائل يموج وراء
المجانيق، وجنود السور العلي، بينما يحيط بهم فرسان الأسود في حلقة
ضخمة تحميهم.

وزاد الأمر سوءاً، أن نزل المطر، بدأ لي ولي العهد مستبشرا، وهو يقول:

جروب " ربيع الكتب " .

"نزول المطر قبل الحرب علامة خير، فهكذا ثبت الله أقدام الصحابة في غزوة بدر."

قلت بقلق:

"المطر علامة خير، لكنه خير ضائع! أغلب جيشنا من الفلاحين المزارعين، ونحن في الحرب نعتمد على المطر والأبار في الزراعة، ومنتظر نزول المطر طوال العام بفارغ الصبر، فإذا نزل، فيجب أن نكون في أراضينا نرعاهها. أن ينزل المطر على جنودنا، وهم بعيدون عن فلاحتهم، فهو أمر محزن لهم. هم الآن يفكرون في العاقبة.. إن هزمنا، فسيحرق الأسود قراهم، وإن اتصرنا، فهدم ضاع موسم الزراعة الجديد، وسيهلكهم الجوع."

قال، وقد اتقل همي له:

"إن أمر الحكم لهو أصعب واعي من جمع الجيوش، ومحاربة المعتدين تنتهي حربنا مع الأسود، عن قتل بسيف ثمنه درهمين، بينما حربنا ضد الجوع لا تنكسر."

وتلمذ وقال:

"لكن حرب السيوف هي التي أمامنا الآن. أخبرني ماذا ترى؟"

قلت:

"لا أجد إلا أن تخطب في جنودك، لتحمسهم قليلا، ولكن أخبرني، كيف سنفعل أمام هذا البحر الأسود؟"

أعطاني ظهره، يتأمل معسكر الأسود الهائل، الذي يفوق المدينة حجما وقال:

"لا يوجد خيار آخر أمامنا. لو بقينا هنا مدة أطول، فستحطم المجانيق الأسوار. يجب أن ندمر المجانيق، والأبراج التي أتى بها أهل السور العلي لتكون أمام القلعة فرصة للصمود."

قلت:

"وكيف هذا، وأمامنا كل هؤلاء؟"

ارتجف صوته قليلا، وهو يقول:

او حاولنا الالتفاف حول جيشه. فسيوقع بنا في كمان. وبخاصة بسهولة. او
اسطر للحيد بعيدا في قلب الصحراء. يسهل عليه ان يطلق فيلقا من امامنا.
واخر من خلفنا. ليوقعنا بينهما."

ام يجب سؤالي. فانتظرت في صبر.. ثم قال. كانها يستجمع شجاعته:
'عليها ان نكون جميعا غيلانا حمرا اليوم. ان نلقي بانفسنا بين فكي الوحش.
كما يحكون عن الفول اغاغول. وثعبان السموم. لهلك سمعت حكايته؟'
لم اكن في مزاج رائق لسماع حكايات. لكنه كان قلقا. بما يكفي ليضيع
الوقت فيها. فلم ينتظر وقال:

(60)

حكاية الحداد أغغول و ثعبان السموم

60-1 (المبدأ)

قال:

"يحكى إنه كان هناك حدادا شابا نحىلا، يعيش في قرية صغيرة، تبعد عن أقرب مدينة بعشرة فراسخ. ذات يوم، ذهب لمنزل شيخ البلد لإصلاح بعضاً من عدة مطبخه، فإذا به يرى ابنة شيخ البلد، تقدم له الشراب.

لم ير من وجهها إلا عينيها، لكنه إذ نظر فيهما، أحس كأنها هوت صاعاً من السماء عليه، فقذفته من فوق جبل شاهق إلى هوة سحيقة بلا قرار أحس كأنه يطفو في الهواء. لا هو في بحر فيفرق، ولا في سماء فيقع. وإنما أصبح به خفة غريبة كالطير المحلق.

وهنا ذهب لشيخ البلد، يطلب يد ابنته.

نظر شيخ البلد لهذا الفتى، وامتعض. كان هزيل الجسد، ليس بذى ببيان مهيب، وورزقه محدود، فليس بالثري المرحب به، لكنه، من ناحية أخرى، الحداد الوحيد، بالقرية، وهو لا يرغب في إغضابه ليرحل عنها.

قال شيخ البلد:

جروب " ربيع الكتب "

fb.com/groups/exchange.book

«أرواح ابنتي إلا لمن في مقامها، فإن كنت حقا راغبا فيها، فعليك أن تسمو
بها، لتصل لها»

...إليه الحداد:

«وهيف ذلك؟»

قال شيخ البلد:

«لو أنك انضمت لتلك الجماعة، التي تسمى نفسها الفيلان الحمر، فسأقبل
بك، روجا لابنتي».

كان شيخ البلد يظن أنهم لن يقبلوا فتى هزيلا مثله، ولو حدث وأنهم قبلوه،
فإن يكون له نصيب بينهم، سيقوي شوكته، ويرهب أعداءه.

لم يكن الحداد يعرف عن الفيلان الكثير، سوى إنهم فرقة من الجند، تسمو
بالسجاعة فوق كل شيء آخر في الحياة، وأن إحدى قلاعهم توجد قرب
المدينة.

جمع الحداد متاعه القليل، ورحل نحو المدينة، يطلب قلعة الفيلان، ووقف على
بابهم ملحا، يطلب رؤية كبير القلعة، أو الأغا الخاص بهم. وكان لقب الأغا لا
يستدمه الفيلان، بل العماليك، لذا فقد غضبوا منه، واستهزءوا به.

لكن الفتى ظل واقفا على بابهم ثلاثة أيام، ملحا بإصرار، فتأفف منه كبير
القلعة، وأراد طرده بعيدا، فسأله أحد أعوانه:

«ولم لا تسمع منه؟»

قال كبير القلعة:

«إنه رجل هزيل، ومثله لا يصمد في قتال».

قال معاون:

"ومئذ متى كان الفيلان يقدرّون الرجال بقوتهم، ألا تذكر ما نقوله في كتاب الشجاعة؟ القوة قد تخذلك، بأن يأتي خصمك بأشد منها، أما الشجاعة فلا تخذل صاحبها أبدا؟"

تأفف الكبير، لكنه أدخل الحداد ليقابله، وعزم على أن يطلب منه اختبارا مستحيلا، ليرده مخزيا.

نظر كبير الفيلان للحداد، وقال له:

"ما حرفتك؟"

قال:

"حداد"

قال له كبيرهم:

"كلا لو أردت أن تكون منا، فحرفتك هي أن تكون منا!"

صمت الفتى ولم يرد، فقال الكبير:

"كل غول لينضم لنا، إما أن ينضم منذ الصغر، في طفولته، قد نأخذه فسرا من أهله، أو يهدونه لنا ليتدرب على الشجاعة الحقّة، أما من هم غير ذلك، فلا بد أن يثبتوا شجاعة لا تضاهي لنقبلهم"

أحس الحداد بشيء من التردد، ثم تذكر عيني محبوبته، وكلمة والده، الذي كان يقول له: "ما لم يأت بالعسر، لن تعرف له لذة"

فأخذ نفسا عميقا وقال:

"وأنا مستعد لأي اختبار منكم."

نظر كبير القلعة له ساخرا، ثم قال:

"عليك أن تجتاز ثلاثة اختبارات، لا تلجا فيها لجبن، أو غدر، أو خسة."

قال الحداد:

"أعاهدك على هذا."

'المهمة الأولى: أن تحضر كأس أمير المدينة المزينة بالذهب والجوهر'
ومالت هذه كأسا، وضعها الأمير كجائزة لمن يهزمه في المصارعة، التي
كان ولما بها، ولم يهزم فيها قط.

ونظر الفيلان باستهزاء، وضحكوا، إذ وجدوا الحداد، بجسده الهزيل، مازال
والها بإصرار، منتظرا أن يعرف باقي المهام.

قال كبير الفيلان:

'والمهمة الثانية، أن تعبر وادي العمامات ليلا، وحدك.'

كان هذا الوادي يتناقل الناس عنه أخبارا مفرعة، عن أشباح قاتلة، وجن
ومفاريت يسكنونه، فمن عبره ليلا أو نهرا، ولم يقتل، خرج منه مجنونا
اهل الحداد في داخله، لكن إصراره ثبت أقدامه، فخرج صوته حازما:

'والمهمة الثالثة؟'

نظر له كبير القلعة بغيظ، وظن أنه يستهزئ به، فاستبدل الفكرة الثالثة بأشنع
منها، وقال:

'والثالثة أن تقتل ثعبان السموم.'

سُهِقَ من حوله في دهشة، فقد كان هذا ثعبانا جبارا، طوله مائتي ذراع،
وهكاه يستطيعان أن يقبضا على بقرتين، أو ثلاثة في وقت واحد، فيبتلعهم
في قضة واحدة.

لكن الفتى الحداد لم يهتر، لأنه تذكر كلمة والده: "لا تحمل هم الفد قبل أن
تخلص من هم اليوم". إن حصل على الكأس، واجتاز الوادي، عندها فقط
سيبدو الثعبان مخيفا.

والتفت الفتى مفادرا دون كلمة واحدة، فنظر له كبير القلعة متعجبا، وقال
للنفس:

"إما إنه سيرحل بلا عودة، وإما إنه شجاع لدرجة الجنون، وسيسعى لما هممه، ولو كانت اللثيمة، فليس أقل من أن أعينه بشيء ما"

فنادى على الحداد، وقال له:

"قبل أن تفادر لمهمة تتبع الفيلان، فلك أن تمسك سلاحا من أسلحتهم."

وأعطاه سيفه. بدا للحداد الخبير سيفاً ممتازاً، لكنه لم يعرف أنه سيف غير عادي، يصيب أي هدف يطعنه في مقتل، مخترقا أقوى الدروع.

على أن السيف لم يكن لينفع الحداد في مهمته الأولى، فوضعه وسط متاعه وتوجه نحو الأمير يطلب الفوز بالكأس

نظر الأمير بسخرية للفتى النحيل، وقال:

"أواثق أنك تطلب نزالتي؟"

* * *

(2-60)

الكأس

قال له الحداد:

'نعم يا مولاي ويفز بالكأس اقوانا جسدا:

هان الأمير قد أخذ عهدا بالأ يرد أي طالب للنزال، مهما كان. إلى أن يجد من يهلبه، ولذا خرج فورا للقاء الحداد

وغلبه بسهولة طبعاً، رغم مقاومة الحداد الشرسة، فقال الحداد:

'ها أنت يا مولاي غلبتني في جوتك الأولى.'

قال الأمير:

'ارحل يا غلام فهني لا أصارع الرجل إلا مرة، فليس لمهزوم أن ينال شرف مصارعتي.'

قال الحداد:

'يا مولاي الأمير لم أذكر المصارعة. لكن النزال لكي نرك من منا له الجسد الأقوى، وقد أثبت أن ذراعك أقوى من ذراعي بالمصارعة، فماذا عن باقي الجسد؟'

نظر له الأمير بفضول، وقد حمت في قلبه حتى حب المخاطرة، والمنافسة، فسأل متصنعا عدم الاكتراث:

'ماذا تعني بباقي الجسد؟'

قال الحداد:

"يا مولاي الجسد ذراعين وقدمين وبدن وصدر ورأس. فلكي ثبت قوتك، عليك،
ان تغلبنى في الخمسة. وقد غلبتني في نزال الذراعين فحسب.

قال الأمير مندهشا:

"وكيف اثبت قوتي في الأربع الباقية؟"

قال الحداد:

"أما القدمان فأمرهما بسيط. لتسابق الآن، وأسرعنا في اجتياز طرقات القصر
هو الأقوى."

فاندفع الاثنان بأقصى ما يمكنهما من سرعة. على إن الأمير، رغم ثقل جسده،
كان قوي البنيان، معتادا على الرياضة. فسبق الحداد.

وأحس بلذة النصر الجديد في فمه، فسأل الحداد بلهفة:

"ارني حرب البدن"

قال الحداد:

"الأمر بسيط، فحرب البدن فيما تجيده البدن، ألا وهو الطعام، لنز من منا أقدر
على احتمال طعام غيره."

وابتسم الأمير ساخرا. فتصورا أن هذا أهون النزالات، التي دخلها في حياته،
حتى إنه فكر في نبذه مستكبرا، لولا إنه بالفعل وافق الحداد على خمس
نزالات.

لكن الأمر لم يكن كما تصور. فقد أصبح عليه أن يأكل شظف العيش، الذي
يحيا عليه الحداد، من ملح، وخبز يابس، وماء، وبعض الفول.

أما الحداد، فتزانه أن يحيا حياة الأمير المرفهة، فيأكل أطيب الطعام، ولحم
الفرلان.

والمهروم من يتخلى عن هذا الطعام أولا.

جروب " ربيع الكتب "

fb.com/groups/exchange.book

وحنا كان هذا أشق نزال مر به الأمير. أسبوع كامل لا يأكل إلا أدنى الطعام،
بما أمامه الحداد. غارق في الملذات التي كانت له، وحارب بشدة يبقي
الصفود، لا يصدق أن تكون معدته أضعف من معدة حداد حقير.

ولكن حينما بلغ به الضيق مبلغه، وأصبح قاب قوسين أو أدنى من الهزيمة،
اعلن الحداد إنه أصيب بآلم في معدته، وأن طعام الأمير كالسم الحار، يكوي
جسده، رغم أنه لذيذ على اللسان؛ لكنها لذة تتبعها سكرة الألم والمرض.

وأتى النصر للأمير بين شفطي الهزيمة، فمنحه هذا روحا متحمسة للإكمال.
(ولو إنه أصبح متشككا في طعامه من بعدها، ولم يعد يأكل من يومها ما
كان يأكله من قبل)

قال الأمير، وهو يتحسس بطنه بفخر!:

"هيا أيها الحداد، أخبرني كيف يتصارع الصدران؟"

قال الحداد:

"وماذا يفعل الصدر؟ يستشق الهواء. فأما ما يريحه هو هواء الوديان،
ولسيم البحار، وأما ما يرهقه ويجلب التعب والعسر، فهو استنشاق الدخان.
أقوانا صدرا هو الذي يحتمل الدخان الكثيف مدة أطول من غيره، لا يسقط
خلالها مختقا، أو يهرب للهواء طالبا".

واختار الحداد حطب الورد المندي، لأنه يخرج دخانا كثيفا، لكنه غير مؤذ، كما
زعم. فعمد الأمير إلى حديقة الورد الثمين في بساتينه، فاقتلعها، وكس
حطبها في زنانة حجرية أسفل القصر، لا يكاد يدخلها الهواء، وحبس نفسه
مع الحداد فيها، وأشعل النار في الحطب.

والطلق الدخان الكثيف يملأ المكان، وهما يكتفان أنفاسهما بأقصى ما
يستطيعان، ليتجنبا الدخان الحار الكثيف.

ومرة أخرى، بدا أن الحداد سيتتصر. فعمله كحداد جعله معتادا على دخان
الحطب، ونفخ الكير، والحرارة العالية للنار المتأججة.

وازرق وجه الأمير، وهو متشبث بمكانه، حتى كاد يهلك، لكنه تمسك بأقدامه،
لا يريد خسران النزال.

وهنا انهار الحداد فجأة، وطرق على باب الزنانة، يطلب الخروج.

جروب "ربيع الكتب"

وخرج الأمير خلفه، يستشق الهواء من حدائقه الغناء، لا يصدق أنه مازال حيا، ومازال متصرا.

وأحس بثقة لا حدود لها، ورغم إن الحداد لم يعد له أمل في الانتصار، إلا أن الأمير تحمس للسباق التالي: سباق الرأس..

قال الحداد:

"هو سباق للمكر، ويجب أن يكون صعبا لكيينا، فلا ينصرك مالك أو قوه عضلاتك. يجب أن نكون متساوين أمام من نريد غلبته، للفوز بالسباق."

فعاذه الأمير المتعطش للتحديات على هذا، فقال الحداد:

"هناك امرأة بخيلة عجوز، تعيش في سوق المدينة، تبيع الأقمشة، وهي ماهرة جدا، وحادة الطبع، فلا يستطيع أحد أن يفلبها في ثمن بضاعتها، ولو استطاع أحدنا أن يأخذ منها شيئا بأقل من ثمنه، قبل الآخر، فهو الفائز"

فقبل الأمير متحمسا، وأراد الذهاب للسوق، لكن الحداد أوقفه قائلا:

"يا مولاي، ألا تذكر عهدك؟"

قال الأمير:

"بلى أذكره."

قال الحداد:

"لو رأت جندك، لخشيت بطشهم، ولو رأت ملابسك الفاخرة، طمعت في مالك، ولو كشفت عن ذراعيك المفتولتين، صممت رعبا منك."

فقال الأمير متحيرا:

"إذا فعادا أفعل؟"

قال الحداد:

"لا أرى حلا سوى أن ترتدي مثلي، ملابساً رثة ممزقة، وتضع أحد ذراعيك داخل الثوب، فتبدو أكتعا، بيد واحدة، فلا تخشاك، أو تطمع فيك."

وقبل الأمير الشرط على مفض، لكنه التزم بالوفاء بعهده، لم يحاول التملص منه، لأن وعد الحر دين عليه.

٧٠٠ راج الاثنان وحدهما إلى السوق. فذهب لها الحداد أولاً، يسألها عن أسعار
المسبختها نوعاً نوعاً. حتى أصابها السأم، لكنها لم ترض أن تنزل في سعرها،
ولما بلغ إلحاحه مداه، ثارت فيه، لترده مخذولاً.

١٨٠ هدم الأمير. ففعل مثله قليلاً، ثم طلب منها وشاحاً رخيصاً، فلما أحضرت،
الم عليها أن تلفه له، فلما فعلت، تعثر في كومة من الأوشحة الغالية،
فأسقطها، فأخذ يعتذر، ويرفع الأوشحة، يرددها مكانها، وفي غفلة من
السيدة، استبدل وشاحه الذي في اللقافة، بأحد الأوشحة الغالية، ونهض
أمامها حاملاً اللقافة، فسألها عن ثمنها الرخيص، ونقدتها إياه.

ذهب الأمير للحداد فرحاً، وقال لها هو الوشاح، وما أنا غلبتك بذراعي، وقدمي،
وبطني، وصدري، ورأسي أيها الفتى الأحمق، فابتعد عن وجهي أيها
المهزوم.

فقال له الحداد:

"حق لك يا مولاي أن تفرح بانتصار رأسك، وسيذكر الناس حتما نصرك علي
بأشد من أي نصر آخر، مهما طال العمر."

قال الأمير متعجباً، وفخوراً:

"وما يميزه عن غيره من انتصاراتي، وأمجادي؟"

قال الحداد:

"لأن الناس سيتذكرون الأمير جرى في طرقات قصره، كما يفعل الأطفال،
واستبدل طعامه الفاخر بطعام خشن، واقتلع زهوره الغالية، ليحبس نفسه في
السجن معها، ويشعل النار في الحجر، التي يجلس فيها، ثم ارتدى ملابس
الشحاذين، وذهب ليحتال على عجوز مسكينة، فسرق وشاحها كما يفعل أدنا
للصوص!

صمت الأمير مبهوراً، ثم قال:

"إليك عني، خذ الكأس الذهبي، وارجل. فلم يقلبي، ولن يقلبي من هو شر
منك."

فأخذ الحداد الكأس، وذهب به لكبير قلعة الفيلان الأحمر، فتعجب هو ومن
معه، وقالوا:

"لكنك لم تضرع الأمير؟"

قال الحداد:

"صارعته دون خشية، وفزت لكم بالكاس، فماذا تريدون؟"

**نظر كبيرهم بإعجاب إلى الكاس الجميلة، وقد تراقصت نفسه قليلا مع
تلألؤها، فقال لنفسه:**

"ولماذا أرد الكاس؟ ما زال أمامه مهمتين لن ينجزهما."

فقال بصوت عال:

**"قبلنا الكاس يا أغا غول (ساخرا من سؤاله عن أغا القلعة، أول ما أتى لهم،
فصار الحداد معروفا بهذا الاسم الغريب: أغاغول)**

(3-60)

الوادي

واصبح على الحداد، أو اغاغول، ان يعبر وادي الأشباح في ليلة، وزاد من الخوف ان كانت تلك الليلة غير مقمرة.

لكن اغاغول أعد عدته قدر استطاعته. كانت المشكلة انه لا يوجد من عبر الوادي من قبل سليما، لكي يسأله عن الأخطار، التي ستواجهه فيه. لذا قرر انه يجب أن يتأخر خلف شخص ما، حتى يرى ما يناله، قبل ان يتقدم هو.

اعد جملنا كبيرا، ووضع عليه حشوة من قش، على شكل إنسان، كما لو كانت الراكب، وأطلق الجمل امامه، ومضى متسلا خلفه.

لم يمض وقت طويل، حتى بدأت أخطار الوادي تتوالى. كان اول ما صادفه اصوات عجيبة تدوي حوله. تبدو كما لو كانت تنطلق من كل حجر ونبته امامه. صرخات شنيعة مرعبة في البداية، لكنه تشبث بشجاعته، وبذكر عيني عروسه المرتقبة، وعضى. ثم أتت ضحكات قوية، اشهرته بنشوة غريبة، ورغبة في ان يضحك حتى الموت

فاخذ يذكر كل احزان حياته، ووفاة والده، وامه، واحزن القصص والأشعار، واجتاز تلك المنطقة بمشقة كبيرة.

وهنا بدأت اصوات اسوا من سابقتها. اصوات مغرية فاتية، تذيب القلوب، وتؤجج الأهواء، تدعوه لفتن وملذات لا حد لها، وتصور له انها موجودة على جانب الطريق، لكنه إذ كاد يضعف، سد أذنيه وتقدم نحو جملة المضطرب، فقط أذنيه هو الآخر، ليكمل المسير في صمم.

وقطع ثلث الوادي امانا، لكن الثلث الثاني بدأ بداية أكثر إفزاعا. لم تكن هلاك أصوات، بل رؤى شنيعة. كان يمشي مطمئنا. بعد أن حجب عن أذنيه تلك الأصوات المدمرة، فإذا به يرى محبوبته ساقطة على الأرض، وجعله يتقدم بإصرار، فيدهسها.

وأصابه الهلع، إذ رأى الدماء تتدفق منها، وجسدها الغض يتشوه، واندفع مسرعا نحوها، لولا أن ساعده الحظ، فتعثّر في لجام جملة، وسقط أرضا، وحين نهض، وجد أن الجسد المحبوب تلاشى.

ونظر حوله، ليجدها في كل مكان. أشباح، وهوام تطير، وتسير، تصرخ، وتضرب، وتطلب رؤوس أناس لا يعرفهم. لكنه أحس برغبة عارمة في قتلهم، وتمزيقهم. كانت تصرخ بأصوات لا تسمع عبر الأذان، بل عبر القلوب، فلا ينفعه منها حماية، وكانت تتحدث وتتحدث بالحاج، حتى تجذب ذهنه، فتشرده عن الطريق.

أحس أنه يسقط في بئر عميقة بلا قرار، وأنه لا يرغب إلا في الرحيل عن هذا المكان بأي ثمن، وحينما فكر في هذا، وجد من يهمس في أذنه، أو على الأصح لقلبه بأغراء: ولو كان الثمن أبي، وأمي، وعيني محبوبتي.

لكن هذا كان خطأ تلك الهوام الجسيم. فقد أطلقت في عروقه دفقات غضب نارية، أنقذته من الحال الذي كان غارقا فيها، فثبت أقدامه، وتشبث بحبل ربطه في جملة، وخفض أذنه يبعدها عن رؤى الموت، والرعب، والفتن، والملاذات، التي أخذت تتكرر أمامه، إما تدعوه لجانب الطريق، أو تخوفه من الاستمرار فيه.

وبعد زمن مضى عليه كدهر، انتهت تلك الرؤى الشنيعة. لكن بعدها وجد في نفسه وساوسا أخرى تلح عليه.

يرغب في أن يصرخ، أو يرقص، أو يقفز. أحيانا يشعر بخفة، تجعله يظن أنه قادر على الطيران، أو أنه لو قفز وسط الرمال، فسيصبح فيها كما لو كانت بحرا. لكنه تحكم في نفسه، وظل كامنا في اختبائه، يمضي متسلا خلف جملة ذي الحشوة، وأخذ يكرر لنفسه آية الكرسي، والمعوذتين ليقوه تلك الوساوس.

وأخيرا قطع الثلث الثاني من الطريق بسلام.

بدا له ان المكان قد اصبح امنا، وان جملة يمشي في ثقة. واحس براحة كبيرة،
وبدا له هذا الجزء من الوادي متسعا رحبا، بلا مخاطر.

ثم فجأة، تفتت الصخور، وتشققت الأرض حول جملة، واتطلق ضجيج ورعب،
لتلفظ الأرض لهبا حارا لاسعا، لكنه اسود لا ضياء فيه، ونفثت دخانا مقبضا
قاتما، خانقا بأشد من اي دخان رآه الحداد.

وكمن اغاغول مرتعبا خلف صخرة يرقب، فإذا بالأرض تلفظ شياطينا كثيرة
مرعبة، لها قرون كقرون الثيران، وأذئاب كذبول الذئاب، وأقدامها كأقدام
البغال، وأسنانها حادة لامعة كاسنان الأسود، لولا إن أنيابها طويلة، كما لو
كانت مسامير من الصلب، وتشهر مخالبها التي تشبه خناجر قاطعة.

صرخت تلك الشياطين بأصوات قبيحة، وهللت فرحة وهي تدور حول الجمل،
وتصرخ وتعوي قبل أن تنقض عليه، فهجمت أولا على الحشوة القش. فلما
وجدتها ليست بشرا، أشاروا لها بأصابعهم، فإذا بها تشتعل بلسان من لهب
احمر، ثم أسقطوا الجمل المسكين، وانهالوا عليه تمزيقا بمخالبهم وأنيابهم،
وأغاغول يراقبهم في رعب. ثم لاحظ أنهم ينترعون جزء من أطيب الأماكن
في الجمل، فلا يقربوه، وإنما يجمعوه في قدر كبير، كما أتوا بكأس ضخمة
من الحجر، عليه نقش يشبه الحمار، فملأوه بدماء الجمل، ثم حملوه نحو
شيطان كبير، يجلس منتظرا لا يشاركهم عيشهم، فأمسك الشيطان الكبير
بقطعة من اللحم النيء، فمضفها، ثم بصقها وقال:

"ما هذا؟"

قالت باقي الشياطين بصوتها القبيح، الذي يشبه مزيجا من فحيح الثعبان،
وعواء الذئب:

"أطيب لحم الجمل يا مولانا."

قال الشيطان الكبير:

"تبا لهذا، ألا يوجد شيء من لحم البشر اللذيذ؟"

بدت الشياطين مرتجفة، وهي تقول:

"لم نجد مع الجمل بشرا يا مولان، كانت عليه حشوة من قش."

نظر لهم ملكهم المريع هذا بعين غاضبة، فأضاعت بضوء أحمر قوي، سطع على رمال الصحراء، فذابت لتتحول إلى زجاج. ومر به على أجساد أتباعه، فأطلقوا صرخات ألم، قبل أن يخفض عينيه إلى الكاس المملوء بالدم، فيرتشف منه رشفة ويقول:

"وما هذا الدم؟"

قالوا مرتعنين بصوت يشبه صوت البوم:

"دم من دم الجمل! طازج يا ملكنا لم يذقه أحد قبلك!"

مط ملكهم شفثيه وقال:

"لا بأس.. اذهبوا وامر حوا!"

هرعت باقي الشياطين عائدة للجمل، تتهم من لحمه، وتشرب من دمه، وهي تغني غناءً بشعا، فتسلل أعاغول مقتربا، مستغلا انشغالهم هذا.

وهنا، التفت له الملك، وصرخ صرخة شنيعة، اهترت لها صخور الوادي ورماله، فشهر أعاغول سيفه، واندفع يمزق ثلاثة، أو أربعة شياطين من طريقه، متجها نحو الملك.

الشياطين مخلوقة من نار - كما تعرف - فلا تؤذيها السيوف، لكنها إذا تجسدت، وخرجت في صورة البشر، لتؤذيهم أو تقتلهم، فإنها تمتلك بالمقابل الجسد، الذي تؤذيها السيوف والرماح، فتفقد حمايتها النارية. وهكذا اندفع أعاغول بالسيف، الذي أعطاه له كبير القلعة، ليسقط ثلاثة آخرين من حرس الملك، ثم أمسك الملك نفسه، فقبض على عنقه الأسود، المفطى بالشعر الخشن، ووضع سيفه على حلقومه.

ثارت الشياطين وهاجت، وشهرت مخالباها، التي تشبه الخناجر، تبقي تمزيق أعاغول، فضفط بنصل سيفه على ملك الشياطين، حتى جرحه، فخاف الأخير على حياته، فرفع يده نحو أتباعه يأمرهم بالسكون، فصمتوا.

ثم قال الملك:

"يا ابن آدم، قد قطعت علينا جمعنا، وهتكت سترنا، وقتلت من رجالنا. لكنك إذ ارتكبت هذا الجرم، فقد أبليت بلاءً حسنا، وأثبتت شجاعة محمودة، ولذا فعلي:

جروب "ربيع الكتب"

لك إنك إن تمنيت أي أمنية. اجبتها بلمح البصر. اطلقني، ثم تمنى علي، وساحق بلسوني وسحري ما تشاء، وساجعلك أغنى أهل الأرض.

لكن أغاغول رجل حصيف، يعلم أن الشياطين لا تفي بوعودها، ولو أوفت فهذا شر من الآ تفي. لأن أمرهم لا يأتي منه خير قط. حتى لو أعطوه مالا، فسيكون مالا ملعونا. يزيد همومه ولا ينقصها.

لذا فقد قال:

" كلا! لن أتركك أيها الملك، حتى أخرج من الوادي امنا، أو أهلك معك!"

فأخرج الشيطان من معطفه حجرا أصفرا لامعا، وقال:

" تعجبنى رباطة جاشك. ولذا سأزيد المكافأة. خذ هذا الحجر السحري، يا ابن آدم وحقق فيه. لو حدثت فيه بقوة، فسترك كل كنوز الأرض في أماكنها. لتتال منها ما تشاء. لو ألقته نحو عدو لك، فسيقتله هو ومن معه، ويعود لك سالما، ولو وضعته على رأس صديق لك، فسيشفى من أي مرض. لو أمسكت فيه، ونفخت فسترك نوايا من أمامك، وتعرف إن كان يضر لك خيرا أو شرا. هذه هدية ثمينة جدا، وكنز من كنوزنا الأعظم. خذه وجربه، فإني صادق معك. لأنني أفندي به حياتي. أقذفه على أي واحد من هؤلاء، فسيهلك، ويعود لك الحجر سالما، امسحه على رأسك، فستشفى جروحك.

تعلقت عينا أغاغول بالحجر مترددا، وهو يفكر، حتى إنه وجد يده تمتد له، وتمسك به دون أن يتبه. واثناء تحديقته فيه، تراءت لعينيه ألوان وبريق لامع، راودته نفسه أنه لو دفق فيها أكثر، فسيرى جواهر جميلة.

لكنه انتقل بشروده إلى جمال عيني حبيته، وبدت له أجمل من كل الجواهر، فإذا به يراها في الحجر..

وهنا أفاق من السكر، وأدرك إن الأمر لا يعدو مجرد سحر وفتنة، ثم تذكر الآية الكريمة (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ شَيْءًا) فقال لنفسه: ولم الطمع؟ المرض والشفاء والموت والحياة والرزق كلها بأمر الله. نعم علي إن أسعى، ولكن ليس علي إن ألجا للشياطين، فأكون كمن قال الله فيهم (ألم تر إلى الذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكفوا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالا بعيدا)؟

لو أصابني أنا أو أصحابي قضاء، فلن ينفعنا حجر الشياطين، ولو طمعت فسيهلكني الذهب، فضحاياه كثر قبلي.

ورغم إن في نفسه بقية من تردد، وإحساس أنه قد يندم على هذا في المستقبل، لكنه تشبث بعزيمة الإيمان، وألقى بالحجر نحو واحد من الشياطين، بدا له هزيلا عن غيره، وقال له:

"خذ هذا الحجر لك، فلو كان كما قال، لجعلك ملكا على هذا الوادي!"

نظر الشيطان الهزيل فرحا للحجر، وأخذ يحدق فيه، وقد جذبته الألوان والتلألؤ، الذي جذب أنظار أغاغول من قبل، فإذا به ينظر حوله، كأنما هو بالفعل في الذهب والجوهر، وأخذ يبعثر الرمال، كما لو كانت لؤلؤا، وبدا عليه الخيال، قبل أن ينقض عليه شيطان آخر، قتله لينتزع الحجر منه، ثم اندفع عدد كبير منهم يتصارعون عليه.

قال أغاغول:

"إذًا، فهكذا أصبتم بالجنون من ينجو منكم، ويعبر الوادي؟ والله لن أتركك يا ملك الشياطين، حتى أخرج من هنا سالما بإذن الله."

وأخذ يدفع الملك أمامه خطوة بخطوة، والشياطين الأخرى تتبعه عاجزة، حتى وصل لنهاية الوادي، فوقفت جميعا عاجزة، وبدا الذعر في وجه وصوت الملك المذعور، وهو يقول:

"ألا يكفي هذا؟"

قال أغاغول بصرامة:

"تقدم."

قال الملك:

"أتوسل إليك، لو إنني تقدمت، فسأهلك معك، أنت تريد الاستمرار، هذا شأنك، لكن يوجد في نهاية الوادي وحش شرير مريع، لا ينجو منه إنس أو جن، أو شيطان، حاول أن تقتله أنت، أو تهرب منه كما تشاء، لكننا نحن الشياطين لا نقدر على ذلك."

فكر أغاغول قليلا، ثم قال للشياطين الأخرى، التي تتبعه: ارجعوا أتم وابتعدوا.

أسرعوا يهربون، كأنما نار الجحيم تطاردهم، ولما غابوا عن نظره، أطلق
«الملك الشياطين، الذي أسرع يعدو هاربا هو الآخر، ثم توقف وهتف:

«أبها الأنسي الشجاع! اضرب الوحش في عينيه، إذا اقترب منك.. وجهه، فهذا
سبيل نجاتك.»

لم أسرع يكمل عدوه نحو الجهة الأخرى من الوادي، فاندفع أغاغول بدوره
بهذه نحو النهاية.

وهنا وجد شجرة كبيرة جدا تسد الطريق، فتقدم زاحفا، يحاول أن يمر من
أسفلها، فإذا به يجد إنها ليست شجرة.

كانت لحية مارد مهول، نائم على فم الوادي.

لهض المارد العملاق، لترتفع رأسه لعنان السماء، قدمه في حجم أضخم
الأشجار، التي رآها أغاغول في حياته، أو أكبر. ويمسك بعصا غليظة، بدت
لأغاغول في طول سارية مركب، من أضخم سفن أسطول الملك.

ثم أحنى العملاق رأسه، لينظر بوجهه القبيح لأغاغول، ويقول:

«من هنا؟»

قال أغاغول، وجسده يهتز من دوي صوت المارد:

«السلام عليكم. أنا حداد بسيط، كنت أعبر الوادي، فطاردتني الشياطين،
وهربت منهم. أرجو أن تسمح لي يا سيدي بالعبور.»

هنا انحنى المارد، حتى أصبحت أنفه ملاصقة للأرض، ليحدق بعينيه في أغاغول،
الذي فكر إنه لو أطلق سيفه الآن، فسيغمي عيني العملاق، كما نصحه ملك
الشياطين، ثم يستطيع التسلل من بين يديه، وينجو مبتعدا.

لكنه عاد، وفكر كم في هذا من ظلم. لقد انتظر العملاق حتى يثبت من أمره،
ويعرف من هو، وتذكر الآية الكريمة (إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا) وعيب
عليه إن ابتدر بالهجوم، قبل أن يتبين أمر العملاق، حتى لو كان ثمن المخاطرة
شديدا.

تشمم المارد رائحة أغاغول بقوة، حتى إن الأخير أحس أن شهيقه سيجذبه
لأعماق صدر المارد.

ثم قال المارد:

"راحتك كالبشر، لكن البشر لا يحاولون عبور هذا الوادي ليلاً"

قال أغاغول:

"اضطرت لهذا. كان وعدا قطعته على نفسي، وأنت يا سيدي الكريم خير من يعرف أن وعد الحر دين عليه."

هز المارد رأسه موافقا، ثم قال:

"لكن القلة، التي رأيتها من البشر، تعبر الوادي في النهار، كانوا لا يصلون إليّ إلا مجانين مساكين، وأنت تحتفظ بعقلك."

قال أغاغول وهو يتحفز بسيفه - لأنه، حتى وإن بدا المارد ودودا، فإن الحذر ينفع ولا يضر:-

"أغروني بالذهب ليذهب عقلي، لكني فطنت أنه لا نفع في شيء يأتي من الشياطين."

فضحك المارد ضحكة شنيعة، دفع زفيرها أغاغول للخلف، وقال:

"هذا صحيح. ليقتي كنت في فطنتك. أول مرة أتيت فيها لهذا الوادي منذ ثلاثمائة عام، تقربوا لي وتوددوا، وأهدوني حذاءً. لعلك تدرك مدى عظم تلك الهدية عندما معشر المردة. فليس من السهل على من في مثل حجمي أن يجد حذاءً يناسبه، ولا على من يملك يدين غليظتين كيديّ أن يصنع واحداً. لكن ما إن ارتديت الحذاء، حتى اكتشفت أنه مسحور ملعون. لو خطوت به خطوة، فإنه لا يتوقف أبداً، حتى ابتعد عن أرضهم، ولو وقفت به خارج حدودها، فإنه يتوقف أبداً، ولا يتحرك، ويتشبث بقدمي لا يريد أن يخلع. أخذ الأمر مني خمسين عاماً، لكي أستطيع العودة للوادي، سائرا مقلوبا على يديّ، لأقف على فمه، فأحبسهم فيه، وأدفع أذاهم عن باقي الناس، رغم إن سحر الحذاء اللعين يمنعني من أن أقتحم لأرضهم."

ثم نهض العملاق مرة أخرى، وقال:

"حسنا يا ابن آدم. أنت ضيفي اليوم. سأطعمك غذاءً لم تذوق مثله أبداً، فأنا خير من يطهو جذور الكافور. ليس كل يوم أقابل شجاعا من الأنس، غلب الشياطين."

قال أغاغل:

"أشكرك سيدي لدعوتك الكريمة، ولكني ملزم بههدي أن أخرج من هذا الوادي قبل طلوع الفجر. يمكنني أن آتي لك وأزورك، وأحاول أن أفك عنك قيدك المسحور في وقت لاحق."

ابتسم العملاق قائلاً:

"لا أظن أنك ستعود لي يا عزيزي."

قال أغاغل:

"ولم لا يا سيدي؟ سأتي من هذه النهاية للوادي، لأزورك مباشرة دون المرور بباقي أخطاره."

قال العملاق:

"لن ينفك هذا. أنا دوما في نهاية الوادي. لو أتيت من تلك الجهة، فستمر بكل ما مررت به الآن، بنفس الترتيب، فهذا ليس واديا عاديا. لافارق بين هذا المدخل، أو ذاك. ولهذا فائدة، فهكذا استطعت حبس الشياطين فيه لا يخرجون منه."

شعر أغاغل بالحرج، ثم قال لنفسه: "لو أردت أن انضم للفيلان الحمر، الذين يرفعون الشجاعة فوق أي شيء آخر، فلن أفعل إن جئت عن زيارة هذا المارد الطيب."

فقال للمارد:

"أعدك يا سيدي أنني إن نجحت في مهمتي، ونجوت من ثعبان السموم، فسأتي لزيارتك مرة أخرى."

ابتسم العملاق ابتسامته الشنيعة، وقال:

"تفضل بالعبور أمانا بإذن الله، وأنا في انتظار عودتك. أدعو لك بالنجاح في مهمتك."

وهكذا عبر أغاغل الوادي قبل الفجر بقليل، ليقابل جماعة الفيلان تنتظره في ملل، لكنهم ذهلوا، وصرخوا مبهورين، إذ وجدوه قد خرج منه أمانا.

حينها قال كبير الفيلان:

"لا حاجة لنا بالمزيد من الاختبارات. أنت يا بني من خير الفيلان الحمر."

فقال أغاغول:

"وعدتك بقتل ثعبان السموم، وسأفي بوعدتي."

قال كبير القلعة:

"أنت في حل من وعدك."

قال أغاغول:

"وعد الحر دين عليه، ووعد الفول الأحمر سيف مسلط على رقبتة. لا يجب أن يرجعه عنه أسوأ الأخطار."

كما ترى فإن أغاغول قد تغير بعد هذه التجربة، وأصبح محبا لمواجهة الأخطار، وأكثر عزيمة في مواجهتها. كان يشعر أن مواجهة ثعبان السموم أمر واجب، عليه ألا يتخاذل فيه، كما لو كان بينهما ثار شخصي.

فرحل نحو الصحراء، التي يعيش فيها الثعبان، وكبير القلعة يتأسف عليه، ويتحسر على ضياع مثل هذا الفول الممتاز. وإن كان ما يهون الأمر، إنه قد حقق هدفه، وأصبح فعلا من الفيلان الحمر، قبل أن يموت."

* * *

(4-60)

ثعبان السموم

وارتدى أغاغول ثياب الفيلان، ودروعهم الحمراء المنقوشة. وحمل سيفه الفتاك، نحو تلك الصحراء، باحثاً عنه.

في البداية، وجد دروبا ومدقات عريضة، يسهل المشي فيها، فاتخذها له طريقاً أثناء بحثه. ثم عثر على بركة من ماء وسط الطريق، فانحنى ليشرب منها، ثم تراجع، إذ أدرك أن هذا الماء يلمع تحت ضوء الشمس، بأشد من الماء العادي. ونظر حوله متحيراً، وفجأة قفزت الحقيقةً لذهنه.. هو ليس في طريق معبد، بل هذه آثار زحف الثعبان العملاق، وهذه ليست بركة مياه، بل هي بركة من لعاب الثعبان المسموم، ولو كان مسه يده لقتله.

إذا، فهذا الثعبان الماكر يعد كماننا لفرائسه.

غمس أغاغول سيفه في بركة السم، ليزيد فتكه، ثم تقدم زاحفاً بحذر، متتبعا الآثار ليرى الثعبان.

وليته لم يره! كان ضخماً حقاً، بأضعاف ما تتناقله الأساطير. لم يتصور وجود شيء في العالم بهذا الحجم المخيف! وأخذ يفكر من أي جهة يهجم، لينال منه؟

لو إنه تسلل من الخلف، فسيمزقه الذيل العظيم إربا، ولو التفت من أحد الجانبين، فسيهتصره الجسد الجبار اعتصاراً، ولو حاول الزحف من أسفل،

فسيقتله الثقل المخيف.

وطبعا من الامام. هناك الراس الفتاك. بانياه القاتلة. التي تفيض سما!
اينتظر نومه؟ لكن كما تعلم. فان نوم الثعابين مخادع. وبالذات تلك العماليق.
التي تدرك انها لن تفاجئ فرائسها ابدا. فتبدو لها خاملة. عليها تخدعها.. نوم
الثعبان مساو لغدر الثعبان.

كان امامه الراس العظيم مباشرة. بالفكين الضخمين. الذين لو فتحا. لبدوا
كباب كهف كبير. والنايين اللامعين ينذران بالدمار لكل من يواجههما.
والعينان البراقتان. اللتان يقال انهما تصيبان من يتاملهما بنوم غاشم.

وأدرك أغاغول أنه لو أراد أن يصل لمقتل الثعبان. فلن ينفعه مراوغة أو مناورة.
الهجوم المباشر هو الحل الوحيد. الذي به نفع. رغم إنه الأشد خطرا بين باقي
الحلول. ولكن منذ متى كانت الفيضان الحمر تلقي بالا للأخطار. وأنت طبعا خير
من يعلم هذا؟

الدفع صارخا نحو الثعبان. الذي تجهد للحظة مدهوشا من أمر لم ير له مثيلا
من قبل. ثم فتح فكيه مهنيا نفسه بلحم البشر. واندفع بدوره كالطوفان. نحو
هذه الفريسة السائفة. وهجم أغاغول مسرعا. فقفز بين فكي الثعبان إلى
قلب فمه!

وحاذر أن تخدمه الأنياب السامة. وتجاوز الأسنان القاطعة. محتميا بدروعه
الحمراء. حتى لا يمسه اللعاب المسموم. وما أن أصبح مستقرا في فم
الوحش. أسرع مسابقا الوقت. قبل أن يتلعه. بطعنه بكل قوة.

طعنة تلو الطعنة. يشق الطريق لدماء الثعبان

وتدفقت الدماء تفرم المكان كالفيضان. وتدفق سم الثعبان ليسري في
دمائه. فصرخ الثعبان متألما. وقذف بها في فمه. ملقيا أغاغول الفارق في دماء
الثعبان. ثم ارتفع الجسد الممهول لأعلى وهو يرتجف. قبل أن يهوى خاشعا
فوق أغاغول. الذي قفز متجنبيا الثقل العظيم في آخر لحظة. وارتعش جسد
الوحش رعشة أخيرة. وانتفض التفاضة عظيمة. قذفت بأغاغول هاكوام من
الرمال بعيدا. قبل أن يهدم للأبد.

المنتهى

وأخيرا نهض أغاغول حاملا سيفه، فنظف جسده مما علق به بسرعة، حتى لا يصيبه السم. ثم اندفع بسيفه، وفأس قوي، فكسر فم الثعبان، واتترع أحد النابين، ونظفه من السم، وذهب به إلى الفيلان دليلا على نجاحه.

فرح به الفيلان كثيرا، وفرح أهل المدينة وما حولها من القرى بهلاك الثعبان الشرير، وأتاه شيخ بلدته فرحا، مقبلا بالعروس. وفرح أغاغول كثيرا، لكنه طلب تأجيل الزفاف شهرين كاملين، لأن عنده وعدا قطعه على نفسه في وادي الأشباح، وعليه أن يفي به.

وتركهم، ورحل نحو الوادي. لا أحد يعلم ماذا فعل في هذين الشهرين، لكن يقال إنه شق طريقه بسيفه الفتاك بين الشياطين، فأشبعهم قتلا. وعاش لفترة مع المارد الطيب، وأهداه الناب الثاني للثعبان، وفرح بتلك الهدية كثيرة، وقاده في زيارة لعدة بلدان وأماكن عجيبة، ومرا بمغامرات يشيب لها الولدان، قبل أن يعود ظافرا للمدينة، فنصبه الفيلان كبيرا على قلعته، وتزوج من محبوبته قلبه، وعاش معهما في سعادة لآخر الدهر.

(61)

حديث مع نفس تموت

اتم ولي العهد حكايته، التي يبدو انه اطلال فيها تلكوا عن اتخاذ قرار مخيف. لكن اعترف إنها كانت مسلية، ازلت بعض التوتر الذي كنا نحسه، ومن ناحية اخرى، فكلها بقي الجنود مدة اطول على مشارف جيش الأسود، فربما اعتادوا مشهده، وبدا اقل وحشة في عيونهم!

اخذ يشرح لنا خطته. لم يكن يرى اماننا الا المجازفة بالاندفاع في خط مستقيم نحو القلعة، محاولين شق طريقنا بالقوة، والمفاجأة، وسط معسكر الأسود. علينا ان نخرق الصفوف الاولى للفرسان بسرعة، وبعدها سنمضي كالإعصار، وسط بحر المشاة هذا، لنصل إلى كتائب السور العلي، ومجانيقها، فلدمرها، ونعتصم بالقلعة مع من فيها، إن بقي ملا ناجون!

كنا ندرك ان الخطة ستبوء بالفشل. فحتما سيصمد اماننا المشاة، بها يكفي لإطباق حصار الفرسان علينا. وحتى لو نجحنا، فإلنا لا ندري هل في القلعة من مؤن تكفينا مع المحاصرين مدة طويلة؟ وهل أسوارها تستطيع الصمود بعد ما أصابها؟

قلنا مخاوفنا بصراحة، لكن كان البديان الوحيدان، إما ان نقف متفرجين على إعدام الملك تيمور، أو ان ننزل لجيش الأسود المستعد في قتال عادي، نهلك فيه عن آخرنا بسهولة تامة!

وقال وكيع، مؤيدا تلك الخطة المجنونة:

°أفضل لنا أن نلقي بأنفسنا وسط مشاتهم. عن أن نحاول الالتفاف حولهم. فهناك فرسانا فرسانهم. يكفينا ما ذقناه من أهوال من أولئك الفرسان في واحة ساوة. فهم كالشياطين حقا!"

هنا تدخل جابر معترضا لأول مرة. فقال:

°حيثما تذهبون فإنا ذاهبون. ولكن أقمعوا الجنود إنكم لا تلقون بهم إلى التهلكة."

قال ولي العهد، مستعيدا رباطة جأشه وفطنته:

°علينا أن نأخذ فقط صفوة جنودنا. وأشدهم فنجعلهم في المقدمة. وسأخذ الفرسان وأسرع الهجن فحسب. ونترك المشاة والبقية خلفنا فالسرعة أهم ما في المعركة. من لا يجيد القتال فوق دابته. عليه أن يتركها لغيره. جلبنا معنا عددا لا بأس به من الخيول من ساوة. لحمل الأثقال فعلينا أن نحررها. ونحولها لخيول قتال جميعا. من يجيدون الرمي أفضل من غيرهم. ستركهم هنا فوق التبة. يحمون ظهورنا. حتى يشتتوا هجمات الفرسان المضادة علينا. أهم شيء هو أن تتجاوز صفوف الفرسان سريعا. لنندفع بأقصى سرعة وسط المشاة. قبل أن تلحقنا بقية فرسانهم. الأسود لا يتصور أننا سنهاجمه. على الأقل مباشرة. فقد ترك معسكره كما هو. لم ينظم صفوف مشاته. لذا فالهجمة ستكون مباغتة. دون إعداد أو تنظيم صفوفنا. حتى لا يتبهما لاستعدادنا للهجوم. فتنظم صفوفهم في مواجهتنا. أملنا الوحيد هو السرعة العاتية، والمباغته الكاملة."

قلت:

°لكن قوتنا الضاربة حقا هي الفيلان الحمر. وجلهم من المشاة الذين يقاتلون بالرمح الطويلة."

قال ولي العهد:

°أقوى ما في الفيلان هي الرهبة. التي يقذفونها في قلوب العدو. وبالطبع إلى جوار مصيب الفولي خاصتك! سنلجأ لحيلة قديمة. كما فعل المماليك قديما بالأهبال. اليوم نحتاج أن نكون جميعا في شجاعة الفيلان الحمر. الذين لا يخافون شيئا. ولا يهابون أحدا. سيتخلى الفيلان عن دروعهم الحمراء لفرساننا. ومن يستطيع منهم القتال من فوق فرس أو ناقة فيها ونعمت. قد

جروب " ربيع الكتب " .

يحمل الجمل القوي اثنين، أو ثلاثة مقاتلين، ولو إن هذا سييطله. لذا فسناخذ منهم قدر ما نستطيع، والبقية يتخلون عن الدروع الحمراء لزملائهم."

قال وكيع:

"وماذا عن المشاة؟"

قال ولي العهد:

"يتحصنون هنا في التبة، يحمون ظهورنا ورماتنا، حتى إذا ما أصبحنا بعيدا عن حماية سهام الرماة، ينسحبون إلى واحة ساوة. وستكون أنت على رأسهم يا وكيع."

نظر وكيع له بفضب الشباب المتحمس، وقال:

"لن أتأخر عن الحرب معكم أبدا. فهذا يوم ثاري الكبير."

قال ولي العهد بصرامة:

"أنت أخبر قادتي، وأقدرهم على إبعاد هؤلاء المساكين عن بطش الأسود، ولك سلطان على الثغر الكبير، فيمكنك أن تحصن بها معهم إن سارت الأمور على غير ما نحب، فحفظها على الأقل من غارة أخرى للفرنجة. ولربما استطعت أن تجمع بعض الحلفاء من أمراء المماليك، يشفعوا للمقهورين عند الأسود!"

نظر وكيع بعناد، حتى ظننت أنه سيرد بقسوة، لكنه تراجع فجأة، وقبل أمر ولي العهد.

فقلت:

"وماذا عنك يا مولاي؟ ألا ترجع أنت إلى ساوة؟ فلو أصابك مكروه، لا قدر الله، فقد....."

قاطعني بصرامة:

"أعلم أنكم بايعتموني وليا للعهد، لكن لو قتل الملك ومعه أمي اليوم، فخير لي وللبلاد أن الحق بهما. ليحسم الأمر الآن في معركتنا هذه، سواء بالظفر أو الخسران، لكني لن أشعل حربا طويلة ضد الأسود، مطالبا بملك خرب مزعوم. إما أن تتوحد بلادكم اليوم على يدنا، أو على يد الأسود، ويكفينا أننا

جروب "ربيع الكتب"

رددوا الفرنجة والأهبال، عسى الأسود - وقد امتلك هذا الجيش العظيم - ألا يحتاج لهم مرة أخرى."

كانت خطة معقدة، ومربكة، وتحتاج إلى سرعة إعداد للجنود. فخرجنا لأمر المسكر بجمع الخيول، وأسرع الهجن والفيلان بخلع دروعهم. نظرت بقلق، بينما الاضطراب يعم صفوفنا، نحو البحر الأسود من أسفلنا. فطمأنتي ولي العهد:

"سيظنون أننا نعد للاتسحاب. الأسود سيتصور أنني سأعلن نفسي ملكا، وأخوض ضده جولة أخرى يائسة في مكان آخر، حينما يلمح صفوفنا ترتبك وتراجع. اطمئن، فيأذن الله لن يفهم أننا نعد للهجوم."

في الحقيقة، حتى جندنا تصوروا أننا نعد للرحيل، خاصة حينما حملنا كل فارس وهجان بالقليل من المؤن، ننوي أن ندعم بها القلعة المحاصرة، لكنها بدت كما لو كانت تهد للرحيل! وقد ساعدنا هطول المطر على هذا التضييل، وبدا أنه أثار ضيقا في صفوف مشاة الأسود. وعندما اكتمل أغلب الإعداد، وتجهز الفرسان في الخلف، والرماة على قمة التبة، كما أمر ولي العهد، ليبدو الأمر انسحابا لا هجوما، قال ولي العهد لي:

"خاطب الجنود، وأثر حماسهم قليلا."

قلت: .

"أنت القائد وهذا واجبك."

ابتسم ابتسامة شاحبة، وقال:

"أنا غريب من طرابل! هم يعرفون أنك منهم، وأنت أخبر بأحوالهم مني، كما إنني أكره أن أقف تحت المطر لأخطب!"

خرجت للناس لا أدري ما أقول، أخذت أفكر فيم ادعوههم إليه؟ اهتف بهم قائلا: "اليوم يوم الحسم إما النصر والرخاء أو الهزيمة والدمار؟" وما أدراني بالمستقبل؟ النصر يحتاج بعده لكفاح، كما سيرفون وهم ينصتون لي.

وقفت على قمة التبة بين الرماة، مشغول الذهن في خطبتي القادمة، فانتبهت فجأة أن الجنود قد تعلقت بي عيونهم، وقد أدركوا أنني سأخبرهم بما اتتويينا عليه.

وجدت نفسي اهتف:

"اللهم انصرنا على القوم الظالمين."

رددوا وراي:

"آمين."

أكملت الدعاء، وقد وجدت فيه نجاتي:

"اللهم إنا على الحق، أتينا لنصرة المظلوم، فاللهم نصرك الذي وعدت."

"آمين."

"اللهم إن كان الأسود أعد جيشا كبيرا، فالله أكبر"

"الله أكبر"

أدركتني جلالة ما، فهفت نفسي للمزيد من الدعاء والتوبة. اللجوء للمغيث، الذي قال (اذغوني استجب لكم) فهو القريب سميع الدعاء.

"أقوة الأسود كبيرة؟ أليس الله أكبر؟ هل تخشون جنده؟ فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين. ووالله إنهم ليخشونكم. أما تدرون أن ما عندكم ينفد، وما عند الله باق؟ أما تعلمون أن النصر بيد الله، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بأمر الله؟ ما دمتم على الحق فلا تخشوا شيئا. ادعوا الله أن ينصركم. اليوم يوم الفصل، إما أن يحكم علينا بالقهر والذلة والخراب على يد الأسود، أو ندفع الظلم. فالله لا يغير ما بقوم، حتى يغيروا ما بأنفسهم. ويجب أن يدفع الناس بعضهم بعضا طلبا للعدل، لكي تنزل رحمة السماء. فادعوا الله أن ينصركم، ويثبت أقدامكم."

"آمين."

أحسست بسكينة غريبة أشبه بالخدر. خدر عجيب لم يخدر قلبي وأحاسيسي جميعا، وإنما اتقى ببراعة الخوف، والفضب، والحقد، والقلق، والندم، والظما، والتعب فأطفا هذا كله، بينما زاد من العزيمة، والإصرار، وصفاء الذهن، حتى أحسست أنني أرى كل شيء بوضوح، كأنما أرى ما أمامي، وما يخفى عني أيضا! أتكون هذه أعراض تصيب من يوقنون بالشهادة؟

قلت للرجال:

جروب " ربيع الكتب " .

fb.com/groups/exchange.book

"هلاكم أت لا محالة. فماذا بعده؟ وماذا أعددتم ليوم الرحيل؟ إما جنة، أو نار موقدة تطلع على الأفلاة. ستحاسبون على حربكم هذه، ولن تسألوا أهزمتم أم انتصرتم، وإنما سيكون الحساب: لماذا قاتلتهم؟ وكيف قاتلتهم؟ وهل اخلصتم؟ جنود الأسود ستكون إجابتهم: إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا، فاضلونا السبيل. تبعوهم طمعا في مال وسلطان، وقاتلوا بحمية الجاهلية، مفلقين قلوبهم عن الحق والإيمان.

فماذا ستكون إجابتكم أتم، يا من تجاهدون في سبيل الله والوطن؟ والله إلكم لغالبون، حتى لو هزمتم! إن الله وعد المؤمنين بالنصر، ولو كان أمام كل مائة منهم ألفا "إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا".

قد نقتل عن آخرنا اليوم. دعوني أكون صادقا في ساعاتي الأخيرة! لكن في الانتظار، وراء الموت جنة. ولأولادنا فخر وعزة.. حتى لو هزمتنا، سيعلم الطفلة أن لحمنا مر، فسيخشون أبناءنا من بعدنا، ويكفوا عنهم أيديهم. فلنطلب الموت، لتوهب لنا ولمن خلفنا الحياة. وليطلبوا هم الحياة، فجهنم لا تشبع حطبا!

أوسنهلك؟ أقول لكم على الأرجح نعم! ولكن العدل سيبقى، طالما بقيت هناك سيوف مرفوعة في سبيله،

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ)

هذا كلام العلي العظيم، وقد أكرمنا بقوله تعالى:

(وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ)

فال سبحانه (بعضهم ببعض). يجب أن ندفع الظلم بأيدينا، ليدفعه الله عنا، ولو تخاذلنا فلن يرفع الظلم والظلميان عنكم، وعن أبنائكم وأبناء أبنائكم! لو جاهدتم اليوم، فالنصر آت، سواء اليوم أو الغد، فهذه سنة الله في خلقه.. أما لو تخاذلتكم، فلن ترفع عنكم سيوف الأهبال والفرنجة، حتى ترتوي. وهي لا ترتوي من دمنا أبدا!

ادعوا الله، أن ينجيكم ويغيثكم

قالوا بصوت عال:

"والله إنها دعوة لا تتفع أبدا! فدعوة المتخاذل لا تتفع! إلا لو أتت من قلب مجاهد، فإنها تشق السماوات السبع، لا يحجزها عن الله حجاب. حساب الله لكم، ورضاه عنكم سيكون عن قتالكم، وليس عن نصركم، فلا تياسوا من رحمة الله إن رأيتم بحرا أسودا يفيض ظلمات على سفيتكم، فإنها منجيتكم بأمر الله، اللهم هل بلغت، اللهم فاشهد."

تركتمهم بحثا عن جوادِي، فقابلت ولي العهد محمر الوجه، وهو يقول لي:

"أهذه هي الكلمة التي تحمسهم بها!"

لم أرد، وتركته يخطب في الجند، يثير حميتهم، ويوقد صدورهم.

لا أعلم لماذا غشيني هذا السكون، كأنما كل غضبي وحنقي وحماسي وخوفي وفزعي و.. و.. وكل مشاعري غرقت في بحر عميق. لا لم تفرق، وإنما تسبح في بركة هادئة تفسلها وتمذبها.

لم أفهم ما يحدث في، لكني لم أهتم إلا بإلقاء نفسي وسط السيوف، لنيل الحق! كم بدت الغاليات رخيصة لي الآن، وكم ثمنت لدي رقائق! بدا أن تمني لي للحياة وما فيها قد تغير تماما، بل قلب رأسا على عقب.

ربما كانت السكينة التي ينزلها الله على المؤمنين، أو إن نفسي، التي تصبو إليها، أو هممتي بذلك؟ وربما كان الاستسلام للمصير المحتوم، رفضا للاستسلام للحكم البغيض، بعد طول صراع أرهقني. ومزق عقلي؟

اليوم يحسم الصراع، الذي أهمني طويلا، فلم تهمني نتيجته! هل حقا لم أعد أخشى شيئا؟ بل أخشى فقط ألا أظل على نفس القدم الواثقة التي كنت عليها.. أخشى أن أهرب، أو أخذل نفسي، فأضيع كل ما فعلت. أخشى أن أكون كذبت على نفسي، فخدعتها بالشجاعة والمرورة والسعي للجهاد، بينما الحقيقة جبن، سيظهر عندما تجلي السيوف الحقائق!

حتما هي النهاية، فهل أستسلم لها استسلاما شريفا بلا مراوغة لا تجدي؟ نهاجم بقلة كثرة كثيرة متحصنة، فهل أثبت في المعركة، أم تراودني نفسي؟

لم أكن أشعر بالخوف من القتال إطلاقاً.

لكني ويا للعجب، كنت مرتعباً من الخوف ذاته! مرتجفاً من أن يأتيني عند النهاية، فتكون الخاتمة على غير ما أشتهي. خائفاً من أن أكتشف في نفسي غير ما كنت أظن، ويتضح لي زيف إخلاصي وعملي.

سمعت أن الموت إذا أتى الصالحين، كان ضيفاً خفيفاً، يستقبلوه بقلوب مطمئنة.

أترك قلبي مطمئناً؟ أكون من الصالحين حقاً؟

لم تلاشت تلك الأفكار من ذهني بغير اهتمام، يبدو أنه قبل الموت لا يهتم المرء بشيء، ولا حتى الموت ذاته أو ما بعده.

حينما ركبت فرسي، واندفعنا وسط المطر الغزير، أحسست أنني لا أعرف في هذا العالم إلا حقيقتين، أنني أريد من سيفي قوة الضربة، ومن قلبي ثبات في المكان!

* * *

(62)

معركة ساوة الكبرى

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

لم نستفرق الكثير من الوقت في تنظيم الصفوف . كان اغلب من يجيد الركوب على دابته بالفعل، وأغلب الرماة قد اعتلوا قمة التبة. منذ استولينا عليها. وضعنا قدر ما نستطيع من الفيلان. إما رديفا خلف الإبل، أو على الخيول التي تجر المؤن. والباقون خلفوا دروعهم للفرسان. وقسمنا الجيش ثلاثة أقسام

الجزء الأول بقيادة ولي العهد. ومعه الأبطال والفرسان والعجن الأسرع. سيمضي حتى يصل للقلعة. والثاني هو المشاة والرماة. بقيادة وكيع. سيقومون فوق التلة. والثالث هم باقي الهجاة. مع من اركبناهم الدواب البطيئة كالبغال. سيشاركون الهجوم في بدايته مع بعض المشاة. لشق صفوف الفرسان الخارجية، وحماية ظهر المهاجمين. ثم ينسحبون. بقيادة وكيع. إلى التبة.

تجمعنا خلف الصفوف. وإذا بأحد الرجال يهتف أن هناك حركة وقلقا بين فرسان الأسود. فأشار ولي العهد بسيفه للهجوم. وصحنا معا صيحة مزلزلة:

"الله أكبر"

نزلنا مع المطر سيلا عرما. منحدرين ومطبخين بكل ما اعترض طريقنا. انطلقت السهام والحرايب والرماح مفسحة لنا ثغرة وسط فرسان الأسود. الذين أثقلتهم الجراح والأمطار. إنهار سد هم الأول. من خمسة صفوف أو ستة.

جروب " ربيع الكتب "

امام سيوفنا وهجومنا المباغت، واشتبكنا فوراً مع سدھم الثاني، نريد تفتيته،
فشاغلتهم الكتيبة الثالثة من جيشنا من الركاب الثقيلين، لنندفع أخيراً نحو
المشاة.

بدأ هجومنا مباغتاً تماماً لفرسان الأسود، لعلمهم توقعوا أن نتظر توقف
المطر، أو أن نهاجم جوانبهم لا قلبهم، فكان هذا الهجوم الانتحاري، بدايته،
لصالحنا.

سقط فرسان الأسود سريعاً في الاشتباك. كنا في مكان الالتحام أكثرية
لتمتع بقطاع من رماة السهام والحرايب، فاختلفت صفوف السد الثاني، وتشتتوا
متقهقرين يميناً ويساراً، منحازين لباقي فرسانهم، الذين يتكلمون محاولين
الانقراض على جانبنا، رغم دعوات ضباطهم اليائسين بالثبات.

أدرك ولي العهد خطورة الموقف، فهتف ثانية:

"الله أكبر. إلى القلعة."

تركنا مؤخرتنا تشغل الفرسان والمشاة عن فتحة الثغرة، واندفعنا نلقي
بأنفسنا في بحر يموج من مشاة الأسود.

وكانت المفاجأة ساحقة!

ما إن تجاوزنا فرقتي الفرسان، وجدنا طريقاً ممهداً سهلاً! المشاة المصفوفة
تهرب من وجوهنا، وهم ألوف مؤلفة! يصرخون فزعين، ملقين بأسلحتهم
أرضاً، في مشهد لم أسمع له مثيلاً في حكايات الحروب! لو وقف في وجهنا
عشرهم، لأهلكونا لكنهم ينطلقون، لا ينفون إلا الفرار من المكان كله!

وهنا حاول المشاة الهارين في فرعة عظيمة، واضطراب، وفوضى، بلا مثيل
أن يخرقوا حلقة الفرسان المحيطة بهم، ليهربوا مفسحين لنا الميدان حتى
القلعة! وإذا بفرسان الأسود يتركوننا، لينهالوا على مشاتهم قتلاً وتذيحاً،
ليعيدوهم للصفوف دون جدوى!

لم يعترضنا إلا الصراخ والعيول، حتى إن وكيع انتهزها فرصة، فأخذ باقي
الجيش والرماة، ونزل مخترقاً الصفوف، يلحق بنا، بينما القتال تحول إلى صيد
من فرسان الأسود لمشاته، تاركيننا في حالنا!!!!

ليست هذه بهركة، إذا ما نسينا قتال صفوف الفرسان الأولى. كأنما ألقى الله رعبا أعمى في قلوب مشاة العدو منا، فاتقلب الحال خلطا في خليط!

أخيرا وصلنا للقلعة، فاعترضنا في البداية بعضا من كتائب الأسود الأقدم المخلصة له، لكنه -على ما يبدو- أمرها بالانسحاب، بعد اشتباك قصير. ولا أومه، فترتيب صفوفه أصبح شغله الأعظم.

وصلنا ننهب الأرض نهبا لجنود السور العلي، وسلاحهم ومجانيقهم، فهاجمناهم بأقصى قوة، نريد تدميرهم قبل أن ينقلب علينا الأسود. لكنهم اصطفوا في صفوف منتظمة، كأنما هي بنيان حجر لا فرق بشر، وتراجعوا منتظمين، لا تتألم أسلحتنا رغم إن عددهم أقل منا، واستطاعوا بحماية بعضهم بعضا الانسحاب بأمان بعيدا عنا، دون أن يفقدوا الكثير، بل حتى دون أن نحطم ربع مجانيقهم، التي كانت هدفنا الأصلي!

وأخيرا بدأت الفشاة تتفشع، وأسرع الأسود ينظم فرسانه، بعد أن أجبرهم على التخلي عن المشاة، وذبحهم. أشهد له بالحنكة وقوة الشكيمة، فمن يرى الفوضى التي كان عليها جيشه، لا يصدق أنه استعاد نظامه بهذه السرعة.

كان معه قرابة الثماتين ألف فارس بارع، بينما كل جيشنا بالمشاة ربما لا يزيد عن ثلاثين أو أربعين ألف، بمن فيهم من تحصنوا بالقلعة.

وهنا أخذت المبادرة، فهتفت للفيلان أن يتقدموا الصفوف. وقلت لولي العهد:

"ادخل برجالك إلى القلعة فوراً."

قال لي بقلق:

"لو فعلنا، وفتحت القلعة أبوابها لنا، فستكون فرصة ذهبية ليدهموها وراءنا."

قلت:

"لهذا يتربص محيطنا بنا، ولم يبادرنا بالهجوم.. فالماكر يريد منحنا فرصة لدخول القلعة، لكني مع الفيلان سنبقى أمامها نصددهم عنها."

قال:

"هذا معناه إبادتكم حتى آخر رجل؟"

قلت:

"هذا معناه أننا نشترى بأرواحنا نجاة باقي الجيش، بدلا من هلاكنا جميعا."

بدا عليه التردد، لكنني كنت مصمما. لا أعلم ما رأي غيلان الفاربية في هذا الأمر، فهم ليسوا غيلانا حمرا حقا، لكنها بدت لي الفرصة الوحيدة.

لكن ظنوني. ومخاوف ولي العهد. لم تفن شيئا. إذ انطلقت الأبواق صاحبة! ونظرنا فوجدنا كل الابواب تفتح. وارتفعت اعلام الملك مرفرفة من خلف الجدران المهدمه

وظهر الملك تيمور خارجا من حمايتها.

خرج مع كل جنده فيما يظهر مجريت نحوه فزعا أقول:

"ارجع! ارجع! احتم!"

لكنه أشار لي بثبات أن ابقى في موقعي. نظرت له، فلأول مرة لم ار تيمور الساواتي، الشاب العنيد المخلص، وإنما الملك تيمور القائد، الذي يتقدم جنوده في أحلك المواقف.

كان تاجه خوذة من حديد، مزخرفة بشعار الملك، لكنها بدت ذات هيبة في العيون، لم يكن زيه حريرا، وإنما هو من سائر أزياء الناس، ورغم ذلك بدا عليه شامخا. لا أزعج إنني رأيت ملوكا من قبل، لكن من يراه حتما سيعرف في عينه نظرة الملوك!

نظرة الأب، الذي يخشى على أبنائه الجنود، ويريد مشاركتهم المصير.

لظرة من يحمل عبئا، يعرف ثقله، لكنه يعرف أنه يجب أن يكون قادرا على حمله.

وصل على جواده لنا، وقال مبتسما:

"تهدمت القلعة كما ترون، ولو احتمينا خلفها، بعد نجاة عدد السور العلي، فسنهزم في قلبها! لنواجه اليوم، ونحسم الأمر بالنصر بإذن الله."

انتظمت صفوفنا مع القوة الجديدة، وأخذ جنودنا يكبرون "الله أكبر". كالأسود المزمجرة.

لكن الأسود أثبت مرة أخرى أنه قائد أريب. لم يكتف بأن استعاد النظام جيشه، أو ما بقي منه، بهذه السرعة الخارقة، وإنما بدل خطته، وصفوفه في دقائِق معدودة. كأنما بفعل السحر. وبدلاً من تقسيم جيشه جماعات، تطارد من يحاولون دخول القلعة، أصبحوا فجأة فرقا منتظمة من الفرسان، تحاصرنا من ثلاثة جوانب! ووسطها قلب قوي عسير الاختراق، وعلى جانبيه جناحين خفيفين قويين. يستطيعان حصارنا، والالتفاف على جوانبنا بسرعة البرق.

أخذ الملك ينادي الجنود محمسا:

'نجمعوا معا، ابقوا صفوفكم منتظمة كالبنيان المرصوص. اجمعوا بعضكم واحموا بعضكم بعضا، كما رأيتم أبناء السور العلي يفعلون.'

كانت توجيهات طيبة، ولو إن رجال السور العلي لهم خبرة مائة عام من الحروب مع الصيادية، أما جنودنا، فخبرتهم في القتال ضد لصوص ومفيرين، فلا يستطيعون أن يتحولوا لقطع شطرنج يحركها القائد بإحكام، كما يفعل القائد الأسود في جنوده، أو يعملون معا في تناغم، كما يفعل أبناء السور العلي!

كان اخبرنا بالحروب هو ولي العهد، لما شارك فيه من معارك في طرابلس، لذا سرعان ما أخذ زمام الأمر، ونظم الصفوف ملحا على الجنود:

"ابقوا دوما كتلة واحدة صامدة جوار بعضكم، تشدون أزر بعض، كتلة صلبة تحطم من يهاجمها."

وأمر الرماة باعتلاء الأماكن العالية في القلعة، لتعزيزنا، وليجدوا ذخيرتهم من السهام من مخزون القلعة.

ولكن قبل أن يدخلوا الأبواب، كان الأسود قد بادر بالهجوم.

انقض علينا كالكماشة، يتقدم الميمنة والميسرة على خيول خفيفة سريعة، تحيد عنا قليلا، تبغي ضرب جنينا، بينما في القلب وضع الهجانة الثقيلة الواثقة.

الخيول السريعة ستبلي بلاء حسنا في حصارنا، وربما تلتف حولنا للمدينة، لكن الهجانة الثابتة الأقدام فوق الأرض المبتلة بالمطر، ستكون قوة عاتية بطيئة، يصعب صدها أو اختراقها!

نعلمنا في فرقة واحدة كما أمرنا ولي العهد. متمسكين بموقعنا. نحاول
«حماية أبواب القلعة، وبدأنا في رمي فرسانه وهجائه ببعض النبال، واستعدنا
الاشتباك العاتي.

لكن الأسود أظهر مكره!

ثالث ميسرته أضخم من ميمته بمقدار الضعف. وما إن وصلت لجانب جيشنا
الأيمن، حتى انشطرت نصفين. نصف يشاغلنا ويمطرنا بالسهام، ونصف أكمل
الدفاع السريع مسبقا للريح للخلف. لم نستوعب في البداية غرضه، سوى
وكيع، الذي أدرك بسرعة بديهته خطة الأسود.

وهنا ظهر لنا عيب كون الجيش كتلة واحدة، بدلا من تقسيمه ميمنة وميسرة
وقلب.

لقد هاجمنا الأسود بميسرتين. أحدهما تحارب، والثانية تكمل طريقها
طالبرق. تكبس على جنودنا أمام القلعة، تريد أن تعتليها، فتستولي عليها.
وتمطرنا نحن بالسهام منها! ولولا وكيع. لهزمتنا هزيمة فورية، فقد انسلخ
عنا بسرعة مع رجاله. في سباق مريع ضد رجال الأسود. ورغم إنه كان الأقرب
للقلعة، لكنه لم يلحق بهم إلا وهم ينقضون على رماتنا، الذين كانوا مازالوا
يدخلون عبر الأبواب. فأخذ يبارزهم بمن معه.

لو كان جيشنا مقسم لفرق. لسهل علينا أن نحرك إحداها للتصدي لهم،
وأخرى لدعمه! لكن حركة وكيع المجنونة، كانت بلا أمل، إلا كسب الوقت.
وقد اشترك الوقت الثمين بروحه، وأرواح جنوده، إذ سهل على فرسان الأسود
محاصرة مجموعته، وتمزيقها. ليسقط البطل أمام عيوننا شهيدا.

ظل حتى آخر نفس يقاتل، حتى مزقته السيوف، وتلونت ملابسه بخضاب الدم.
ومازال واقفا يناجز. حتى أتته النجلاء.

ولكن الوقت الثمين، الذي اشتراه، مكن رماتنا من اعتلاء أماكنهم، وأمطروا
الميسرة الأخرى بسهامهم، يطلبون الثأر للبطل الشريف.

السحبت الميسرة الأخرى. بعد فشل هجومها مسرعة، لتلحق بباقي الميسرة
في انقضاضها على جانبنا الأيمن، الذي كان قد اختل. بعد تسرب صفوفه مع
وكيع.

وهنا اهتز جانبنا الايمن بقوة وتخلخل. فكثير من جنده كانوا من اتباع وكيع. شاهدوا قائلهم يموت. كما ان الضغط عليه قد تضاعف. فاضطر الملك تيمور ان يسرع بنفسه لهذا الجانب مقاتلا محاولا تنظيمه ثانية. ولما راى الرجال ملكهم يحارب جوارهم. نفخت فيهم روح الجهاد من جديد.

لكن ظل الجانب الايمن مختلا بشدة. حتى ان ولي العهد. وابن العبدلي من مكانهما في مؤخرة الجيش. اخذا يرسلان الجنود لتدعيمه.

كان جابر مع غيلانه الرائعين في الجانب الايسر. صخرة صلبة لا تتحطم. وجند الأسود يقاتلون في كر عنيف. ثم يتراجعون سريعا مبتدعين عن السهام والرماح. قبل ان يعاودوا الكر.

ومضى القتال شرسا. واشده شراسة عند الحائنين خاصة الايمن.

بقيت القائد الوحيد في الوسط. احاول الحفاظ على ثبات صفوفه. وتدعيم الجانبين. شاهدت الملك تيمور يقاتل بشراسة. وحراسه يفتدونه بحياتهم. ينقذونه من قلة خبرته. واندفاعه وجواره ابن العبدلي. قد استيقظت فيه روح الفيلان الحمر القديمة. يقاتل يسراه رغم جرح رهيب. كاد ان يفصل يمينه عن جسده. كانما هو اسد يطيع بذئاب غادرة.

وإذا بكتائب جديدة من فرسان الأسود تنقض على اليسار. حيث جابر والفيلان. لكن صفوفهم المنتظمة امتصت الهجوم. وصمدت عصية على الكسر. وكلما فقدوا جنديا. تقدم غيره من خلفه. يسد الثغرة بأسرع من البرق.

واشار ولي العهد للرماة ان يزيدوا حميتهم على اليمين المختل. الذي يحوي الملك. حتى تركزت كل ضرباتهم عليه. ولولا أوامر ولي العهد. لذهبت لهنالك بنفسى. احاول تدعيم الصفوف أمام هذا الهجوم العتي.

وهنا القى الأسود بداهيته الجديدة!

اثبت لي انه لم يأخذ شهرته من فراغ. وانه قادر على قلب العائدة فوق الخصوم في لحظات!

تحركت فرقة السور العلي مجددا بهجائيقها نحو القلعة!

وأدرك ولي العهد الفرع. فاندفع بشطر من جنوده. يحاول التصدي لهم. وهنا. هنا فقط. هجم قلب الجيش الأسود بكل قوته! تربص الماكر بأقود

جروب " ربيع الكتب " .

جزء في جيشه، حتى أخذت جنودنا تتجذب رويدا نحو الجانبين، حيث أحمى القتال، وانشغل الرماة والمؤخرة بخطر المجانيق، التي لو تركناها، فستسقط رماتنا بمواقعهم. وسهل عليه الآن أن يشق قلبنا بجنوده، كما يشق السيف قماشنا باليا مهترنا!

الآن ذقنا الهزيمة، وعرفنا طعم العجز! تشتت جنودنا، رغم محاولتي دفعهم للصمود، وانقسموا لشراذم يسهل محاصرتها وتصفيتها! نظرت حولي، فلم أجد إلا الفزع، والتفكير في التسليم، وعلمت أن الموت قد أتاني أخيرا، وذكرت نفسي أن النتيجة لا تهم، وإنما العمل! فأخذت لواء الملك، الذي سقط فرفعته عاليا فوق رمحي، وهتفت:

"الله أكبر، الله أكبر. هلموا يا رفاق، هلموا يا طلاب الشهادة، لا خوف بعد اليوم، إلى ثرى الجنة!"

أهي هزيمة؟ ومن يهتم..

صرخت:

"إلى ثرى الجنة."

وتقدمت مندفا نحو السيوف الظمأة، يتبعني من يتبعني وصوتي يجلجل:

"لا خوف بعد اليوم، هلموا إلى ثرى الجنة."

واهتر المكان بصوت من ورائي:

"إلى ثرى الجنة."

نعم فقد حانت لحظة احتضان ثراها! لا أدري من أو كم تبعني، ولم أر من هم، فجنود الأسود يقفون حائلا بيني وبين الجنة! اقتربت منهم بأشد مما اقتربوا مني، وكررت بصوت مهول، لم أظنه ليخرج مني أبدا، كأنما الله أرسل على الرياح أن تبلغ كل الوطن بأخر مكان في رحلتي:

"إلى ثرى الجنة!"

تجلجل صوتي في الصحراء، حتى أنني لم أعرفه، وحينما غرقت في بحور السيوف، ظل صدهاء يعلو فوق صليلها، أحسست بوخزات خفيفة، لم أدر ما هي، لكن من هم أمامي لم يروا إلا الرعب والقتل.

أخذت أدفع صفوفهم للخلف قتلا وجرحا. حاربت كما لم أشارك في حياتي.
حتى في أحلامي أو بالأحرى كواييسي. رغم إنها كانت يدا واحدة، والأخرى
ترفع فوق رمحي اللواء عاليا.

إلى ثرى الجنة مساري، وإليها يا ابن الله معادي. إلى ثرى الجنة تنتهي رحلتي
الطويلة. على ثرى الجنة.

وأخذ صناديد السود يترصدونني، يريدون إسقاط اللواء الشريف، فأبيت
وأسقطتهم. وصدتهم عني الرفاق، ليعلموهم من هم الصناديد، ومن الأبطال
الحقة. مزقت رؤوسهم بقوة الضربة التي تحرث الأرض، فتفجرت دماءهم
تسقيها!

وعلا صدى الهتاف مججلا:

"الله أكبر.. هلموا يا طلاب الشهادة."

"الله أكبر.. لا خوف بعد اليوم."

"الله أكبر.. إلى ثرى الجنة."

"الله أكبر من الطغاة والمتجبرين، الله أكبر.. إلى ثرى الجنة."

لم يكن صدى يخفت كما هي الطبيعة، وإنما يعلو ويزار.

ودب الذعر في صفوف العدو، إذ تفجرت من أرض الصحراء أمواج سوداء
تكرر الهتاف، أمواج تلو الأمواج، تلبى نداء الشهادة، أمواج تقصد اللواء
المرفوع، تبغي نصرته.

وتردد بين الجنود إن الملائكة أتت تنصرونا، بينما ردد الأساودة إن الصحراء تخرج
شياطينها، لتبتلعهم.

وإذا بصفوفنا تلتهم مرة أخرى. كأنها جرحها آتاه البلمس الشافي، وتقهرق
جنود السور العلي إلى غير رجعة، معلنين الانسحاب لبلادهم، وأتت الموجات
السوداء، تجتاح جيش الخصوم.

لم يكونوا ملائكة أو شياطين! بل كانوا مشاة الأسود، التي هربت من الميدان
نجاة هنا!

ليسوا جميعا، وإنما الكثير منهم. ألوف مؤلفة أتت تباعا، تحمل فؤوسا وسكاكينا، ولا تجد عندهم السيوف إلا قليلا، بل رأيت بينهم من لا يحمل إلا الحجارة، يقذفها على الفرسان! انقضوا على جيش الأسود انقضاض المتقم، وبدا لي أنهم مساكين لا يجيدون من أمر القتال شيئا! لكنهم كاتوا كثرة مخلصا، نصرتنا في وقت العسرة، ويتوافد المزيد منهم من كل اتجاه.

واصطبغ كل شيء بلون الدم. الأرض والهواء والأجساد. في كل لحظة مئات الرقاب تقطع، وفرسان الأسود يهيجون هنا وهناك، مثيرين القتل في كل ما تصل إليه أيديهم، وقد استعاد زعيمهم الجبار زمامهم، وأعاد لهم رباطة جأشهم.

وفي المقابل، زادت قوة رجالنا وعزيمتهم، فتقدموا بثبات يخترقون قلب جيش الأسود، ويمزقون جناحيه. أما رماتنا، فقد انقطعت سهامهم، لا أدري لنفاد الذخيرة، أم لاضطراب المواقف.

فقد اختلط الحابل بالنابل مع قدوم المزيد من المشاة. وتشتت من كل فريق جنود في كل اتجاه، ولا أحد يعرف إلا إنه يضرب فيمن حوله، لا يكاد يميز من هو، ومن يتبع! الدم عليك يفرقك، لا تعرف منك أم من عدوك، وربما كان حليفك! الأرض حمراء قانية، تفيض بدم فاق ماء المطر، والسماء ذبح ليلها شمسها، وأريقتم دماءها تروي الأفق، فوق الفرق المتحاربة، وفقدنا الإحساس بالزمن والوجود، ولم نعرف أين الطعن والطعان، وبدأ الظلام يعم، بعد احتضار الشمس الجريئة، فإذا بالأسود يهتف برجاله أن انسحبوا. و انتهت المعركة أخيرا.

سالت دماء كثيرة جدا اليوم في قتال ما بين الشروق للغروب.

لم يكن أمامنا نحن أيضا إلا التقهقر بحذر نحو القلعة، نراقب تقهقر الأسود بدوره جهة الشمال الشرقي.

وأتت ليلة قضت بين الذابحين وضحاياهم.

(63)

ما بعد المعركة.. موت بطل

جلسنا بعض الوقت، عقب اتقشاع ظلمة الحرب بظلمة الليل، نلتقط أنفاسنا،
إلى أن هب أحد الجنود مكبرا:
"الله أكبر."

كبر الجنود وراءه، وهم يرفعون السيوف عاليا مهللين، لعلمهم ظنوه نصرا،
وإذا به يهتف بالناس أن:
"هلموا إلى الصلاة."

نهضنا نحمد الله على نجاتنا، وأدينا ما فاتنا من صلوات الظهر والعصر
والمغرب، وسجدنا لله شاكرين.

كانت روح الجنود المعنوية مرتفعة، فقد أجبروا الأسود على التقهقر، وهو
امر لم يحدث له من قبل. غير إنني ومن معي من القادة، كنا نعي أنه انسحب
فقط، لأن الفوضى اشتدت، وفاقت قدرته على السيطرة مع دخول الليل،
فترجع مؤقتا وسيهاجمنا بضراوة مع أول ضوء للشمس.

فكانت علينا ليلة ليلاء. تترقب في الفجر هجوما مروعا، وليس أمامنا إلا وقت
ضئيل، لإصلاح بعض شأن القلعة، وقد خسرتنا نصف جنودنا، ومن تبقى جريح
أو منهك القوى، وخيولنا وجمالنا وحتى بفالنا قد أرهقت، واستنزفت، دون أن
يهتم أحد بسقيها أو إطعامها، لأن الكل مشغول بمداواة جرحه هو أو زميله،
غير من يبحثون عن أقرب لهم بين أكوام الجثث.

وبينما أحاول البحث عن يرعى الخيول الليلة، لشدة حاجتنا لها غدا. أتاني من يطلبني، لأن جابر يحتضر. ويريد رؤيتي.

يا الله! هذا الشاب الجميل الثائر؟ هذا الذي فتنه بأساطير واكاذيب. فقلبها حقائق قلبت الحرب لصالحنا؟ أهذا البطل الجميل يموت؟

يا الله.

لم أبك في حياتي قدر ما بكيت. وأنا أهروول نحوه. لم يعتصرني الألم القارس. الذي يذبحني إلا اليوم. ويوم مات غول الحق. أنا من فعل بك هذا يا مسكين. أنا من فتك. وحرضك وأخرجك من أسوار مدينتك الأمنة. كان مرأى جسده الممزق وقد فقد ذراعيه. والدم كالطوفان. لا يسد جرحا. الا تدفق ليغرقني بالألم. يهزمني. أه يا غلامي المسكين.. لم تر في الحياة الا الهم. ولما حاولت التصدي للهموم، مفترأ بكلمات شياطيني. غادرتك الحياة كلها.

أه يا جابر. أيها البطل العظيم. الذي لم ار مثالا لإصراره وقوة عريمته إلا في الأساطير.

لم تكن بشرا كالبشر. بل كنت بطلا من عالم آخر. مثاليا، يقوم الناس فيه بعمل الحق. ونصرة المظلوم. عالم ليس عالما، لذا فقد غادرتنا. اليوم تموت قبل ان يجتاحنا الأسود. وفي فمك لمحة من نصر. أه يا جابر.

أخذت القنه الشهادة من بين دموعي المتدفقة. وحولي شباب الفاربية اليافع. الذين اسموا أنفسهم بالغيلان. يتحدثون مبهورين عنه. وكيف قتل هذا البطل أو ذاك. وكيف حارب. كأنما هو الأسد وسط النعام. ولم توقفه ضربة أو طعنة. وبترت ذراعه. فلم يبال. وقاتل مصرا، متذكرا سيرة مصعب ابن عمير. وأتته الضربة الثانية تبتر اليد اليسرى، فبقى صامدا. متذكرا الصحابي الجليل، الذي بقي في الميدان حاملا اللواء بعضديه. ولولا أن سحبه باقي الغيلان قسرا من المعركة، لبقى هناك حتى تدهسه الخيول.

لم أبال بتلك الأوصاف. لست مستمعا لسيرة أصفق لها الآن. بل أشعر أنني أب ينظر لولده الصريع. كأنها ولدته وربيتة وفقدته كل هذا في يوم واحد. انحنيت أزيح الدم عن وجهه المضيء. فأتت منه إفاقة. وقال:

"الحمد لله إنك أتيت يا سيدي القبيل. فقد كنت أرجو أن تزفني أنت إلى الجنة."

غسلت دموعي وجهه وانا أقول:

"نادني بعبد الشهيد اسمي عبد الشهيد يا جابر."

قال مبتسما:

"أتؤثر الأسماء في مصالنا حقا؟ أتبكي يا سيدي؟ كنت أظنك ستكون سعيدا فخورا بي."

قلت له:

"انا بشر، لا غول يا بني. فراقك ليس سهلا."

قال:

"لسنا غيلانا يا عبد الشهيد، بل طلاب شهادة. لقد سمعت لداك، فليته فلم الحزن؟ سمعتك تقول هلموا يا طلاب الشهادة إلى ثرى الجنة، فأحسست أنك تقصدني لا غيري. ولشهد حينها أنني شممت حقا عبير الجنة، فأقبلت نحوها لا أبالي. أحسست برفقة نورانية، لا تعرفها أرضنا هذه. ففشيتني السكينة حتى بدت طعناتهم لي راحة لا عذابا.

لا تبك يا سيدي أرجوك، بل ابتهج وأنت ترفني للجنة."

لم أستطع أن أقاوم، فأخذت أزيح المزيد من الدم عن وجهه بدموعي، توقف يلتقط أنفاسه بصعوبة، ثم قال:

"ربما لو كنت في مقتل آخر، أو لو كنت جريحا في غير سكرات الموت، لبكيت معك. أتعلم أنني كنت أبكي إذا أصابني أقل جرح، حتى كان أبي يتهمني أنني أضعف من شقيقاتي الفتيات؟ لكني الآن في خير حال، حال أدهش له أنا نفسي. فلم أصدق من قبل زعمهم أن الشهداء يموتون مبتسمين، أريد أن أموت مبتسما مثلهم، فأرجوك يا سيدي لا تبكي."

ليس البكاء بالأمر الهين وقفه، حينما يمزقك الحزن والتخبط.

لكن كلماته بدت لي أمرا، علي طاعته، فهو السيد حقا بين الفيلان الأحمر.

أته رجفة، وقال:

"قولوا لأمي إن ابنها شهيد مع أبيه وخاله."

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

وهل يكرر الشهادة. وأنا أمسح شعره بيدي. وغارق إلى جواره في حزني. حتى
انت اللحظة. وحولوه لتجاه القبلة.

ووجدت لساني ينطق عن غير وعي:

"إنا لله وإنا إليه راجعون."

مأفقت عقلي من ضبابه. ولكن لم تنقذ قلبي من حزنه.

وجلست في صلاة صامتة لهذا الشهيد. الذي أهدته الأرض اسمي هدية
لاسمى جنان.

هذا هو حتما ممن خصهم الرسول بحديثه. إن عملهم كعمل خمسين من
الصحابة. لأنهم لا يجدون من يعينهم على الخير. فقد عانى جابر وحده. وسط
السلبية والخوف. وأصر على الصمود والعمل. ففعل ما لم يقدر أحد. أو يجرؤ
أحد على فعله. استغاث بقشة الفيلان الواهية. التي أقيت بها له. فصنع منها
سيفا مسلولا يجاهد في سبيل الله. ويرفع به الظلم.

حينما حملوه من فراشه. لم احتمل. وسقطت منهارا. لا أقوى على رفع
جسدي.

وحينها أقبل بعضهم فزعا:

"القبيل زعيمنا قد سقط."

أخذوا يقبلونني. وينزعون عني الدروع الحمراء. ومن وسط عشيتهم سمعتهم
يقولون:

"يا الله! كيف بقي حيا يمشي! ألم يتركوا شبرا في جسده دون طعنة؟ سبحان
الله! كيف ظل يمشي. ويتحدث كل هذا الوقت."

لم أدرك أنهم يتحدثون عني. إلا بعد أن نادوا بحثا عن طيب لأجل القبيل زعيم
الفيلان الحمر. وأتى لهم العثور على طيب هنا؟

الآن فقط فهمت ما تلك الوخزات الخفيفة. التي أصابتني في المعركة.. الآن
فقط اطمانت على جابر. وأدركت أنه لم يتألم.. والآن فقط استسلمت لظلام.
أعلم أن وراءه ياذن الله نور.

(64)

ما بعد المعركة.. مشاة الأسود

لم أدر متى أفقت. ولا كيف أفقت. كانت هذه ثاني مرة أرافق فيها موتا رفيقا. ثم أرجع عن الموت صفر اليدين. لكنني هذه المرة كنت مدركا لما حولي. إذ ان سطوع الشمس في عيني. جعلني أدرك ان النهار طلع. وأن حتما معركة الأسود. قد بدأت فقفزت من فراشي مفزوعا، أبحث عن الدرع والسلاح.

وإذ أصدرت ضجة. دخل علي الحجرة رجلان يرتديان السواد. ففرعت. وأيقنت أنني أسير عند جنود الأسود.

قال أحدهما:

"سيدي القليل ماذا تفعل؟"

وقال الآخر:

"ارتح هنا يا سيدي. فمولاي الملك أمرنا ان نجعلك ترتاح. وإن أفقت. فسيأتي هو لك."

قلت مترقبا:

"من أنتما؟"

قال الأول:

"أنا طعيمة وهذا أخي مكرم. أمرنا مولانا الملك نيمور برعايتك. حتى نشفي من جروحك العديدة."

١٠ سمعت اسم تيمور تنهدت في ارتياح، وقلت:

'أه، أت المعركة؟'

هال، طعيمة بتردد:

'أنت جرحت فيها يا مولاي.'

هال،

'أعلي هجوم الأسود. ألم يهاجمنا مع الفجر؟'

هال مكرم:

'لا يا مولاي، بعد أن هزم منذ يومين..... فانت جروحك كانت شديدة، ولولا قوة
ببالك لهلك، لكنك غبت عنا يومين كاملين. بعد هزيمته، لم يعد للحرب، بل
تاهقر للوادي المخيف ذلك.'

نظرت له بدهشة، أحاول فهم مقولته، ثم سألته:

'ولم ترتدي السواد، وهو زي القائد الأسود؟'

قال مكرم:

'كنت في جيشه يا سيدي. كنت واحدا ممن سمعوا نداء الملك، وراى رايته
نخرق صفوف الملعون، فهبنا لنصرته.'

أدركني الفضول، فقلت:

'أنت من مشاة الأسود؟ لم هربتم ثم انقلبتم عليه؟'

محكى لي حكايتهم. واتضح لي أن الأسود كان يريد اجتياح الغرب وتدميره
عن آخره، فلا يبقى في رؤوسه رأسا واحدا سليما، حتى بين من يهادنوه.

لكنه بعد أن ترك الجيوش في الجنوب، لتسيطر عليه، وحامية في الشمال تسد
عيون الأهبال الجشعة، غير من تركهم قرب الزرقاء من بني الأسود، ليأمن
شر الفرنجة لم يبق له إلا ثمانين ألفا من الفرسان، أغلبهم من بني الأسود،
وليسوا من جنوده الذين أنشأهم يده.

أدرك أن هذا العدد قد يكفي لهزيمة الملك، والمتمردين معه لكن لن يسهل
حينما يكشر عن أنيابه ويدمر قلاع المماليك. فطلب معونة الفرنجة والأهبال،
والسور العلي. متصورا أنهم سيمدونهم بثمانين ألف أخرى.

لكنه فزع من حماسهم الشديد! خمسين ألفا من الفرنجة، وستين من الأهبال
وعشرين من السور العلي؟ فوق المائة والثلاثين ألف جندي لن يرحلوا في
سلام!

خشى منهم الفدر، وقرر إنهم قد يسحقونه بعد الملك، لو خرج بثمانين ألفا
فقط.

فكيف يضاعف عدد جنوده؟

جمع كل سكان العاصمة، وما حولها من قرى ومدن! رجال وأطفال وشيوخ،
وحتى بعض الفتيات اللاتي جز جنوده شعورهن! وأبسهم السواد. فاجتمع له
جمع عظيم كيوم الحشر! فقادهم بقسوة، وهو يهددهم بفرسانه، الذين
ساروا حولهم في حلقة محكمة. ترك الفرنجة والأهبال يسيرون للشمال،
مواجهين المقاومة العنيفة، وخذع الجميع فعبّر بجيشه، أو من أسماهم جيشه
وادي الضياع مباشرة نحو ساوة، من أقصر الطرق وأقصرها.

قال لي مكرم:

"لا أفهم كيف كان يعرف طريقه في هذا المكان المفزع، هناك فرقة تأخرت
عنا مسيرة نصف ساعة فقط، فإذا بها تضل الطريق، لولا أن عاد لهم الأسود
بنفسه، فأنقذهم من الهلاك. حتما كنا وكل هذا الحشد المهول سنباد عن
أخرنا، لو بقينا في هذا الوادي وحدنا دون الأسود، الذي كان يشق طريقه فيه
بثقة، ويجنبا السير في أماكنه الخطرة المهلكة."

حتى رجال الأسود المقرين لم يفهموا كيف نجح في عبور هذا الوادي
الرهيب، لكن المشاة المسكينة لم تات للحرب، فبقوا كأسرى أو مساجين في
أماكنهم. بينما أعدادهم المخيفة تلقي الرعب في قلوب الجميع. حتى الأهبال
والفرنجة.

لقد حارب الأسود بالخوف أكثر من السيف!

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

وحينما أزاح جيش الملك فرسان الأسود، واتجه نحو المشاة المساكين، هربوا في كل اتجاه، وتشتتوا. ولكن أوامر الفرسان السابقة، بقتل كل من يحاول الهرب منهم أصابت جيش الأسود بالجنون! وأخيرا هربوا من الساحة للصحراء، ليقفوا متحيرين.

لا يستطيعون العودة عبر الطريق الجنوبي للعاصمة. فالمعركة تقطع طريقهم ولا البقاء في الصحراء، ليهلكهم الجوع والعطش. فارتحل بعضهم للشمال يتخبط طريقه بحثا عن أي بلدة، وتربص الباقون ينتظرون انتهاء المعركة، للتسلل عبر الطريق الجنوبي.

وحين سمعوا الهتاف المجلجل، أدركتهم الحماسة، وظنوا أن الأسود ينهزم، وأن الفرصة حانت للانتقام منه، ومن جنوده، فأسرع بعضهم يلبون نداء الملك بالجهاد.

وحينما انتهت المعركة مع قدوم الليل، نزلت جماعات ضخمة منهم تبايع الملك، وتطلب منه الفوئ والمؤونة.

أنهيا الحكاية العجيبة، ثم ساعداني على ارتداء ملابسني، ونهضت فاغتسلت، وتوضأت، وصليت ما فاتني في يومي الفيوبة. وجلست التقط أنفاسني. ثم نهضت خارجا، أبحث عن الملك، وباقي قادته.

كنت داخلا إحدى حجرات قصر الشركسي، في قلب مدينة ساوة، فتجولت حتى عثرت على الملك، مجتمعما بمن بقي من القادة، وهم ليسوا بكثير. الملك، وولي العهد أصابتهما خدوش وطعنات خفيفة، بينما تحول جسدي للحم مفري كما يزعمون! وفقد ابن العبدلي إحدى ذراعيه.

ضم الملك لنا شيخ واحات ساوة، وأمير مملوكي ضخم اسمه بريك، يقولون أنه أبلى بلاء حسنا، دفاعا عن الملك واستعداد صفوف جانبنا اليمن، بعدما تراخت.

سالت الملك:

"مولاي تيمور، ألم يهاجمنا الأسود؟"

قال الملك "مرحبا بك أولا يا سيد الغيلان! نجوت من الموت مرة أخرى؟ حقا ما يقال عنك، إنه ليس من السهل قتل غول أحمر!"

تذكرت موت غول الحق. وجابر بينما أرى نظرة رهبة وإعجاب في عين بريك.
فرددت بصراحة:

"خير الفيلان هم من ماتوا دفاعا عن الحق. ولم يشأ الله أن يكرمني تلك
المكرمة بعد."

قال بريك:

"لقد أرسلت بعض جنود الاستطلاع. بعد أن تعجبت من تأخر الأسود عن
مهاجمتنا، ونحن فريسة سهلة له، تاركاً لنا فرصة مداواة الجرحى، وإصلاح
القلعة. لكنني فوجئت إنه أخلى معسكره الجديد، وانسحب لوادي الضياع.
متحصنا فيه متربصا. لا هو عاد للعاصمة، ولا خرج لضربنا، كأنه يتظرنا أن
تبعه لهنالك؟"

بيدو أنني سأعجب بريك أنا الآخر. فهو حاسم عملي، أسرع يتجاهل الحديث
عن الفيلان، ورد على سؤالي مباشرة، ورده يظهر أنه يسرع بإنجاز الواجب
والمهام فوراً. لو كان قلبه كما أرجو رقيقاً، على عكس غلظة جسده،
فسيكون بإذن الله خير معاون للملك. لكن لو كانت الأخرى، فوقانا الله شر
بطانة السوء، التي إن رأيتهم تعجبك أجسامهم، وإن يقولوا تسمع لقولهم
كانهم خشب مسندة. إلا فهم العدو فاحذرهم.

لم نكن بالطبع نفكر في تتبع الأسود في وادي الضياع، لهذا أخذنا ننظم
الرجال، ونحاول أن نقوي أنفسنا بمن يقدر من مشاة الأسود، ونتتظر خطوته
المقبلة.

وظلنا هكذا، حتى اتتنا الطبول بعد صبر ثلاثة أيام.

طبول عظيمة مدوية، طبول نعرفها جميعاً في الغرب فهي طبول بني
الطارق.

وثار الفزع فينا. أترى الأسود استطاع التحالف مع جيراننا في البلاد غربنا، كما
تحالف مع أعدائنا في الشرق؟

كان بنو الطارق قبائل شهيرة، تملأ كل ما غربنا بهشائرها، ولهم بنا علاقة
طيبة، وتجارة هادئة، وعرفنا عنهم قوة الحرب والقتال، وكثرة الجنود كعدد
الرمال، لكنهم لا يحبون الغزو والسلب، وإلا اجتأحوا العالم كما فعل الأهبال.

هم محبوبون لبلادهم، يعيشون حياة بسيطة، لا تفرق فيها بين أمير ووضيع.
لكن لعل الأسود غير فيهم شيئا. جعلهم يجتازون حدودا لم يعبروها لغير
التجارة؟

أسرعنا نطلق الأبواق، ونعد الجنود، ونفلق أبواب القلعة تأهباً لهجوم غربي لم
تصوره.

لكن الحال غير الحال.

أتى لنا منهم رسولا ليس كأي مرسال!

كان الشيخ وهدان!

كدت أنسى هذا الحكيم العجوز، الذي غادرنا عقب معركة الثغر الكبير،
ليجمع لنا كما زعم جنودنا! وأي جنود جمع!

أتانا مهللاً، يحكي لنا ما حدث.

★ ★ ★

(65)

مبارزة بالحكايات

65-1 (لقاء عند العين الخفية)

يقول الشيخ وهدان:

"حينما علمت ان الأسود قد تجاوز ما يظنه العقل ممكنا. وجمع جيشا يفوق الأساطير، عابرا به ما ليس بالمعبر. أدركت بحلول الهزيمة، ما لم نجد جندا كثيفا بعدد الرمال.

ولكن من أين؟ إن ما حشدناه كان يفوق احلامنا. ظن عبد الشهيد ابن سمعان أنه إن أتى بالوريث، فسيصطف خلفه الأمراء. ظنا ساذجا. فقد انفضوا، مغليين العاجل على الآخر! ما حشدناه كان أقصى ما تستطيع الأرض أن تجلبه لنا من فلاحينا.

وهنا تذكرت فلاحين آخرين! آلاف المهاجرين، الذين رحلوا فرارا من الأسود. وقبله الأمراء والفرنجة وغيرهم. كثيرا ما استقبل الغرب اللاجئين، قبل أن يكملوا الفرار إلى ما غربنا من بلاد بني الطارق. فالجنوب شديد الحر. والشرق أشد التهاوبا. ولم يبق للفرار إلا تلك البلاد الصحراوية.

لو استطعت إقناع أولئك القوم بالعودة لبلادنا، مقاتلين تحت لواء الملك؟ لربما جمعت ثلاثين ألفا دفعة واحدة. فهم ليسوا بالقلّة. حتما، مع أصهارهم وحلفائهم من بني الطارق.

١٣٠٠ برك لي الأسود خيارا. كنت أكره أن أستبدل غزو الفرنجة بفزو بني الطارق.
١٣٠١ طيب معشر هؤلاء القوم. لكن حينما تكون السيادة والقوة في أيديهم.
١٣٠٢ سيرضون بالرحيل؟ لكن الآن الخيار بين اثنين أحلاهما مر. ولربما إن ثبتنا
١٣٠٣ هي حرب الأسود. كانت لنا شوكة يجاملها بني الطارق. وهم عامة لا يحبون
١٣٠٤ هزو والقتال.

١٣٠٥ هكذا عدت لأيامي الخوالي. تلك التي كنت أجول فيها وحيدا في الصحاري.
١٣٠٦ اطرق الجبال والأودية. متحسسا الدروب. ومزيغا عن المتربصين. وهازما
١٣٠٧ الأعداء الكثر بالمكر وحده! أه! كم كانت جميلة أيام الشباب! وكم أخذت
١٣٠٨ منها من أمجاد! لكنها ولت. دون أن تترك لي سوى ندوب الجسد. والحكمة.

١٣٠٩ مصيت في تلك الدروب. التي أحفظها وتحفظني. حتى أتيت لأول واحة من
١٣١٠ الهلاد الفريية. كانت واحة صغيرة مهجورة. لا يعرفها سواي لكن اليوم غير
١٣١١ إهام الشباب.

١٣١٢ ألحقت مباشرة للعين المختفية بين الصخور شمال الواحة. ليست بعين أو بئر:
١٣١٣ بل هي نضغ ماء. وسط الرمال. لكنها أعذب ماء من تلك الكبيرة في وسطها.
١٣١٤ وإذ انحنيت عليها. أحاول عب الماء. وملء قرتي. سمعت وقع أقدام خلفي.
١٣١٥ فالتفت مسرعا. شاهرا سيفي. لأجده مشيرا لثمانية من الرجال. يبدو أنهم
١٣١٦ كانوا في صيد. وقد تتبعوا آثار دابتي حتى هنا. فخفضت سيفي وقلت:

١٣١٧ "السلام عليكم يا إخوة العرب. إنما أنا مسافر عجوز. يقصد مدينتكم العابرة.
١٣١٨ وقد كنت أسقي من ماء العين الدافئة."

١٣١٩ قال أحدهم بصوت اجش:

١٣٢٠ "أوجد عين أخرى هنا؟ يبدو أنه يعرف الواحة خير منا!"

١٣٢١ ابتسمت وقلت:

١٣٢٢ "كانت لي أسفاري في مثل عمركم يا أبنائي! هلا اعتم رجلا عجوزا يا شباب؟"

١٣٢٣ لكن أحدهم. الذي بدا لي رجلا مهاجا. وسيدا مطاعا من البقية. قال:

١٣٢٤ "وما أدرانا أي خطر تحمله معك يا رجل؟"

قلت:

"وأي خطر يأتي من رجل عجوز متلي؟"

رد بصراحة:

"عجوز شهر سيفه بسرعة البرق! لا استهين بك، كما استهان بنو عزام بالعراف."

* * *

(2-65)

حكاية العراف وبنّي عزام

أما سمعت أيها العجوز بخبر العراف الهرم، الذي امتلأ قلبه حقدا على عزام التاجر لفناه وماله وكثرة أولاده وجمال زوجته؟ ولما مات عزام، أراد العراف لهب المال.

ذهب مستندا إلى عصاه القديمة، وقال لأولاده "يا أولادي إن بيتي متهدم، وارغب في أن أؤجر من منزلكم حجرة، أعيش فيها. ستربحون مني، ليس فقط الأجرة، فأناس كثير يأتونني طلبا لعلمي، فسيروجون بضائعكم، ويجلبون القدم الجارية لمتجركم."

بدأ الاقتراح مقبولا من الفتيان، لكن زوجة أيهم لمحت في عين العراف نظرة، عرفتها وضممتها، فهي لا تففل عن فهمها النساء، فصرخت في الفتيان:

"هذا عجوز حقود مكر، يكره أيكم، فاحذروه، وابتعدوا عن شره."

وافقها الفتيان على ما وصفت، لكنهم استهزءوا بتحذيرها، وقالوا:

"نحن فتيان وفتوة، وهو عجوز يعضي نحو الهلاك يا حمقاء! أي خطر يقدر عليه!"

وأقام العجوز في المنزل، يتردد عليه الناس، يطلبون منه أمور الكهانة، حتى أتاه شاب، يطلب أن يعرف أن كانت فتاته تحبه حقا، أم تظهر غير ما تبطن، لوجود شخص آخر؟ فإنها كثيرة الدلال عليه، حتى لتذهب بعقله!

قال له الأعراف:

"لا أقرأ المكتوب في الصدور، دون النظر في العيون! انت بفتاتك إلى هنا
ثم ذهب العراف لأحد الأبناء الثلاثة، وكان قد تخصص في تجارة المعادن،
ويعرف عنه نهمه للمال فقال له:

"قد رأيت لك بين ثايا الرمال وهمس الودع ثروة عظيمة، فاعتتمها، علم، ان،
تذكرني بخير عند زوجة أيبك، فهي تثقل لي في القول."

قال الفتى:

"واي ثروة تلك؟"

قال العراف:

"لا تفصح الغيوب مصرحة دوما، لكن ما رأيته أنه سينزل عليك من أعلى وقد
الظهير لؤلؤة بلا مثيل، إن أتيتها، فعليك أن تردّها بهطر بلا مثيل، فأراك ملكا
متوجا بذهب بلا مثيل!"

لم يفهم الشاب شيئا، لكن في اليوم التالي، أتى العراف الشاب العاشق مع
محبوبته درة، كان اسمها كما عرف العراف درة.

قال لها العراف:

"لا تكذبي، فانا أعرف من قبل ان تعرفي، ولكن الصدق مطهرة لنفسك،
فينفعني لنفعك! أتحبين عاشقك هذا؟"

قالت له بتبرم:

"نعم، لكنه كثير الفيرة كالمهووس حتى يخنقني، لا أدري أبحبني، ام هو
مهووس بي هوس قد يشفى منه! لو إنك تستطيع مساعدتي؟"

قال العراف:

"بالطبع فما أسهل هذا، لا تكشف الغيوب، ولا يسمعي الودع الفرق بين
الهوس والحب! لكن الأمر يحتاج لحجاب جيد الصنع، فقط قلة من العرافين
يجيدونه! خذي هذا الحجاب، قد يبدو لك أنه لا يحمل إلا التراب، ولكن كلما
أخذت ذرات من التراب هذا، وحبيبك يمشي معك، فإذا لقيت رجلا فابتسمي،
وألقي بالتراب عليه! فإذا نفذ التراب من الكيس، والفتى على حاله من الحب
دون الفيرة، فهو يعشقك عشقا حقيقيا، فتمسكي به، وإن نفذ التراب، فظل

جروب " ربيع الكتب " .

الم عيرته، فالما هو يظنك بضاعة ثمينة يشتريها طمعا. ويضن بها على
بوره شحا. فدعيه فدعيه وانج بنفسك!

أدت الفتاة الحجاب، ووقفت منتظرة. فجاءه حبيبها فقال له العراف:

نحك حبا بلا نهاية، لكنها واقعة تحت سحر عميق لجني أريبا وقد رشاه
ساحر جبار. لم يستطع إخواني من الجن المؤمنين معرفته، لعظم حيلته. حتى
إنه ليتنكر في شكل رجل بسيط! وهو شرير خطير. يطمع في التفريق بينك
وهي محبوبتك. لأنه يطمع في جمالها أن يكون هدية. وضحية. لملك
الشياطين السفلية. يمنحه مقابلها الفدية الكبرى. التي لا يعرف بعظم
خطرها إلا السحرة!

صاح الشاب في فرع:

وكيف أنقذها؟

قال العراف:

عليك بالفرار بها بعيدا عن هذا الشر! منحتها حجابا واقيا سيقوى كلما
لاديتها باسمها بهشوق. وحميتها بإخلاص. وامسكت نفسك عن إيذائها
بإصرار. لكن السحر سيتجدد. وسيقلب حجابي إن سقاها الساحر العاكر
سحره مرة أخرى. فكر على حذر. فأحوه من الجن السفلي ذي سلطان جبار!
شحب وجه الفتى. وخرج مرتعبا. يمسك بيد محبوبته. ويتلطف لها. فلما نزلت
لصحن الدار. مقابلة الخدم ثرت عليهم بعض التراب مبتسمة. فتصرفوا
متأففين! فتعجب الشاب. لكنه صبر لما رآه من حجاب العراف الواقى! وكلم
حبيبته بلطف. متذكرا كلمة العراف:

"يا درة يا درتي هيا بنا إلى بيتك."

ونزلت الفتاة مع الفتى من دار ابن عزام إلى الأسفل، حيث يقع متجر الأبناء
الثلاثة. بائع العطور. وبائع الحلي. وبائع الأقمشة.

سمع بائع العطور كلمة درة فانتبه. الدرّة هي اللؤلؤة، وهي تنزل عليه من
أعلى وقت الظهيرة؟ لعلها أميرة، إن أهداها عطرا جيدا تهديه ثروة!

أسرع البائع يخطف قنينة من أثمان العطور. وتقدم نحو الفتاة مبتسما. فألقت
عليه قبضة التراب، لكنه لم يرحل. ولم يتبه لها تلقيه عليه.

نظر العاشق للرجل المتقدم بجنون، وإلى الزجاجة في شك، فلما قال الباطم
بالطف صوت يملكه:

"يا مولاتي، لو تقبلين هدية متواضعة مني؟"

اشتعل الغضب في قلب العاشق! حتما هذا هو الساحر الماكر يدس سحره
في العطر، فاتترع القنينة بقسوة من الفتاة، التي بهتت، ونظرت إلى حجاب
الساحر قد فرغ، وعاشقها غاضب. وتذكرت كلماته أن تنجو منه، فانفلتت منه
صارخة:

"أنت مجنون مهووس، دعني ولا تاتيني أبدا!"

جن جنون العاشق، وظن أن السحر - لا المكر - نزل على محبوبته. فاستل
خنجره، وطعن الفتى، وانطلق يجر الفتاة هاربا!

لم يمت بائع العطور، لكنه ندمر تماما، فقد تناقلت كل العجائز الأريبات قصة
الفتى، الذي يفوي النساء بعطر مسحور، حتى فرق بين عاشقين كانا مضرب
الأمثال، فاضطر الجريح للرحيل بعد بوار تجارته.

وهنا أتت زوجة الأب، تلح على الشقيقين الباقيين أن يطردا العراف، فهو حتما
وراء ما حدث.

قال لها تاجر الأقمشة:

"أبعد خسارتنا لتجارة العطور، نخسر أجرة العراف وزبائنه؟ هذا فتى أخرق،
بهته جمال امرأة غيره، فدفع الثمن!"

لكن العراف أدرك خطر تلك المرأة الجميلة عليه، بالحاحها على أبناء زوجها.
كان يشتمها، ويعلم أنه لن ينالها، فوضعها هدفا له.

ذهب للشقيق الأصفر، تاجر الحلى وكان يعرف فيه نقيصة الفضول المميت،
فقال له:

"قل لي يا فتى، وأنت تاجر شهير، تتردد عليك نساء من كل صنف ولون، فلم
لم تتزوج؟ الزواج لشاب مثلك حصن، ولتحاترتك رواج."

قال الفتى:

"وكيف يكون الرواج في الزواج؟"

قال العراف:

"أما تدري أن الرجال يجلسون عنك نساءهم، خشية عليهم منك؟"

قال الفتى:

"لكن شقيقي الأكبر لم يتزوج هو الآخر، وأغلب زبائنه مثلي من النساء."

رد العراف:

"ربما حتى الآن. لكن النجوم تؤكد لي أن في قلب أخيك فتاة ما تشغله."

وصمت ولم يكمل، وتركه لصومعة كهاتمه، فظن الفتى أنه عرف سرا جديدا من أخيه.

اشتعل الفضول في ذهن الفتى، وأراد أن يعرف من هي التي تشغل ذهن أخيه، فأخذ يراقب من تتردد عليه من النساء، دون أن يجد ميلا لأيهن.

وألح في السؤال على العراف، حتى أضجره، فكان يرد بغموض:

"لم تجبني النجوم عن سؤالك، فهي تتكتمه ولا أدري السبب، هذه يا بني ضريبة العراف الصادق، فإما أن يعترف بجهله فيضيع رواجه، أو يتخلى عن الصدق وهو ما لا أرضاه لنفسى!"

ولما اشتد فضول تاجر الحلي، ذهب لأخيه مباشرة يسأله، فأنكر ولما ألح الفضولي بقوله إن الهم باد على وجه أخيه، فرد بفضب:

"أولست المصيبة التي نزلت على رأس شقيقك الأوسط كافية؟"

لم يقنع الفضولي برد شقيقه، فعاد للعراف يسأله، فقال:

"قد استفلق علي أبواب الكهانة، لكن علم العقول وفهم النفوس لا يفلق أبدا، انظر حولك. من من النساء يريد لرؤيتهن وجه أخيك، أيهن يسمع لكلامها أكثر من غيرها؟ من منهن يهتم لأمرها وقربها منه؟ لو كان يحتفظ بشيء من أثرها لكان هذا دليلا حاسما، وتوقع أغرب النتائج، ما دامت النجوم، قد استكتمت أمرها عني!"

فعاد الفضولي لتتبع أخيه بنصائح العراف، فأظهرت له نفثات الكاهن شكوكا مفرعة! ذهب بعقله الأحمق إلى حيث أراد عدوه! فزوجة أبيه مازالت شابة، وهي جميلة، وأخوه يوقرها كثيرا، بزعم إنها كامه، ويقضي معها وقتا

جروب "ربيع الكتب"

طويلا بزعم إنه ينهي لها حساباتها، وأرباحها من ميراث أبيهم في التجارات الثلاث! رغم إنها لا تجلس معه، ولم تجلس أبدا مع تاجر العطور! كما إنها تأخذ حاجتها من الثياب منه دوما، وهو الذي يذهب بها للحالك.

كانت الفكرة البشعة، التي أوحى له بها العراف الحقير، أشنع من أن يصدقها لكنها كانت كذباة لحوح، لا تترك ذهنه إلا وتعود له. ولما لمح العراف نمار حصاده في عيون الأخ المرتابة، اشتكت فجأة زوجة الأب من اختفاء أحد أزيائها، فذهب الأخ الفضولي مباشرة يبحث بين حاجات أخيه، فوجدها!

وظن أن ظلونه قد صدقت! ودار بين الأخوين شجار رهيب، ارتجت له المدينة، حتى كادا أن يقتلا بعضهما. وإذ حاولت زوجة أبيهم الفضي بينهما، انمال عليها الأصفر بالسباب، فباراه الأكبر في سبها، يريد إظهار أنه يفضها. ودون أن تفهم ما أصابهما، غادرت الدار مقهورة، مفسحة مجالا أوسع للعراف، لم يبق من خصومه إلا شقيقان متحاربان!

انتظر العراف قليلا، لتبرد النار التي أشعلها على الشقيق الأكبر، تاجر الأقمشة، ثم أصبح هو معركته التالية! فقد كان أكثرهم مالا، خاصة بعد أن أشرف على ما تركه تاجر العطور، وتركته زوجة الأب من أموال خلفهما، يديرها لهما.

كان هذا الأخ جريلا مقداما، لذا لم يكن يخاف من مواجهة العراف، وكان أول من استهزأ بخطر، رغم علمه علم اليقين بيفضه لوالده، وكان في قلبه حب للذة المفامرة، وعشق للتعرض للمخاطر، لولا أن أقعدته المواريث في مكانه. ظن العراف أنه قد يتلف المال إذا أذاق الفتى لذة المفامرة التي هجرها.

ذهب العراف لتاجر الأقمشة قال:

"إن براعتي في استكشاف الغيب قد بلغت شأنا لم أكن لأتصوره، ورغم كرهني للزينة والشهرة كما ترى - فلنا أكتفي بحجرة صغيرة في منزلكم، ولولا إنني أخشى أن أكتم علمي عن الناس، لما أخبرتهم وأعلمتهم بما ينتظرهم - فإن شهرتي تجاوزت الأفاق، ووصلت إلى أمير المدينة نفسه، وقد أرسل لي يطلبني في قصره، لتفسير حلم أتاه، لكني كما ترى رجل عجوز، ولا أعرف دروب المدينة جيدا، فأحببت أن اتسند على شاب قوي مثلك في تلك الرحلة المهمة."

لم يكن الأمير طلب. أو حتى سمع بالعراف الخبيث. لكن جوار قصر الأمير في هذا الوقت من السنة. يتم عمل مولد كبير لأحد الأولياء. مولد تجري فيه الأثام والمعاصي. كما يجري الماء في اليم!

وصل الاثنين للثلاثاء. فقال العراف:

"أهه. يبدو أن المولد هنا! اذهب وتسلى فيه قليلا يا بني. فقد أتأخر عند الأمير."

قال التاجر:

"وكيف تستدل على مكاني أيها العجور إن افترقنا؟"

ضحك العراف وقال:

"لا أكون عرافا إذا إن تاه عني غلام في العقد الثالث من عمره!"

دلف الفتى لينظر بين الناس لعجائب المدينة. التي لا يعرفها في أطرافها. وسرعان ما رأى أحد الأفاقين يتحدى الناس بثلاث ألعاب. ترى أيها يخفي تحتها الذهب وله الجائزة؟

تفرج الفتى قليلا يشاهد الرابع والحاسر. ثم انضم للمراهنين متحمسا.

وأخذته فتنة المقامرة! وجلس العراف بعد قليل جواره. يراقب راضيا عاقبة عمله. ثم همس للفتى بهكان اللعبة الصحيحة. فراهن عليها وفاز.

في شبته. كان العراف هو من يلعب باللعبة في هذا المولد! كان خبيرا. حتى إن حيل الأفاق الغشيم بدت له ساذجة! وكلما أخبر تاجر الأقمشة بالعبة الصحيحة. فزع الأفاق. وتحداه في لعبة جديدة. مع مضاعفة الرهان. وإتذ الفتى بربحه المقامرة. فقبل التحدي. وأخذ الرهان يتضخم ويتضخم. والفتى يربح ويربح. حتى التفت حوله الناس والأثرياء والأمراء. يراقبون هذا الفتى البارع المحظوظ!

وأصابت بعضهم حمى التحدي. فأخذوا يراهنون الفتى. ويزيدون في الرهان على خسارته. فيربحهم! حتى أصبح الرهان أضعافا كثيرة. وأخذ البعض يسجله في أوراق. وفي لحظة أخبر العراف الفتى بعبة خاسرة. ليخسر كل ما ربحه وفوقه تجارته وتجارة أخوته!

وفرح العراف بنصره فرحا كبيرا. واشترى من الفتى المغلوب بيت عزام بثمن،
بخس، زاعما إنه يساعده كما ساعده تركه يعيش فيه، فسبق الوصع
كما هو غير أنه لن يدفع إيجارا، وإن يطالبهم بأجرة.

ولكن ما أن امتلك صك البيت في يده حتى طردهم شر طردة! وانتصر على
أبناء الرجل. الذي حقد عليه وظفر بيوتهم. وفرق شملهم!

ولكن الأيام مرت على الزوجة المظلومة. إذ رآها أمير المدينة ذات يوم، فوقع
في حبها، فتروجها، فكان مهرها رأس الخبيث!

* * *

(3-65)

حكاية العجوز المسنجيرة

قال الشيخ وهدان:

"ولما سمعت الحكاية من هذا السيد، قلت له:

"يا سيدي، كان هذا خبيثاً، يستغل نقائص الطمع والفضول والمقامرة، ولا أظن كريماً مثلك يوجد به نقائص تقتل غير أعدائه! إنما أنا عجوز مستجير بكم، فأجبروني، ولا تكونوا كمن خزل العجوز المسنجيرة في وادي اللصوص.

أما سمعت بحكايتها؟

كان هناك وادٍ، يعيش فيه لصوص الصحراء، فيه يختبلون، وله أسراهم يسوقون، وفيه كنوزهم يدفنون.

وذات يوم، ساءوا أمامهم قافلة من العبيد للوادي، يوزعونها بينهم. وإذا اقتصوا البنات والشباب، وجدوا بين الأسرى امرأة عجوز، انحلى ظهرها، فآلقوها خرج الوادي، ليتركوها للذئاب تأكلها، أو العطش يفليها.

لم تكن العجوز قادرة على أن تسير في الصحراء هاربة، وأخذت تستعطف اللصوص، فأذوها فلم تملك إلا أن تطوف حول الوادي، تحاول أن تختلس جيفة تأكلها، أو شربة تسقيها.

ولذات يوم، أتت جماعة من الفرسان المغامرين، فأغاروا على وادي اللصوص، فقتلوا منهم من قتلوا، ثم أخذوا ما استطاعوا من كنوزهم غنيمة. فأسرعت لهم العجوز مستجيرة، تطلب منهم الفوٲ، فقالوا لأنفسهم:

"وماذا كانت تفعل تلك العجوز بين اللصوص، وما شأننا وشأنها؟"

فردوها ردا غير جميل، ثم رحلوا عالدين.

ولم يقطعوا مسافة طويلة، إلا وأمسكهم جنود الملك، يظنونهم لصوص الصحراء، فقبضوا عليهم، ثم هجم الجند على الوادي لا يبحثون إلا عن عجوز مستجيرة، فلما وجدوها قالوا لها:

"ادعي الله لمولانا الملك، فقد مرض مرضا شديدا، فاستجار بالله فاتاه حلم رهيب، به نار وجحيم أسود، وهاتف يهتف به (كيف يجيرك الله، وتلك العجوز تستجير في وادي اللصوص، فلا يسمعها أحد؟) فأدرك الملك أنه هالك، ما لم ينقذك."

وهنا نظر لها الفرسان المغامرون مستعطفين، واستحلفوها أن تشفع لهم عند الملك، فقالت:

"وما شأني وشأنكم؟"

فساقوهم للموت، لا يجدون مجيرا!

* * *

(4-65)

حكاية زندي وشاهر

قال هذا السيد للشيخ وهدان:

"أما وقد سمعت مقولتك، فإني لأكره أن أكون مجيرا لمستجير غادر، كما أجار الزندي شاهر!

أما سمعت بحكايته؟

يحكى أنه كان زندي فارسا هماما، عطوفا على الناس، إن مضى في طريق، أقام فيه العدل، وأعات الملهوف، وذات يوم سمع استغاثة لصبي صغير، فاندفع لنجدته، فوجد رجلا يمسكون السيوف، ينفون قتل الصبي، فردهم بسيفه، وقتلهم، وكان سيفه بتارا لا يقهر، ربحه من حرب مع وحش، نصف جني ونصف إنسان، كان برعد اللاس في الطرقات، حتى هزمه وانفذ زندي الصبي شاهر، غآجاره، وحعله يقيم عنده، حتى يستعيد قوته، ولما أفاق الصبي من غيبوبته، اطمأن زندي واراد أن ينهض ويكمل رحلته، لكنه وجد الفتى الملعون ينقض على عنقه، وينهشه بأسنانه، فشاهر لم يكن إلا ابر عول من غيلان الجن، أكل بعض الصبية، مطاردة أهلهم يريدون الثأر، ولما انقذه ردي دون ان يتبين حقيقة الأمر ترك الفول يستعيد عافيته، ليأكل فنقذه.

* * *

(5-65)

الفوٲ

قال الشيخ وهدان:

"سمعت حكاية زندي وشاهر. فرددت عليها بحكاية البحار سامر. ليرد علي هذا الامير بحكاية واخرى. فاردته باخرى!

واخذت ابارر هذا السيد. حكاية بحكاية. حتى اتت الظهيرة. وجرها يؤلمنا. فقلت

"تبدو متعبا يا مولاي. فهلا اكملنا حديثنا في قصرك؟"

قال لي:

"وما ادراك ان لي قصرًا؟"

قلت:

"الما عيني كيلة. لكنها تعي انك سيد بين قنبل بني الطارق."

ولمحت في عيون رجاله نظرة استخفاف. فادركت الحقيقة. فاكلت مسرعا:

"حتى لاكاد اظنك اميرا عظيما بينهم."

قال لي مبتسما:

"اعجبتني مراستك. كما اهتمتني حكاياتك. انا حرب بن سلام. ملك بني الطارق

وصاحب العامرة وسيد مملكة بارق. ممن انت؟"

قلت له:

جروب "ربيع الكتب"

fb.com/groups/exchange.book

"لا يعرفونني خارج بلدتي، لكنهم يدعونني بالشيخ وهدان."

قال لي:

"ظننتك هوا الصوفي العالم الجليل! ما هو شهير عندكم نعرفه عندنا. فالتجار تتناقل الأنباء، ونباك مع ملكك الجديد، نصره الله، فوق كل نبا!"

قلت:

"لم أعلم أن جلالتم تهتمون بما يحدث في بلادنا بمثل هذا العطف."

قال:

"أتم إخوتنا في الإسلام، واقتراب الأهبال والفرلجة من حدودنا أمر غير محمود، لا يفغل عنه الملوك. غير ما بين بلادنا وبلادكم من تجارة بارت، بعد أن سطا الله بعضكم على بعض."

قال أحد رجاله:

"يا مولانا الشيخ وهدان، لم نأت لهذه الواحة البعيدة إلا لتسمع أخبار بلادكم، فقد علمنا بأن موقعة عظيمة جرت، أو ستجري عند الثفر الكبير."

قلت:

"فالحمد لله من قبل ومن بعد. قد هزمتنا الفرنجة، لكنهم سيعودون، فالأسود أتى لنا بجيش لا أول له ولا آخر. فأردنا نصرتم لنا."

قال حرب بن سلام:

"ما شأننا والأسود؟ إنما نخشى الفرنجة والأهبال على حدودنا فحسب."

قلت:

"لكن الأسود وعدهم بالثفر الكبير."

ضحك وقال:

"حتى الأسود لن يفرط في ثفوره كلها بهذه البساطة."

قلت:

"أظننت انه لو لم يدعهم لشيء في الغرب، كانوا سيزحفون معه؟ لم يحارب الفرنجة والأهبال معه بعد أن قبضوا الثمن من ثغورنا الشرقية كاملا؟"

فاقتنع ملك بني الطارق فورا! لم أتصور أن أحقق هذا النجاح أبدا، وبهذه السهولة، لكنهما الأقدار ساقطتي إلى حيث مضربه. لأقنع رأس البلاد فورا دون جهد، فإذا به يعد العدة. ويطلب الجند على وجه السرعة للسير شرقا.

* * *

(66)

حكاية وادي المونث

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"اتم الشيخ وهدان حكابته. واسرع ليقدم لنا ملك بني الطارق. الحرب بن سلام. وقد اتى على راس ستير الفا من حنوده وعشائره. ومعهم جموع ممن هاجروا عن بلادنا. يريدون العودة لها عودة ظافرين.

كان متعجبا لها حقاها من نصر على الأسود. بجموعنا القليلة. واخذ يقول للشيخ وهدان مارحا:

"جلبتنا من بلادنا بلا طائل. اكان يجب ان تتلكأ حتى تنتهي الحرب!"

لكسا كنا يدرك. كما قال ولي العهد انها تاخر الأسود. وانسحب مقهورا. لأنه عرف ان وجود هذا الجيش صده يعني هزيمته.

وقد حصر عي وادي الصباغ مصرا مهددا. لو بقينا حيث نحن. فلن نحكم تير خارج الغرب ولو رحما بلعاصمة. فسينقض على ظهورنا! كنا مصطرين لتقبل التحدي الصعب والسبر في وادي الضياغ الرهيب لملاقاته!

اعدنا للرحلة والزحف. وجمعنا كل ما استطعناه من جند. واستعنا بأحر الادلاء. واعرفهم بالنجوم والرياح. فخطر الضياغ في الوادي العن من خطر حرب الأسود

سرا ببطء شديد تسبقنا دوما طلائع. تتقدم نمساة قصيرة طالما هي امام عيوننا ظاهرة! فاذا ما بدأت تختفي عن الاطار توفقت وغرست في الارض

جروب " ربيع الكتب " .

علامة، وبيارق، ونار موقدة تبقى جماعة من الجند حريصة عليها. حتى إذا ما وصلنا لها أطلقنا جماعة أخرى، تفعل مثلما فعلت، لتتقدم تاركين خلفنا طريقا مضيئا!

كان الخوف مازال كامنا من عاصفة رملية تذهب، بكل ما صنعنا لكن الأدلاء يؤكدون أن عواصف الصحراء ساكنة هذه الأيام، وأنها ستال من الأسود بأشد منا، لكن الأسود يعرف طريقه في هذا الوادي (اللّه أعلم كيف) بينما نحن لا نعرف!

لم تتوغل كثيرا في هذا الوادي الرهيب، ولم تتعرض للكثير من أخطاره، وانتهيار الرمال علينا، وقرصات الثعابين والعقارب.

لأننا عثرنا سريعا على معسكر الأسود!

معسكر ضخم يمتد على مرمى البصر.

به جيش أضخم من جيشنا كامل العدد والعدة.

من الموتى!

ثمانون ألف فارس وهاجن بخيولهم وإبلهم موتى!

كانما نزلت صاعقة من السماء، أهلكتهم عن آخرهم، فأخذتهم في لحظة واحدة!

دب الفرع في قلوبنا، وأخذ الجنود يرددون في رهبة:

"وادي الموت! وادي الموت! لنخرج منه الآن!"

لكننا بقينا مصرين على البحث عن حي واحد بين أكوام الجثث،

أو على الأقل على جثة الأسود الملعون!

لم نعثر إلا على الأمير المملوكي الشجاع، كأيدهم ابن بارم ديله.

الأسير المسكين، كان محموما هالكا من الجوع والعطش، ولا بد أن الأساودة ظنوه مات، فلقوه خارج معسكرهم، قبل أن تحل بهم لعنة الوادي، حاولنا سقايتّه الماء، فرفض حتى أجبرناه بالقوة.

تشاورنا ماذا نفعل. كانت الرهبة تملأ قلوبنا، فبدت فكرة إرسال الجنود للبحث عن القائد الأسود سخيفة، غير مجدية، مع ما دب في قلوب جنودنا من رهبة، خاصة إنه حينما استنطق بعضنا كأيدهم ابن بارم ديلا، لم يقل إلا كلمة واحدة مفزعة.

"الأسود قتل كل هؤلاء وحده!"

أشعل هذا رعبا ما بعده رعب من القائد الأسود في قلوب رجالنا. يبدو أنه، رغم كل شيء، متحالف بالفعل مع الشياطين، حتى يقهر وحده ثمانين ألفا من الفرسان! فانسحبنا عالدين لمدينة ساوة، تاركين الوادي الملعون خالسا له! على أي حال قد اتصرتنا، وانتهى أمر الملك، لا يضرنا ولا ينقصنا غياب سلطتنا عن هذا الوادي الملعون.

زعم البعض إن الهزيمة أهلكت الأسود، فأصبح شبعا متقما ناقما على رجاله، وأنه بعدما أنقذهم من الهلاك في المعركة، انقلب عليهم وأهلكهم عن آخرهم.

وزعم البعض إنما شياطين الوادي آتته، وعرضت عليه - لما رآته فيه من قوة وجبروت - أن يصبح ملكا عليها، على أن يفعل من الشر فعلا بلا مثيل، فقتل كل رجاله، ليصبح ملكا مخلدا في لعنات هذا الوادي! لكنه أصبح بلا سلوك، ولا ترف مما اعتاده في حياته البشرية، فأصبحت تسليته الوحيدة هي أن يخذع من يقوده سوء حظه للوادي، فيتسلى بالقاذه من الضياع، حتى إذا شم رائحة النجاة قتله!

على أي حال، فليهنأ بمملكته، لا نريد منها شيئا!"

(67)

الخانمة

يقول عبد الشهيد ابن سمعان، آخر الفيلان:

”زحفنا ملتصقين إلى الحاضرة، فاستسلم لنا من بقى فيها من عمال الأسود، وهرعوا لمبايعة الملك. واتبعهم جند الأسود وأعداؤه في كل البلاد، حتى البقايا القليلة التي تبقت من بني الأسود، وقد كادوا أن يبادوا في هذه الحرب. دخلنا في معركة مريرة ضد الفرنجة في الزرقاء، حتى طردناهم بعد ثمن باهظ من الدماء، اشتعل قتال، ونزاع بين خانات الأهبال في الثغر الصغير، فباغتتهم جيوشنا، فحطمناهم. وقد أبلى بقية بني الأسود في تلك المعركة بلاءً حسناً، تكفيرا عن ذنوبهم في العهد الذي انقضى.

كانت لا تزال أمامنا معارك عنيفة، لطرد بقية الأهبال والفرنجة. وإتمام السيطرة على البلاد بقبضة عادلة قوية، لكنني أدركت أن دوري قد انتهى، فالיום الملك تنصره جيوش كبيرة منظمة، ويتحالف مع ملك بني الطارق، وقد اجتمعت الناس على كلمته بالرضا، كما لم تجتمع من قبل.

ولذا، كان يجب أن ينتهي أمر الفيلان الحمر، فأمرت رجال الغاربة بخلع الدروع الحمراء، وتدميرها وأعلنت لكل الناس نهاية الفيلان الحمر برضاهم، لأنه يجب ألا ترتفع راية أخرى سوى راية الملك، مادام قد تملك!

وذهبت لتيمور في الحاضرة، لأول مرة أدخلها، بعد أن خرجت منها مع أبي لنجيب دعوة الوريث الكاذب. فوجدت تيمور يرتدي تاجا من الذهب والفضة، فتقدمت منه، وخلمته عنه، وقلت:

"ما هذا يا مولاي؟"

قال:

"أهدته لي الخاتون، علامة الملك، وشعار الأسرة المالكة القديم."

قلت له:

"إذا فانت تريد أن تنتهي مقتولا مثلهم! ثبت ملكك بأن تطعم بثمنه الناس!
وإياك أن تستمع لبطالة السوء أبدا."

بدا على وجهه الخجل، وقال:

"الحمد لله الذي أكرمني بك إلى جوارِي."

قلت له:

"لن أبقى لجوارِك، فقد خلعت زي الفيلان، وإني راحل لبلدتي!"

نظر لي مبهورًا، وقال:

"اتفادرنِي وأنا بحاجة إليك؟"

قلت:

"ياذن الله ما عادت لك بي حاجة! ياذن الله ستتصر على الأهبال والفرنجة
والأعراب، وستعيد مجد البلاد القديم، وتؤمن ما حولها من تخوم وطرقات.
فبفضل الله، قد فقد الفرنجة أعدادا ضخمة، وسفنا كثيرة، ودب الشقاق
والرعب في قلوب الأهبال، فسينصرك الله عليهم."

قال:

"أحتاج لشجاعتك وفطنتك أيها القبيل على جوارِي. حسنا، أعلم أنك لست
بالقبيل، فقد أخبرتني بحكايتك الفريية، رغم إنني لا أكاد أصدقها، لكنك كنت
خير معين، وستكون خير وزير."

قلت له:

"يجب أن أرحل الآن يا مولاي، فموسم الزراعة قارب على الانتهاء، وستصاب
البلاد بالمجاعة لو لم ندرك بعضه. كما قلت سابقا لك - لو تذكر - حرب الأسود
تنتهي، لكن حرب الجوع لا تنتهي! لقد قارب نصرك على الاكتمال، بفضل جند

جروب "ربيع الكتب" .

فلاحين. ولها أصبع لديك ما يكفي من الجند المحترفين، فعليك بترك البعض للزراعة الأرض حتى لا تبور. صدقني فانت الآن في حاجة لضربات الفؤوس. أكبر من حاجتك لطعنات السيوف."

هنا لمعت عيناه بالدموع، وقال:

"أبعد كل هذا لتركني؟ أبعد الرحلة الطويلة، والرفقة المريرة يا قبيل، أو يا عبد الشهيد؟ أنت خير الرفاق، فاثبت معي في أيام البلاط."

قلت مبتسما:

"هي حرب أكبر من طاقتي تلك التي في البلاط! لو بقيت، فلن يرضى ملكك بي! اليوم يا مولاي يجب أن لرحل، وأنا واثق في عدلك وفطنتك، ولن مملكتك لن تبني على الجور. مثل من هلكوا قبلك، وأهلكوا! أنك ستبعب نصيحة عمر ابن عبد العزيز أن حصنها بالعدل. لو بقيت، فسلازوق من المشاحنات، والمنافسات، وأجواء القصور ما لا أرضاه لنفسي من عنت، قد يضلني، فأضلك معي! وإياها لنصيحة ثمينة، أن تبعد بنفسك عنها."

نظر لي صامتا لحظات كالدهور، ثم قال:

"أعلم أنك عنيد، ولن أغير رأيك حتى تتال ما تريد، لو لم تكن كذلك، لما كنت لنا ملكا الآن، لن أكرهك على البقاء كما فعل الأسود بأهل العاصمة، فكانوا سبب هزيمته. لكن على الأقل لدي لك هدية، فاقبلها."

قلت قلقا:

"وما هي؟"

قال:

"مثلك لا يتزوج إلا أميرة! وكنت أبغي لك خير النسب."

قلت مصرا:

"أرامل قريتي ويتماها أولى بي من أميرات طرابلس. خذل والدي أهل القرية، ولن أخذلها بعدما ضحت بما استطاعت في حربنا."

قال مرتبكا:

"ليست أميرة من طرايل، وإنما من الحاضرة! امرأة لم تعرف لنفسها من الرجال كفلا سواك. الخاتون المرصفة حدثني لأخطبك لها، أو أخطبها لك. ايهما أصح!"

أه! الفكرة القديمة وقلق نساء القصر من الخاتون! لن أسقط نفسي في هذا الفخ مرة أخرى. يكفيني ما لاني منه المرة السابقة!
قلت مفزوعا:

"واين أنا من الخاتون؟ دعلي لأرا مل قرיתי يا مولاي. ألي لي بملاطحة ذكاءها، ومكرها، وثروتها؟ الحمد لله إني عائد لقرיתי، مبتعدا عن أثر فتنها. والله لم يغلبني أحد بأمر مما غلبتني هي!"
قال وعلى شفتيه ابتسامة حزينة:

"والله لم أكن لأقبل بهذا الأمر، لولا أنك عائد إلى قريتك. تعلم أن بقاء الخاتون هنا، قرب قصر الملك، يثير قلقا في القصر. وغيره النساء وكيدهن لهما خطر على أي ملك! لرغب في غول أحمر ينقذني بشجاعته من هذا الخوف! ويأخذها معه لقريته! وقد قالت لي إنها لن تمنع في هذا."

لا أنكر، رغم رهبتي من الخاتون، أن في القلب ميلا لها، ومثلها يميل القلب إلا من عصم ربك. لا يفتني جمالها قدر ما يفتني إخلاصها ومثابرتها وفطنتها.. لكني ما زلت أخشاها كثيرا.

وهنا أتاني من خلفي صوتها العذب، لالها، كأنما قرأ أفكاري،

"أحقا أنا مفزعة لهذه الدرجة؟ يزعمون إن الفول الأحمر هو المفزع!"

من أين تأتي تلك العراة دوما في الوقت المناسب، عالمة بحقائق الأمور! نظرت لها مرتبكا، وقد تدفق الدم لوجهي. لقد شهدت الموت، وذقت الحرب، وقابلت الطعن، فلم أرتبك مثلما أرتبكت أمامها!

قلت لها معاندا:

"لا أصلح لك يا سيدتي. قد علمت بحقيقة أمري، ولعله الأمر الوحيد الذي خدعك أحدهم فيه، فما أنا بفول أحمر، وإنما فلاح بسيط فقير، تمزق جسده بطعنات السيوف."

قالت:

"وما أدراك أتي أبغي مالا، فلدي منه الكثير، أو جاهها، فهو لا ينقصني؟ أنت من أتم ثاري، وأثبت شهامتك، والحياة في قرينك عندي أفضل من القصور مع غيرك. أنت تملك من الشهامة ما افتقدته حينما كنت أسيرة مغلوبة، مطرودة، مطاردة من هذه المدينة التي نقف فيها الآن! أبعده أن باعني أبي للأسود مقابل رأس خصمه، وترك إخوتي الكبار حمايتي جريا وراء الكنوز، وباع شقيقي الأصفر دم أبي وشرفي نفاقا للمفوار الأسود. أبعده كل هذه المعادن الخسيسة، التي أظهرها أقرب الرجال لي ترك في نفسي طمعا لها؟"

في الحقيقة كنت لأراها تطمع. فقد شئت على الجاه والسلطان. وأصرت على استعادتهما. حينما سلبا منها! ولكن قلبي رق عن أن يغلظ لها الرد المكذب. فقلت:

"يا ذات النسب الشريف عن أمك، وسليمة الأمراء والقادة عن أهلك، والعال عن زوجك الشهبندر، والخبرة عن لطمات الحياة! أتي لصبي غريب فقير مثلي شوهته السيوف، بأن ينظر إليك؟"

قالت:

"هي أوسمة الجهاد على صدرك، فيها شرفت!"

كان زواجي بها مصلحة للملك . كما اظن . وحتما سعدت الشهائية وابتتها له وتطلبه الخاتون بنفسها، لا ادري لم؟ ربما تظن بالمعل أنني شخص يليق بمقامها السامي. لما اجراه الله بهضه على يدي؟ او لاني اخذت ثار ايها كما تقول؟

لكن ما كان بيننا أشد من أن تجاوره مشهد السبع علاب رحمه الله شهيدا في سبيل القرية، وحدثه لي عن أتنا سجو بان يعين بعضنا بعضا. لذا قلت:

"لو اتبعن الهوى لتبعتك، ولو اتبع الناس الهوى هسدت الأرض! في قريني يتامى ولامل أولى بي، والملك حير من يعرف ان هناك امورا أوجب من الحب، عليه أن يفسح لها الطريق. حتى لو صرخ من الألم."

شجبت ابتسامة الملك، متذكرا ما كان من شأن حبه، بينما اكملت أنا:

جروب " ربيع الكتب "

fb.com/groups/exchange.book

"لذا، فرغما عما تحبه نفسي وتَمناه. أرجع لبلدتي، أتولى من أمر أهلها يا مولاتي الخاتون، فاعذريني."

لجهد وجه الخاتون، وقالت للملك:

"ربما أتبعه فيما بعد مطاردة، وربما لا أعفر له ردي عنه! لكن الآن يا مولاي الذن لي بالمفادرة."

وانحنت، واتجهت مفادرة، فنادها الملك تيمور قائلا:

"أيتها الخاتون!"

التفتت له وهي تقول:

"أمر مولاي؟"

قال:

"لا تنحني، ولا ينحني أحد في مجلسي أبدا. فالإنحاء لا يكون إلا لله. خذي تاجك هذا، فأطعمي به الفقراء، أثبت لملكي منه."

قالت:

"لعل الفول الأحمر يعرف من فقراء ساوة خيرا مني، فقد اغتربت عن البلد طويلا!"

وتركتنا مفادرة، ونظرت للملك مودعا، ثم تبعتها لخارج القصر، فقلت لها:

"الله يشهد كم أحترمك، وأكن لك يا خاتون، ولكن....."

فأطعتني بقولها:

"هي أمور أوجب، لا بأس يا غول، ارحل الآن عني. لا تأمن نقمتي!"

يقول عبد الشهيد ابن سمعان:

"وهكذا عدت إلى قريتي، أحاول أن أصلح فيها ما أحرقتة الحروب، واستفرقتني فصول الزرع المتابعة، كما استفرقت أحوال الملك المتقلبة مليكي".

(68)

واختم الراوي

أنهى سائقنا الأسمر حكايته الخرافية الطويلة. عند الفجر تقريبا، واختتمها لأبناء لهياء، الذين سرحت عقولهم في الشياطين والجن المنتقم قائلا:

" وهكذا يا أطفالي أحرق عبد الشهيد ابن سمعان، بفضل رمح الفولي، درع الأسود السحري، فكسر لعنته، وهزم شره، وحبسه للأبد منبوذا مهزوما في هذا الوادي، ودخل مع الملك تيمور الشجاع العاصفة، فحررها، وحكمها بعدله زمنا طويلا مجيدا. وظل هو وملك بني الطارق متحالفين، يحاربان الفرنجة والأهبال، حتى أزاحا خطرهما عن البلاد. أما عبد الشهيد فقد أصبح وزيره، وتزوج من الحسنة الخاتون المرصفة. وعاشا معا في قصر كبير في العاصفة، يجاورهما الفول الأحمر الحقيقي، ابن العبدلي، وأنجبا بنينا وبنات، وعاشا في سعادة وهناء، حتى فرق بينهما الموت بعد عمر طويل سعيد."

وأخيرا ظهرت لنا أضواء بعيدة. فرع الأطفال في البداية، يظنونها نار الأسود السحرية، التي ذكرها في الحكاية، لكنها كانت أضواء العربات المسرعة على الطريق الرئيسي!

لقد نجونا أخيرا! تبا لهذا الدليل الذي أضعنا! لو كنت أصدق الأساطير، لظننت أنه شبح القائد الأسود هذا!

على أي حال، جلسنا على جانب الطريق، ننتظر العربة الرحيمة القادمة، لتقلنا إلى وجهتنا.

(69)

الفصل الأخير

عظم البذل وحماقته

يقول القائد الأسود المغوار بن الحازم الأساودي:

عظم المطالب يأتي بعظم البذل. أدركت حلول الهزيمة، وان الأمر لن يخلص لي. لكنني عرفت أنه مادام حندي وبني الأسود حافظين لشوكتهم، فلن يخلص الأمر لقيمور السواتي هذا أبدا. فكان علي أن أبذل جيشي النفيس ثمنا لوحدة الوطن!

عن الكاتب

محمد أحمد الدواخلي، من مواليد 1981 تخرج من كلية الصيدلة جامعة القاهرة عام 2003.

عضو في جماعة التكية الأدبية، ومحرر سابق في مجلة تحت الكوبري الإلكترونية

فاز بجائزة سند راشد لعام 2008 للمركز الأول في مسابقة قصة الخيال العلمي بتحكيم د. نبيل فاروق.

صدر له:

القصة القصيرة:

- شارك في مجموعة "اعذريني ومخاوف أخرى" عن دار اكتب. مع عدد من كتاب الرعب الشباب.

- شارك في عدد من إصدارات التكية الجماعية (حتى القهوة أصابها البرود- فار في المصيدة)

كوميكس: "بيت التائهين" رواية مصورة بالتعاون مع فريق عمل الجنوبي للنشر.

الترجمة: "طلّة على بلاد برة" (مختارات من الأدب العالمي).

